مكتبة الأسرة
1999

مهرجان القراءة للجميع

الأعمال الفكرية

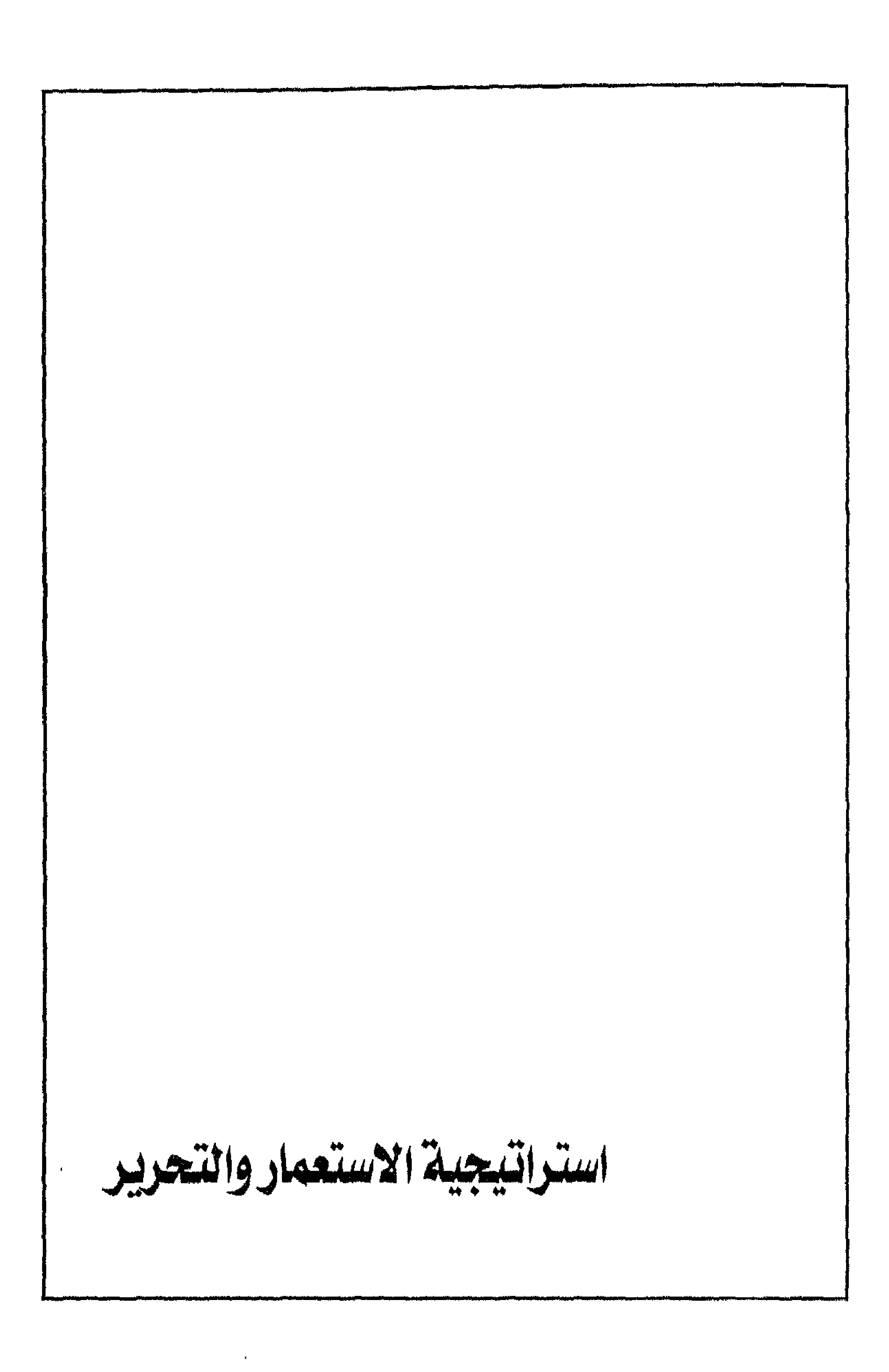
د. جمال حمدان

استراتيجية الأستعمار والتحرير



لوحة للفنان: حلمى التونى

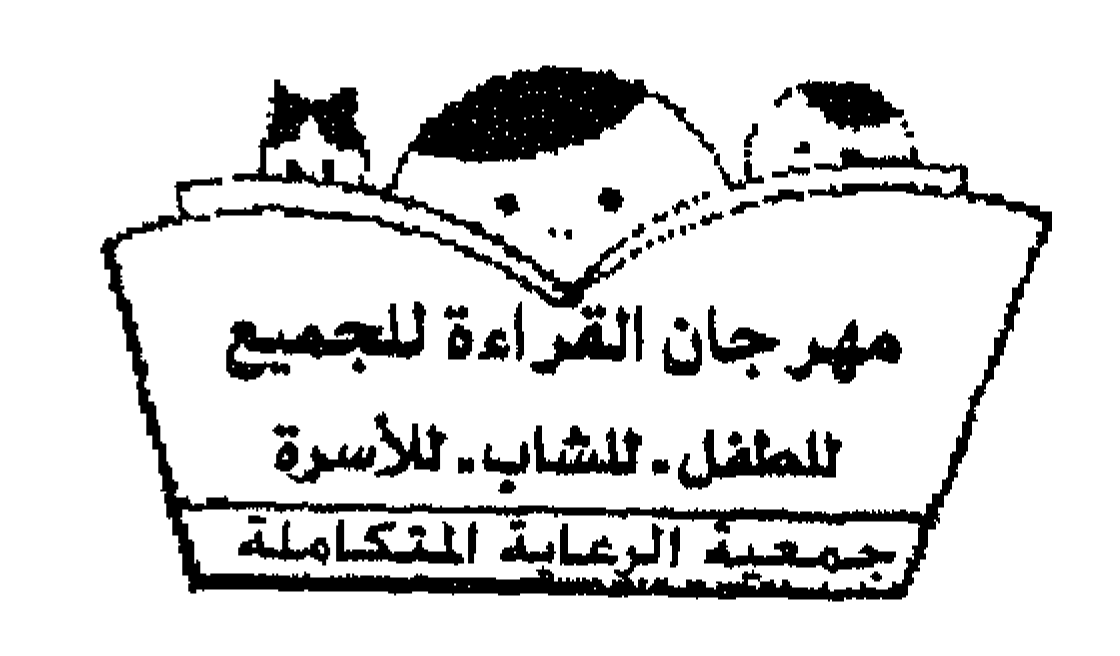




استراتيجية الاستعمار والتحرير

استراتيجية
الاستعمار والتحرير

د. جمال حمـــدان



مهرجان القراءة للجميع ٩٩

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الفكرية)

استراتيجية الاستعمار والتحرير

د. جمال حمدان

الجهات المشاركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة التنمية الريفية
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ : هيئة الكتاب

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان: محمود الهندى
المشرف العام:
د. سمير سرحان

على سبيل التقديم

وتمضى قافلة «مكتبة الأسرة» طموحة منتصرة كل عام، وها هى تصدر لعامها السادس على التوالى برعاية كريمة من السيدة سوزان مبارك تحمل دائمًا كل ما يثرى الفكر والوجدان ... عام جديد ودورة جديدة واستمرار لإصدار روائع أعمال المعرفة الإنسانية العربية والعالمية فى تسع سلاسل فكرية وعلمية وإبداعية ودينية ومكتبة خاصة بالشباب. تطبع فى ملايين النسخ الذى يتلهفها شبابنا صباح كل يوم .. ومشروع جيل تقوده السيدة العظيمة سوزان مبارك التى تعمل ليل نهار من أجل مصر الأجمل والأروع والأعظم.

د. سمير سرحان

مقدمة

الصراع الذى يعيشه عالم اليوم ، هذا الذى يتمزق بين كتل العقائديات المتناقضة وقوى التحرير الفوارة وورواجع الماضى المتربصة ، ما نمطه الاقليمى ــ ان كان ثمة نمط ــ وما أصوله التاريخية ؟ وهــــذه التطورات العميقة التى يشهدها توزيع القوى والاوزان السياسية بين الـــدول والكتل والقارات ، وهذه الانقلابات الكاملة فى الاستراتيجية الكوكبية فى ظل العصر الذرى ، هل هى تحـــولات أو تحويرات للماضى بدرجة ما أم هى طفرات بكر تماما فى تاريخ البشرية ؟ الى أين يتجـــه نمط توزيع القـــوى السياسية والاستراتيجية فى مستقبل ســـيخلو من الامبراطورية واحتكار القوة والعلم وقد تنتشر فيه الاسلحة الذرية انتشار الحضـــارة والتكنولوجيا الحديثة ذاتها ؟ وما احتمالات المستقبل بالنســـبة لسياســـة وليدة كعدم الانحياز ولقوة جديدة كالعالم الثالث ؟

قد لا يكون من الصعب أن نرى نمط القوة العالميـــة المعاصر يتنضد ــ قاعديا ــ فى هيكل ثلاثى يبدأ من كتلة قديمة غربية راسمالية استعمارية ، ليمر بكتلة أحـــدث شرقية اشتراكية تقدمية ، حتى ينتهى بقـــوة ــ وليس بكتلة ــ أشد حداثة وأميل الى الاشتراكية بقدر أو بآخر ولكنها تمتاز اساسا بانها متخلفة اقتصـــاديا ، حديثة

الاستقلال والتحرر سياسيا . ولكن الم تكن الصورة تقتصر ، حتى الحرب العالمية الثانية فقط ، على قطبى القوتين الاولیین وحدهما ؟ بل أليست قوة المعسكر الشرقى ذاتها ، بالقياس الى القوة الغربية المخضرمة ، طارئا حديثا نسبيا لا يتعدى الحرب العالمية الاولى بصرامة ؟

النمط اذن حديث ، أو هكذا يبدو على السطح ، وهو على كل حال متطور سريع التغير . ولكن - تحت الجلد - هل هو منفصل حقا عما سبقه من تاريخ ؟ ان الذى يستقرىء مراحل التاريخ السياسى والاستراتيجى المتعاقبة يجبهه - وهو جدير ايضا بان يروعه - دائما أو غالبا نمط ثلاثى متواتر لصراع القوى قد يختلف عن النمط المعاصر فى التفاصيل والظلال والابعاد ، ولكن لعله لا يختلف عنه كثيرا فى اساسياته وجوهره . واذا كان لنا أن نستبق نتائج مثل هذه الدراسة ، فحسبنا أن نشير هنا الى نظرية مفكر جغرافى كبير مثل ماكيندر ، فقد اختزل تاريخ الصراع الاستراتيجى فى العالم فى أنه فى جوهره صراع بين قوة البر وقوة البحر يترك بينهما قوة بينية برمائية فى المنزلة بين المنزلتين - ثلاثية استراتيجية اخرى تستبق ثلاثية اليوم وان لم تكررها تماما بالطبع !

ومثل هذا عن الاستعمار يقال . فالاستعمار - هذا الذى يبدو بمامة حديث العهد ويرتبط لامر ما فى الكتابات الدارجة بالقرن التاسع عشر بوجه خاص - هو الاخر ظاهرة قديمة لها اصول تاريخية بعيدة بدرجة أو باخرى .. فالاستعمار الحديث الذى يحتضر اليوم انما استوى على سوقه فى القرن التاسع عشر فقط ، اما جذوره فتضرب فى اعماق عصر الكشوف الجغرافية منذ القرن السادس

عشر وما بعده ، بل لعلك واجد بذوره الاولى قبل ذلك جميعا • وانت لن تستطيع أن تفهم نمو الاستعمار العالمي ولا تطور صراع القوى الـــدولية اذا قصرت بؤرتك على المنظور المعاصر ، أكثر مما يمكنك أن ترى ناطحة ســحاب اذا نظرت اليها من سطحها

والذى نود ان نؤكده بهذا هو اهمية البعد التاريخى مدخلا الى اية دراسة علمية جادة وعميقة لواقعنا السياسى والاستراتيجى المعاصر • وبغير هذا تبدو الحقائق مقتلعة، والتعميمات ــ ربما ــ مبتسرة مفتعلة ، وتخرج الصورة كلها ولها مسطح ولكن ليس لها عمق • ولهذا فنحن بحاجة حقيقية وملحة الى دراسة كاملة متكاملة ، اصولية منظمة ، لتاريخ الاستعمار فى العالم من ناحية ، ولتاريخ الصراع الاستراتيجى من ناحية اخرى • وبغير هذا فلن نخـــرج بقوانين علمية أو اشباه قوانين ولن نختزل التـــاريخ فى معادلات اقليمية موجزة مركزة ذات مغزى مثلما هى خفيفة الحمل فى الذهن

والحقيقة ان التاريخ هو معمل الجغرافى كما قيل ، وهو كذلك مخزن الاستراتيجى الذى لا ينضب ، وكـــل منهما يستمد منه خامته ويجرى عليها تجاربه • وبالنسبة للجغرافى بالذات ، فان التاريخ اذا كرر نفسه ــ وهو قد يفعل ــ فهذا التكرار هو الجغرافيا : أعنى أن الجغرافيا بهذا هى الجذر الجبرى للتاريخ ، وعملية استقطاب له وتركيز • أكثر من هذا ، ليس التاريخ كما عبر البعض الا جغرافية متحركة ، بينما أن الجغرافيا تاريخ توقف ، وهما معا أشبه شىء بقرص الطيف : اذا سكن على عجلته تعددت ألوانه فان هو دار وتحرك استحال لونا جديدا واحدا

وعلى هذا الاساس يقوم البحث الحالى • فهو دراسة فى الجغرافيا السياسية بجانبيها التاريخى والمعاصر ، تحاول أن تتبع مورفولوجية التاريخ داخل اطار أو أطر واضحة التحديد من مورفولوجية الجغرافيا ، وتسعى الى أن تصب حركة التاريخ وتنقلها فى خطوط اقليمية غير باهتة أو متميعة على الاقل • وعلى ذلك فالدراسة تتتبع أولا حركات بناء الامبراطوريات والتوسع الاستعمارى عبر العصور ، عصرا بعد عصر ، محللين دوافعها ومحركاتها ، انماطها الجغرافية وصراعات القوى فيها أو من حولها ، نقاط قوتها او ضعفها الاستراتيجى ، كما نحاول أن نستشف ونستنتج منها دروسها الجيوستراتيجية الأكثر خلودا وبقاء

كل اولئك دون أن نفرض على الحقيقة التاريخية الموضوعية الغفل ذاتها « نظرية عاملة » بعينها أو قانونا مبتسرا او شبه قانون • الى أن نصل الى الفترة المعاصرة، فبعدها يكون قد تجمعت لدينا من ناحية كل روافد التاريخ وتياراته ، وتراكمت دروسه وتواتر تكراره ، بحيث يتجسد منطقه تلقائيا ويمكننا أن نضع أيدينا على نبضه • ومن ناحية أخرى نكون فى حل علميا من أن نحاول اخضاع هذا الركام الضخم من الحقيقة التاريخية لنظرية أو أخرى تستقطبها أو تختزلها لتكون تلخيصا أو تقنينا للتاريخ أولا ومفتاحا للتنبؤ بالمستقبل ثانيا

وفى هذه الدراسة ينبغى لنا أن ننبه الى تداخل بعدين او عنصرين لا انفصام لهما فى الواقع ، وهما الاستعمار كحركة توسع وتسلط ، وصراع القوى الاستراتيجية كعملية بقاء أو تضخم • وليس كل صراع بين القوى هو من أجل الاستعمار ، ولكن كل استعمار هو صراع من أجل

القوة · بيد أنه يبقى فى النهاية أن كلا منهما يؤثر فى الآخر ويتأثر به ، ان لم يكونا فى الحقيقة جانبين لنفس الشيء .

ولقد يمكن ان نكتفى فى تتبع اصول الاستعمار الحديث بالبدء بعصر الكشوف الجغرافية ، ولكن لكى نفهم استراتيجية القوى العالمية لابد أن نوغل الى أبعد أعماق التاريخ لانه بالدور التاريخى الكامل وحده تبرز الشخصية الاستراتيجية الكامنة لأى اقليم · وهكذا تعود الدراسة الاصولية التاريخية الكاملة فتؤكد أهميتها وضرورتها وصولا الى كليات ودخائل الموقف السياسى المعاصر · وانها لرحلة طويلة شاقة بالتأكيد ، ولكنها شيقة طموح بنفس الدرجة ، وأكثر منها واعدة ومجزية الى أقصى حد

الفصل الأول

فى العصور القديمة

قد نعد الاستعمار قديما قدم الانسان · فمن الممكن أن ننظر الى التاريخ القديم على انه فصول متلاحقة او متداخلة من الهجرات والغزوات · ولكن مثل هذه كانت أقرب الى التحركات غير الهادفة ، بل البدائية أو « الغريزية » منها الى الحركات المقننة المخططة الواعية (١)· فقد كانت البشرية لا تزال فى حالة هلامية رجراجة ، او هى كانت غلافا زئبقيا بعيدا عن الاستقرار والتوطن والارتباط الوثيق المحدد بأرض محددة · ونحن أقرب الى الصواب اذا اعتبرناها أدخل فى عداد ما يسميه والتر باجهوت بفترة تكوين الاجناس Race-Making Period منها فى فترة تكوين الامم Nation-Making ومن ثم أقرب الى الانثروبولوجيا منها الى السياسة

ومع تطور المجتمع والحضارة وزيادة الارتباط الايكولوجى عضويا ومجتمعيا بين الجماعات والاقاليم ، ومع اطراد نمو الدولة كشكل سياسى ، تاخذ الحركات البشرية بالتدريج اتجاها أوضح نحو الاستعمار ، الاستعمار بمعنى سيطرة منظمة لجماعة على جماعة أخرى· ويمكننا عبر تلسكوب التاريخ أن نرى العالم القديم فى فجره المكتوب يتالف من سلاسل مرصعة كالموزايكو من

(١) G.H.T. Kimble, World's Open Spaces, Lond., 1947, pp. 9-10.

الصراعات المحلية الصغيرة او الضيقة فى مداها وحدودها الجغرافية ، واغلبها او اخطرها لا يخرج عن معادلة بعينها محددة هى « الصراع بين الرعاة والزراع »

وعادة ما تتشكل هذه المعادلة بشكل بيئتها الجغرافية فتاخذ لونا محليا خاصا · فهو اما الصراع بين « الرمل والطين » واما بين « الاستبس والغابة » أو بين « الجبل والسهل » · وقد تتداخل هذه الصراعات كلها او بعضها فى حالات أو تتعاقب فى حالات أخرى · وكلها فى النهاية صراع بين قوى بر وبر ، بين فلاحين ورعاة ـ بمعنى آخر صراع أشباه أكثر منه صراع أضداد

فأما معادلة الرمل والطين فهى تلخص عند برستد تاريخ الشرق القديم ، حيث نجد هجرات الرعاة وغزواتهم ـ ابتداء من الآراميين الى الكنعانيين والفلسطينيين والعبرانيين والفينيقيين ·· الخ ـ تتواتر خارجة من قلب الجزيرة العربية خاصة الى كل المناطق الزراعية المجاورة فى الهلال الخصيب ووادى النيل ، ومثلها الى حد كبير هجمات المور من الصحراء الكبرى الغربية على اقليم المغرب

اما معادلة الصراع بين السهل والجبل فهى بحكم طبيعتها محلية أساسا ، ولذا تنتشر فى تضاعيف العالم القديم كدوامات موضعية · وهى تختلف عن انماط الصراع الاخرى فى أنها رأسية لا افقية ، كما انها اكثرها قارية بطبيعتها · فنرى رعاة الجبال المحاربين يهبطون على السهول وينقضون عليها من حالق كالهيار الجليدى غزاة او مخربين : من جبال ارمينيا وكردستان الى سهول الرافدين التى هبط عليها من قبل الكاسيون Kassites فى الشمال والعيلاميون فى الجنوب ، ومن بعد الاشوريون الذين سيطروا عليها جميعا · كذلك من مرتفعات الاناضول توالى هجوم ونزول الميتانى والميديين والحيثيين على الهلال

الخصيب شرقا وغربا (١) . وفي أوربا من قلاع البلقان الى احواضها ، ومن كتلة الالب الى سهول البو ولومبارديا

أما الصراع بين الاستبس والغابه فلعله أبعد أنماط الصراع القديم مدى وتراميا ، ولو أنه لم يكن استعمارا بقدر ما كان تخريبا ولم ينشيء دولا أو امبراطوريات مثلما حطم دولا وامبراطوريات . فمنذ فجر التاريخ والاستبس الاسيوى العظيم يمثل ضد اعصار بشرى يلفظ بالموجات البشرية المتتابعة لتظهر كالطفح على طول القوس الهائل من الاراضى الزراعية الغنية التى تحف به شرقا وجنوبا وغربا

وتحت تأثير طرد البيئة الرعوية الفقيرة وما قد يعتريها من نوبات من الجفاف ، مع اغراء المناطق الغنية الرخية ، كانت جحافل الرعاة تخرج كالطوفان لتنتشر كالمروحة ، ومع الانتخاب الطبيعى القاسى الذى تفرضه البيئة وقسوة النمط البشرى الناتج ، وبفضل حركة الخيل الكاسحة ، كانت هذه الموجات تزحف آلاف الاميال لتهوى عاتية كالمطرقة على مناطق الاستقرار المحيطة

ورغم قلة عدد سكان الاستبس كثيرا بالنسبة لسكان النطاقات الزراعية ، فقد كان لرعاة الاستبس دائما التفوق العددى فى النقطة المحددة التى يختارونها لضرباتهم تلك . فاذا أضفنا الى هذا مرونة حركة الخيالة ، سواء بالحصان أو بالعربة وهى اختراع استبسى أصلا ، والتى تتمثل فى « الكر والفر » كتكتيك استبسى أصيل به يحدد وحده مكان وزمان المعركة ، أدركنا ميزة الاستبس على المزروع استراتيجيا (٢) . ومن هذا جميعا نفهم كيف أمكن

(١) James Fairgrieve, Geography & World Power, Lond., 1941, pp. 38 et seq.

(٢) Owen Lattimore, Inner Asian Frontiers, in New Compass of the World, N.Y., 1949, p. 279.

« لتراب الرعاة » المخلخل هذا كما يسميه برون (١) أن يسيطر ويتغلب على « الارســـــابات البشرية » الكثيفة المستقرة فى تضاعيف الغابة أو أودية الانهار

ولكن نقطة ضعف الاستبس الاصيلة والتى تصم دوره التاريخى بالعقم والسلبية فى النهاية هى أنه ـ بحـــكم حركته وســــيولته تلك بالذات ـ عجـــز عن أن يقيم امبراطوريات دائمة أو أن يستقر فى دول ثابتة راسخة . فقد كانت موجاته تأتى كالزوبعة ، وكالدوامة تختفى . فاما أن تعود وترتد بعد السلب والنهب ، واما أن تتلاشى وتذوى فى دويلات حاجزة على حدود المزروع ولحسابه ـ بوليس امبراطورى أو حرس حدود بمعنى آخر . ولهــذا فان مكان الاستبس فى الاستعمار أقرب شىء الى الاستعمار السلبى ، ودوره التاريخى أشبه بالنيازك والشـــهب بين النجوم : ضجيج وبريق رهيب سناه ، لا يلبث أن يستهلك نفسه ويحترق بنفسه

فاذا ما تتبعنا موجات الاستبس فى التاريخ القديم (٢) وجدناها تتجه الى الصين أكثر منها الى الهنـــد ، أولا لأن على باب الصين تقع منشوريا وهى محيط استبسى ومحطة احتشاد وانطلاق للاستبسيين ، وثانيا لان الصين لا تملك حائط الهملايا ، ذلك « السور الطبيعى العظيم » الذى حمى الهند بقدر الامكان من ضغوط الاستبس ، أما الصـــين بانهارها وسهولها فكانت مفتوحة لهذا التيفون (والكلمة مأخوذة عن الطوفان العربية) (٣) البشرى ، فكان عليها

(١) Jean Brunhes, La Géographie Humaine, Paris, 1925, t.II, p. 802.

(٢) Thomas Quayle, «Geography & Language». Geog. Teacher, 1917-8, p. 81.

(٣) Edmond Demolins, Comment La Route Crée le Type social, Paris, t.I.

ان تبني سورها الصناعي العظيم في وجههم .. دونجدوى. ويسجل التاريخ موجتين هامتين في تلك الفترة ، غزوة كبرى في القرن الثالث ق . م كان من جرائها مباشرة بناء ذلك السور ، ثم موجة أخرى في القرن الثاني الميلادى

أما غربا ، فقد اتخذ الاستبس طريقين ووجهتين ، أولا طريق الاستبس المرتفع على طول هضاب ومرتفعات وسط وجنوب غرب آسيا ابتداء من منغوليا حتى ايران .والوجهة هي الشرق الاوسط الخصيب . فهؤلاء هم الذين اسقطوا آشور ، ومنهم جاء الهكسوس الى مصر . ولعل موجة الهكسوس هي الموجة الوحيدة في التاريخ القديم التى استطاعت أن تضرب من قلب الاستبس بعيدا الى حد الوصول الى مصر . ولكن الهكسوس لم يخضعوا مصر جميعا بل شمالها فقط ، ولم يلبثوا فيه طويلا عند ذلك

اما الطريق الثانية فهي الاستبس المنخفض على طول السهول العظمى في قلب آسيا وشرق أوربا ابتداء من طوران حتى المجر . وكان هذا في الحقيقة أخطر طريق طرقه الاستبسيون وارتبطوا به وارتبط بهم . ولهم معه ميكانيكية خاصة فريدة في بابها وخطيرة في نتائجها . فكممر سهلي قارى متصل **Durchgangsland** تتجاوب اجزاؤه كما لو بقانون الأواني المستطرقة ، كانت كل حركة تبدأ من القلب ـ قلب الاستبس في آسيا ـ تدفع بالجماعات الرعوية الواقعة غربها ، فتتدفع هذه بما بعدها غربا ، وهكذا حتى تدفع الاخيرة الزراع في شرق اوربا ووسطها (١)

وبهذا التاثير والدفع غير المباشر لعب الاستبس الاسيوى دورا خطيرا في تشكيل تاريخ وتكوين اوربا ، حتى أصبح

---

(١) جمال حمدان . انماط من البيئات . القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٧٧

تاريخها منذ ذلك الحين لا يفهم الا كجزء فى الحقيقة من تاريخ أوراسيا ككل (١) ولما كان الجيران المباشرون للامبراطورية الرومانية هم برابرة التيوتون والجرمان الذين جمعوا بين الرعي والزراعة ، فكثيرا ما كانت حركات البرابرة الاسيويين تنتهي بتحريك البرابرة الاوربيين ليغيروا على الامبراطورية

ففي أوائل العصر المسيحى وخاصة فى القرنين الثالث والرابع اشتدت غارات القبائل الجرمانية من الالماني Allemanni والقوط والوندال والفرانك « الفرنجة » على الارجح نتيجة لضغط برابرة آسيا عليهم من الخلف (٢) وأدى تغلغل هذه الغزوات في جسم الامبراطوريه الى تكوين امارات داخلها حتى انتهت بانهيار الامبراطورية • وفى القرن الخامس وصل الاسيويون بأنفسهم الى حدود الامبراطورية فى شكل الآلان Alans والهون تحت قيادة اتيلا الهون المشهور

وقد كانت موجة الهون من أعتى ما تعرضت له روما واكثرها تخريبا وتدميرا • وقد اتخذوا من استبس المجر - حوض الفولد Alföld الكبير أو البوشتا Puszta - نقطة ارتكاز للهجوم على الامبراطورية التى كانت بالنسبة للبوشتا فى موقع كموقع الصين بالنسبة لاستبس منشوريا • فاندفع اتيلا من البوشتا غربا حتي فرنسا ، لكنه صد أخيرا عند شالون • وقد يكون فى هذه الهزيمة مغزى هام لان معناها أن رعاة الاستبس لم يفشلوا الا حين خرجوا عن نطاق بيئتهم الطبيعية (٣)

ومع ذلك فقد كان أثر الهون فى تشكيل أوربا بعيد

---

(١) Halford J. Mackinder, The Geog. Pivot of History, Lond., 1951, p. 31.

(٢) Fairgrieve, p. 106-8.

(٣) Demolins, loc. cit.

المدى ، فربما كنتيجة لضغوطهم قفز الانجلز والسكسون من غرب القارة الى الجزر البريطانية ليؤسسوا انجلترا ، بمثل ما هرب سكان اكويليا وبادوا فى ايطاليا بعد تخريبهما المباشر الى الجزر الساحلية المواجهة ليؤسسوا البندقية • وعدا هذا ، فكرد فعل للخطر الهونى تحالف الفرانك والقوط والرومان لاول مرة فى شالون ونما بينهم وعى قومى جنينى ، وبهذا كان الهون فى الحقيقة يصنعون فرنسا الجديدة بوحدتها وقوميتها (١)

على أن الهون ككل سرعان ما تفتتوا بعد وفاة أتيلا نفسه وتحاربوا وارتدوا شرقا الى مصدرهم الاصلى ، ولو أن قلة منهم استقرت نسبيا فى الزراعة وحاولت الامبراطورية تثبيتهم بكل الوسائل كمنعهم من العودة أو اغرائهم بامارات وولايات حدية خاضعة لها

على أن خطر الهون لم يرتفع الا ليتلوه خطر الافار Avars فى القرن السادس ، وكان لا يقل عن سابقه فى التخريب والتدمير • وقد اتخذوا من سهل المجر الاستبسى مركزا لحكمهم عدة قرون • وكنتيجة مباشرة لضغط الافار طردت قبائل اللونجبارد Longobards المتبربرة وقذف بهم من تخوم الامبراطورية حتى استقرت فى سهل لمبارديا ـ ومن هنا الاسم • وبالمثل يعود انشاء شارلمان لمملكة النمسا الى خطر الافار ، فقد أسسها لتكون دولة حاجزية وكموقع أمامى للدفاع عن الامبراطورية (٢)

وفى مؤخرة الافار أتى البلغار Bolgar من منطقة الفولجا ـ لاحظ وحدة اشتقاق الاسمين (٣) ـ ليذوبوا

(١) Mackinder, op. cit., pp. 31, 35.
(٢) Ibid.
(٣) W. Gordon East, An Historical Geog. of Europe, Lond., 1950, p. 217.

فى النهاية فى وسط السكان الاصليين من السلاف فى المنطقة التى تستمد اليوم اسمها منهم « بلغـــاريا ». •
وكانت هذه آخر ما أرسل الاستبس فى صراعه مع الغابة قبل أن تبدأ العصور الوسطى

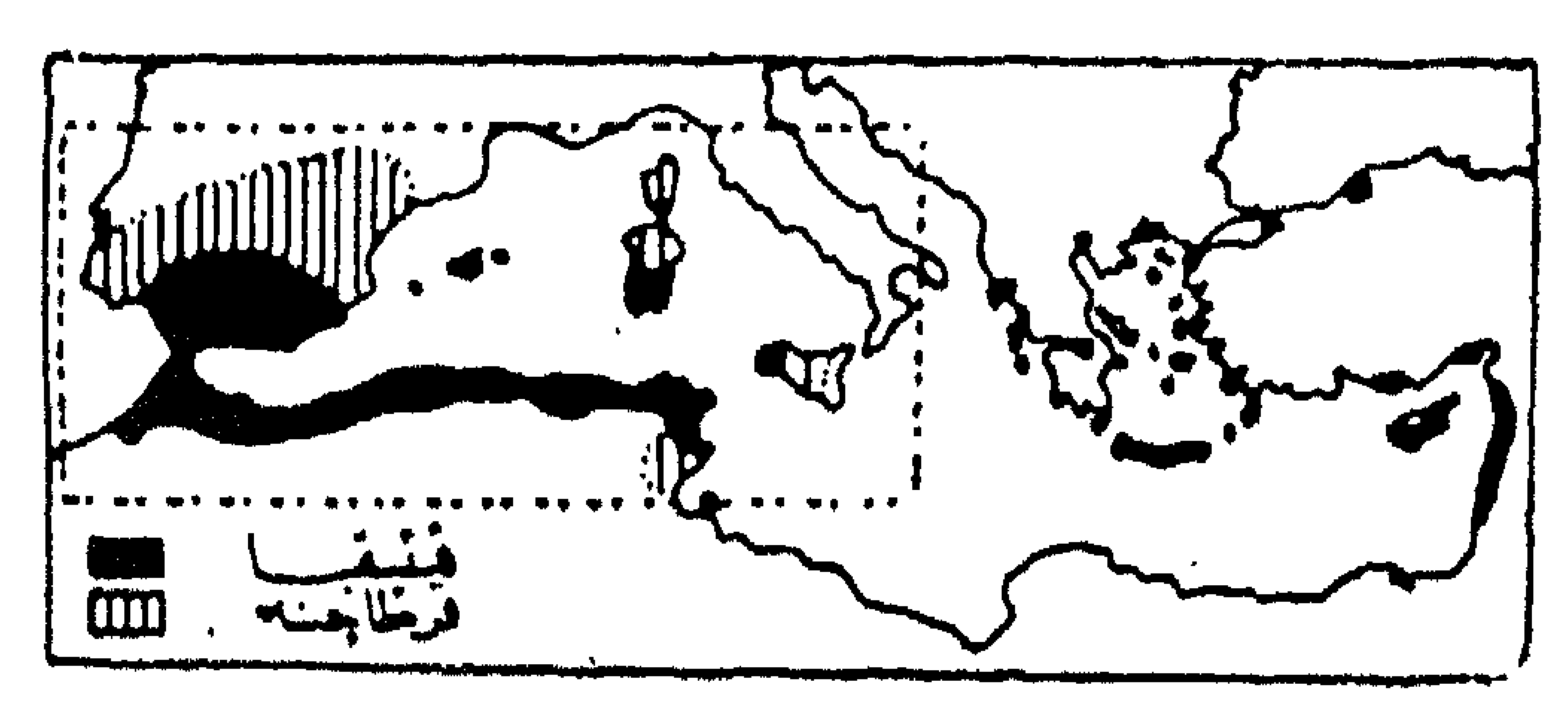
بين البر والبحر

تلك قصة الصراعات التاريخية المختلفة فى العالم القديم بين قوى بر وبر • ولكن على الماء ينبغى أن نضيف صيغة أخرى أصيلة هى « الصراع بين البر والبحـــر » ، بين الفلاحين والملاحين ، وبينما تشتعل الصراعات السابقة من اجل « الموضع » أساسا أى من أجل الثروة المحلية الزراعية الغنية ، فان صراع البر والبحر يذكيه الفوز بالموضـــع والموقع معا • فكثيرة هى جدا حركات الاستعمار القـــديم التى قامت بها جماعات بحرية من سكان الجزر والسواحل قاصدة جزرا وسواحل أخرى أو منـــاطق برية داخلية تماما

وقد كان البحر المتوسط هو المسرح الرئيسى لمثل هذه النشاطات التعميرية أو الاستعمارية • فكمشتل مبـــكر ممتاز للبيئات البحرية والفنون الملاحية ، نجـــد موجات الاستعمار البحرى تقطع البحر فى كل اتجاه : من فينيقيا الى قرطاجنة ، من أثينا الى أسيا الصغرى وايطاليا ، ومن قرطاجنة الى ايبريا •• الخ • ومما ساعد لا شك على دفع هذه الحركات عوامل الطرد الطبيعية ، فثمة حلقة جبلية تطوق البحر فى معظمه ولا تترك الا عقدا متقطعا ودقيقـا من السهول الساحلية لا تكفى سكانها ، فتلفظهم الى البحر

وسنرى بسهولة أن كل هذه الاستعمارات كانت تتم فى وسط بيئى وجغرافى واحد هو حوض البحر المتوسط ببيئته الطبيعية المعروفة ، فلم تكن لذلك تستدعى تغيرا

لبيرا فى نمط الحياة او تثير مشكلة التاقلم فى وجـــه المستعمر النازح (١) • كما سنرى أن المحيط الجغرافى الذى تمور داخله هذه الحـــركات هو ـ كبحر داخلى Mare internum ـ مجال محدود اقليميا ولا يزيد فى ابعاده كثيرا عن ابعاد الصراعات البرية المحضة السابقة ان لم يقل • ولكن الحقيقة ان كل هذه الحركات هى اقرب فى جوهرها الى ان تكون صراعا بين قوى بحر وبحر اكثر منها الى الصراع بين قوى البحر والبر بمعنى الكلمة •وحين نصل الى هذا اللون الكامل من الصراع تاخذ الصورة ابعادا جغرافية جديدة تماما



شكل (١) نجز الاستعمار البحـرى فينيقيا وقرطاجنة

وقد تطلعت قوة البحر أول ما تطلعت الى التوســـع الاقليمى فى الاراضى المقابلة او المجاورة او المحيطـــة على اليابس • وبدأ بهذا خلق الامبراطوريات البحرية المترامية الشهيرة فى التاريخ Thalassocracies والتى ستكون بمثابة نمط أولى بدائى Prototype لامبراطوريات الاستعمار الاوربى فى عصرنا الحديث

---

(١) Kimble, p. 17.

فكانت اليونان اول مثل من هذا النوع حين توسعت عن دائرة العالم الايجى لتشمل غرب آسيا الصغرى وأجزاء من ايطاليا Magna Graecia وايبريا وشمال افريقيـــا وليبيا ومصر والشام والعراق • ورغم أن الاســـــتعمار الاغريقى كان ساحليا فى جوهره ، وحتى على السواحل كان يتالف غالبا من « جزر » تعميرية متقطعة ـ « كالنمل والضفادع حول بركة » كما عبر أفلاطـــون (١) ـ فانه بدأ ما اصبح يعرف فيما بعد بنظرية « وحــــدة البحر المتوسط » حيث جمع بين سواحله جميعا فى ظل نظام سياسى امبراطورى واحد (٢)

وبعد اليونان نجحت روما فى خلق امبراطورية ارتكزت على البحر ولكنها لم تلبث أن تغلغلت فى البـــر حتى اصبحت « الطرق الرومانية » اخطر اثرا فى هيكل شبكة الامبراطورية من الخطوط البحرية ، والفيـالق المشهورة Legions أبعد مدى من الزوارق الرومانية المعروفـة Galleons • وقـــد ابتلعت رومـــا الامبراطورية الاغريقية كاملة فى الشرق الاوســـط والادنى القـديم ، وتمددت بعدها لتشمل كل أوربا جنوب الدانوب وغرب الراين ، بالاضافة الى أنها قفزت المانش لتضـم انجلترا السهلية • وفى هذا المجال المترامى فرضت روما « السلام الرومانى » Pax Romana بقوتها عدة قـرون (٣) •

---

(١) Gordon East, p. 3.

(٢) G.F.Hourani, Arab Seafaring in the Indian Ocean, Princeton, 1951, p. 170.

(٣) East, pp. 3-4; Fairgrieve, pp. 90-92.

وواضح أن هذه الابعاد الامبراطوريه طفرة جديدة فى سجل الاستعمار العسكرى لم يسبق لها مثيل فى التاريخ ، وصلت « بوحدة البحر المتوسط » الى



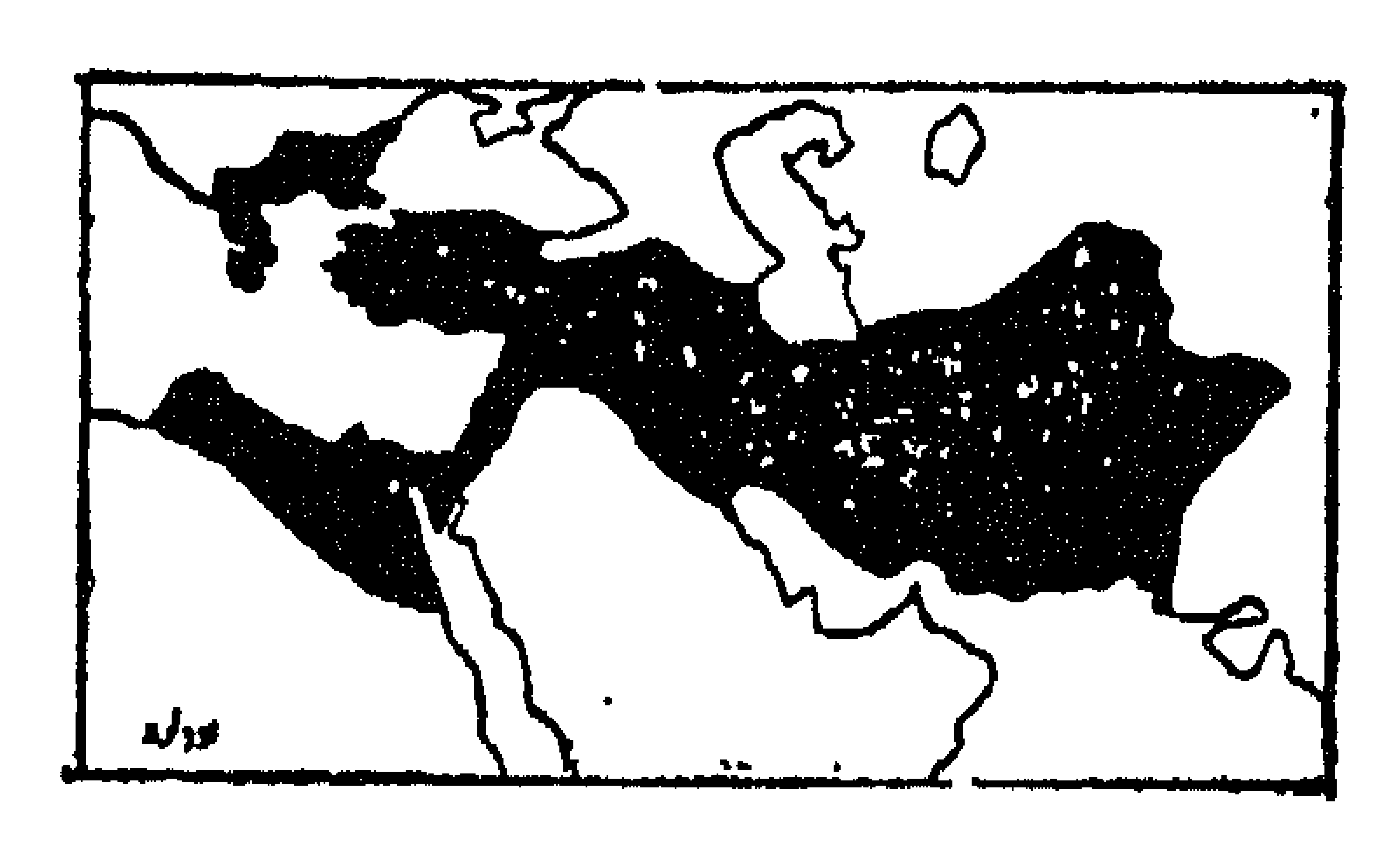
شكل (٢) الامبراطورية الرومانية

منتهاها وجعلت من ذلك البحر بحيرة رومانية ـ « بحرنا Mare Nostrum كما كانوا يفاخرون ـ وبحرا مغلقا Mare Clausum شبه بنواة للامبراطورية ، هذا بينما ترامت حدودها الى تخومها الشهيرة Limes التى تتراوح بين النهر فى وسط أوربا والغابة فى غربها ، والجبل فى انجلترا ، والصحراء فى أفريقيا ، والتى تقف سدا حاميا ضدالقبائل المتبربرة . ويلخص توينبى الامبراطورية الرومانية فى أنها المثال النموذجى لما يسميه ـفى حدود العالم المسيحىـ « بالدولة العالمية » Universal State (١)

ويأخذ الصراع بين البر والبحر بعد ذلك أبعادا أكبر ويتمدد الى آفاق اقليمية مترامية حقا حين يصل التوسع الاقليمى على اليابس بالقوى البحرية الى الاحتكاك والتصادم بقوى برية ضخمة متعمقة القاعدة . فهنا تبدأ تلك المبارزة الاستراتيجية وذلك الصراع التاريخى المرير المطوط الذى سيصبح فيما بعد النغمة الرئيسية السائدة فى صراع القوى الحديثة

---

(١) C.B Fawcett, Geography & Empire, in Geog in the 20th Century, Lond., 1951, p. 419.



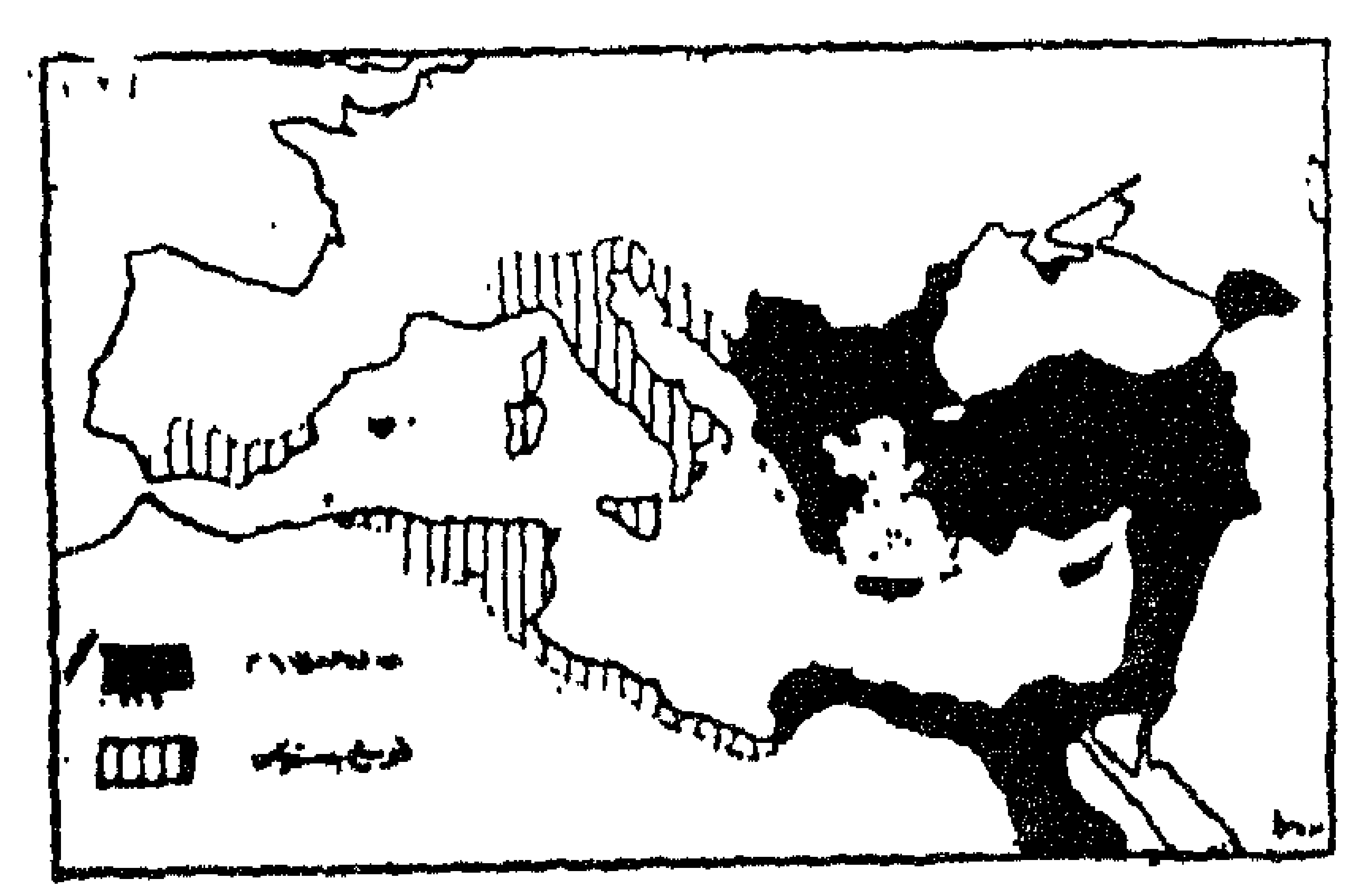
شكل (٣)
امبراطورية الاسكندر

وتبدأ هذه القصة بأثينا وفارس ، فقد كانت هاتان فى العصور الكلاسيكية هما كل القوى الكبرى فى المعمور القديم ، وظل الصراع بينهما سجالا فى حروب طروادة قرونا طويلة · وكما وصلت جيوش كزركسيس Xerxes برا حتى ثرموبيل الشهيرة بعد لفة كاسحة عبر النهزين وآسيا الصغرى ومقدونيا الى أن هزمت بحرا فى معركة سلاميس الحاسمة ، كانت اكتساحة الاسكندر الخاطفة التى سجلت قمتها فى معركة أربلا (اربيل) والتى وصلت الى الهند شرقا ، أول امبراطورية من هذا المقياس شبه القارى فى التاريخ · واذا كان النصر من نصيب قوة البحر ، ففى كلا الحالين استولى كل من الطرفين على المنطقة البينية فى الشرق الاوسط بالضرورة (١)

ثم تتكرر نفس المعادلة فى الصراع بين روما وريثة أثينا والبارثيين ورثة فارس ــ وكلمة فارس تحريف لكلمة بارثيا (ومعنى كلمتى روما وفارس وحده يعكس مدى قوتهما : Hroma = الجبارة ، Persae = المحاربين) وتحاول كل من قوة البر والبحر الاستيلاء على المنطقة البينية فى الشرق الاوسط ، الا أنه نظرا لبعد

(١) W. B. Fisher, The Middle East, Lond., 1950, pp. 127-133.

مراكزهمـــا المتطوح يقع شرقه لبارثيا (العراق) وغربه لروما (الشام ومصر) ، بينما ظلت صحراء العرب بينهما منطقة حاجزية • ومرة ثالثة حين انكمشت قوة البحـر من الامبراطـورية الرومانيـــة الى الامبراطـورية الرومانيـة الشرقية (بيزنطة) وورثت الدولة الساسانية قوة البـر البارثية ، تحققت نفس المعادلة فى أطرافها الاســـاسية وبنفس النتائج بالنسبة للمنطقة البينية (١)



شـــكل (٤)
الامبراطورية الرومانية الشرقية (بيزنطة) •

والنتيجة الهـامة التى يمكن ان نخرج بهـــا من هــذه الصــورة المتــواترة فى الصراع بين قوى البر والبحر هى أنها ، وقــد تضخمت وتطاولت أذرعتهـا الى ابعـاد شـبه قارية ، قد أصبحت حساسة بالنسبة للمواقع البينية التى تفصل بينها وواعية باستراتيجية الموقع • فقد شـــعرت قوى البر الداخلية ، بحكم أنها شبه حبيسة فى قاريتها ، بأنها مغلولة اليد فى صراعها مع قوى البحر التى تمتـــاز بمرونة الحركة وسهولة الانطلاق على الماء ، ولا بد لها فى مواجهتها من السيطرة على المناطق الفاصلة التى تتاخمهـا

(١) جمال حمدان • دراسات فى العالم العربى • القاهرة ، ١٩٥٩ ص ٢٤

من ناحية وتطل على البحر من الناحية الاخرى · وبالمثل وجدت القوى البحرية نفسها محتاجة الى اجتياح هذه المناطق لتطويق القوى البرية والوصول اليها

وبهذا وذلك أصبحت هذه المناطق البينية ، الامفيبية بطبيعتها ، منطقة صراع وارض معركة بين الطرفين القطبيين · اصبحت محصورة بين شقى الرحى تتنازعها هذه مرة وتلك أخرى ، واتضحت حساسية موقعها الاستراتيجى فى هذا الاطار · ولا تتمثل هذه الخاصية كما تتمثل في منطقة الشرق الاوسط بحكم وقوعها بين فارس ووسط آسيا فى جانب وروما فى جانب آخر · وقد يبدو فى هذا المنطق ــ مؤقتا ــ أن المنطقة بحكم الطبيعة وبامر الجغرافيا ضحية موقعها الجغرافى الاوسط، ولا أمل لها فى السيادة ولا مفر لها من التبعية لقوى الـ او البحر · ولكن هل هكذا درس التاريخ اللاحق ؟

الفصل الثاني

العصور الوسطى

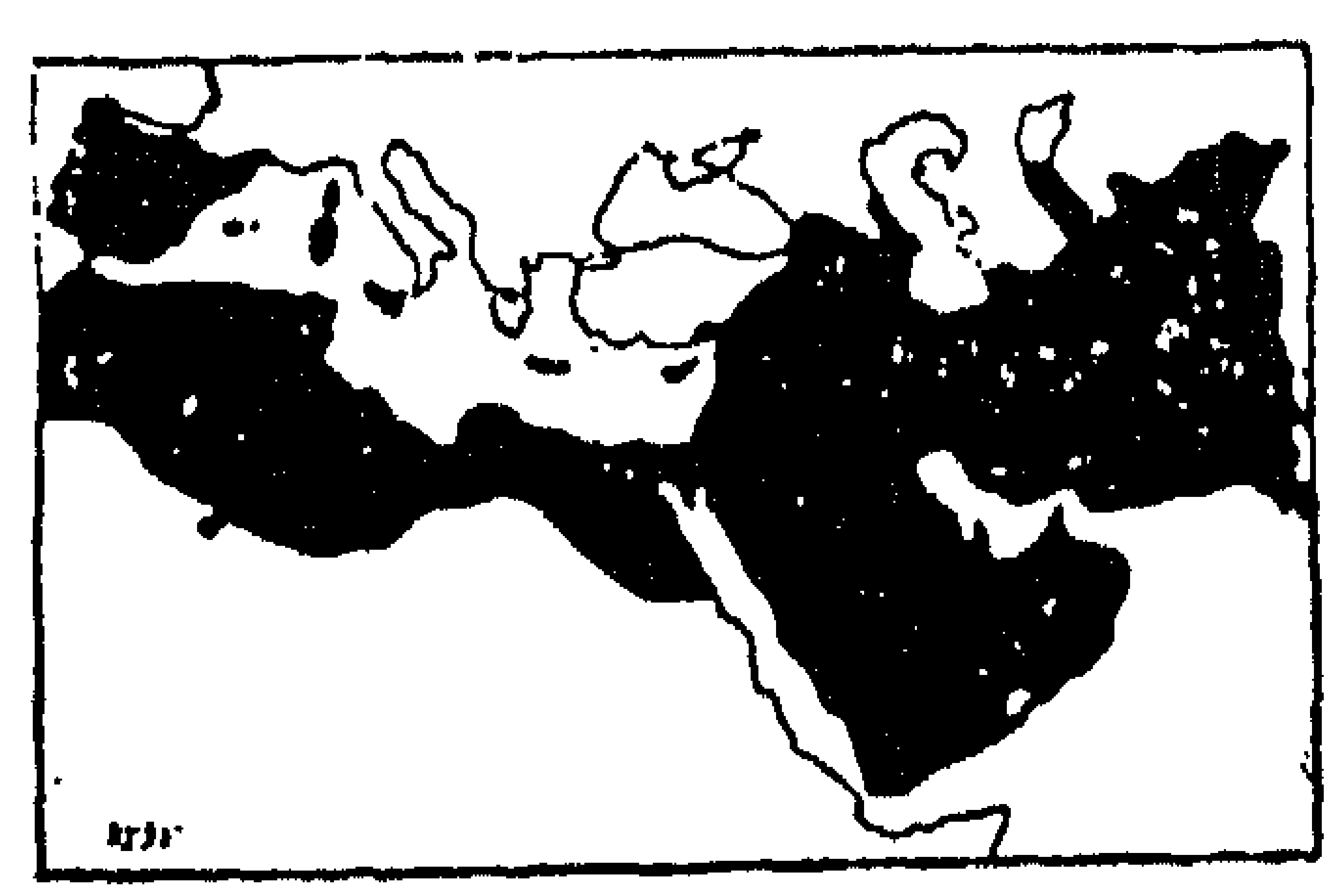
الدولة الاسلامية العربية

ونحن نتقدم خطوة أخرى نحو فهم استراتيجية الصراع التاريخى حين ننتقل الى العصور الوسطى التى تفتتحها الموجة العربية الكاسحة بانقلاب جذرى فى تلك الاستراتيجية . فقد خرج عرب الاسلام من قلب الجزيرة ليبنوا دولة لم تسبقها من قبل دولة فى الامتداد والرقعة ولم تلحقها من بعد الا امبراطوريات العصر الحديث وحدها . بل هى فى نظر « ماكيندر » الامبراطورية العالمية World Empire الاولى فى التاريخ « تقلد الاسكندر وتستبق نابليون (١)

فمن أطراف الصين الى أبواب فرنسا ، ضمت دولة العرب والاسلام شمال الهند ووسط آسيا وكل هضبة ايران ـ سجستان وخراسان وفارس ـ الى جانب العالم العربى بتحديده الحديث ، مضافا الى ذلك جميعا شبه الجزيرة الايبرية الاقليلا أو المغرب الاوربى أو المغرب الثانى كما كان يسمى . بل لقد طغت هذه الموجة المدية على شطر كبير من شرقى هضبة الاناضول ـ أرض الروم ـ

(١) H.J. Mackinder, Democratic Ideals & Reality, Pelican Books, 1944, p. 74; Geog. Pivot, p. 39.

حيث كانت التخوم الشهيرة (الثغــور والعواصــم) بين الخلافة وبيزنطة ، وكادت تنتزع القسطنطينية لولا أنهــا ارتدت فى ٧١٨ ، كما أرسلت في الغرب السنة متقدمة الى فرنســا وســويسرا ولو أنها ارتدت فى النهاية في معركة تور ٧٣٢



شكل (٥) الدولة العربية الاسـلامية : قوة برمائية اخضعت قوى البر والبحر

وفيما بين الهامشين انقلب ميزان القــوى فى البحــر المتوسط رأسا على عقب ، فبعد أن كان الساحل الجنــوبى الافريقى ـ الاسيوى يخضع كلية للساحل الشــمالى ، أصبحت السيطرة للساحل الجنوبى على نقط كثــيرة من الساحل الشمالى ، كما فى جنــوب ايطاليا وبروفانس ، وآلت كل جزر البحر ابتداء من « قبرس واقريطش » حتى صقلية بل « الصقليتين » والبليار الى النفوذ العــربى (١) وهكذا لم تتحطم نظرية وحدة البحر المتوسط بمفهومهــا اللاتينى الاستعمارى فحسب ، بل تحول البحر جميعا الى بحيرة عربية شبه خالصة . ولو أن العرب سموه بحــر العرب بدلا من بحر الروم لما تعسفوا الحقيقة التاريخية او الجغرافية فى شىء

اما فى الجنوب فقد انطلقت الموجة العربية لتتحلق حول المحيط الهندى بسواحله الافريقية والهندية ، ســـاحل

(١) East, pp. 186-9.

الزنج وساحل الملبار . ثم توغلت حتى الملايو وجزر الهند الشرقية حيث تغلغل النفوذ العربى الحضارى فى الدرجة الاولى والسياسى فى المحل الثانى . وبهذا تحول المحيط الهندى ـ هذا « النصف محيط » الذى يأخذ الى حد كبير شكل جمل ذى سنامين قد برك مادا رقبته وراسه الى بحار الهند الشرقية (١) ـ تحول الى بحيرة عربية لا يشارك فيها مشارك

والمحصلة النهائية لهذا امبراطورية تترامى على القارات القديمة الثلاث ، تطل أو تشرف على المحيطات الثلاثة الاطلسى والهندى والهادى أو على الاقل تتماس معها . وهى فى نفس الوقت ترتكز على محور قاطع يمتد من ملقا الملايو Malacca فى الشرق الى ملقا الاندلس Malaga (مالقة) فى الغرب ـ وكلا الاسمين عربى يستمد أصله بالفعل من أنه « ملقى » .. او هو كان يمتد من جبل طارق الاطلسى الى جبل طارق الهادى (سنغافورة) . كذلك كانت الامبراطورية ترتكز على قاطع اخر يبدأ ـ كما كان يقول مؤرخو الاسلام ـ من فرغانه وينتهى بغانة

اما طوليا فيصل هذا المجال فى أقصاه من بحر الخزر (نروين) الى مدغشقر (واسمها تحريف بالصدفة لمقديشو) (٢) . وفى تضاعيف هذه الرقعة تستقر « بحيرتان » عربيتان هما المتوسط والهندى ، كما تتوسطها « أرض البحار الخمسة » : قزوين ـ الاسود ـ « الفارسى » ـ الاحمر ـ المتوسط . فلو قلنا أن هذا المحيط يحدد الجزء الاكبر من المعمور (الاكيومين) العالمى الذى يهم حينئذ لما تعدينا الحقيقة

ويجادل كثير من الكتاب الغربيين ـ فى لجاج مفهوم ـ

(١) G.T. Renner, Global Geog.

(٢) Statesman's Year Book, 1961.

بان هذه الدولة كانت « امبراطورية استعمارية » ، لم تخرج عن أن تكون غزوا واخضاعا وتبعية أجنبية (١) ·
والحقيقة أن الدولة العربية كانت « امبراطورية تحريرية » بكل معنى الكلمة كما قد نقول ، فهى التى حررت كل هذه المناطق من ربقة الاستعمار الرومانى أو الفارسى المتداعى واضطهاده الوثنى وابتزازه المادى · وبعدها لم تعرف الدولة الجديدة عنصرية أو حاجزا لونيا بل كانت وحدة مفتوحة من الاختلاط والتزاوج الحر ، وما عرفت قط شعوبية أو حاجزا حضاريا حيث كانت وسطا حضاريا متجانسا مشاعا للجميع ، لا ولم تخلق نواة متروبولية سائدة تتميز على سائر المقاطعات والاقاليم فى شىء

بل ان نواة جغرافية ما لم تحتكر السلطة السياسية قط · على العكس كانت السلطة « دولة بين الجميع » بلا استثناء ان صح التعبير · فقد هاجر مركز الحكم السياسى بانتظام فلم يلبث بعد قليل أن ترك « النواة النووية » فى جزيرة العرب التى أصبحت فى النهاية وهى جزيرة الاسلام بقدر ما أصبحت دار الاسلام دار العرب الكبرى Greater Arabia · فانتقل الى الشام الاموية ثم غادرها بدورها الى العراق العباسى حتى تركه فى وقت ما الى مصر الفاطمية ، وكان المغرب مركزا اخر للقوة ، ومثله كانت الاندلس

واضح اذن أن اخوة الدين كان يقابلها اخوة الاقاليم ، وسواسية الناس كانت تترجم سياسيا الى سواسية الولايات والمقاطعات · والحقيقة أن الدولة العربية

---

(1) Nevill Barbour, A Survey of North West Africa (The Maghrib), Lond., 1959, p. 16.

الاسلامية كانت شركة مساهمة بين كل أعضائها وأطرافها ، ولعلنا لا ندفع بالتشبيه الى أبعد من حدوده السليمة اذا قلنا انها كانت أول « كومنولث » فى التاريخ بالمعنى الحديث ، مع هذا الفارق الهام جدا وهى أنها لم تمر بالمرحلة الاستعمارية المشينة التى مر بها كومنولث اليوم • والحقيقة - أخيرا - أن دولة العرب الاسلامية هى فصل - أول فصل - فى جغرافية التحرير ، وأبعد شىء عن جغرافية الاستعمار ، وعلى هذا الاساس ننظر اليها ونعالجها

كيف أمكن أن تقوم هذه الدولة « الماموث » التى - بالمقياس الجغرافى والاحصائى وحده - تسبق زمانها وعصرها بقرون ؟ أكانت حقا فلتة شيطانية أو نموا طفيليا كما يصور بعض أعدائها ؟ كيف انبثقت من « قلب ميت » فى صحراء الجزيرة ، وكيف جمعت بين أقاليم البر وأقاليم البحر ؟ لا شك أن مما يدعو الى الحيرة والتساؤل حقا أن تستطيع قوى الصحراء الطاردة - قاعدة أرضية شبه خاوية وموارد طبيعية شحيحة وانتاج اقتصادى متواضع وكثافة سكانية هزيلة شفافة - أن تقهر وتخضع قوى البر والبحر التقليدية العتيدة فارس شرقا وروما غربا ، وفى مدى زمنى يحسب بالسنين أكثر مما يحسب بالعقود • معادلة صعبة !

ان علينا ابتداء أن نسلم - موضوعيا - بأن هناك حوافز وقوى « ميتافيزيقية » ، لا تستمد من الواقع المادى بل تتخطاه ، تكمن خلف هذه الدينامية المتفجرة والحيوية الدافقة • ولا شك أن جذوة الحماس الدينى المتقدة هى التى الهبت خيال « المؤمنين » ، حتى تحولت بهم الى شعلة ملتهبة وتحولوا هم بها الى مشعل مضىء • ولكن علينا بعد هذا أن نبحث عن أسباب صلبة مادية

ولعل « الحلقة السعيدة » التى تحف بقلب الجزيرة الميت هي البداية السعيدة . فحول مهد العـــرب دائرة متصلة أو شبه ذلك من الاراضي الزراعية الخصبة الغنية تجعلها « كخرقة بالية حواشيها من الذهب » : الهـــلال الخصيب فى الشمال بقطاعيه العراق والشام ، وهـــلال خصيب الحر اقل غنى نوعا في الجنوب يجمع الحســـا وعمان وحضرموت واليمن والحجاز ، ثم يغلق الدائرة وادى النيـــل فى مصر (١) فبمجرد أن يضع القلب الميت يده على هذه الحلقة المحدقة فقد ضمن لنفسه قاعـــدة أرضية عريضة واحتياطيا عمرانيا مكثفا يكفـــل له كل عناصر القوة . فكان انتزاع الشـــام أولا من الرومان ثم العراق من الفرس ثم مصر الرومانية كفيلا بأن يمنح العرب عناصر القوة لمزيد من المواجهة مع تلك الامبراطوريات

وهنا يأتى دور الموقع . فلا شـــك أن موقع الجزيرة العربية المتوسط بين قارات اليابس وكتل المعمور وقوى البر والبحر كان منطلقا استراتيجيا خطيرا ، جعـــل من السهل على العرب أن تمد ذراعيها بسهولة يمينا ويسارا الى أبعد مدى . والحقيقة التي ينبغى أن نعيها بعمق وادراك فى هذا الصدد أن كتلة الجزيرة العربية بموقعها وطبيعتها الجغرافية ليست قوة بر فقط كما يظن البعض فى غـــير دقة ، ولا هى قوة بحر مطلقة بالتأكيد ، وانما هى تجمـــع بين قوة البر والبحر ـ قوة أمفيبية تضع قـــدما فى المـــاء وقدما على اليابس بمثل ما تقع بين قوى البحر فى جنـــوب أوربا غربا وقوى البر فى وسط آسيا شرقا

حقا لا شك أن الدولة العربية بـــدأت قـــوة بر ، وتوسعت بريا ، وتمثل فى جوهرها كتلة أرضية متصلة

(١) جمال حمدان . دراسات فى العالم العربى . ص ١٤

لا يقطعها ماء الا فى جبل طارق ، بينما تاخرت سيطرتها على جزر البحر المتوسط نسبيا (١) ، ولكن العرب لم يلبثوا بحكم موقعهم وتحدياته أن نزلوا الى البحر المتوسط ولم يعودوا فيه « كدود على عود » ، بل رادوه حتى تسيدوه ، وكان ذلك بفضل وجود قطاعات بحرية ملائمة فى الدولة تتمم القطاعات البرية المناسبة للتوسع البرى

فبفضل قطاعاتها البرية العريضة المتناظرة فى مصر والعراق ، استطاعت أن تنطلق برا وتنشر جناحها الارضى • فكانت أرض الرافدين الفسيحة الخصبة هى « راس الحربة » فى توسع العالم العربى فى اسيا بحكم موقعها المتقدم شرقا • ولعل هذا الدور هو الذى يفسر استقطاب السلطة والحكم مبكرا وطويلا فى بغداد العباسية ويفسر معها حضارة دار السلام الرائعة القمية

وبالمثل كانت مصر هى « راس الجسر » فى التوسع الافريقى غربا وجنوبا • ولعل ارتباط الدولة العربية الاسلامية فى البداية بتجارة الصين والموسميات أكثر منها بالعالم الاوربى البيزنطى ـ اى غلبة التوجيه الاسيوى على الاوربى ـ يفسر أسبقية دور العراق فى المحيط العربى على مصر ، بينما قد يفسر انتقال المركز والقطب الى مصر فى مرحلة تالية ما أصاب الجناح الشرقى من الدولةالعربية من طرقات المغول والتتار ، وبروز العالم الاوربى بالتدريج فى ميدان الانتاج والحضارة ، اى غلبة التوجيه الاوربى على الاسيوى

أما القطاعات البحرية الحاسمة فى الكتلة العربية والتى تتناظر هى أيضا فى الشام والجنوب العربى فقد قدمت الترسانات الملاحية اللازمة للخروج الى البحر • فالشام ـ

---

(١) East, p. 189.

مهد الفينيقيين ومدرسة البحرية التاريخية ـ كان خشبة القفز التي انقض منها العرب على فلول البحرية الرومانية والبيزنطية وعلى جزر البحر المتوسط الى أن ناجزوا ساحله الشمالى • ودور الشام الاموى كقوة بحر اشهر من أن نشير اليه ، وتلخصه معركة واحدة : ذات الصوارى ، فهى سلاميس الاسلام أو اكتيوم العرب كما قد نقول

وفى الطرف المقابل كان الجنوب العربى فى مجموعه هو دائما « بلاد العرب البحرية » ، يرعى البحر مثلما يرعى الجبل ، ويستعمر البحر كما يعمر الصحراء ، ويرمز له ببلاغة السندباد البحرى كمسرح ودراما • ومنذ البداية والعمانيون والحضارمة هم « اغريق المحيط الهندى وبنادقته » • واذا كان دور التوسع العربى هنا حضاريا وتجاريا أساسا ولم يأخذ الصبغة العسكرية الحربية التى اخذها فى البحر المتوسط ، فما ذاك الا لان هذا الجانب خلا من الامبراطوريات الاستعمارية القائمة والمركزة فى الشمال • ومع ذلك فقد عرف بعض مناجزات هامة مع اساطيل الفرس والرومان

وكما اعطت البحرية العربية المتوسطية قاموسها الملاحي كاملا او شبه كامل للغات الاوربية ، كانت البحرية العربية فى الهندى هى وحدها التى تملك أسراره ومفاتيحه الملاحية ، فلكيا وهوائيا ، نجومه وموسمياته ، وهى التى اعطتها فيما بعد للقوى البحرية الاوربية

والخلاصة أن القوة العربية الصاعدة مع الاسلام وان بدأت قوة صحراء ورعاة تملك حركة Mobility الخيالة والاباله ، فانها سرعان ما تحولت الى قوة بر وبحر تجمع بين موارد الفلاحين ومرونة الملاحين ـ باختصار قوة برمائية تتوسط قلب العالم القديم وسرته • لقد خرجت عن وصاية

الصحراء لتضع موى العالم الكبرى البرية والبحرية تحت وصايتها (١)

والمغزى الاســـــتراتيجى لهذه الطفرة مفعم بالدلالات والظلال • فهي تناقض مباشرة دلالة الفترات السابقة حين كانت منطقة الشرق الاوسط والادنى قوة مغلوبة على أمرها بين قوى البر والبحر ، تتبع احدهما أو كليهما ، بغــير ما كيان ذاتي صلب • فهذه التجربة التاريخية الفذة اثبتت ان المنطقة ليست منطقة ضعف كامن بالطبع ولا بالضرورة وانها قادرة على أن تحقق سيادتها بل واكثر منها ان تخضع القوى الضخمة الواقعة على ضلوعها • هذه التجربة تأتى كمصحح ومكمل لمغزى الكيان الاستراتيجى الكامن للمنطقة فى العصور السابقة ـ واللاحقة كما سنرى

والسؤال الان : لماذا انهارت هذه الدولة العظمى بعد أن ظلت قائمة فى صورة أو أخرى بضعة قرون ؟ هنـــــاك مجموعتان من العوامل ، داخلية وخارجية • فداخليـــا ، لا جدال فى أن ضخامة الدولة وفرط تراميها فى حد ذاته عامل ضعف وتفكك فى النهاية • فمن الصعب جدا أن تمسك بمثل هذا الجسم العملاق فى قبضتك طويلا دون أن يتشطر وتتساقط منه أجزاء وأعضاء وبخاصة أطراف متطوحة • لا سيما أن جزءا كبيرا جدا من الرقعة كان صحارى وأشباه صحارى واستبس أو أشــباه الاستبس : شبه فراغ يعوق الحركة والاتصال ويضعف الارتباط ، فى وقت لم تتعد فيه وسيلة الترابط حركة الخيل والابل التى ان اتسع نفسها فى الحرب والغزو الخـــاطف فهو ينقطع ويتخلخل فى علاقات السلم المنتظمة الرتيبه المتكررة

والملاحظ بعد هذا أن الدولة العربية كانت تجنح الى

---

(١) Mackinder, Democratic Ideals, pp. 70-4.

الافراط فى الاستطالة من الشرق الى الغرب والى التفريط نسبيا فى العمق من الشمال الى الجنوب مما عرضها — من الناحيةالميكانيكية البحتة على الاقل — الى التقصف والتمزق(١) • أضف الى هذا تنـــافر التركيب الجنسى فى الـــدولة وتعدد الاقليات والعناصر فى نسيجها السياسى • فرغم أن الدولة كانت وحيدة اللغة عمليا ، فانها لم تكن بالتصنيف الجيوبولتيكى الحديث « دولة كثيفة » بل كانت تتراوح بين « الدولة الواسعة والمختلطة » ، كما كانت جغـرافيا دولة عديدة النوايا Polynuclear (٢)

من هنـــا تعرضت الدولة لسلسله متصله من الحركات الانفصاليه والتفكك ، فتعددت الخلافات واستقلت الولايات وانكمش نفوذ الدولة المركزية • وقد أتى على الدولةالعربية حين من الدهر تقاسمتها ثلاث أو أربع خلافات : العباسية فى العراق ، والفاطمية فى مصر ، والاندلس فى اسبانيا •• الخ ، وكل منها — سيلاحظ — يتخذ لنفسه كنواة منطقة زراعية غنية لتكون قاعـــدة أرضية كافية ، بينما كانت الفراغات الصحراوية هى التخوم الفاصلة بينها

وفوق هذا وذاك جميعا ، هناك نقطة ضعف أصيلة فى كيان الدولة • فبحكم بيئتها الصحراوية وشبه الصحراوية، كان عدد السكان فيها ، على الاطلاق وبالنسبة الىمساحتها، محدودا فى النهاية • ويضغط ماكيندر على ضعف القـوة البشرية Man-power وقوة الرجال كعـــــامل جوهرى فى تفتت وانهيـــار الدولة العربيـــــة فى آخر الامر (٣) • بل منذ البداية البـــاكرة اضطرت

(١) East, p. 187; Fairgrieve, p. 123.

(٢) Yves M. Goblet, Political Geog. & the World Map, Lond, 1955, pp. 185 ff.

(٣) Democratic Ideals, p. 74.

الدولة الناشئة الى ان تترك مهدها فى صحراء الجزيرة وإن تبنى لنفسها قاعدة ايكيومينية حقيقية فى الهلال الخصيب ــ اساسا لهذا العامل الحاسم ، ضعف القــوة البشرية وعدم كفايتها لاعباء الدولة الجديدة

أما العوامل الخارجية التي عملت على تعــرية الدولة وتحللها فتعود بنا مرة أخرى الى موقعها الاســـتراتيجى البينى بين قوى البر والبحر ، فبعــد قليل من قيامهــا واستقرارها بدأت القوى الغربية فى جنوب وغرب اوربا تتجمع ضدها لتنال منها ، وفى نفس الوقت تواترت هجمات القوى البرية من وسط آسيا لتنقض عليها . ولكن هذه وتلك فصل طويل كامل فى ذاته يحسن أن يعالج على حدة . . وانما يعنينا هنا أن نضع خطا تحت هــذه الاستراتيجية العريضة ــ استراتيجية الكماشة او الرحى ــ كعامل خطير فى تضعضع ثم سقوط الدولة الاسلاميه الكبرى

الاستعمار الصليبى

قد تكون الصليبيات بدرجة او باخرى اسما على غير مسمى ، لانها وان كان الدين شعارها المعلن ، فان من المسلم به اليوم غربا وشرقا ان محركاتها ودوافعها الخبيئة كانت أساسا علمانية ' مادية : اقتصادية . فقد كانت الدولة العربية الاسلامية فى الشرق الاوسط والادنى بحكم موقعها البؤرى تسيطر سيطرة شبه احتكارية على مجمع اعصاب التجارة العالمية بين الشرق والغرب ، وكانت هذه تصــب فيها دخلا ضخما يمثل حصيلة اســــتثمارات الموقع الجغرافى ويمنح السراقنة Saracens كما كان الغرب يسمى عرب المشرق (ولعلها تحريف للشرقيين او السوريين) يمنحهم قوة مادية وحضارية وحربية لا تقدر

فبدات مدن اوربا التجــارية النامية تتطلع الى هــذا الفيض الدافق في غبطة أو حسد . تريد اما أن تشارك فيه وإما أن تنقض عليه . وضاعف من هذه الغيرة الملتهبة الفــارق الحضــاري والاجتماعي والمعيشي الشاسع بين الشرق العربي والغرب المسيحي ، فبينمــا كان الاول في أوج عصره الذهبي كان الثاني في حضيض عصــوره المظلمة ، وبينما كان الاول يتمتع باقتصاد زراعي مستقر ، كان الثاني يعاني من اقتصاد زراعي متخلف يكبله رق الاقطاع الفاحش .



شكل (٦) الصليبيات في الشام : اقصى التوسع

ولا ادل على ان الحروب الصليبية كانت حروبا اقتصادية من انها بدات وهي تتغذى بمساعدة كبار تجار واوليجاركية البندقية وجنوة وبيزا وانتهت اقرب شيء الى حرب القراصنة التي تستهدف النهب والسلب وحدهما . اما دعوى الدفاع عن المسيحيين في الاراضي المقدسة وحماية الحجاج من اضطهاد السلجوقية الحاكمة حينذاك فهو باجماع الآراء حجة ملفقة ومنطق تبرير لا أكثر (١) .

ولهذا فالصليبيات ، في راى السواد الاعظم من المؤرخين ، كانت حربا استعمارية : استعمارا سياسيا واقتصاديا لاشبهة فيه الا شبهة قناع الدين ، بل يعدها بعض كتاب الغرب اول حركة استعمارية كبرى قام بها الغرب الاوربي في العصور الوسطى . ولعلها في الحقيقة حلقة الوصل

(١) Fisher, Middle East, p. 136; Mackinder, Pivot, p. 38.

ومرحلة الانتقال بين الاستعمار الجزئى القديم الذى باشرته اثينا وروما وبين الاستعمار الحديث الذى ستخرج اليه اوربا بأسرها فى المستقبل . وهى فى الحالين ليست - استراتيجيا - الا مظهرا من مظاهر الصراع بين القوى البحرية الغربية وبين المناطق البينية فى العالم القديم ، وعلى هذا الاساس ننظر اليها

وليس معنى هذا بطبيعة الحال ان اوربا الغربية تحولت فى تلك الفترة الى وحدة متماسكة تخلو من المتناقضات الداخلية ، فقد ظلت الصراعات المحلية وصراع الاشباه جنبا الى جنب مع صراع الأضداد . فكانت الممالك والامارات والقبائل مستمرة فى حروبها وغاراتها ، وعلى طول السواحل الغربية وحتى الجنوبية زحف خطر قراصنة البحر من الفيكنج الذين نزلوا من بحار اسكندناوة ليغيروا من البحر على كل النطاق الساحلى ، الا ان تاثيرهم كان محدودا بالمياه المالحة وقليلا ما بمصبات الأنهار ونهاياتها (١)

ولعل أبرز ما يميز الصليبيات عن موجات الاستعمار البحرى السابقة أنها لم تقتصر على قوة او دولة واحدة بل خرجت من أغلب دول غرب أوربا وجنوبها ووسطها . ولذا نجدها تأخذ طريقين أساسيتين : الطريق البرية عبر قلب اوربا فالبلقان فالأناضول البيزنطية ، وطريق البحر المتوسط . واذا كان هدفها الدينى هو الاراضى المقدسة ، فان الهدف الاستراتيجى اتسع ليشمل الى جانب الشام كله العراق والحجاز ومصر ، اى النصف الشمالى من دائرة المشرق العربى

وتكاد الحملات الصليبية فى الشام تغطى قرنين بالضبط ، الثانى عشر والثالث عشر . ويتعرف المؤرخون

(١) Pivot, p. 36.

خلالها على ثماني موجات رئيسية ـ آخرون يقولون تسعا ـ ولكن الحقيقة ان هذه هي قمم الموجات ، اما التيار نفسه فظل متصلا كالسيال الكهربائي . ومن ثم فهي شكلا وموضوعا الى صورة أرجال الجراد المنتشر اقرب منها الى صورة أسراب الطيور المهاجرة ان صح التشبيه ، كذلك لم تكن كل تلك الغزوات من صنع جيوش نظامية بل انتظمت كثيرا من ميليشيا البروليتارية والعبودية الاقطاعية . وهذا يعطى الصليبيات مسحة بربرية تذكر بدرجة ما بغارات المتبربرين في أوربا على الامبراطورية نفسها (١)

ولقد بدأت الصليبيات برا عن طريق بوابة قيليقيا البيزنطية وبحرا عن طريق قبرص ، مما يوضح خطورة الأناضول كمدخل برى الى الشام وخطورة قبرص كمفتاح بحرى وخشبة للقفز على اللفانت ومصر . والواقع ان كلا منهما كان اول ما احتله الصليبيون وآخر ما غادروه ، ثم استطاعت الصليبيات ان تحتل ـ في اقصى توسعها ـ النطاق الساحلي من الشام حتى قمم السلسلة الجبلية الغربية دون أن تتعداها غالبا ، ورسمت زاوية قائمة بتوغلها الى اعلى الفرات في الرها . واقامت في هذا النطاق سلسلة مفككة من الامارات وممالك المدن الاقطاعية على غرار تنظيمها السياسي الاقطاعي في أوروبا

ولقد نجحت في ذلك لسبب اساسي هو عدم وحدة الشام العربي وتمزقه الى كوكبة متنافسة من دول المدن والولايات و « الاتابكيات » ومع ذلك فان توحيد الشام العربي بعد ذلك ومساعدة ظهيره الى الشرق لم تكف لرد العدوان ، وكان تحرير الاراضي المقدسة رهنا باتحاد قوة مصر الشرقية مع قوة الشام . وحين تحقق هذا كانت حطين صلاح الدين في النصف الثاني من القرن الثاني عشر

(١) Philip Hitti, The Arabs, Lond. 1948.

هى « ارماجدون » الصليبيات وبداية نهايتها. وفى النصف الثانى من القرن الثالث عشر كانت هذه النهاية

ولكن ما بين بداية النهاية ونهايتها تحولت الصليبيات الى مصر حيث قد ادركت بالتجربة المريرة انهـــا قطب المنطقة استراتيجيا وبشريا . ففى النصف الاول من القرن الثالث عشر نالت مصر موجتان أبيدتا بالضربة القاضية فى برارى وسهول الدلتا بعد أن اغرقتا فى بيئتها الاسفنجية المشبعة . فعاد صراع التصفية الى الشام ثانية حيث دفنت الصليبيات فى البحر نهائيا

الا أن ذيول الصراع ظلت فى البحر المتوسط بعد ذلك طويلا وهى تتراجع بالتدريج غربا . فقد لجأت القـــوى الصليبية ، بعد أن تكسرت سيوفها على قلعة اللفانت ، الى لون من « الحصار القارى » للعالم العربى لخنق تجارته مع أوربا ، والى « مبارزة بحرية » عبر «كباريه المتحركة» ـ جزره ومضايقه ـ تمثلت فى سلسلة من غارات القرصنة على سواحل افريقيا العربية وفى حملتين من الغزو عـلى تونس فى النصف الاخير من كل من القرنين الثالث عشر والرابع عشر . على ان ذلك فشل جميعا . وهنا سنلاحظ أن الصليبيات تحركت فى خط سيرها التاريخى حركة محددة مع عقارب الساعة ، فقد بدأت من الشام ثم انتقلت الى مصر فتونس

على أن مصير الصراع اختلف تماما فى اسبانيا . فاذا اعتبرنا ـ مع جمهرة المؤرخين ـ ان الاسترداد Reconquista هو اخر فصل فى الصليبيات ، فان القـــرون الثـــلاثة الثالث والرابع والخامس عشر ترسم فى هيكلها وبانتظام خريطة تقدم للمسيحية وتقهقر للعرب نحو الجنوب حتى كان الخروج النهائى فى ١٤٩٢ ويمكن ان نلخص محاور هذه الخريطة ونرمز الى مراحلهـــا بخطوط « الثغور »

العسكرية الثلاثة المتعاقبة التى عرفها وحددها العرب الثغر الادنى ، الثغر الاوسط ، الثغر الاقصى . وقد كانت قلاع الشمال الجبلية هى معقل المقاومة ونواة الزحف ، كما كان اطراد اتحاد الامارات المسيحية مع اطراد انقسام الامارات العربية هى ضوابط الصرع المصيرى . ومع طرد الموريسكيين – عدة ملايين – الى المغرب العربى ، انتهى المغرب الاوربى ، واصبحت الاندلس « فردوس العرب المفقود »

ولقد كانت الصليبيات درسا حضاريا قبل كل شىء لأوربا . فقد كانت احتكاكا حضاريا بين الشرق المتقدم والغرب المتخلف . وستنعطف أوربا على نفسها بعدهاقليلا أو كثيرا ، وستترك البحر المتوسط فى حالة رهو وترقب الا من مناوشات القراصنة ، خاصة فى حوضه الغربى ، وذلك لتعكف على تنمية وتطوير ما تعلمته من الشرق العربى حتى تخرج به فى النهاية اقوى من هذا الشرق وتقلب موازين الصراع من جديد كما سنرى .. كذلك فقد كانت الصليبيات اول ما وحد أوربا ومنحهاشعورا بالقومية حتى ليعدها البعض بداية التاريخ الحديث (١)

أما من ناحية العرب ، فلا شك ان درس الصليبيات هو درس استراليجى اساسا . فهى تؤكد لنا مرة اخرى خطورة موقعها البينى التى تجعلها مطمع انظار الهامشيين، وتعلمنا ان قوته رهن بوحدته فى وجه هذا التحدى الموقعى ، وان بها – وربما بها وحدها – يمكن ان تأمل فى أن تتصدى للقوى الغربية البحرية مجتمعة وتصدها فى النهاية

---

(١) Mackinder, Pivot, p. 38.

لم تتوقف غارات الاستبس خلال العصور الوسطى بل ربما زادت عنفا وتخريبا ، ولو انها تختلف فى تواترها من جانب الى آخر . فلعلنا لا نخطىء كثيرا اذا عممنا فقلنا ان مركز ثقل الموجات الاستبسية انتقل الى حد ما من الطريق الشمالى السهلى الى الطريق الجنوبى الهضبى ، او من أوربا الى الشرق الاوسط (١)

ففى الشرق تعرضت الصين لغزوات عديدة ما بين القرنين التاسع والثالث عشر . الا أن موجة جنكيزخان ثم كوبلاى خان فى القرن الثالث عشر كانت اضخم حدث فى تلك المرحلة . فهى التى اعطت الرعاة حكم الصين عدة قرون ، الى ان كانت آخر موجة فى القرن السابع عشر على يد مغول المانشو ــ ابناء استبس منشوريا ــ فاعطت الصين أسرتها الحاكمة حتى الحرب العالمية الاولى فى القرن العشرين

اما الهند فقد نالتها فى القرن الحادى عشر موجة التتار الغزنويين التى اخضعت شمالها ، فلما كان القرن الرابع عشر اخضعتها جميعا موجة تيمورلنك التى طفت على رقعة كبيرة من آسيا وحكمتها . وفى القرن السادس عشر استطاع احد خلفاء تيمورلنك وهو محمد اكبر Akbar ان يؤسس بالهند امبراطورية المغول الاكبر التى استمرت حتى الاحتلال البريطانى فى منتصف القرن الثامن عشر

واذا التفتنا غربا ، فعلى الطريق السهلى الشمالى بظل الاستبس كما كان مصدرا مزمنا للغارات والغزوات ، الا أنها فيما يبدو اقل عددا منها فى العصور الكلاسيكية . ولعل هذا يرجع الى أن جزءا كبيرا من وسط أوربا كان

(١) فى هذه الموجات راجع ديمولان ، سبق ذكره

قد بدأ برابرته ورعاته تستقر وتجمد وان ظل شرق القارة متميعا فى تركيبه ومسرحا لقلقلات وتحركات الرعاة . ففى القرن التاسع وصل المجيار الى المجر ـ التى اعطوهـا اسمهم ـ نتيجة لضغط الباتزيناك Patzinaks بمنطقة الفولجا ، والذين تحركوا بدورهم نتيجة لضغط الخزر الى الشرق بمنطقة بحر قزوين (بحر الخزر عند العـرب المعاصرين)

حتى اذا كان القرن الثالث عشر نجد جنكيزخان ــ هو الذى بدأ بالصين ـ يطرق ابواب شرق اوربا ووسطها ! والواقع ان طوفان جنكيزخان ـ القائد الكبير وسـيد القبيل الذهبى Golden Horde عملية تفوق فتوح الاسكندر الاكبر وتتفوق على نابليون فى المدى الجغرافى وان اختلف المجال . فقد اكتسح نفسه الطويل محيط اوراسـيا ـ اكثر من ۳۰۰۰ ميل ـ ابتداء من الصين حتى وسط أوربا موحدا بذلك كل السهل الاستبسى الاوراسى العظيم تحت قيـادة رجل واحد . ولعل هذه كانت اكبر إمبراطورية شهدها كل التاريخ قديمه والحديث من حيث المسـاحة والامتـداد (١) . وفيما عدا الاتراك ، كانت هـذه الموجة آخر موجة استبسية عظمى تصل الى اوربا الوسيطة

وبسبب تلك الموجات سنجد ان هناك فارقا سياسيا بدأ ينمو بين شرق وغرب اوربا . فاذا كانت غرب اوربا قد قفزت الى مبدأ القومية مبكرا بفضل خطر الإستبس، فان القوام السياسى فى شرق أوربا ظل متميعا أبعد مايكون عن التبلور حتى وقت متاخر جدا ، وما زال بعيدا عن النضج السياسى حتى الآن ، وكل ذلك نتيجة للتخلط

---

(١) John Mogey, The Study of Geog., H.U.L., 1950, p. 134.

الجنسي والاجتماعي والتخلف الحضـــاري الذي صحب الاستبس
. اما اذا انتقلنا الى الطريق الجنوبي ، فكان أحفل في هذه الفترة بطرقات المغول والتتار والاتراك . والحقيقـــة أن تاريخ الدولة العربية الإسلامية في الشرق الاوســط والادنى لا يمكن ان يفصل عن تاريخ هذه الموجات التي اصبحت بعدا اوليا واساسيا من ابعاده . بل الواقع اننـــا ينبغي ان ننظر الى هذه العناصر باعتبارها برابرة الدولة الاسلامية بمثل ما كان التيوتون والجرمان والوندال . الخ برابرة الامبراطورية الرومانية

فكما كانت هذه تقتطع من جسم الامبراطورية دولاً لها فكذلك فعل أولئك بالدولة الاسلامية ، وكما كانت الاولى تتصارع فيما بينها ويزيغ بعضها البعض الى جانب صراعها العام مع الامبراطورية ، فكذلك نجد برابرة الدولة الاسلامية العربية تتصارع فيما بينها صراع الاشباه ويرث بعضها البعض وذلك في اطار صراعها العام صراع الأضداد مع الخلافة . وكما كانت روما تحاول تحييد برابرتها بتثبيتهم في ممالك حدية وتحويلهم الى المسيحية ، فكذلك كانت الخلافة تفعل مع برابرة المغول والتتـــار والاتراك حيث تكاثرت على تخومها دولهم الحدية وحيث كثيرا ما كسبتهم في صفها بادخالهم في الاسلام ، ولو أن هذا لم يمنع أن تكون نهاية الدولة على أيديهم ، تماما كما حـــدث في الامبراطورية الرومانية . بل أبعـــد من هذا ، كما أن البرابرة الاوربيين أعادوا الامبراطورية الرومانية المقدسة كاستمرار بشكل ما للامبراطورية التي حطموها ، فكذلك ستنتقل الخلافة الاســـــلامية الى أيدي من حطموها وسيحتفظون بها في صورة ما عدة قرون

أول ما وصل المنطقة من برابرة العالم الاسلامي الموجة

الغـــزنوية فى القرن الحـــادى عشر ، وانتزعت فارس وما جاورها . وفى منتصف القرن نفسه ايضا بدأت قوة الاتراك السلاجقة الوافدة من وسط آسيا تتسلل وتظهر فى الدولة العباسية المفككة حتى استطاعوا أن يقتطعوا منها اجزاء كثيرة فى غرب آسيا . فأقاموا قاعدتهم فى كرمان وهمدان ثم فى آسيا الصغرى ثم قلبوا الحكم العـربى فى بغداد ودمشق واكتسحوا أغلب منطقة البحار الخمسـة حتى امتد سلطانهم الى الشام والاراضى المقدسة حيث كان اضطهادهم المزعوم للحجاج المســيحيين حجة من حجج الصليبية . ولكن قوة الســلاجقة لم تلبث أن تضعضعت تحت طرقات المغـــول فى القـــرن الثالث عشر على يد جنكيزخان

لقد جاء جنكيزخان فى ثلاثينات القرن ليكسر شـــوكة السلاجقة ، وقدر لايران ومدنها أن تتلقى أكبر جرعة من التخريب والتدمير الرهيب . وبعد عقود ثلاثة عاد المغول ـ الوثنيون ـ تحت زعامة هولاكو حيث وصلوا الى العراق فكانت فاجعة بغداد التاريخية ١٢٥٨ ونهاية الخـــلافة العباســـية (١) ، وبعدها تقدم المغـول الى الشـــام مستهدفين مصر فى النهاية فى وقت كانت الصليبيات قد عبرت خط الزوال ودخلت مرحلة الشفق ولكنها لا تزال تستوعب قوة مصر والشام المشتركة

وهنا نصـــل الى حالة فـــريدة فى تاريخ الشرق العـــربى وهى أن تواجه قوى البـــر والبحـــر فى آن واحد ـ اى أن تواجه اســـتراتيجية الكماشـــة . وبالفعـــل نجـــد أن الغـــرب الصليبى يحاول أن يحصر الشرق العربى بين شقى الرحى ، فحاول أن يتحـــالف مع المغـــول ليضـــم الاسلام العـــربى الأمغيبى بين حلف

(١) W. B. Fisher,

المسيحية الاوربية البحرية والوثنية المغولية البرية ، او ان يحصر السراسنة بين قراصنة البحر وقراصنة السهوب بلغة كارل هاوسهوفر (١) أو بين ذئاب البحر وذئاب البر بلغة ماكيندر (٢) !

ولعل وضعا فى تاريخ المنطقة العربية لا يمثل خطورة موقعها الاستراتيجى البينى كما تمثله هذه التجربة ، التى بدورها لا يمثل امكانيات المنطقة وقوتها الكامنة كما تمثلها هى . فقد اثبتت المنطقة قدرتها على مواجهة الخطرين معا وفى آن واحد . فبينما ظل الصراع الصليبى مستمرا ، تقدمت مصر المملوكية بقيادة قطز لتعطى المغول اول وآخر انكسار لهم فى عين جالوت التاريخية (١٢٦٠)

ولكن المطرقة المغولية عادت ثانية بعد قرن مع تيمورلنك ـ الذى اتخذ عاصمته فى سمرقند (٣) ليكتسح فارس والعراق ثم شمال سوريا حتى دمشق ولكنه عجز دون جنوبها امام المقاومة المصرية . وهنا نرى كيف أن اغلب غارات الاستبس تصل دائما الى العراق الذى يكاد يتاخم قلب الاستبس ، وقد تصل احيانا الى الشام ، ولكنها لا تصل اطلاقا او بالكاد الى مصر ـ ربما بحكم المسافة المتزايدة فان مصر بعكس العراق ابعد المشرق العربى عن الاستبس الاسيوى ، ولكن ايضا كرد فعل لقوة المقاومة

وهنا يتضح لنا دور العراق الجديد فى هذه المرحلة ، فقد تحول من « راس حربة » للعالم العربى الى « درع » له وقاعدة امامية ، ولذا تلقى اغلب الضربات التى جاءته

---

(١) رسل فايفيلد ، اتزل بيرسى · الجيوبولتيكا · مترجم · القاهرة ، ص ٤٥

(٢) On the Scope & Methods of Geography, Lond., 1951, p. 28.

(٣) W. Fitzgerald, The New Europe, Lond., 1946, p. 171.

من الشرق حتى تحطم للأسف ، ولكنه في هذا قد افتدى العالم العربى كله فكان هذا فضله الكبير جغرافيا وتاريخيا

ولقد اتجه تيمورلنك بعد ذلك الى الاناضول حيث كانت قوة الأتراك العثمانيين ، التى بدات كتابع فى خدمة السلجوقية ضد المغول ، قد اخذت تظهر وتنمو حتى انتزعت لنفسها من الخلافة دولة صغيرة فى شمال غرب الاناضول ، ولم يختتم القرن الرابع عشر حتى كانوا قد سيطروا على كل الاناضول بالاضافه الى رقعه كبيرة فى البلقان

وقد اصطدم تيمورلنك بالعثمانيين منتصرا فى معركة انقرة ١٤٠٢ ، ومع ذلك فقد اوقف هذا اللقاء المد المغولى الى الابد ولكنه لم يوقف التوسع العثمانى الذى قدر له ان يرث الدولة العربية الاسلامية وان يضيف اليها امبراطورية اوربية برمتها . وكانت العثمانية بذلك آخر ما ارسل الاستبس من غزوات واول ما نجح منها سياسيا فى تحقيق دولة دائمة مستقرة

كيف ، ولماذا ؟ هذا هو السؤال . فى الربع الأول من القرن الثالث عشر تجرثمت قوة الاتراك العثمانيين (١) فى شمال غرب الاناضول ، فاتجه توسعهم غربا — وليس شرقا كما قد نتصور — اتجه غربا فى البلقان دون ان يستولوا فى البداية على القسطنطينية . ولم ينتصف القرن حتى كانوا يملكون على وجه التقريب ما يسمى الآن « تركيا فى اوربا » . وكانت القوة الكبرى التى تقف فى وجههم هى دولة الصرب ، ولكنهم تغلبوا عليها واجتاحوا بلغاريا ثم الصرب مستفيدين فى ذلك من فتحة المارتيزا — الفاردار الحاسمة ، وواصلين بذلك الى الدانوب ، والقرن

(١) W. B. Fisher, pp. 138-142.

الرابع عشر لما يلفظ انفاسه بعد تماما . وبذلك صاروا سادة البلقان بلا منازع

ولكن هذا الخطر حرك الصليبية فى أوربا مرة ثانية ، فخرجت حملة صليبية من كل اجزاء غرب القارة ووسطها ، تراجعت امامها العسكرية العثمانية على الدانوب قليلا اول الامر ، حتى سحقتها فى النهاية ما بين اول القرن الخامس عشر ومنتصفه . واذ تم هذا الاقرار Pacification ، كان دور القسطنطينية ـ التى اصبحت من قبل اسفينا ضئيلا محاصرا فى وسط الكتلة العثمانية الضخمة ـ كان دورها قد ازف ، فسقطت سقطتها التاريخية الشهيرة فى ١٤٥٣ ، وبهذا ختم على مصير الامبراطورية الرومانية الشرقية (بيزنطة) الى الابد بعد أن ظلت تحتضر قرونا

وفى نهاية هذا القرن الخامس عشر كانت حدود الامبراطورية العثمانية فى اوروبا قد وصلت من كرواتيا الى الدون الاسفل . وفى خلال القرن السادس عشر سقطت المجر وظلت تحت العثمانية حتى نهاية القرن التالي ، واصبحت النمسا بذلك مهددة ، وتحولت فى الحقيقة الى دولة تخوم ـ كما أراد لها شارلمان حين انشاها لاول مرة فى وجه الآفار منذ اكثر من الف سنة ـ دولة حدية تفصل بين تركيا واوربا . وفى هذا المعنى قال مترنيخ قولته المشهورة : « عند فينا ، آسيا تبدأ » Am der Landstrasse beginnt Asia . وفى هذا الصدد ايضا لم يكن غريبا أن وقر فى ذهن اوربا ان الترك لا يغلبون ، تماما مثلما وقر فى ذهن آسيا من قبل عن التتار

ثمة الآن بضع حقائق هامة تبرز من استعراض هذا الزحف . فاولا يمتاز التوسع العثمانى بظاهرة القفز

الضفدعية Leap-Frogging ، بمعنى انه لم يكن متصلا بدا من نقطة ثم استمر فى اتجاه وخط متتابع بصرامة ، بل هو قد يترك منطقة فى طريقه ويتخطاها الى مابعدها ثم يعود الى تلك الأولى . فمثلا تفز الى البلقان ولم يكن قد سيطر على الأناضول جميعا ، بل لقد ظلت بها أجزاء وقطاعات لم يسيطر عليها الا بعد ان كان قد وصل الى الدانوب ! كذلك ظل يقيم فى البلقان بل يملكه قرنا كاملا وبعض قرن قبل ان يستولى على القسطنطينية !


شكل (٧) الامبراطورية العثمانية

ثانيا ، سيلاحظ ان العثمانية توسعت فى اوربا قبل ان تتوسع فى آسيا وافريقيا ، واسقطت الدولة البيزنطية قبل ان تسقط الدولة العربية الاسلامية . وقد أعطاها هذا قاعدة أرضية ضخمة لقوة سياسية ومادية وعسكرية كبرى قبل ان تبدأ الاتجاه جنوبا نحو الشرق الاوسط العربى . وهذا يفسر ، من جانب ، السرعة والبتر التي كسحت بهما العالم العربى . فهى لم تكن حينئذمجرد قوة رعاة وفرسان بدائية ولكن قوة دولة وحضارة بدرجة أو بأخرى

ثالثا ، سنرى ان هذه اول موجة استبسية تأتى من الطريق الجنوبى الهضبى وتصل الى أوربا . فبينما ولجت الموجات الاستبسية السابقة قلب أوربا مرارا وتكرارا عن طريق السهل الشمالى ، لم يستطع احد قبل الاتراك ان يطرق أبواب أوربا عن الطريق الجنوبى . ولعل هذا كان من حسن حظ الاتراك ، فقد ادخلهم الى اوربا من اضعف

ــ وان لم يكن من اوسع ــ ابوابها حيث كانت البلقان اشدها تأخرا واضعفها ناصرا واقربها الى حضارة الرعى والترحل حينذاك

بعد البلقان ، اتجهت العثمانية الى الشرق العربى وذلك ابتداء من العقد الثانى من القرن السادس عشر ، اى بعد نحو ثلاثة قرون من ظهورهم كقوة لاول مرة فى الاناضول . وقد اتجه الزحف الى مصر راسا عن طريق سوريا التى كانت تابعة لمصر المملوكية . وهذا الاتجاه المحدد يؤكد ما سبق إن أوضحته الصليبيات من أن مصر هى مفتاح المنطقة العربية ، لاسيما ان كل ثقل الدولة العربية الاسلامية كان قد انتقل كاملا ونهائيا الى مصر بعد تدمير العراق على يد المغول

ومن الناحية الآخرى فقد سارعت مصر لملاقاة الزحف العثمانى على ضلوع الاناضول نفسها ، كأنما كانوا يدركون منذ ذلك الوقت المبكر ان خط الدفاع الأول عن مصر لايقل عمقا عن تخوم الشام . ولكن تمزقت المقاومة المصرية فى مرج دابق حلب ، وتقهقرت الى خط دفاعها الثانى فى قلب مصر بعد سقوط الشام ، الا انها مرة ثانية وأخيرة انهارت فى ريدانية القاهرة ، وسقطت مصر فى ١٥١٧ . وكانت تلك أول مرة منذ الهكسوس والفرس تقع فيها مصر لقوة استبسية

وفى ذلك الوقت كانت الضغوط المسيحية من حربية وبحرية وقرصنة على المغرب قد اشتدت ووصلت الى النقطة الحرجة التى استدعت الاستغاثة بقوى الاسلام أنى وجدت ، ولما كانت تركيا هى كبراها الآن ، فقد تدخلت بحريا (عروج بربروس وأخوه خير الدين) لحماية المغرب الأوسط ، ولم تلبث أن احتلته فى ١٥٢٩ ، ثم اردفته

بتونس فى ١٥٣٤ ، الى ان توسعت مؤخرا فى طرابلس فى ١٥٦٥

وفى الشرق تأخر التوسع العثمانى فى العراق وذلك فى وجه المقاومة الفارسية ، ولكنه سقط فى النهاية فى ١٥٥٢ ولم تستطع تركيا ان تتوغل بعده شرقا لأن قوة فارس استطاعت ان تصمد لها ، بل وستصبح ندا عنيدا لها فى المستقبل طويلا . وظلت هناك منطقة متنازع عليها بينهما يتجاذبانها دون ان يتمكن احدهما من انتزاعهـا نهائيا ، فبقيت بعد ذلك حتى النهاية منطقة تخوم قلقة . تلك هى الرقعة الجبلية التى تشمل ارمينيا الشرقيـة والقوقاز وزاجروس (١)

ومرة اخرى تبرز من هذا العرض عدة ملامح واضحة . فأولا ، تتكرر ظاهرة القفـز الضفدعى التى سبقت فى البلقان . فبينما استولت تركيا على الشام ومصر ، ظل العراق فترة غير خاضع لها . كذلك سبق الاستيلاء على الجزائر الاستيلاء على تونس ، وهذا سبق الاستيلاء على طرابلس . بل يمكن ان نعتبر زحف العثمانية فى المغرب بمثابة تيار عكسى راجع ، وان هناك اكثر من نواة منفصلة متباعدة بدا منها الزحف فى العالم العربى . ولهـذا فان الفكرة الوهلية التى قد تتصور زحفا قوسيا متصلا من الاناضول حتى الجزائر لا مكان لها من الحقيقة

ثانيا ، سقط أغلب العالم العربى وورثت تركيـا معظم الدولة الاسلامية العربية فى نحو نصف قرن تقريبـا من القرن السادس عشر . وقد تأخر الاستيلاء على أجـزاء فى الجزيرة العربية وكذلك السودان الى مراحل تاليـة بعيدة . ولكن هناك جـزأين لم يخضعا مطلقـا للأتراك

---

(١) Fisher, p. 139.

لتطرفهما ، وهما المغرب الاقصى (مراكش) والجنوب العربى حتى عمان

ثالثا ، وقع العالم العربى فى يد الاتراك بسرعة.وسهولة نسبية لاسباب عدة . اولها ما استمدوه من قوة مادية وسياسية بعد ان ملكوا البلقان وموارده نحو قرنين . سبب ثان الضعف والتفكك والعجز التشديد الذى وصلت اليه الدول العربية فى تلك الفترة ، وهي التى ــ منذ قرنين فقط ــ صدت المد الصليبى والموجة المغولية معا . ولم يتكتل من العرب فى وجه الاتراك الا مصر وسوريا

رابعا ، لا مفر من ان نلاحظ التناقض الكامن ــ وان يكن مالوفا ــ فى تفوق قوة رعاة بلا حضارة عميقة مهما كان على منطقة حضارية زراعية راقية ذات أصول عريقة · واذا كان الاستعمار هو فى التحليل الاخير سيطرة حضارة راقية على حضارة متخلفة ، فان الاستعمار التركى للعالم العربى يبدو فى هذا المعنى استعمارا عكسيا أو مقلوبا كما قد نقول ، ولهذا سيأتى عقيما فى نتائجه وانجازاته · وفى هذا الصدد يشبه البعض الامبراطورية الاسلامية العربيــة بالامبراطورية الاغريقيــــة ، والامبراطورية العثمانيـــة بالرومانية : تلك خلقت تراثا وحضارة ، وهذه قامت على القوة العسكرية المحض

خامسا ، جاء الاتراك فى مسوح الدين الاسلامى وتحت قناعه ، وكان هذا فى عصر الدين لا القومية ، وفى وهج ذكريات الصليبيات ، مما سهل عليهم الفتح بلا ريب . بل لقد راينا ان الجــزائر هى التى استنجــدت بالأتراك واستدعتهم لحمايتها . ولكن هذا لا ينفى الحقيقة المقررة من أن الوجود التركى هنا يعد نوعا خاصا ــ ومحيرا ربما ــ من الاستعمار هو « الاستعمار الدينى » ، ولولا

القناع الديني لعد مماثلا للغزو المغولي الوثني الذي سبقه ولووجه على هذا الاساس بكل تاكيد (١)

وكل مظاهر الاستعمار الاستغلالي الابتزازي لا تنقص العثمانية : فقد كانت تركيا هي « المتروبول » وبقية الايالات والولايات مستعمرات تابعة تعتصر كل مواردها وخيراتها بلا مواربة لتحشد حشدا في المتروبول . بل لقد قيل ان الاتراك طبقوا في حكمهم السياسي طريقتهم الاستبسية في معاملة الحيوان ، فهم ما انتقلوا من رعي قطعان الحيوان الا الى رعي قطعان الانسان : كما يفصل الراعي بين أنواع القطعان ، فصل الأتراك بين الامم والاجناس المختلفة عملا بمبدا فرق تسد (نظام الملة) ؛ وكما يسوس الراعي قطيعه بالكلاب ، كانت الانكشارية كلاب صيد الدولة العثمانية ، وكما يحلب الراعي ماشيته كانت الامبراطورية بقرة كبرى عند الأتراك للحلب فقط (٢)

سادسا واخيرا ، ينبغي أن نسجل بعناية أن الدولة العربية انما انتهت على يد الغزو التركي وليس على يد الغزو الصليبي ، اى على يد قوة البر وليس على يد قوة البحر . واذا كانت المنطقة قد نجحت في صد القوتين معا من قبل فان سقوطها في النهاية على يد قوة البر أكبر دليل على أن هذه قوة لا يستهان بها ولها مقومات يجب أن يحسب لها حساب . واذا كان هذا تحصيل حاصل بالنسبة لتلك الفترة ، فهو أكثر منه نذير وانذار واضح للمستقبل بوجه خاص كما سنرى بعد حين

---

(١) جمال حمدان • الاستعمار والتحرير فى العالم العربى • القاهرة ١٩٦٤ ، ص ١٣ وما بعدها

(٢) Fisher, pp. 139-141.

تلك اذن قصة الموجة التركية وقيـــام الامبراطورية العثمانية بجناحيها الأوربى والعربى . فاذا نحن حاولنا ان ننظر اليها ككل ، فسنجد عدة حقائق بالغة الاهمية . فلعلها ـ أولا ـ غطت مســـاحه أكبر مما عرفت أى امبراطورية سابقة عليها باستثناء امبراطورية جنكيزخان القصيرة العمر . فقد امتدت فى أقصاها من مشـــارف سهوب الروسيا والدانوب الى سفانا السودان والنيل ، ومن القوقاز حتى أطلس . وفى تضاعيف ذلك سيطرت على البحر المتوسط وساحله ، هذا بالاضافة الى البحـــر الأحمر وبحر العرب ، وبالتالى أصبحت سيدة البرزخ (السويس) والمضيق (البسفور) . وبصورة عامة ، تغطى الامبراطورية رقعة واحـدة متصلة لا انقطاع فيها سوى المضيق

ثانيا ، الامبراطورية العثمانيه هى أول موجة خرجت من الاستبس ونجحت فى اقامة دولة مستقرة طويلة الأمد . فقد تحولت من رعاة رحل الى حضارة استقرار وتوطن وقطعت كل جـذورها بالاستبس ، واتخـذت لها وطنا وقاعدة ارضية ثابتة ولو بالتبنى (الأناضول) .. وهى كذلك اول موجة خرجت من الاستبس ونجحت فى اقامة دولة تجمع بين اجزاء من اوربا وآسيا وافريقيا معا . وقد سبقها من الاستبسيين من انشأ دولا فى اوربا او فى آسيا وحدها ، ولكن لم تمتد قط فى الاثنتين معا

وفضلا عن هذا فقد كانت اول اندفاعة من الاستبس تنساح فى افريقيا وتبتلع نطاقا كاملا منها . والواقع ان جزءا من السبب فى نجاح الاتراك فى الوصول غربا الى آفاق أبعد جدا مما عرفت موجات الاستبس السابقة سواء فى أوربا أو فى آسيا وافريقيا هو انها لم تبدأ تاريخها الفعال من قلب الاستبس مباشرة كقاعدة ، وانما بدأت من مركز

متطرف نحو الغرب كثيرا .وهو الأناضول مما أطال ومد نفسها في ذلك الاتجاه بسهولة نسبيا

ثالثا واخيرا ، بدا الاتراك قوة بر مطلقة من الفرسان ، خرجت من قلب الاستبس الاسيوى ، ولكنهم فى امبراطوريتهم المترامية الجديدة انتقلوا الى قطاع امفيبى تماما يجمع بين القاعدة الأرضية البرية والجبهة الساحلية البحرية ، اى اصبحت قوة برمائية فى المنطقة البينية النموذجية بين معقل القوى البرية شرقا والبحرية غربا ، سواء ذلك فى البلقان وشرق اوربا او فى المشرق العربى . وهذه حقيقة بالغة الخطورة والمغزى ، لا لأن الاتراك فقط اول من فعلها من بين الاستبسيين ، وانما ايضا لانها ستفسر اساسا مصير الامبراطورية واستراتيجيتها السياسية وأنواع الضغوط والصراعات التى ستتعرض لها . وهذا ما ينقلنا فى نفس الوقت الى تطور الاستعمار خارج هذه المنطقة ، والى مرحلة جديدة من تاريخ الاستراتيجية العالمية .

الفصل الثالث

عصر الكشوف الجغرافية

يمكن ان نقسم تاريخ الاستعمار فى العصور الحديثة الى موجتين اساسيتين ، اولاهما تغطى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، واتجهت أساسا وان لم يكن كلية الى العروض المعتدلة والبلاد الجديدة ، ولهذا اتسمت بالاستعمار السكنى الى حد بعيد ، أما الثانية فتحتل القرن التاسع عشر وتنصرف فى جوهرها الى العروض المدارية والبلاد القديمة ، ومن ثم سادها طابع الاستعمار الاستغلالى (١) . والمرحلة كلها ترتبط بعدة تطورات طفرية فى الفنون والحضارة البشرية كانت شرطا لازما لتحقيقها • تلك هى الثورات الكبرى الثلاث : الانقلاب التجارى ، والانقلاب الميكانيكى ، والانقلاب الصناعى • وكل منها يرتبط وثيقا بالآخر ارتباط السبب بالنتيجة ، ولهذا تتداعى منطقيا وتاريخيا

فالانقلاب الاول ـ التجارى ـ لا انفصال له عن الكشوف الجغرافية كسبب ولا عن الموجة الاولى للاستعمار فى القرنين السادس عشر والسابع عشر كنتيجة . هذا بينما يرتبط الانقلاب الأخير ـ الصناعى ـ مباشرة وحميما، بل دراميا ، بالموجة الثانية للاستعمار فى القرن التاسع

(١) R.J. Harrison Church, Modern Colonisation, Lond., 1951, pp. 18-22, 106.

عشر . أما الانقلاب الميكانيكي فانتقالي تمخض عن الانقلاب الأول ومهد للأخير . وسنبدأ هنا بالمرحلة الاولى مرحلة الكشوف الجغرافية واستعمار المعتدلات الجديدة

الكشوف الجغرافية والاستعمار

مع الكشوف الجغرافية نتعامل مع جذور ، أو على الاقل بذور الاستعمار المعاصر مباشرة . فقد ولد الاستعمار الحديث فى حجر الكشوف الجغرافية ولا نقول فى رحمها . ففى تلك الفترة خرجت أوربا تضرب فى المجهول ، فعادت تحمل الى العالم عالما جديدا بل عوالم جديدة . ومن الصعب علينا فى القرن العشرين أن نقدر حقا مدى ضخامة ووقع الهزة التى احدثها هذا الكشف فى وقت كانت رقعة المعمور المعروف محدودة ثابتة لا تكاد تتغير ، ثم فجأة وفى عالم متمدد باقصي سرعة نضاعف العالم عدة مرات . وربما لا يعدل تلك الطفرة فى عالم الانسان شيء من قبل الا كشف الزراعة ، ولا من بعد الا غزو الفضاء

بل وكما نشهد اليوم انقلابا فى الاستراتيجية العالمية مع عصر الفضاء ، قلبت الكشوف الجغرافية استراتيجية العالم القديم من صميمها . فأولا ، مع اتساع ابعاد العالم اتسعت أبعاد الصراع بين القوى وخرج الاستعمار لأول مرة عن دائرته التقليدية المغلقة حول حوض البحر المتوسط وتخومه وانتقل من عروضه المألوفة الي عروض مختلفة كل الاختلاف تحمل معها بيئات مغايرة جدا . ومن الناحية العملية قفز الاستعمار من عالم متناه الى عالم لامتناه ، وبعد أن كان محليا او اقليميا اساسا اصبح عالميا كوكبيا تماما

ثانيا ، بعد أن كانت السياسة والاستراتيجية تتحرك فى عالم مسطح افقى او « اقليدى » بكل معنى الكلمة ،

اصبحت تتفاعل فى وسط « ريمانى » Riemannian لا اقليدى ، وسط كروى مجسم . ولم يعد للمكان يمين وشمال فحسب ، بل وخلف وقدام ايضا . ولا شك أن أعظم حقيقة تمخضت عنها الكشوف هى وحدة المحيط . فقبلها كان العالم المعروف يتألف من يابس واحد ومحيطين اثنين ، اما بعدها فقد اصبح العالم يتألف من محيط واحد ويابس متعدد (١) . ولم يكن بد من أن يرج هذا كل قيم المواقع الجغرافية الاستاتيكية الموروثة حتى النخاع ، وأن يهز العلائق المكانية التقليدية والنسب الجيوماتيكية بين القارات والاقاليم والدول ، فما كان منها بالأمس بؤريا مركزيا قد صار اليوم هامشيا متطرفا ـ والعكس

ثالثا ، كان أخطر مظاهر هذا الانقلاب الجيوماتيكى بروز اهمية المحيط الى الصدارة ، فقد خرج العالم القديم الى المحيط واتسع نفس الحركة البشرية والملاحة وبدأت المرحلة المحيطية فى تاريخ البشرية بعد ان كانت محدودة بالمرحلة البحرية thalassic فضاعت اهمية البحار الداخلية المغلقة وبرزت أهمية البحار المحيطية epi-continental فاذا بالبحر المتوسط والبلطيق ، ولكن الأول خاصة ، يفقد كل منهما اهميته التاريخية ، ليصبح الاول زقاقا مغلقا والثانى بركة صيد آسنة herring pond ، بينما يتحول المحيط الأطلسى الى « البحر المتوسط » الجديد . ومع هذا الانقلاب انقلب التوجيه الجغرافى للقارات والأقاليم ، فقلبت القارات بطنا لظهر تطلعا الى المحيط ، وانحدرت قيمة دول وموانى البحر المتوسط لتنتقل الزعامة الى دول وموانى غرب اوربا (٢)

---

(١) Fairgrieve, pp. 129-132.

(٢) Derwent Whittlesey, Earth & State, Wash., 1944, pp. 56-59.

رابعا ، ومن الناحية السياسية ، اصبح الوقوع على البحار ــ البحر المحيط ــ ميزة كبرى تتمتع بها الدول الساحلية وتجنى حصادها الثرى الفياض فبدأ عصر الامبراطوريات البحرية العظمى ، بينما أخذت الدول الداخلية القارية تتجاذب الى مغناطيسية البحر كما لو بقدرية ميكانيكية قاهرة • وبمعنى آخر اشتد مغزى الصراع بين قوى البر والبحر كما وكيفا ، ابعادا واعماقا . ولهذا فمن الآن فصاعدا والى ابعد حد ، ستزيغ معادلة الصراع بين البر والبحر كل معادلات الصراع الأخرى كالاستبس والغابة ، والسهل والجبل ، والرمل والطين ، التى كانت تشاركها تفسير التاريخ البشرى ، لتصبح هى وحدها قطب الرحى فى الاستراتيجية العالمية . بل سنجد الصراع بين الاستبس والغابة بالذات يتحول نهائيا ليأخذ شكل الصراع بين البر والبحر

ذلك جميعا هو مغزى الكشوف الجغرافية ، ولكن السؤال المنطقى قبل أن نتتبع خطى الكشوف هو : لماذا خرجت أوربا ــ واوربا الغربية ــ بالذات فى ذلك التاريخ بعينه ؟ لقد تحرك قطب الحضارة البشرية ومركز الثقل فى القوة السياسية العالمية حركة تاريخية محددة ، وئيدة ولكنها اكيدة ، عبر العصور القديمة والوسطى ، حتى اتضحت بجلاء على أبواب عصر الكشوف الى أن تبلورت تماما مع الانقلاب الصناعى • فالحضارة نشأت فى دائرة الشرق الاوسط القديم ، . مصر والعراق وفينيقيا ، ثم انتقلت الى كريت فاليونان فروما ، وعشية الكشوف جاء دور غرب اوربا ، جنوبه اولا ثم شماله

هناك اذن سهم حركى واضح يبدأ من الجنوب الشرقى الى الشمال الغربى ، ومن عروض دون مدارية الى عروض معتدلة ثم معتدلة باردة • هذا

ما يعرف فى مجموعه بنظرية هجرة الحضارة نحو الشمال ، بعيدا عن خط الاستواء ، وتجاه القطب (١) ومن المسلم به علميا وتاريخيا ان هذه الحركة ارتبطت تماما بالاحتكاك والاقتباس الحضارى ، بمعنى ان كل مركز لاحق استمد حضارته اصلا من مركز سابق ثم نماها الى مستويات اعلى ربما.. والكشوف الجغرافية فى الحقيقة لا تخرج كثيرا عن هذه القاعدة

غير ان كثيرا من الكتاب الغربيين يحلو لهم ان يردوها الى حيوية وتطلع غير عادى فى شعوب غرب اوربا ، والى حب استطلاع ومغامرة وتفوق طبيعى فى الجنس . هم بمعنى آخر يثيرون تفسيرا عنصريا . الا ان الحقيقة ان اوربا الغربية خرجت الى الكشوف بسبب عدة ضوابط وضواغط اهمها ما جاء من الخارج واقلها ما صدر عن الداخل . وبتحليل هذه العوامل لن نعدم ان نرى اثر مراكز الحضارة والقوة الاسبق من عرب واستبس وغيره ، ويمكن ان نحدد تلك العوامل فى ثلاثة : حضارى ، وسياسى ، وجغرافى

فحضاريا لا جدال فى ان الكشوف نتيجة من نتائج النهضة الاوربية ، وهذه بدورها وبالقطع نتيجة من نتائج الاحتكاك الحضارى بالعرب . فمن مركز الحضارة العالمية فى العصر الوسيط ـ العالم العربى ـ تسربت عناصر الحضارة المادية وغير المادية الى اوربا عبر البحر الابيض المتوسط مع

---

(١) E. Huntington, Civilisation & Climae, 1924, pp. 396-7; Mainsprings of Civilisation, N.Y., 1945.

التجارة والانتقالات ، ولكن بصورة درامية حاسمة فى الحروب الصليبية التى ايقظت اوربا من سباتها وتخلفها . ويكفى كمجرد مثال ان نذكر ان اسبانيا ما عرفت البارود والاسلحة النارية التى ستبنى بها امبراطوريتها الا نقلا عن العرب اثناء صراعها معهم . وقد انعطفت اوربا بعد ذلك على ذلك الدرس الحضارى وتمثلته ثم طورته ما شاء لها التطوير . وبفضل ذلك التراث ــ وبما فيه من فنون البحر بالذات ــ استطاعت ان تخرج الى المحيط

اما سياسيا فقد كانت اوربا الوسيطة تعيش فى عالم اقطاعى ممزق ، عالم الفرسان والاقنان ، والامراء وعبيد الارض . وبذلك كانت تتألف سياسيا من موزايكو لا نهاية له من الوحدات المحلية والاقليمية الضيقة سواء من دوقيات وبارونيات الاقطاع او دول المدن ونقابات الاوليجاركية guilds ، الكل قد مزقته الحروب والصراعات الصغيرة . ولم يكن من الممكن لمثلها ان تخرج الى استعمار الكشوف بهذا الهيكل السياسى البدائى القزمى . بل هى لم تخرج الا بعد ان بدات فيها جراثيم القومية الاولى والشعور والوعى بالذات الوطنية واتجهت نحو لم جزئياتها السياسية فى وحدات وطنية إكبر فى طريقها الى الدولة الوطنية الحديثة nation state

وهنا نقرر مباشرة ان الذى دفعها الى هذه الطريق انما هى ضغوط القوى الخارجية المعادية . فكما يعترف ماكيندر ، ان الذى خلق الشعور القومى مبكرا فى اوربا هى الضغوط الثلاثة التى احدقت بها من جهاتها الثلاث : خطر الفيكنج من الشمال ،

والاستبس من الشرق ، والسراسنة (العرب) من الجنوب . وقد رأيناه من قبل يعترف بان الاسيويين فى موقعة شالون كانوا يصنعون فرنسا الحديثة دون وعى ، كما رأينا ان الصليبيات كانت أول حركة وحدت أوربا وهى وان تكن اطارا دينيا فانها تدريجا نمت الى منتهاها الطبيعي وهو الاطار القومى . ويكفى ان الوحدة السياسية ثم الكشوف الجغرافية بدات مباشرة فى اسبانيا والبرتغال بعد طرد المور والعرب وكرد فعل للصراع معهم . ان القومية المبكرة والوحدة الوطنية الباكرة التى عرفتها اوربا ، ومكنت لها من الخروج الى الكشوف والاستعمار ، هى فى التحليل الاخير هدية غير مقصودة من العرب والشرق

اكثر من هذا ، ان الضغوط الشرقية والاسيوية هى — جزئيا على الاقل — التى قذفت باوربا الغربية الى ما عبر المحيط ! لقد سبق ان راينا ان غزوات الاستبس وموجاته هى التى دفعت القبائل المتبربرة غربا حتى قفزت من القارة الى جزيرة بريطانيا هنا والى جزيرة البندقية هناك . وبالمثل ، ولكن فى اطار مختلف ، قد يمكن أن نقول ان مما دفع باوربا الغربية لتقفز قفزة اوسع عبر المحيط الى العالم الجديد ضغط العالم العثمانى من الشرق حين اغلق طرق التجارة البرية مع الشرق الاقصى حتى اضطرت اوربا قسرا الى البحث عن الطريق الدائرى البديل . وفى الساعة موحية وثاقبة ، يؤكد فيرحريف هذا الراى حيث يقول : « ... ليس من المستكثر ان نقول ان القبائل الغازية (الاسيوية) ، بتوسيعها لافق النظرة ، كان لها تأثير واضح جدا فى احداث

سلسلة الظروف التى ادت الى كشوف كولمبس ومن تلاه » (١)

يبقى اخيرا من العوامل التى اهلت اوربا الغربية للكشوف ، العامل الجغرافى موضعا وموقعا . فمن الواضح ان البيئة الطبيعية هنا بيئة بحرية مثالية . القارة كلها ليست الا « شبه جزيرة من أشباه الجزر » (٢) ، سواحل مترامية متعرجة « مسننة » بالخلجان والفيوردات والريا rias ، ومحمية بالجزر والارخبيلات ، خلفها انهار واحواض انهار غنية ، تدعمها غابات اخشاب جيدة وآجام القنب والكتان ، ونلانتها خامة بناء السفن ، هذا ان لم تقع وراء تلك السواحل او الانهار تربات جرداء واقاليم برمتها « متجلدة » glaciated تطرد السكان طردا الى البحر ، والبحر بدوره غنى بثروته السمكية الكثيفة

واذن فكل عوامل الجذب فى البحر مكفولة ، وعلى اليابس اما عوامل طرد واما قواعد ارضية مواتية لغزو البحر . كذلك لن ننسى ان هذه البيئة البحرية الفريدة كانت من عوامل سرعة تبلور القومية فى غرب اوربا . فبفضل تداخل المحيط فى اليابس وتقطيعه له بالبحار الداخلية والخلجان الكبيرة ، انقسم اليابس الى وحدات جغرافية طبيعية معقولة الاحجام ، متميزة الحدود ، واضحة الشخصيات ، مما سهل تبلورها القومى ونشأة الدولة الوطنية الحديثة فى كل منها

---

(١) ص ١١٢

(٢) A.E. Moodie, Geog. Behind Politics, Lond., 1947, p. 86.
Whittlesey, p. 87;

ثم هنـــاك اخـــيرا الموقع المواجـــه للعالم الجديد المجهول . ولعـل مما ينبغى ان نلاحظـه هنــا ان ما خرج الى الـكشوف والاســتعمار البحرى بعـد ذلك من اوربا انما هو غربها الســـاحلى البحرى فقط ، ابتداء من النرويج والدانمرك حتى اسبانيا والبرتغال ، بينما ان الدول الابعـد عن نفوذ وعالم المحيط كالســويد والمــانيــا ثم ما شرقهـا لم تدخـل فى مرحـلة ما حلبة الاســتعمار البحرى ، ولا يســتثنى منهــا الا بعض مقــاطعــاتها الســاحليــة كبراندنبـرج فى المــانيــا ، وعلى مقياس متواضع عند ذلك

الاستعمار البرتغالى

بدات الـكشـــوف فى نهــاية القرن الخامس عشر واوائل القرن الســـادس عشر من البرتغـــال وبها . وكان هـــذا امرا طبيعيــا الى حد بعيـد ، وامتـــدادا للحروب الصليبيـــة الى حد ما . فبعــد ــ بل حتى قبــل ــ طرد المور من ايبــريا اســتأنف البرتغـــال والاسبان صراعهم الصليبى بمده ونقله الى المغــــــرب العربى نفســـه ، فمنــذ غارات القرصنـــة الاســبانية على المغرب وقبـــل الاســترداد النهــائى انتزع الاسبان سبتة ومليلة على الساحل المقابل (١) ، بينما بعــــده بقليــل بدا البرتغــال فى اقامة مســتعمرة على الســاحل الافريقى للمغرب هى « الغرب عبر البحر » ، مقــابلة لمقـــاطعتهم هم المعروفـــة الغـــرب Algarve (٢) . وهكذا كانت البرتغـــال بموقعها من افريقيا وفى افريقيا

(١) Nevill Barbour, loc. cit.
(٢) Fairgrieve, p. 137.

فى موضع يسمح لها بالمخاطرة جنوبا فى « بحر الظلمات »

ثم كانت هناك الرغبة العارمة فى انتزاع تجارة الشرق الثمينة من العرب والوصول الي جزر التوابل بالدوران حول اليابس الافريقي اى بطريق بحرى بديل . وثمة فوق هذا الرغبة الصليبية الكامنة فى الانتقام من الاسلام بتطويقه والالتفاف حوله ، وهى الرغبة التى اعطت الاستعمار البرتغالى من بدايته نزعة كثلكية ومسحة صليبية لا شك فيها . فالاستعمار البرتغالى ـ والاسبانى من بعده ـ خرج اولا « كاستعمار كاثوليكى » وظل كذلك طويلا فيما بعد . يؤكد هذا ان البابوية باركت اكثر من مرة امتلاك الاسبان والبرتغال لكل ما قد يكتشفونه « خارج العالم المسيحى » ، كما انها هى التى قسمت العالم بعد قليل ما بين القوتين الجديدتين

هكذا فى مدى عقد واحد من الاسترداد (١٤٩٧ ـ ١٤٩٩) كان البرتغال قد داروا حول الكيب (دياز) ووصلوا الى الهند (داجاما) . وهم اذا كانوا قد افادوا من التجاريات الشمالية الشرقية فى بداية الرحلة ، فقد افادوا فى نهايتها من الموسميات الجنوبية الغربية التى اعطاها العرب (احمد بن ماجد) سرها ليكونوا لهم عدوا وحزنا .. فقد كانت النتيجة المباشرة لهذا الكشف عملية « أسر » كامل للعرب : فالطريق البحرى الجديد كان « أسرا نقليا » للطريق البرى التقليدى بحيث « سرقوا » الموقع الجغرافى البؤرى للعرب ، ومعه سرقوا تجارة الشرق ، ومع هذا وذاك سرقوا قوتهم السياسية بالكامل

وينبغى ان نضغط جيدا على حقيقة هامة وهى ان توسع البرتغال انما قام على حساب العرب اساسا سواء تجاريا او استراتيجيا ، وهم فى الواقع الذين ورثوا دورها السلمى وبدأوا انهيارها العسكرى . واذا كانت المدن الايطالية قد شاركت العرب فى هذا المصير فهذا باعتبارها المكمل الاوربى الثانوى فى سلسلة تجارة الشرق القديمة . ففى خلال العقد الاول من عودة داجاما من الهند كانت سفن العرب من الاسكندرية وبيروت تدخل البندقية فارغة لاول مرة . لقد غاض الدم وجف من الشريان والوريد معا ، فتوقف قلب الاقتصاد العربى الاسلامى

وفى خلال العقد نفسه كان غزو البرتغال لجزر الهند (الشرقية) قد اكتمل ، وهزم العرب فى بحر العرب وفى ملقا واستقرت قوة البرتغال على كل سواحل الهند والمحيط الهندى (١) . فبدأوا بمطاردة دول المدن العربية على طول ساحل شرق افريقيا ، وفى العقد الاول من القرن السادس عشر استولوا على جزر البحرين واقاموا فيها الحصون والمواقع factories ، وظلوا بها نحو قرن كامل حتى تمكن العرب من طردهم . وفى العقد الثانى من نفس القرن هاجموا عدن مرتين ولكن بدون جدوى ، وكذلك فعلوا بمسقط حيث نجحوا فى البقاء نحو نصف قرن (٢)

(١) Fairgrieve, p. 140.

(٢) Royal Institute of International Affairs, The Middle East, Lond., 1958, pp. 103, 132, 143.

وفى هـذا الصراع العربى ـ البرتغالى فى الهند تحالف البرتغال مع الحبشة المسيحية التى قدمت لهم مساعدات كثيرة ضد مصر خاصة . وكان التعاون بينهما قد بدأ فى الواقع قبل الكشف بقرن كامل ابان الصليبيات ، وكان بينهما مشروع خيالى لتحويل مجرى النيل الازرق فى الحبشة الى البحر الاحمر لتجف مصر وتنقرض جوعا ! .. وقد حاول البوكيرك بعد الكشف تنفيذ هذا الحلم « الفاوستى » المريد ، ولكن الجغرافيا سخرت منه وبددته تبديدا ، وعموما فقد كانت استراتيجية البرتغال ان تكتسح العرب من الباب الخلفى بعد اذ عجزت من الباب الامامى ، وحاولت ان تطوقهم بكماشة فكاها فى المغرب وبحر العرب

ولقد كان هذا جميعا ايذانا بنهاية الدولة العربية ، فبدأت الانحدار الرهيب الذى سيجعلها بعد قليل فريسة سهلة للعثمانية ، وهذه بدورها ستأتى لتخنق ـ بسياستها الجمركية الابتزازية الغبية ـ البقية الباقية من تجارة المرور وتضاعف من الانهيار المخيف . وقد حاول الاتراك فيما بعد ملاقاة البرتغال فى المحيط الهندى وبحر العرب والبحر الاحمر ، ولكنهم هزموا فى النهاية فى موقعة ديو البحرية

على ان الامبراطورية البرتغالية فى الشرق لم تزد فى الحقيقة على نقط ومواقع عسكرية منتشرة على السواحل ، ولم تمتد أبدا على مساحات واسعة من اليابس ، وكانت فى نمطها اقرب ما تكون الى نوع الاستعمار الاغريقى مع هذا الفارق انه لم يعرف استعمار السكنى والتوطن . فمن ناحية ظلت افريقيا

بالنسبة للبرتغال مجرد عقبة لا عتبة الى الهند ، وكل قيمتها لها انها موطىء قدم ونقط مراحل على الطريق ، ولهذا لم يزد استعمارها فيها عن نقط واشرطة ساحلية ومواقع حربية اهمها فى ساحل غرب افريقيا (ساحل الذهب) وشرق افريقيا . وفى المراحل التالية اصبحت المواقع البرتغالية على ساحل غرب افريقيا محطات لحشد وتصدير الرقيق . وفى الهند لم يتعد البرتغال نقطة قاليقوط على جنوب الساحل الغربى فى البداية ، ولا رقعة جوا على شماله فى النهاية ، ولعل مما ساعد على حصرهم على الشقة الساحلية حائط جبال الغات المنيع (١)

ومن ناحية اخرى لم يكن لدى البرتغال ، بعددهم المحدود ، القوة البشرية الكافية للاستعمار السكنى حتى لو ارادت . بل ان امر هذه القوة البشرية ليثير الدهشة حقا ، ففى عصرها البطولى هذا لم تكن البرتغال تزيد على المليون نسمة سكانا ! (٢) فالغرابة اذن ليست فى سقوط الاستعمار البرتغالى فى النهاية وانما هى فى الدرجة الاولى فى قيامه اصلا . ولهذا وبالاحرى كان الاستعمار السكنى سؤالا غير وارد على الاطلاق ، وظل الاستعمار البرتغالى فى جزر الهند الشرقية « استعمار البهار » اساسا وبامتياز . ومن ثم يمكن ان نلخص محاور الاستعمار البرتغالى فى ثلاثية : الكثلكة : التجارة : الغزو

وسيلاحظ ان البرتغال — التى هى اول بناة

(١) Mackinder, Scope & Methods etc., p. 28.
(٢) Whittlesey, p. 403.

الامبراطوريات ـ قد حققت استعمارها فى عقود قليلة بسرعة غير عادية ، وملكت مناطق اضعاف اضعاف مساحتها هى وتترامى فى اطار جغرافى لا يقل عن نصف محيط الارض ! .. ومع ذلك ، ورغم ان القرن السادس عشر كان بلا نزاع قرن سيطرة وتسيد البرتغال واسبانيا ، فان الامبراطورية البرتغالية لم تعمر فى الواقع اكثر من جيل بالكاد . ولم تلبث بعد ذلك ان اخذت فى التقلص والانكماش . فبمجرد ان ظهرت قوى بحرية جديدة انهارت البرتغال بلا مقاومة تقريبا (١) . ففى الوطن ضمت اسبانيا اليها البرتغال بمستعمراتها فى نهاية القرن السادس عشر ، ورغم ان البرتغال استعادت كيانها بعد ذلك فقد كانت تلك هى الضربة القاضية . واذا كان لها مغزى فهو ان موقع البرتغال الممتاز وتجارتها القائدة لم تجد شيئا امام ضخامة اسبانيا : لقد كان لا بد للموضع الضخم أن يتغلب على الموقع مهما كان ممتازا

ومن ناحية اخرى اهتبلت هولندة كقوة بحرية صاعدة فرصة تحطيم البرتغال على يد اسبانيا لترث دورها وتجارتها بل ومستعمراتها ، وكانت تلك بداية دخولها دائرة الامبراطورية ، فلم تزل « تختطف » من البرتغال مواقعها ومستعمراتها فى الهند ، والهند الشرقية واحدا بعد الآخر حتى تقلصت الاخيرة الى جيوب قزمية متخلفة ـ دامان وجوا فى الهند وتيمور فى الهند الشرقية ـ وحتى ليمكن القول انها فقدت امبراطوريتها فى العالم القديم . وهنا لم يتبق لها الا مستعمرتها القارية الضخمة البرازيل فى العالم الجديد

---

(١) Fawcett, p. 422.

واذا كان الغزو البرتغالى فى العالم الجديد قد جاء سريعا ، فقد جاء الاستقرار بطيئا . فقد ظلت البرازيل فى البدء مجرد نقطة تموين فى الطريق الى الهند لا اكثر ، وكان اغلب المهاجرين الاوائل اليها من المجرمين والمطرودين . لكن ضياع الامبراطورية فى الشرق نقل اهتمام البرتغال الى البرازيل فى اواخر القرن السادس عشر بعد ذلك الاهمال الطويل . فبدأ الاستثمار الزراعى المدارى بالابعاديات والعمل الوطنى والسخرة . غير انه لما لم يصلح الهنود لذلك بدأ جلب الرقيق الافريقى باعداد ضخمة منذ ذلك الوقت حتى تضاءل بجانبهم عدد البرتغاليين كثيرا ، وكان البرتغال بذلك مؤسسي مدرسة الرق فى العصر الحديث . وفى وقت ما من القرن السابع عشر كانت نسبة الزنوج الى البيض فى باهيا ـ على سبيل المثال ـ نحو ٢٠ ـ ١ ! (١) ورغم ان القرن الثامن عشر شهد بعض موجات للذهب والماس في البرازيل ، فقد ظلت الزراعة المدارية هى أساس الاستعمار البرتغالى هناك

الاستعمار الاسباني (٢)

كان لنجاح البرتغال فى الوصول الى الهند شرقا نتيجتان مباشرتان ، اولا : انه ما دامت كروية الارض حقيقة فمن الممكن الوصول الى الهند غربا ، وثانيا : ان عدوى الكشف انتقلت بالمنافسة الى الجارة المباشرة اسبانيا . ولكن اسبانيا وان تكن بسواحلها وموقعها

(١) Kimble, pp. pp. 21-22.

(٢) فى هذا الموضوع راجع :
Whittlesey, pp. 403-470; Fairgrieve, pp. 128-145; East, pp. 350; 354; Fawcett, pp. 422-5.

دولة بحرية فهى لم تكن امة بحرية بقدر ما كانت امة رعاة وفرسان المزيتا . ولعل مما له مغزاه أن كشوف اسبانيا قام بها لها اثنان من غير الاسبان ، كولمبس الجنوى ، وماجلان البرتغالى . والحقيقة إن وضع اسبانيا سواء فى الوطن او فى الاستعمار عبر البحار يشبه بالنسبة للبرتغال وضع الرومان بالنسبة لليونان : حجما وقوة ، توجيها بحريا ، ترتيبا زمنيا ، نوع استعمار ، ثم علاقة مصير

وقد خرجت اسبانيا الى الكشف بعد التوحيد مباشرة مغربة فى الاطلسى . ومن الطريف ان نلاحظ ان هذا عكس اتجاه البرتغال فى الكشوف ، وكلا عكس مواقعهما النسبية فى الوطن . وليس من المؤكد ان اسبانيا اول من غامر فى الاطلسى ، فهناك ادلة على محاولات اسبق . فالنورس Norse وصلوا من اسكندناوة الى جرينلند واقصى اصقاع امريكا الشمالية فى العصور المظلمة ، كما ان هناك رواية « الفتية المغرورين » من عرب الاندلس الذين يقال انهم خرجوا من البرتغال الى شمال امريكا الجنوبية ، هذا عدا النظرية الصينية الحديثة التى تجادل بان الصينيين سبقوا كولمبس الى العالم الجديد عن طريق الهادى .

الا ان كشف النورس جاء موءودا من البداية لانه انتهى الى نهاية اللامعمور ، اما الفتية فلم يعودوا ، والكشف الصينى ان صح لا إثر تاريخى له . وهكذا قدر لاسبانيا ان تكشف امريكا ، وقدر للاطلسى ان يخترق لا من حيث يضيق الى ادناه فى الشمال ولكن من حيث يتسع الى اقصاه فى الوسط . وقد لعبت الرياح دورا هاما فى توجيه وتوقيع الكشوف الاسبانية والاستعمار الاسبانى بعدها . فقد اتخذت رحلة الذهاب

مسارا متعمقا نحو الجنوب حتى تحملها الرياح التجارية الشمالية الشرقيـــة الدائمة ، مما انتهى بكولمبس الى جزر الهند « الغربية » وامريكا الوسطى . هــذا بينما كانت رحلة العودة تأخذ مسارا اكثر شمالية بكثير لتفيد من الرياح العكسية الغربية

ورغم ان كولمبس لم يعـــرف قط أن هناك « امريكا شمالية » فالمهم أن جزر الهند الغربية كانت اول ما وطىء الاســـبان ، فكانت لصغرها وتفتتها فريسة ســـهلة لهم ومن ثم ، شأن كل الجـــزر الساحلية المماثلة ، خشبة قفـز مثالية على القارة ـ وستكون بالمثل آخر ما يغادرون من العالم الجديد ٠ ومن أمريكا الوسطى توســـع الاسبان بعد ذلك شمالا عبر هضبة المكسيك وفيما بعد وصـــلوا الى فلوريدا وكاليفورنيا ٠ ومن أمريكا الوسطى أيضا عبروا برزخ بنما الى الهـادى وتمددوا على طول ساحل أمريكا الجنوبية الغربى ومنه دلفوا الى نطاق مرتفعاتها الغربية ، الا انهم اهملوا شرق امريكا الجنـــوبية المنخفض كما لم يهتموا الا متأخـــرا بالارجنتين ٠ وبهذا يرسم تقدمهم فى أمريكا الجنوبيـــة قوسا هلاليا عكس عقارب الساعة ، يبدأ من جزر الهند ثم يتبع المرتفعات الغربية الى ان ينتهى فى ســـــهول الارجنتين



شكل (٨) الاستعمار فى العالم الجديد ١٧٦٣

وقد تم ذلك جميعا او تقريبا قبل ان ينتصف القرن السادس عشر ، بل الواقع أن الهيكل الاساسى لـكل الامبراطورية الاسبانية فى أمريكا اللاتينية تم وضعه فى

ربع قرن فقط . وهو معدل مذهل ، لا سيما اذا عرفنا ان اسبانيا حينئذ لم تكن تتعدى ٦ ملايين نسمة مقابل ١٢ مليونا من الهنـود الحمر . وفي أوج الاستعمار الاسباني لم تقل المساحة التي خضعت له عن نصف العالم الجديد برمته ان لم تزحف نحو الثلثين ، وذاك يعادل مساحة الوطن عشرات المرات !

كيف نفسر هذا ؟ .. بالفارق الحضارى والحربى بين الغزاة والوطنيين أولا ، اى بين البارود والمدفعية والفروسية وبين اسلحة المشاة البدائية . ولكن هناك أيضا العامل الجغرافى ، فان هناك تشابها طبيعيا ومناخيا كبيرا بين هضاب امريكا وهضبة المزيتا فى الوطن ، وكان هذا مما سهل عملية الانتشار وسرعة التمدد .

ونفس هذا العامل الطبيعى هو الذى يفسر لماذا لم يتوغل الاسبان كثيرا فى امريكا الشمالية ، فهناك يبدأ وسط بيئى ومناخى مختلف كثيرا عما الف الغزاة المتوسطيون ، وهناك بالتالى وضعت الطبيعة الحد السياسى للاستعمار الاسبانى . واذا كان هذا قد وصل الى اعماق مذكورة فى امريكا الشمالية ، فقد جاء ذلك متاخرا وانحسر مبكرا

ومع كشف العالم الجديد كان لا بد من تنسيق السيادة بين اسبانيا والبرتغال . فنالت اسبانيا ــ فى تحكيم البابوية فى معاهدة torديسيلاس ــ كل ما يكشف فى نصف الكرة الغربى ، والبرتغال كل ما يكشف فى نصفها الشرقى ! .. وقد جعل خط هذه المعاهدة شرق امريكا الجنوبية (البرازيل) من نصيب البرتغال ، بينما اصبح بقية جسم امريكا الجنوبية والوسطى امبراطورية قارية اسبانية ضخمة ، ولو ان البرتغال تخطت الخط كثيرا نحو الغرب بعد ذلك

وفى نفس الوقت كان ماجلان يتجه الى مضيق ماجلان ليعبر الهادى ويكتشف الفلبين (التى اعطيت اسم الملك الاسبانى) ويصل الى جزر الهند الشرقية . وبهذا دار حول الكرة دورة كاملة ، وكانت رحلته تعادل رحلتى دياز وكولمبس معا ، وعلى نطاق اضخم بكثير ايضا . ومع ذلك فسيأتى هذا الطريق فاشلا تجاريا لأنه اطول جدا من طريق البرتغال ، على انه منذ ذلك الحين دخلت الفلبين فلك الامبراطورية الاسبانية

وهكذا خرجت اسبانيا والبرتغال من الوطن وقد اعطى كل منهما ظهره للآخر ليجدا نفسيهما فى النهاية يلتقيان وجها لوجه فى الشرق الاقصى : اسبانيا فى الفلبين شرقا ازاء البرتغال فى جزر الهند الشرقية غربا : اى على غرار مواقعهما فى ايبريا وعلى عكس ترتيب المواجهة بينهما فى امريكا الجنوبية . وبهذا اغلقت الدائرة الاستعمارية حول محيط الكرة الارضية ، واصبحت امبراطورية البرتغال تمتد من الانديز فى الغرب الى جزر الهند الشرقية فى الشرق ، وامبراطورية اسبانية تمتد من الانديز وجزر الهند الغربية فى الشرق الى الفلبين فى الغرب !

ولئن كان الاستعمار الاسبانى يشترك مع البرتغالى فى المثل التبشيرية ، فانه يختلف عنه فى انه لم يستهدف التجارة اصلا ، وعلى كل حال فان المناطق التى دخلها لم يكن بها بهار أو تجارة لتستغل . اما « بهار » الاسبان فكان المعادن النفيسة ، الذهب والفضة . ولهذا اندفعوا فى امريكا الجنوبية مباشرة الى المرتفعات الغربية الغنية جيولوجيا بهذه الثروات فى المكسيك وبيرو ، فى حين أن جزر الهند الغربية وشرق القارة لم تكن بها ثروة الا الزراعة المدارية التى تحتاج الى أيد

عاملة كثيرة وابعاديات واسعة ولهذا تاخر استثمارها فترة ما • وفى المرتفعات وجد الاسبان مجالا لهـــدف اساسى من اهدافهم وهو الفزو ، فحطموا ممالك الازتك والانكا وغيرها من الدول الهندية ، وفى هــذا برز دور الفزاة الفاتحين conquistadores كورتيز وبيزارو

واخيرا فان الاستعمار الاسبانى يختلف عن البرتغالى فى ان الاخير دخل مناطق ماهولة بالسكان كثيفة ومدارية ، فلم يكن ثمة مجال لاستعمار سكنى ،ولم يكن للبرتغال على اية حال القوة البشرية لمثله . اما الاستعمار الاسبانى فقد حدث فى منـاطق مخلخلة قليـلة السكان يصلح كثير منها بحكم ارتفـاعه لتوطن البيض . ولهذا ، ولوفرة القوة البشرية فى اســبانيا نسبيا ، اتخذ نمطا سكنيا سيشتد فيما بعد ويتحول الى خلط جنسى لا مثيل له فى اى قارة اخرى . والحقيقة ان الهجرة الاسبانية ظلت ذكرية اساسا لفترة طويلة – دليل آخر على طابعهـا العسكرى – مما فتح الباب أمام التزاوج من الوطنيين ، ثم فيما بعد مع الزنوج المجلوبين .

ويمكننا ان نلخص الموقف كله فى انه اذا كانت اركان الاستعمار البرتغالى هى التبشير والتجارة والاستعمار الاستراتيجى الساحلى ، فان اركان الاستعمار الاسبانى هى التبشير والمعادن النفيســة والفزو والاســتعمار السكنى ، وبهذا يبدو الاستعمار البرتغالى ، كما المحنا عابرين من قبل ، أقرب فى طبيعته ومجاله الى الاستعمار الاغريقي القديم بمركبه التجارى – البحرى – النقطى ، بينما يقترب الاسبانى كثيرا من الاســتعمار الرومانى القديم العسكرى – الارضى – القارى

واذا كانت اسبانيا والبرتفال قد تقاسمتا السيـادة

والقوة العالمية فى القرن السادس عشر ، فقد كانت اليد العليا لاسبانيا بكل تأكيد بحكم جرمها وضخامتها ، بل لقد رأينا كيف ضمت البرتغال فى نهاية القرن وحطمت قوتها . وقد احتكرت اسبانيا التجارة طويلا وحرمت القوي الاخرى من التجارة فى امبراطوريتها Spanish Main كذلك . الا ان اسبانيا لم تكن تملك شيئا فى العالم القديم سوى الفلبين

ولكن اذا لم يكن لاسبانيا امبراطورية فى الشرق او العالم القديم كالبرتغال ، فقد عوضت عنها بامبراطورية كبرى فى اوربا نفسها : فكان لها املاك واسعة فى ايطاليا ، وآلت اليها الاراضى المنخفضة (هولندة وبلجيكا) بالوراثة ، وحاولت ان تعيد الامبراطورية الرومانية « المقدسة » ، وتطلعت الى السيطرة على اوربا جميعا . ولذلك دخلت حروبا طويلة فى غرب القارة ووسطها ، هذا عدا الحرب مع الاتراك ، مما امتص طاقتها فى النهاية وانهكها

ولقد كان المنافس والعدو الاكبر لاسبانيا على القارة هى فرنسا ، وحاولت الاولى - وهى التى كانت تطوق املاكها فرنسا من الجنوب ومن الشمال فى الاراضى المنخفضة ومن الشرق فى ايطاليا والراين - حاولت غزوها ولكنها فشلت . كذلك ستنجح هولندة فى انتزاع استقلالها من اسبانيا وشيكا . ثم حاولت اسبانيا غزو انجلترا فى نهاية القرن بالارمادا « التى لا تقهر » (Armada = armata = ar ms) ، فكانت الهزيمة الشهيرة فى سنة ١٥٨٨ التى وضعت حدا لاسبانيا كقوة بحر . واذا كان هذا قد ترك بريطانيا آمنة فى جزيرتها ، فقد ثبت ايضا استقلال هولندة ، واكد

وقفة فرنسا فى وجه اسبانيا ، وانهى اطماع السيادة الاسبانية

هكذا ضاعت امبراطوريتها الاوربية مثلما ضاعت امبراطورية البرتغال فى الشرق، ولم يتبق لها ـ مثلها ـ الا امبراطوريتها فى العالم الجديد . وحتى هذه لم تلبث القوى الجديدة فرنسا وهولندة وبريطانيا ان بدات تتخاطفها بالقوة فى جزر الهند الغربية خاصة . فانتزعت بريطانيا جميكا ، وبعض جزر الانتيل الصغرى فى القرنين السابع والثامن عشر ، وابتلعت فرنسا جواديلوب والمارتنيك ، كما اقتسمت الاثنتان هايتى ، بينما خرجت كل من هولندة والدنمرك ببعض الجزر الصغرى ، الى ان تظهر الولايات المتحدة فى القرن التاسع عشر لتتم تصفية التركة . وبذلك بدأ دور اسبانيا العسكرى يؤول الى فرنسا ، مثلما آل دور البرتغال التجارى الى هولندة ، وهاتان هما القوتان اللتان سينتقل اليهما الصراع على السيادة العالمية فى القرن التالى

الاستعمار البحرى

الاستعمار الهولندى (١)

القرن السابع عشر هو بلا ريب قرن هولندة (٢). فقد طفرت فيه الى المقدمة كقوة بحرية تجارية استعمارية ، ودخلت الاستعمار من اوسع ابوابه . وقد كانت الاراضى المنخفضة (هولندة وبلجيكا) خاضعة لاسبانيا وشاركت بهذه الصفة فى التجارة البحرية الجديدة بدرجة ما فى وجه الاحتكار التجارى البرتغالى. ولكن الحقيقة ان موقع البرتغال ـ ايبريا عامة ـ وان اعطاها الاسبقية الى الشرق ، لم يكن الامثل بالنسبة لتجارة الشرق مع اوربا ، لان ايبريا تنعزل عن القارة ومواصلاتها البرية بالحائط الجبلى والبعد الجغرافى . ومنذ ان انتهى دور المدن الايطالية ، اصبح المدخل الطبيعى لتجارة اوربا مع الشرق هو الاراضى المنخفضة باعتبارها نهاية الشارع الرئيسى للحركة فى قلب القارة ، ونعنى به الراين الذى ـ وحده من بين انهار غرب القارة ـ يتوغل حتى قلبها

ولم تتوان هولندة عن توظيف هذا الموقع المدخلى الجديد . فنجحت اولا فى انتزاع استقلالها من اسبانيا

(1) Fairgrieve, pp. 146-160, East, pp. 354-8, Fawcett, p. 425.

(2) Harrison Church, P. 21.

فى حروب الاصلاح الدينى فى العقد التاسع من القرن السادس عشر ، وذلك بفضل تحصنها فى دلتاها الاسفنجية واغراقها لاراضيها الواطئة فى وجه العدو بالاضافة الى مزاياها كأمة ملاحية فى بيئة بحرية مثالية. هذا بينما ظلت بلجيكا اسبانية ولم تستطع ان تخرج الى البحر والاستعمار فيما بعد الا فى موجة القرن التاسع عشر

ومنذ ذلك الحين بدات تجارة البهار والشرق تنصب انصبابا فى هولندة التى ورثت دور البرتغال بمثل ما ورثت انتورب دور لشبونة ، فصارت أكبر مركز تجارى فى اوربا · او قد نقول بطريق غير مباشر : ورثت هولندة دور ايطاليا ، بل دور العرب · وسنحت الفرصة الكبرى لهولندة لتاكيد مكانتها حين حطمت اسبانيا قوة البرتغال ، ثم حين تحطمت قوة الارمادا

فبدأت هولندة تنقض على المستعمرات البرتغالية (الاسبانية فى وقت ما) · وقبل أن يمضى نصف قرن على الاستقلال كانت هولندة فى كل بحار العالم ، وبعدها بقليل وصلت الى أوج قوتها وانتزعت السيادة من البرتغال فى جزر الهند الشرقية التى ظلت ـ باستثناء تيمور ـ هولندية بعد ذلك باستمرار · وهى بذلك قد ورثت امبراطورية البرتغال كما ورثت موقعها الجغرافى ودورها التجاري · وفى الطريق الى الهند اقاموا مستعمرات ساحلية فى ساحل غانه ، وكانوا أول من نزل فى الكاب بموقعه الحيوى بعد اذ اخطاها البرتغاليون بصورة محيرة وغير مفهومة

ثم بعدئذ امتلكوا جزيرة موريشس (التى أعطوها اسم اميرهم موريس) ، وأخيرا احتلوا جزيرة سيلون حيث سيكون لهم دور طويل فيها ، أكثر من هذا عامر

الهولنديون من جزر الهند الشرقية جنوبا حتى كشفوا ساحل شمال استراليا لاول مرة فى بداية القرن السابع عشر وحتى سميت لحين ما بهولندة الجديدة · كذلك كشف تازمان تازمانيا ونيوزيندة (نسبة الى زيلند بهولندة) فى النصف الاول من نفس القرن · الا أن هذه الكشوف لم تؤد الى دور استعمارى ما

لا ، ولم تقتصر الامبراطورية الهولندية على العالم القديم ، بل أسسوا مستعمرات فى البرازيل وجيانا ، وكانوا هم الذين اكتشفوا لاول مرة رأس هورن الذى يحمل اسم احدى قراهم · فضلا عن ذلك امتلكوا مفتاح مدخل امريكا الشمالية فى نيو امستردام (نيويورك فيما بعد) · وعدا هذا فقد تسيدوا تجارة البحار والمحيطات بالنقل البحرى لكل أوربا ، حتى سموا أنفسهم « نقالة البحر Wagoners of the sea كما سماهم غيرهم « بقالة أوربا »

وسيلاحظ عند هذا الحد أن الامبراطورية الهولندية صورة محرفة للامبراطورية البرتغالية : ففى أوربا نفسها لم يكن ثمه مجال لتوسع أى منهما ابتداء ، أما عبر البحار فكل منهما امبراطورية بحرية ساحلية تتألف من رقع متناثرة · كذلك فقد بدأت تجارة لا توطنا ، وذلك بحكم كثافة السكان فى مستعمرات العالم القديم · ومع ذلك فقد تحولت هناك بالتدريج من الاستعمار الاستغلالى الى درجة مامن الاستعمار السكنى ومن التجارة الى الابعاديات، بينما فى العالم الجديد ساد هذا الطابع الاخير مبكرا

وكالبرتغال ، لم يكن لتوهج هولندة ولمعانها كقوة بحرية أن يبقى طويلا · فهى مثلها تعانى أساسا من قاعدة أرضية محدودة الرقعة ، فقيرة فى تربتها وانتاجها الزراعى،

لا تعرف الكفاية الذاتية حتى فى الغذاء ، فاقـــدة حتى للموارد الغابيه والمعدنية اللازمه لبناء السفن • والواقع انه كان على هولندة ان تستورد كل مقـــومات حياتهـــا اليوميه والغذائية والبحرية شأنها فى ذلك شأن بريطانيا فيما بعد ، حتى لقد قيل ان كل راسمالها لم يكن سـوى موقعها الجغرافى وكل خامهـــا لم يكن الا النمل • ومن ثم فقد كان مقتلها يكمن ــ كالبرتغـــال ــ فى حرمانهـــا من تجارتها ••

ثم هى كانت كالبرتغال أيضا تعـــانى من قوة بشرية محدودة الحجم ، ولها مثلها حدود بريه مشترکه مع قـوة ضخمة ــ فرنسا ــ على يديها سيكون تحطيم قوتها كمـــا خبرت البرتغال على يد أسبانيا • وتماما كمـــا اغتنمت هولندة الفرصة لترث البرتغال ، فستغتنم قوة بحـرية أخرى ــ بريطانيا ــ الفرصة لترث هولندة ! بل كانت هولندة فى وضع اسوأ من البرتغال لانها وقعت بين شقى رحى فرنسا على القارة وبريطانيا فى البحر

ففى القرن السابع عشر بدأت كل من فرنسا وانجلترا تتطلع وتخرج الى البحر وتنافس هولندة على التجـــارة العالمية والقوة البحرية • ولكن خطر فرنسا كان الاسبق، ظهر فى القرن السابع عشر ، غير أن هولندة استطاعت أن تحتفظ بقوتها ازاءها طوال هذا القـــرن ، فى حين كان موقف انجلترا اقرب الى السلام الاسمى ، ولم يتخـــذ شكلا حربيا الا فى القرن الثامن عشر • وعموما فلم يكن عداء بريطانيا لهولندا أو خطرها عليهـــا يصـــل الى عداء فرنسا وخطرها • ويتراوح تاريخ الصراع اما بين حروب منفصلة بين هولندة وفرنسا أو بين هولنـــدة وانجلترا ، واما بين حروب احلاف بين هولندة وفرنســا ضد انجلترا أو بين هولندة وانجلترا ضد فرنسا

وفى كل هذه الحالات وايا كانت النتائج المباشرة للحروب ، كان هذا عبئا خطيرا على موارد هولندة المحدودة وامتصاصا لطاقتها • وقد كان دور فرنسا في تحطيم قوة هولندة اكبر من دور بريطانيا لان هولندة كانت أضعف على البر منها على البحر كثيرا ، فكان يمكن أن تواجه بريطانيا بدرجة أو بأخرى ، اما مع فرنسا فلم يكن ظل لندية ما • ومع ذلك فقد كان صراع هولندة مع الانجليز فى البحر مريرا بل وحشيا ، واستماتوا فى وجههم لانهم هم مباشرة الطامعون فى تجارة المحيط ، حياة هولندة أو موتها

ولا يبدأ القرن الثامن عشر الا وكانت هولندة قد فقدت معظم تجارتها وخسرت كل قوتها البحرية ، وخرجت تماما من دائرة صراع القوة ، وأصبحت بمثابة برتغال الشمال• حتى مستعمراتها أخذت تتقلص فيما بعد كما فى أعقاب الحروب النابليونية حين انتزعت بريطانيا منها مستعمرة الكاب ، هذا عدا أنها هى نفسها سقطت لفرنسا نابليون• وكما انقضت هولندة من قبل على المستعمرات البرتغالية فى الشرق الاقصى ، انقضت انجلترا على مستعمرات هولندة هناك ، ومن الغريب أن هولندة بعد ذلك مالت - تماما كالبرتغال - الى أن تصبح حليفا تقليديا بل وعالة على الحماية البريطانية سواء فى القارة أو فى البحر أو فى المستعمرات • وباختصار فقد ورثت بريطانيا بالذات دور هولندة مثلما ورثت فرنسا دور اسبانيا

الاستعمار الفرنسي

مع نهاية القرن الخامس عشر كانت فرنسا قد استكملت وحدتها القومية حول باريس • ولكنها فى وصولها وتدعيمها لحدودها الشرقية البرية غير الواضحة دخلت فى

صراع برى مع القوى المجاورة استغرقها مدى النصف الاول من القرن السادس عشر ، كما انفقت نصفه الآخر فى حروب الاصلاح الدينى • كذلك كان عليها ان تقاوم أطماع اسبانيا فى السيطرة عليها طوال ذلك القرن • فلم تكن لذلك كله مستعدة للخروج الى العالم الخارجى سواء فى القارة أو عبر البحار الا مع مطلع القرن السابع عشر

ولكن اذا كانت قوة اسبانيا قد تدهورت حينذاك ، فقد كانت هولندة فى طريقها الى السيطرة البحرية • ولهذا اصبحت السياسة الفرنسية منذ ذلك الوقت موزعة بين هدفين محوريين : التوسع القارى شرقا وصولا الى « الحدود الطبيعية » ، وبناء قوة بحرية عظمى للتوسع عبر البحار • وقد قام على تلك السياسة كل من ريشيليو وكولبير فى القرن السابع عشر • وسيصبح هذان الهدفان والتمزق العضوى بينهما ملمحا أساسيا مزمنا فى كل كيان فرنسا المقبل (١)

ولا شك ان فرنسا كانت خلال العصور الحديثة وحتى الانقلاب الصناعى أوسع وأرسخ وأقوى قاعدة أرضية فى غرب أوربا : فهى تكاد تمثل أقصى رقعة للدولة الوطنية الموحدة قبل عصر السكك الحديدية (٢) ، وهى ضعف بريطانيا مساحة ، وكانت الى ما قبل الانقلاب ضعفها سكانا • وهى أغنى القوى بالموارد الطبيعية وأقربها الى التوازن الحرفى والاكتفاء الذاتى • وقد كان من الممكن لها ان تبنى اعظم قوة بحر فى ذلك الوقت ، بل بنتها بالفعل فى بعض مراحل القرنين السابع والثامن عشر ، وكان من الممكن لها أن تكون امبراطورية استعمارية كبرى ، ونجحت فى ذلك فعلا

---

(١) Fairgrieve, pp. 146-160.
(٢) Mogey, p. 125.

الا أن توزيع اهتمامها بين البحر والقارة ، وحروبها المتصلة في القارة ، كان يمتص مواردها وطاقاتها بارمان ، ويسلب أكثر مشاريعها البحرية كثيرا من امكانياتها • وفضلا عن هذا فان فرنسا بغناها الزراعي الداخلي واقترابها التقليدي من الكفاية الذاتية لم تكن تشعر بقوة طرد طبيعي على اليابس أو قوة جذب على البحر • كذلك فانها ـ كاسبانيا ـ دولة بحرين مما يعوق وحدة أسطولها البحري (١) • وفي هذا كله تكرر فرنسا دور اسبانيا وتوسعاتها الى حد بعيد وان يكن على نطاق اكبر • والحقيقة انها ورثت اسبانيا استراتيجيا مثلما ورثت هولندة البرتغال ، وكما كان على اسبانيا ان تواجه البرتغال كان على فرنسا أن تتصدى لقوة هولندة الطافرة

وقد بدأت فرنسا بانتزاع الاراضي المنخفضة (بلجيكا) من اسبانيا المتداعية في منتصف القرن السابع عشر • وبدأت حروبها ضد هولندة واستفادت من تحالف انجلترا معها ضدها في بعض الحالات حتى تداعت قوة هولندة على يدها في نهاية القرن • ولكن فرنسا رغم ما تراكم لديها من قوة بحرية ضخمة لم تكن تسيطر على التجارة المربحة الا الى حد ضئيل ، وظلت ـ بحريا ـ قوة عسكرية أكثر منها تجارية • ولذلك فقد كانت انجلترا هي التي ورثت دور هولندة التجاري رغم أن فرنسا هي التي حطمت قوتها عسكريا ـ تماما كما كانت اسبانيا هي التي حطمت البرتغال ولكن التي ورثتها هي هولندة !

ولذلك ايضا كانت هذه القوة البحرية كاستهلاك لا يقابله انتاج عبئا على مواردها • وقد كان أمام فرنسا امكانية بناء امبراطورية تجارية في البحر المتوسط والشرق

---

(١) Ibid, p. 124.

العربى تزرى بهولندة وتعجز انجلترا ، الا أن ترددها بين الاهتمامات القارية البرية والتوسع البحرى بدد مشاريع كولبير وضيع نصيحة الفيلسوف ليبنتز المعروفه فى هذا الصدد

ورغم أن قوة بريطانيا البحرية حربيا وتجاريا كانت تطفر فى القرن الثامن عشر باستفحال ، ورغم انه كان على فرنسا ان تتصدى لها بحيث تحول هذا القرن الى صراع ثنائى خطير بينهما ، فان من الممكن ان نعد القرن الثامن عشر قرن فرنسا كأكبر قوة فى أوربا ، فقد كانت تفوق بريطانيا على القارة برا ، ولا تقل عنها بحرا . وقد جمعت فرنسا قواها مع اسبانيا خلال القرن عدة مرات فى حروب مطولة ضد بريطانيا بسبب توسع تجارة هذه توسعا خطيرا . ولكن ظلت صراعات فرنسا القارية خاصة مع النمسا تستنزف طاقاتها

وفى أواخر القرن كان الفارق فى القوة بين فرنسا وانجلترا يزداد ضيقا ، الى ان كانت انتفاضة فرنسا نابليون بعد الثورة وفيها وصلت السيادة الفرنسية فى اوربا الى قمتها - ولكن أيضا الى نهايتها . فقد انتهى لمعان القوة الفرنسية وبريقها الشديد كالشهب الى احتراق أخير ، لتعطى فرنسا مكان الصدارة لبريطانيا

وتفصيل ذلك أن نابليون حاول أولا أن يؤسس امبراطورية فى المشرق فى مصر والشام تكون مواقع الخطى الى الهند كى يضرب بريطانيا فيها ، أو لتكون مصر لؤلؤة الامبراطورية الفرنسية فى مقابل الهند لؤلؤة الامبراطورية البريطانية كما قيل . وفى مرحلة تالية حاول أن يغزو بريطانيا فى جزيرتها لكن قصور فرنسا البحرى التقليدى وصل الى قمته فى هذه المحاولة التى انتهت بالطرف الاغر . وكانت المرحلة الأخيرة هى

« الحصار القارى » لبريطانيا لحرمانها من كل تجـــارة أوربا . وفى هذا السبيل أخضع أوربا جميعها عدا السويد والنطاق العثمانى ، كما انتهى به الى حمله الروسيا القاتلة ولعل هذه كانت أعظم أمبراطورية أوربية شهدتها العصور الحديثة ان لم يكن التاريخ جميعا . لكن تلك كانت نقطة الضعف النهائية : فقد اتسعت الجبهة الى مدى غير عملى، فجاءت النهاية نتيجة للاســـــتنزاف المطلق لقوة وموارد فرنسا (١)

تلك التوجيهات وهذه الصراعات تنعكس بوضوح على الاستعمار الفرنسى عبر البحار . ففى النصف الاول من القرن السادس عشر وصلت فرنسا فى العالم الجديد الى السنت لورنس (جاك كارتييه) ، واسست فى النصف الاول من القرن التالى مستعمرتها الكبرى فى كويبك كنواة لكندا الفرنسية او « فرنسا الجـــديدة » ـ شامبلين . وقد بدأت هذه حقل صيد للفراء ثم حقل توطن وزراعة ، ولكنها ارتبطت بصرامة بالنهر حيث كانت الكتلة اللورنسية الغابية الجرداء الى الشمال تضع حدا للتوسع (٢) .وحتى على النهر ارتبط التوسع بآخر حد للملاحة المحيطية الممكنة حينذاك (٣)

ومن البحيرات اقتيدت فرنسا تلقائيا الى قلب القارة ، فهبطت فى النصف الثانى من القرن السابع عشر مـــع المسيسبى حتى وصلت الى الخليج (لاسال) . وعلى محـــور نهرى ـ مرة أخرى ـ أسست مستعمرة لويزيانا المترامية التى تشمل القطاع الاكبر من سهول وسط القارة (٤) . والحقيقة أن فرنسا كانت خير من أفاد من الانهـــار فى

(١) Fairgrieve, loc. cit.
(٢) Th. Pickles, North America, 1954, p. 2.
(٣) Church, p. 21.
(٤) E.C. Semple, Influences of Geog. Environment 1911.

التوسع السياسي واتخذت منها هيكلا لامبراطوريتها فى العالم الجديد (١) • وفى الحالين سيرى الطابع القارى أو البرى واضحا في الارتباط بنهر بل فى الارتباط بقلب القارة

على أن ضخامة المستعمرات الفرنسية فى أمريكا الشمالية جاءت فى النهاية نقطة ضعف لا قوة • فبعكس بريطانيا فى الولايات الثلاث عشرة التى تحصرها الابلاش واللجينى ، كان من سوء حظ فرنسا بعد توغلها فى السنت لورنس انها لم تجد عقبة طبيعية كبرى توقف توسعها حتى توطد أقدامها وتعمق وجودها فيما ملكته • ولهذا ادى تقدمها الكاسح السريع الى لويزيانا الى ان اصبح وجودها كله مساحة لا كثافة ، قوة بشرية ضئيلة فى رقعة قارية هائلة ، ولهذا لم تستطع أن تحتفظ بها طويلا (٢)

وفيما عدا هذا اتجهت فرنسا فى العالم الجديد الى جزر الهند الغربية حيث نجحت فى أن تنتزع عددا من جزرها الصغرى من أسبانيا أهمها جواديلوب والمارتنيك. كما قفزت منها الى الساحل المقابل فى أمريكا الجنوبية لتتخذ لها موطىء قدم فى جيانا الفرنسية • وحتى ذلك الوقت كانت التجارة اسهل وأربح من التعمير ، ولذلك كانت جزر الهند الغربية تدر على فرنسا عائدا أكبر من لويزيانا وكندا • والحقيقة أن هذا يرجع أيضا الى قيمة الحاصلات المدارية والحاجة اليها فى أوربا بالنسبة الى محاصيل امريكا الشمالية التى كانت على أحسن تقدير تكرر انتاج أوربا

أما فى العالم القديم فقد اتجهت فرنسا الى الهند

---

(١) Mogey, p. 128.

(٢) L. Rodwell Jones. W.P. Bryan, North America; Fairgrieve, p. 309.

الشرقية ولكن الى الهند خاصة ، فانشأت مجموعة من القواعد التجارية على سواحل الهند شرقا وغربا وتوغلت منها الى الداخل قليلا أو كثيرا (ديبليه Dupleix وشركة الهند الشرقية الفرنسية) . وقد نشطت تجارة فرنسا مع هذه المستعمرات نشاطا كبيرا فى القرن السابع عشر . ولكن المنافسة والصراع مع بريطانيا سلب فرنسا كثيرا من تلك التجارة اولا ثم كثيرا من تلك المستعمرات نفسها ثانيا . فبعد أن أسرت المنافسة البريطانية كثيرا من تجارة فرنسا فى الهند ، بدأ الغزو والفتح ، وخسرت فرنسا الحرب بسبب قصورها البحرى ، فضاعت منها الهند بعد حرب السنوات السبع التى انتهت فى ١٧٦٣ ، ولم يبق لها الا بعض جيوب ساحلية رمزية بحتة تتوزع فى شاندراناجور ويانون وبونديشيرى وكريكال وماهى !

وفى نفس الوقت ، تكرر نفس المصير فى العالم الجديد . فقد انتقل صراع فرنسا - بريطانيا الى كندا ، ونجحت الاخيرة بفضل قوتها البحرية وقصور فرنسا البحرى فى انتزاعها بعد حرب السنوات السبع وتحويلها الى دومنيون بريطانى . ومرة أخرى لم يبق لفرنسا الا بقايا تذكارية شكلية فى جزيرتى سان بيير وميكلون تجاه ساحل نيوفوندلند ! واذا كانت فرنسا قد عادت بعد قليل فى حرب الاستقلال الامريكية لمساعدة امريكا وحاربت مع اسبانيا ضد بريطانيا الى ان طردت هذه فى النهاية ، الا أن فرنسا بدورها سرعان ما فقدت لويزيانا فى صفقة البيع السياسية التى قام بها نابليون . والحقيقة انها لم يكن من الممكن الاحتفاظ بها بعد ان اضطرت قوة بحرية أكبر الى الخروج من القارة (١)

وهكذا يمكن ان نخلص الى أن أغلب مساحة الامبراطورية

(١) فايفيلد وبيرسى . جـ ٢ ص ٧ ص ١٧١ - ١٧٢

الفرنسية التى تكونت فى الموجة الاولى للاستعمار فى القرنين السادس والسابع عشر ، سواء فى العالم الجديد او القديم ، سواء فى العروض المعتدلة او المدارية ، قد ضاعت قبل أن تبدأ الموجة الثانية فى القرن التاسع عشر • وهى قد ضاعت اساسا على يد بريطانيا • بل اكثر من هذا يمكن أن نقرر ان فرنسا خرجت من تلك الموجة الاولى بامبراطورية متواضعة ـ بقايا امبراطورية ـ أقل اتساعا وغنى مما خرجت به أى من البرتغال أو اسبانيا او هولندة ـ عدا بريطانيا بالطبع • ولعل فرنسا وحدها هى التى تنفرد بهذه الحقيقة الغريبة فى تاريخ الاستعمار • ومعنى هذا أيضا ان امبراطورية فرنسا ، كما كانت فى عصر ما قبل التحرير المعاصر ، ترجع اصولها فى معظمها الى موجة الاستعمار الثانية فى القرن التاسع عشر

الاستعمار البريطانى (١)

الحقيقة الكبرى والضابط الحاسم فى تاريخ بريطانيا السياسى والاستعمارى هى أنها بصدفة جيولوجية جزيرة قاريه : من القارة وليست فيها • فمرة قد تفرض عليها جزريتها التخلف ، فاذا بها مرة اخرى ترعى نموها ، ومرة ثالثة تضمن تقدمها • وتفسير ذلك ان بريطانيا مرت بثلاث مراحل واضحة فى تطورها : المرحلة الاستعمارية فالقارية ، فالجزرية • الاستعمارية حين خضعت لغزوات وموجات القارة أيام الانجلز والسكسون ، والقارية حين حكمت اجزاء من فرنسا فى العصور الوسطى ، والجزرية حين انعزلت عن القارة قبيل عصر الكشوف (٢)

---

(١) Fairgrieve, pp. 161-196, Fawcett, pp. 421-428; Whittlesey, pp. 96-128;
فايفيلد وبيرسى • ج ٢ ص ١٠٨ ـ ١٦٠

(٢) Democratic Ideals, p. 56.

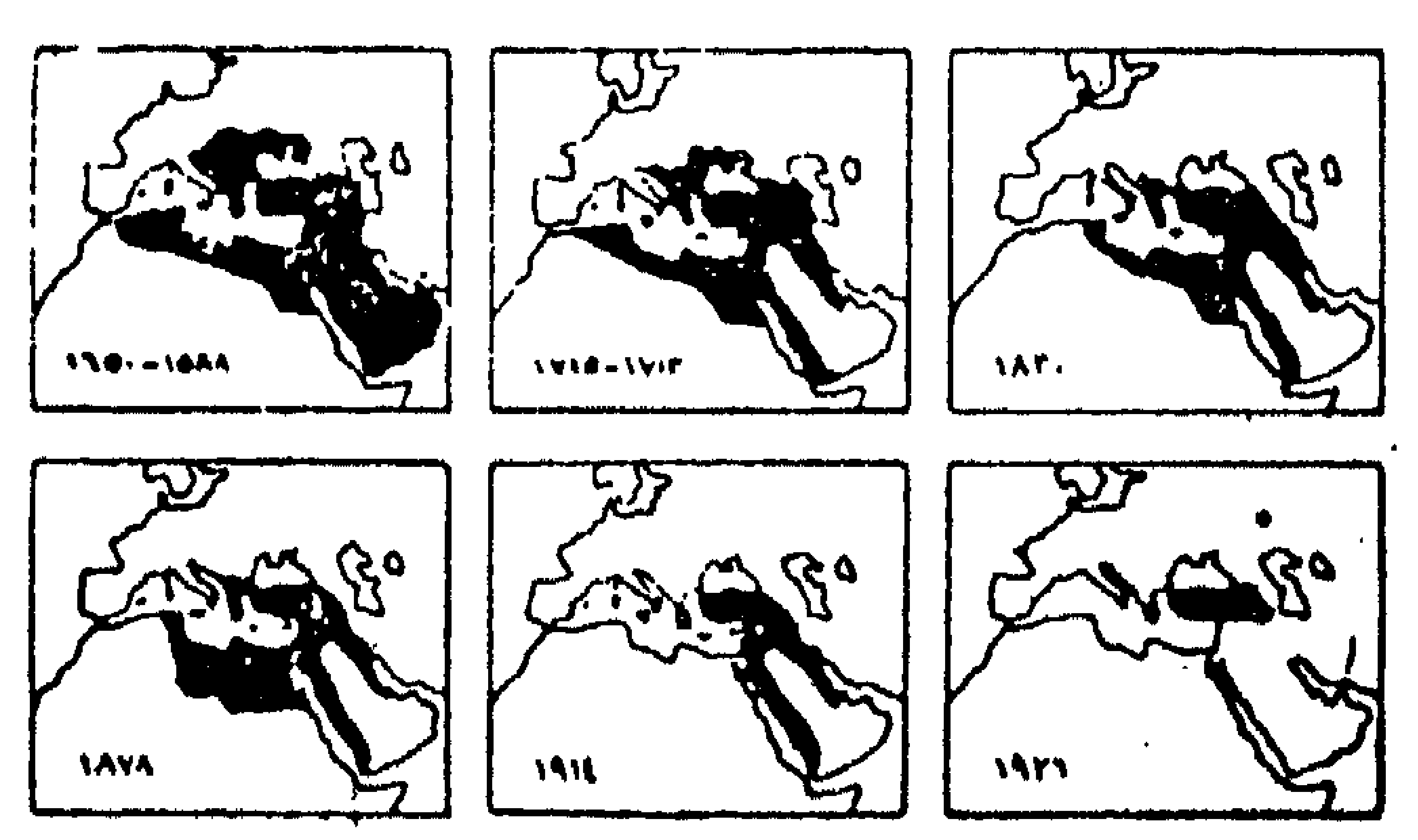
ولكن جزرية بريطانيا ليست وحدها كل شيء ، اذ لا يقل عن ذلك اهمية انها جزيرة كبيرة فسيحة ، يعنى أنها تقدم قاعدة أرضية عريضة متعددة الموارد يمكن أن تقيم دولة كبيرة · ولولا هذا لما زادت عن مجرد تابع أو ذيل لقوة مقابلة على القارة ، أشبه شيء بصقلية مثلا ولكن دون تاريخها المفعم · ولئن كانت بريطانيا لا تزيد مساحة عن نصف فرنسا ، فان السهل الانجليزى — نواتها النووية سياسيا واقتصاديا — لا يقل كثيرا عن مساحة السهل الفرنسى · ومع هذا فان قوة الطرد على اليابس والجذب الى البحر أقوى بلا شك منها فى حالة فرنسا · ولهذا فبريطانيا هى البيئة البحرية الكاملة التى حملت قوة بشرية كبيرة أولا وخلقت أمة ملاحة من الدرجة الاولى بعد ذلك ، ومنحتها فى نفس الوقت عنصر الحماية وحفظتها من اضطرابات وقلقلات القارة

ومنذ الكشوف تطور موقع بريطانيا تطورا جذريا · فقبلها كانت على نهاية العالم ، ولا تؤدى الى شيء · كانت بالضبط « أستراليا العصور الوسطى » كما قيل — بل وفى أكثر من معنى ذلك : فلقد كانت كل ثروتها الصوف الذى تصدره الى القارة ، خاصة الى هولندة وايطاليا · ولكن الكشوف الجغرافية حولت هذا القطب السالب المعزول المتطوح الى قطب موجب فى قلب المعمور المتمدد ما بين العالم القديم والجديد · وفى هذا المعنى يمكن أن نقول ان اسبانيا والبرتغال بكشوفهما هما — بلا قصد — اللتان اعطتا بريطانيا حياة جديدة ومكانة جديدة فى العالم

ولقد انفقت بريطانيا العصور الوسطى فى الحروب الاقطاعية ثم الاقليمية لتنسج وحدتها السياسية دون ما خطر من الحروب الخارجية التى يمكن ان تؤخر تلك الوحدة · وبفضل هذه « العزلة الرائعة » «Splendid Isolation»

كانت اولى دول أوربا الى تحقيق الوحدة القـــومية فى العصور الحديثة • وقد حررها هذا لتنزل الى البحر الذى جعلته العروض الشمالية العاصفة والبيئة المدية المتلاطمة مدرسة بحرية قاسية ولكنها ممتازة ، تتطلب المرونة قبل الضخامة والمناورة قبل الحجم

ومع ذلك فلم تكن بريطانيا مهياة لتخرج الى البحار حين الكشوف أو بعدها ، حيث كانت السيادة للبرتغـــال واسبانيا ثم لهولندة وفرنسا ، وظلت هى فى منطقة الظل أو شبه الظل • ولكنها فى حدود هذا الظل كانت تحاول ــ خلال القرن السادس عشر ــ أن تلتقط اى مكسب أو فتات من التجارة المحيطية اما بعيدا عن النفوذ الاســبانى أو مغافلة له • بعيدا عنه ــ بالاتجاه الى العالم الجديد من طريق شمالى متطوح ، فكان اول خروج لها نحو الشمال الغربى حيث اكتشفت فى آخر القرن الخـــــامس عشر نيوفوندلند ولبرادور (جـــون كابوت) ، وهى دائرة محدودة القيمة التجارية



شكل (٩) مراحل انكماش الاستعمار العثمانى

اما مغافلة له ــ فبالتسلل الى المستعمرات الاســبانية الاحتـــكارية S. Main للتجـــارة معها سرا • فبدأت

بين الجانبين « حروب عصابات بحرية » بكل معنى الكلمة ، فكان هذا عصر القرصان المشهور بكل مغامراته واثاراته وملاحمه التى دارت على البحار العليا والبحار الدافئة وتمركزت خاصة فى الكاريبى ، والتى تؤلف « ساجا » بحرية أسطورية تكاد تكون «الف ليلة» الغرب أو العصور الحديثة الا انها دموية عدوانية . وفى هذه القرصنة الدامية ستكون نواة البحرية والاستعمار البريطانيين

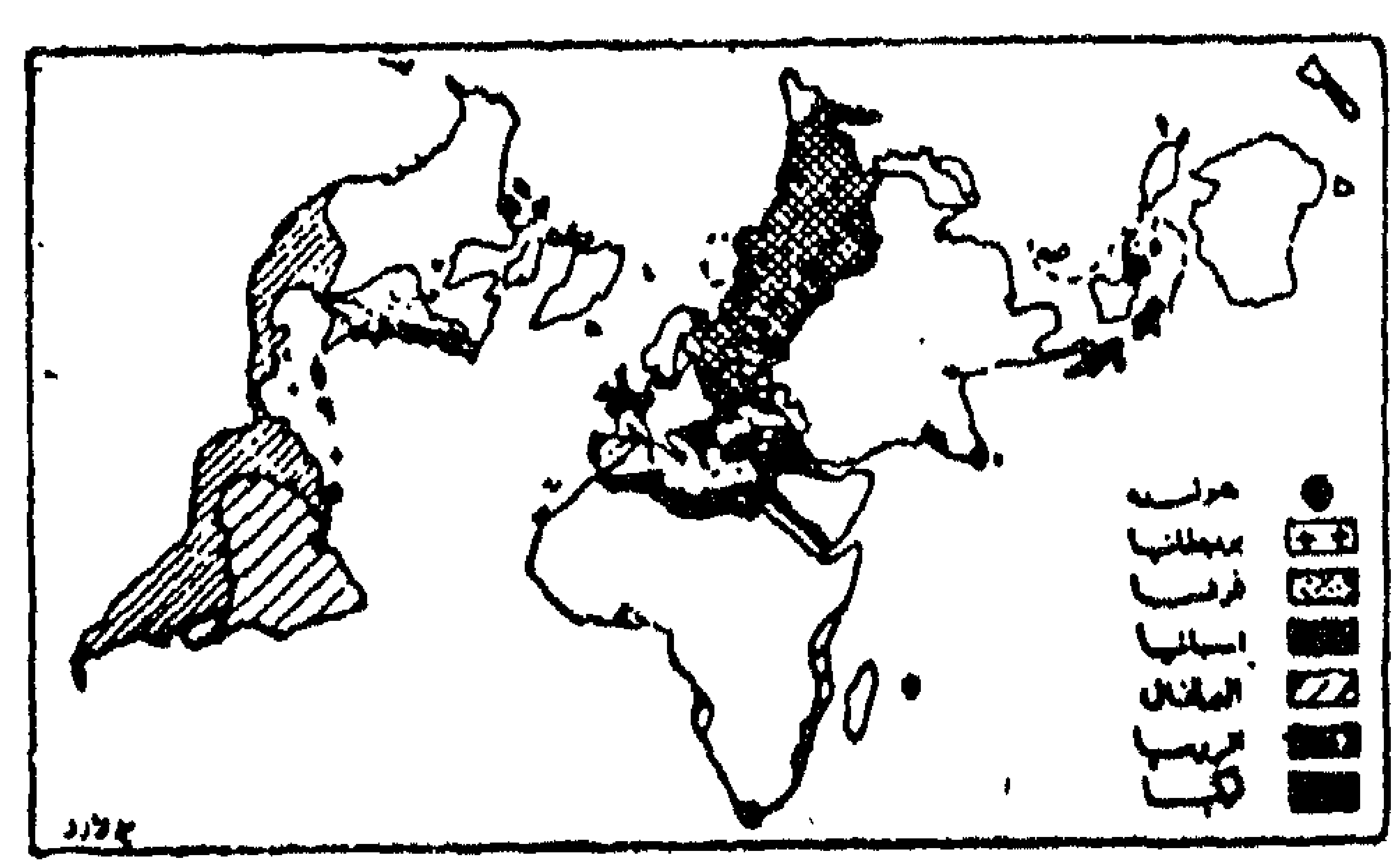
وفى هذه الفترة كان كل ما تطمح اليه بريطانيا فى وجه اطماع القوى السائدة هى ان تحافظ بحذر على استغلالها بمضاربتها بعضها ببعض ـ اسبانيا بفرنسا خاصة . الى ان حاولت اسبانيا غزوها بالأرمادا فى ١٥٨٨ ، وكانت المعركة بين الضخامة والمرونة ، وانتصرت المرونة لان سفن الأرمادا كقلاع عائمة حقيقية كانت ثقيلة بطيئة ، بينما سفن القرصنة البريطانية (دريك) خفيفة سريعة . لقد تغلبت بحرية العروض العكسية الشمالية العاصفة القاسية على بحرية العروض التجارية المعتدلة الهادئة .. نتيجة منطقية !

ومع ان هزيمة الارمادا لم تضع مباشرة حدا القوة وامبراطورية اسبانيا ، فقد فتحت الباب على مصراعيه امام بريطانيا لتدخل الميدان البحرى والتجارى الجديد مع افتتاح القرن السابع عشر . ففى غضون عقدين كانت قد اسست بنجاح أول مستعمرة فى جيمستون «والدمنيون القديم » فى فرجينيا فى ١٦٠٧ على يد رالى . وقبلها بقليل انشات شركة الهند الشرقية ووصلت سفنها الى الهند وشاركت فى تجارتها . وفى نفس الجيل استقر « الاباء المهاجرون » فى نيوانجلند

ولكن فى هذا القرن ـ السابع عشر ـ كان على بريطانيا ان تواجه قوة هولندة التجارية وقوة فرنسا الحربية .

ورغم ان قوة فرنسا كانت الأكبر والاخطر ، لقد كان الذى يعنى بريطانيا مباشرة هى هولندة لانها هى المحتكر الحقيقى للتجارة المحيطيه التى تنبع اليهـــا . وبذلك ورغم أن بريطانيا وقفت فى عدة حروب مع هولندة ضد فرنسا حتى لا تتعاظم قوة الأخيرة الى درجة تهدد الجميع ، فالاغلب ان بريطانيا كانت اما تترك هولندة تواجه فرنسا وحدها واما تنضم الى فرنسا فى صراعها لتحطيم هولندة

وفى خلال هذا جميعا كانت كل خسائر هولندة وفرنسا تتحول الى حساب بريطانيا مكاسب وأرباحا . فكانت التجارة عبر البحار تنتقل اليها بالتدريج ، حتى اذا ماحطمت فرنسا قوة هولندة نهائيا فى أواخر القرن كانت بريطانيا قد ورثت بالفعل معظم دورها التجارى ، وورثت لندن وبرستول انتورب وامستردام ، باختصار ورثت بريطانيا موقع ودور هولندة . واذا قلنا ان بريطانيا ورثت موقع ودور هولندة ، فقد قلنا فى الحقيقة وان يكن بطريق غير مباشر انها ورثت موقع ودور البرتغال ، وبطريق غير مباشر اكثر موقع ودور العرب القديم ، وبالتحديد مصر



شكل (١٠) الاستعمار العالمى فى سنة ١٧٠٠

نعم مصر ! فقد اصبحت بريطانيا فى عصرها التجارى الجديد فى العالم بنصفيه فى موقع ووظيفة اشبه ما يكون بموقع مصر ووظيفتها فى العالم القديم اثناء العصور الوسطى : هى همزة الوصل بين العالم القديم والجديد بمثل ما كانت مصر همزة الوصل بين آسيا واوربا ، وهى تقع فى ركن المحيط الأطلسى او البحر المتوسط الجديد. بمثل ما تقع مصر على أرض الزاوية من البحر المتوسط القديم . ولم يكن غريبا بعد ذلك أن تصبح التجارة بعدا اساسيا فى حياة بريطانيا بعد أن كانت دولة زراعة ورعى وصيد ، وان تصبح بحق « أمة من اصحاب الحوانيت a nation of shopkeepers » على حد تعبير نابليون فيما بعد، وان يصبح « بنك انجلترا » رمزا عتيدا للمركانتلية العارمة

وفضلا عن احتكار التجارة ، فقد نجحت بريطانيا فى صلح أوترخت فى أن تنتزع جبل طارق وبورت ماهون فى البحر المتوسط،وتأكدامتلاكها لنيوفوندلند ونوفاسكوشيا. وهنا لابد أن نلاحظ كيف يكرر الموقف المواقف الصراعية السابقة : فرنسا الضخمة الأكثر قارية تحطم هولندة الاصغر حجما الاكثر بحرية ، فترثها دولة بحرية اكبر الى الشمال هى بريطانيا ، مثلما حطمت اسبانيا الكبيرة شبه القارية من قبل البرتغال الصغيرة البحرية فورثتها هولندة البحرية الشمالية

وهنا ايضا لابد أن نلاحظ سياسة بريطانيا الجزرية : فقد كان محورها دائما أن تترك القوى الاخرى على القارة تتصارع وان تغذى هذا الصراع حتى تضعف جميعا فتتقدم هى لترثها وهى بمناى فى جزيرتها عن خطر الصراع نفسه . وفى نفس الوقت كان توازن القوى على القارة هدفها الآخر . فكانت تعمل على الا تسود قوة

واحدة كبرى فى القارة ، ولهذا كانت الحليف التقليدى للقوى الصغيرة التى سبق ان عادتها وســـاهمت فى انحدارها ، وذلك ضد القوى الكبرى الجديدة . هـكذا وقفت مع البرتغال ضد اسبانيا ، ثم مع هولندة ضد فرنسا ، ثم كما سنرى فيما بعد مع فرنسا ضد المانيا . فهى عدوة القوى الذى قد يهددها ، وحليفة الضعيف الذى لا يهددها . ولعل هذا هو ما اكسبها التسميه بألبيون الخائث
Perfidious Albion

هكذا اذن لم يبق الا فرنسا والقرن الثامن عشر . ورغم سيطرة فرنسا الواضحة فى القارة فانهـــا لم تستطع أن تمنع بريطانيا من الانطلاق نحو السيادة على البحار واحتكار التجارة المحيطية والتوسع الاستعمارى . وقد بدأت بريطانيا بتحالفها مع عدوها السابق المهـزوم هولندة ضد القوة السائدة الجديدة فرنسا . ثم أصبح القرن قرن الصراع بين بريطانيا وفرنسا . وكان الفارق الرئيسى ان فرنسا مرتبطه فى صراعاتها بالقارة ولهـــا جبهتان برية وبحرية ، بينما لبريطانيا جبهة واحـــدة بحرية

من هنا كانت الاولى مضطرة الى الاحتفاظ بجيش برى ضخم ، وتهمل الاسطول عمدا وبالضرورة ، بينمـــا كان جيش بريطانيا البرى دائما رمزيا ولم تحاول قـــط أن تنافس فرنسا على البر ، والقوة كلها للاسطول . ولذا فما دامت بريطانيا قادرة على منع غزوها بحرا ، فلا قيمة لضخامة جيوش فرنسا ضدها ، بينما على العكس : مادامت فرنسا اضعف فى البحر فأمام بريطانيا الفرصة لضربها فى مستعمراتها عبر البحار وانتزاعها منها . اى أن وجود حدود برية لفرنسا كان جديرا فى النهاية بان يكلفهـــا ضياع امبراطوريتها الاستعمارية ، بينما كان تحـــرر

بريطانيا من الحدود البرية كفيلا بان يمنحها امبراطورية استعماريه كامله • وهكذا بالفعل كان

فمن ناحية لم تستطع فرنسا ان تضرب بريطـــانيا في جزيرتها ، والواقع أن احدا لم يستطع ان يعزوها منـــذ الفتح النورماندى حتى يومنا هذا • فقد كان الاسطول كفيلا بقطع الطريق على أيه محاولة كهذه • وقد تحـــدت فرنسا ـ ومعها اسبانيا ـ قوة بريطانيا البحرية مرات عديدة في القرن الثامن عشر فى حــــــــروب ممطوطة مطولة • ولكن هذه كانت تخرج فى كل مرة اقوى ، بينما غالبا ما كانت فرنسا تخسر شيئا من مســـتعمراتها • ففقدت أولا كندا حين عزلتها بريطانيا بحرا فى كويبك وعجزت البحرية الفرنسية عن معاونتها وبذلك ســقطت كدومنيون لبريطانيا فى ١٧٦٣ ، كما ارتفـــع الضغط الفرنسى بذلك عن ضلوع بريطانيا فى نيوانجلند

ثم فقدت فرنسا بعد ذلك الهند التى غزتها بريطانيا بقليل من قواتها ولكن بكثير من القوات الهندية (!) وضمتها فى ١٧٦٣ « كالامبراطورية الثانية » بعد ضياع الولايات المتحدة ، وخرجت فرنسا الا من جيوب وأسافين لا وزن لها • ومما يلاحظ أن بريطانيا اقتربت أولا كالبرتغال من الهند من الغرب ، من بومباى بالذات ، ولكنها مثلها لم تستطع أن تمرق الى الداخل من تلك الجبهة الجبليـــــة المغلقة ، فعادت ودارت حول شبه الجـزيرة لتقتحمها من بوابتها البحرية الوحيدة والصحيحة وهى بوابة الكنـــج (الهوجلى سيد) • وبمجرد أن وضعت قدمها على المدخل الطبيعى انفتح الطريق أمامها الى قلب شبه القـــارة حتى اخضعتها جميعا وحطمت امبراطورية « المغـــول الاكبر » ليبدأ « الراج Raj » البريطانى فى الهند (١) هذا ،

(١) Mackinder, Scope & Methods, etc., atc., p. 28.

واذا كانت بريطانيا قد وضعت قدمها فى « حذاء » الهند بدل فرنسا فى منتصف القرن الثامن عشر ، فقد استغرقت قرنا كاملا أى حتى منتصف القرن التاسع عشر لتبسط نفوذها على جميع اجزائها

على أن بريطانيا خسرت فى تلك الفترة « امبراطوريتها الاولى » فى الولايات الثلاث عشرة فى أمريكا • فقد ثارت الولايات فى حرب الاستقلال فى مرحلة ضعف لقوة بريطانيا البحرية ، وانتصرت لبعد المسافه وضعف الارتباط ، ولكن أيضا لمساعدة فرنسا وأسبانيا للانفصال (١٧٨٣) • على أن ضياع الولايات الثلاث عشرة أدى الى خروج كثير من المعمرين (الموالين لبريطانيا Loyalists) وهجرتهم الى كندا من ناحية والى استراليا من ناحية أخرى ، اى الى تحويل تيار الهجرة والتعمير الى مناطق الدومنيون التى كانت مهملة والمساعدة فى تدعيم الامبراطورية الثانية • وهذا يذكرنا بما حدث من تحويل اهتمام البرتغال الى البرازيل المهملة حين ضاعت امبراطوريتها فى الشرق والعالم القديم

وقد عاد الصراع بين بريطانيا وفرنسا على أعتى مستوى مع نابليون الذى كان أعظم تحد واختبار لقوة البحر • وقد فشلت كل مشاريعه البحرية ضد بريطانيا سواء فى مصر أو فى غزو بريطانيا • فقد خسر أسطوله فى أبى قير فى الاولى وفى الطرف الاغر فى الثانية • وبهذا عجز عن الوصول الى بريطانيا أو مستعمراتها بسبب تفوق قوة البحر البريطانية أساسا • ومنذ البداية أدرك نابليون أن العقبة الوحيدة فى طريقه الى السيادة العالمية هى قوة البحر البريطانية • وحين سيطر على أوربا جميعا كانت هذه وحدها هى العقبة التى تحطم عليها فى النهاية • ولهذا تعد الطرف الاغر بداية السيطرة العالمية المطلقة لقوة البحر

البريطانية التى ستظل أكثر من قرن دون تحـــد ، بل سيصبح القرن التاسع عشر بلا منافسه قرن الســيطرة البريطانية العالمية ..

ولا شك أنه لما يدعو الى التساؤل كيف اســتطاعت بريطانيـــا أن تقف بمفردها ازاء نابليون ومعه أو تحت سيطرته كل أوربا . ولكن الحقيقة أن بريطانيا كانت تقف ووراءها كل موارد الامبراطورية والاستعمار عبر البحار ، وأهم من ذلك أنهـــا كانت تقف وأمامها ذلك « الشريط الذهبي » Golden Streak الحامى العتيـــد كما يسمى الانجليز قنال المانش . والواقع أنه ــ في ضوء هذا العرض الاستراتيجى التاريخى ــ قد لا يوجد في العـــالم عشرون ميلا ونيف من الماء لعبت دورا فى التاريخ كما لعب المانش

وقد خرجت بريطانيا من الملحمة النابليونية بمزيد من المستعمرات . فقد انتزعت الكاب من هولندة ، وحصلت على سنغافورة بالشراء البخس فى ١٨١٩ ، كمـــا كانت قد ضمت مالطة أثناء الصراع . وسيلاحظ فى هذه جميعا صفة المواقع البحرية الاستراتيجية التى تعد مفاتيح حيوية فى امبراطورية بحرية مترامية ، وهى الصفة التى ستتبلور بصورة حاسمة فيما بعد فى تركيب هذه الامبراطورية

الاستعمار البحرى :

خطـــوط عامـــة

تلك اذن قصة الاستعمار وصراع القوى الاســـتعمارية الجديدة فى الموجة الاولى للامبريالية فى العصـــــور الحديثة .. بماذا يمكن أن نخرج منها ؟ بعدة حقائق عامة بعيدة المغزى

فأولا ، بعد أن كانت أوربا حبيسة في شبه جزيرتها فى موقف دفاعى ، محاصرة بين قوى مختلفة من كل الجهات فى العصور الوسطى ، انقلب الوضع وأخذت جانب الهجوم على عوالم جديدة برمتها ، وفرضت حصارها على القوى القديمة من خلف أو من قدام · وكان هذا بداية سيادة اوربا على العالم · على أن الخروج الاستعماري قد ارتبط بدول غرب اوربا البحرية الساحلية وحدها ، بينما كانت بقيتها الداخلية بعيدة عنه · كذلك لم تشارك الدول البحرية الساحلية الضئيلة أو الصغرى · فرغم بعض محاولات ثانوية للغاية لامثال الدانمرك والنرويج وبراندنبرج ، فانها تخلفت عن السباق تماما · وباختصار فقد ارتبط الاستعمار الحديث أشد الارتباط بالمحيط ونداء البحر والموقع الساحلى

ويلاحظ فى هذا الخروج البحرى أن اتجاه كل من البرتغال واسبانيا الى أمريكا الجنوبية ، وكل من فرنسا وبريطانيا الى أمريكا الشمالية ، انما هو توجيه طبيعى يتسق الى حد كبير مع المنطق الجغرافى وخطوط العرض وايحاءات الموقع ، وكذلك مع تشابه البيئة الطبيعية بين الموطن والمهجر · ومن هنا انتهى العالم الجديد الى عالمين : لاتينى فى الجنوب وانجلو .. سكسونى فى الشمال ، يتناظران بصورة عامة مع ترتيب الاوطان الام · وكما تحتل اسبانيا الرقعة الكبرى من امريكا اللاتينية وتكمل البرتغال بدور ثانوى بالاضافة الى شظايا هولندية وفرنسية وبريطانية ، تحتل بريطانيا مركز الصدارة فى أمريكا السكسونية وتأتى فرنسا فى مرتبة ثانوية مع تذييل اسبانى · ولما كان خروج أيبريا البحرى قد سبق خروج شمال غرب اوربا بنحو قرن ، فان تاريخ أمريكا الجنوبية

يسبق تاريخ أمريكا الشمالية بنحو هذا المدى (١)

ثانيا ، كانت الوحدة القومية شرطا اساسيا سابقا للخروج الاستعمارى · فلم يكن من الممكن القفز الى العالم الخارجى قبل ترتيب البيت داخليا · وكان الخروج نتيجة للوحدة وعلامة عليها ، وترتيب توقيته يعكس الترتيب الزمنى لتحقيق تلك الوحدة · ومع الوحدة القومية أتى استعمار الكشوف ، ومع الاثنين أتى الانقلاب التجارى ، ومع الجميع أتت - أخيرا - البورجوازيه الليبرالية · فقد انصبت مكاسب المركانتلية والتجارة الاستعمارية فى العواصم والمدن الكبرى والموانى . لتخلق تركيبا اجتماعيا جديدا أزاغ فلول الاقطاع نهائيا وأحل محله مجتمع التجار والمهنيين ، مما « برجز » مجتمع المدن وغلب الفكر الليبرالى والاوليجاركى على الحكم المطلق

ومعنى هذا أن استعمار الكشوف خلق طبقة جديدة قوية تنافس الطبقة القديمة التقليدية التى كانت تحتكر السلطة والحكم فى المجتمع · فالصراع الجديد هو فى الحقيقة صراع بين أصحاب الموارد المحلية فى الوطن ، وأصحاب الموارد المتدفقة من عبر البحار · ولقد كانت الثورة الفرنسية هى نقطة الانكسار العنيفة فى هذا التطور حيث التحمت البورجوازية المتعاظمة - على فيض مكاسب مستعمرات ما وراء البحار - التحاما نهائيا مع بقايا الاقطاع الزراعى المتحفرة وختمت على مصيرها ووضعت بذلك جرثومة أو خميرة الرأسمالية الناشئة · وبمعنى اخر ، فان الكشوف قد ثورت الكيان السياسى والاقتصادى والاجتماعى لدول أوربا البحرية تثويرا وكانت بذلك الاساس لهيكل النظام الجديد

---

(١) Whittlesey, pp. 504-17.

ومن المحتمل أنه لو لم تحدث الكشوف الجغرافية لتأخر الانتقال من الحقب الاقطاعى الى الحقب البورجوازى كثيرا أو قليلا . ولعلنا كذلك لا نسرف فى التصور اذا قلنا أن هذا التطور من الاقطاع نحو البورجوازية كان يمكن أن يكون أصلا وأساسا من نصيب الشرق العربى عامة ومصر والشام خاصة لو لم يكن قد حدث هذا الاسر التجـــارى الكامل . ولعل هذا أيضا أن يفسر لماذا تجمد المجتمع العربى الوسيط على النمط الاقطاعى حتى خضرم فيه الى صميم القرن التاسع عشر بل والعشرين حين قفز مرة واحدة من الاقطاع الى الراسمالية دون أن يمر بمرحلة البورجوازية بمعناها الكامل . لقد ورث غرب أوربا الجديد دور الشرق العربى القديم ليس موقعا ووظيفة فحسب ، ولكن ورث قدره السياسى والاجتماعى كذلك

ثالثا ، يرتبط صراع القوى السياسية ارتباطا وثيقا جدا بالصراع الاستعمارى . فمن أجل الصراعات الداخلية بين القوى الاوربية فى القارة خرجت للحصول على المستعمرات لتعود أقوى وأقدر على تلك الصراعات ، ومن أجل الحصول على المستعمرات كانت القوى الاوربية تتصارع فيما بينها على القارة (١) . من ثم كان النشاط الاستعمارى ظاهرة « معدية » . وقد تحرك مركز الثقل فى النشاط الاستعمارى وفى صراع القوة حركة قاطعة من الجنوب الى الشـــمال بصرامة ما بين البرتغال جنوبا حتى بريطانيا شمالا . ولعل هذا جزء واضح المعالم من نظرية هجرة الحضارة والقوة نحو العروض الشمالية . واذا فهم البعض هذا على أنه يعنى انتقال التفوق الى البلاد الشمالية ، فلا ينبغى أن ينسوا انه يعنى كذلك تخلفها فى البداية

والمهم أنه فى هذه الحركة تأخذ ميكانيكية الصراع بين

---

(١) المرجع السابق ، ص ٥٧

القوى البحرية ـ الذى هو صراع أشباه أساسا من أجل التصفية النهائية للقوة العالمية ـ تأخذ نمطا محددا ومتواترا بصورة مثيرة • فهى تبدأ بدولة رائدة صغيرة بحرية جدا بحكم الموقع والطبيعة ، تلحقها دولة متاخمة أكبر حجما وأقل بحرية ، لا تلبث بحكم جرمها أن تحطم قوتها ، ولكنها تعجز عن أن ترث دورها ، وانما تلتقطه ببراعة دولة أخرى صغيرة بحرية جدا الى الشمال • هكذا ظهرت البرتغال أولا وتلتها اسبانيا لتحطمها بعد قليل ، فترثها هولندة ، ثم تلى هولندة على المسرح فرنسا لتحطم هولندة وشيكا ، فترثها بريطانيا • وسنرى فيما بعد الى أى حد ستستمر أو تنتهى هذه الميكانيكية الفذة فى بقية مراحل الاستعمار الحديث

رابعا ، فى هذا الصراع لم يكن البقاء لمن يملك القوة البحرية وحدها ، بل والقوة البرية الى جانبها • فقد كانت القاعدة الارضية القوية العريضة هى الضمان الاخير لبقاء تلك القوة البحرية • فاذا كانت الدول المحرومة من القوة البحرية لم تخرج اطلاقا الى الاستعمار مهما ملكت من قوة برية ، فان الدول التى تملك القوة البحرية دون قاعدة بريه متكافئة تسندها وتدعمها ، قد تخرج الى عالم الاستعمار قليلا أو كثيرا ولكنها لا تلبث أن تنقرض فى النهاية • أما النجاح الاكبر فللدول البحرية القوية ذات القاعدة البرية الضخمة (١) • وبمعنى آخر ، فان « الموقع » البحرى الامثل وحده لا يكفى وان أعطى أحيانا ميزة السبق ، وفى المدى الطويل يلعب « الموضع » دورا تحديديا أخطر وأكثر بقاء • كما كان السمك الكبير يأكل السمك الصغير فى المستعمرات ، كان السمك الاكبر بين القوى الاستعمارية البحرية يأكل السمك الاصغر !

---

(١) Church, p. 22.

خامسا ، اذا كان الاستعمار قد قرع ابواب اغلب القارات فى تلك المرحلة ، فقد ظل فى جوهره ساحليا او شبه ساحلى بدرجة او باخرى ، ولو انه كان اعمق توغلا فى قارات العالم الجديد منه فى قارات العالم القديم . وفى افريقيا بالذات كان الاستعمار ساحليا بحتا وبصرامة . وسواء على الساحل او فى الداخل ، فقد كانت تلك المرحلة مرحلة الاستعمار « الواسع » لا «الكثيف» . وبوجه عام انعكست هذه الطبيعةالساحلية على نظرة الاستعمار الى القارات الجديدة ، فقد كانت نظرة ملاح أساسا ، اعنى انه لم يكن يتعرف على كتل قارية بقدر ما كان يعرف اشرطة ساحلية . ومن تراث هذه الفترة وتلك النظرة الاسماء العديدة التى ما زلنا نطلقها : ساحل غانه ، ساحل الذهب ، ساحل العبيد ، ساحل العاج ، ساحل الفلال ، ساحل الزنج ، ساحل البنات او القرصان ، ساحل ملبار ، ساحل كرومندل، ساحل كارنتيك Carnatic ، ساحل مورمان Murman ساحل جولكوندا ، الخ (١)

سادسا ، تعويضا لعجزه عن التوغل الداخلى وعن « الاستعمار الجغرافى » ، أخذ الاستعمار فى أفريقيا بالذات نمطا خاصا جدا فى هذه المرحلة هو « الاستعمار الديموغرافى » ـ أعنى تجار الرقيق . ذلك اذن كان عصر النخاسة الذى لم يعرف العالم له مثيلا من قبل ولا من بعد ، وتلك كانت بالتالى أسود نقطة وأبشع وصمة فى تاريخ الاستعمار العالمى . فقد كان الرقيق أغلى سلعة فى التجارة الاستعمارية ، وبخار آلة المركانتلية ان لم يكن وقودها الاسود ، وعليه بنت القوى البحرية اقتصادها ورخاءها . وكان للبرتغال اولا ثم الانجليز بعدهم الدور

(١) Democratic Ideals, p. 60.

الاكبر فى هـــذه التجارة الآثمـــة ، ولو ان الهولنديين والفرنسيين شاركوا بقدر

ولهذا فاذا كان الهولنديون يقولون ان امستردام قد بنيت على « عظـــام الزنجة » (١) ، فمن الصحيح كل الصحة أن نقول ان لشبونة وليفربول قد بنيتا على عظام الرقيق الاسود ودماه . وقد شـــهد المحيط الاطلسي مثلثا دمويا يدور مع عقارب الساعة ــ التجارة المثلثة كما تسمى ــ تبدأ فيه السفن بنقل بضائع ومصنوعات بريطانيا الى غرب أفريقيا حيث تســتبدل بها شحنات آدمية ثم تنطلق عبر المحيط لتفرغها فى أمريكا الشمالية والوسطى والجنوبية ، ومنها تعود محمـــلة بمحاصيل المداريات من سكر وروم وقطن وتبغ ٠٠ الخ (٢)

وتختلف تقديرات تجارة الرقيق من افريقيا ، ولكن البعض يضعها حوالى المـــائة مليون على اساس أن من مات أثناء « الصيد » والرحلة ثلاثة أو اربعة أمثـــال ما وصل بالفعل الى العالم الجديد (٣) ٠ وكان هـــذا الاستعمار أو بالاحرى الاســتخراب الديموغرافى نزيفا بشريا رهيبا أصاب القارة بفقر الدم والضمور . ولئن صح هذا الرقم ــ الذى لا يمكن الحكم له أو عليه هنا ــ فلا شك أن هـــذه أعظم موجة فى حركات الســـكان Völkerwanderung فى التاريخ البشرى جميعا٠ واذا كانت أوربا تتهم العرب اليوم ــ تهويلا وتضـــليلا ــ بدور « الجلاب » فالذى لا جدال فيه ولا لجاج انها هى قد لعبت دور « الجلاب والجلاد » معا

(١) سبل ، ص ٣٥٦

(٢) L. Dudely Stamp. Africa, N.Y. 1953; W. Fitzgerald, Africa, Lond. 1950

(٣) Jacqueline Beaujeu—Garnier, Géog. de la Population. Paris, 1958, t. II, p. 39.

الفصل الخامس

القوى البرية والاستعمار

الروسيا (١)

هناك تشابه مثير يدعو الى كثير من التامل بين ظهور وتوسع الروسيا الحديثة فى الشرق ، وبين توسع دول أوربا البحرية فى الغرب ، سواء فى ذلك الاصول السياسية أو الضغوط الخارجية أو توقيت التوسع . ففى العصور الوسطى خضعت الروسيا لضغوط مزدوجة من الشمال والشمال الغربى ومن الجنوب والجنوب الشرقى . فمن الشمال الغربى أتى من اسكنديناوة وعبر البلطبق الغزاة النورس . ويعرفون أيضا باسم الفارانجيين Varangians او الروس Rus (= رجال الزوارق) . واذا كانت غاراتهم تخريبية مدمرة فى البداية فقد تحولوا بعد حين الى التجارة واستقروا فى مدن السلاف وحكموها سياسيا . أما الجنوب الاستبسى فقد كان ممرا اساسيا

---

(١) المصادر الاساسية هى :

فايفيلد وبيرسى ج ٢ ص ٨١ ـ ١٠٨ ،

East, pp. 212-225; Fairgrieve, pp. 193-199; Fawcett, pp. 429-430; G.B. Cressey. Asia's Lands and Peoples. McGraw Hill, 1951, pp. 243-248;
Mackinder, Pivot; Democratic Ideals pp. 59-88;
Cole, pp. 227-30.

لرعاة الاستبس ومنه أتت غاراتهم بلا انقطاع على وسط الروسيا

وبين أخطار هذه الكماشة ، رجال الزوارق ، ورجال الخيل ، تبدأ الروسيا سياسيا فى القرن التاسع فى اطار نطاق الغابات بعدد من الامارات الصغيرة المستقلة محمية فى تضاعيف الغابة ، ومسطحات المستنقعات ، اما على تخومها مع الاستبس واما على جبهة الالتحام بين النفضيات والصنوبريات . وكانت كل مدينة من هذه المدن النهرية اساسا نواة لتوسع سياسى بعيد المدى فى الغابة سواء نحو الشمال الجليدى أو الجنوب السهوبى ، حتى اذا تلاقت جميعا وسيطرت أحداها فى النهاية كانت تلك بداية التوحيد السياسى للروسيا الحديثة .. وبهذا أيضا اصبح خط الغابة ـ الاستبس خطا سياسيا بالغ الاهمية

وقد كانت كييف ـ « أم المدن جميعا » ـ هى أولى تلك الامارات ، حيث ظهرت فى القرن التاسع . وبعدها ظهرت كوكبة من مدن الغابة التجارية أهمها : نوفجورود . ولكن طرقات رعاة الاستبس لم تنقطع ، وكثيرا ما دفعت تلك المدن الجزية لهم وخضعت لسيطرتهم ، حتى سقطت كييف فى القرن الثالث عشر للمغول (جنكيز خان) ، الذين اتخذوا عاصمتهم على الفولجا الادنى ، وذلك بحكم وقوعها على تخوم الاستبس ، بينما نجت نوفجورود لتوغلها فى الغابة ، ولهذا انتقلت اليها الاهمية ، الى أن بدات امارة موسكو تظهر فى موقع اكثر مناعة وتوسطا بين الفولجا ورافده الاوكا أو ما يسمى أحيانا « ما بين النهرين الروسية «Russian Mesopotamia فأخذت تسيطر منذ أواخر القرن الثالث عشر

حتى اذا كان القرن الخامس عشر كانت موسكو قد اخضعت جميع الامارات الاخرى بعد ان ربطت بينهـا الاخطار الخارجية . وبهذه الوحدة ، وبفضل فرسان القوزاق ، خرجت الدولة من قوقعة الغـابة لتزحف جنوبا حتى تخضع استبس جنوب الروسيا ـ استبس الكيبشاك Kipshak ـ فى مدى ٥٠ عاما . كما دخلت فى صراعات متصلة مع بولندا حول أوكرانيا . وقد كان بطرس الاكبر ـ أواخر القرن السابع عشر وأوائل الثامن عشر ـ هو الموحد الحقيقى للروسيا . ومما لا شك فيه ان دور الاستبس قد أخر الوحدة القومية فى الروسيا عنها فى أوربا لفترة ما . ولكن بعد اخضاعه وضمه بدأ زحف سكانى روسى ضخم نحو الجنوب وصل الى اقصاه فى القرن التاسع عشر حين أصبح حركة عارمة تاريخية حقا

وعند هذا الحد سنلاحظ انه اذا كانت فجوات الغابة هى القوقعة التى تبرعمت فيها امارات الروسيا ، فان الانهار كانت الشرايين التى ربطت بينها أولا ثم توسعت على طولها ثانيا . والواقع أن نمط الانهار فى الروسـيا الاوربية ، الذى يتشعع من الوسط من نقطة مركزية فى جميع الاتجاهات ، يجعل التوسع سهلا تلقائيا (١) ، حتى ليعتبر ايست أن تاريخ الروسيا السياسى تاريخ نهرى أساسا ، ولا ننسى كذلك طبيعة الاقليم كسهل متجانس مترام ، يدعو بطبيعته الى الوحدة السياسية وضخامة الدولة . ومن مجموع هذا وذاك نخرج بدولة من حجم وصفات قارية لا شك فيها

كذلك لابد أن يستوقفنا فى ظهور الروسيا اخضاع الغابة للاستبس . فلقد طالما أخضع الاستبس الغـابة

(١) Semple, op. cit.

أو على الاقل حصرها حبيسة فى قوقعتها . ولكن منذ اختراع البارود انقلب الميزان الاستراتيجى من اساسه راسا على عقب انقلابا تاريخيا بالغ الخطورة والدلالة . فقد ضاعت معهميزة حركة الفرسان وسرعةانقضاضهم، وضاع الى الابد تفوق الرعاة الغزاة على الزراع المستقرين ، واخذت الصورة تنعكس ، فاذا بجيوش الزراع ومدفعيتهم هى التى تغزو الآن فرسان الاستبس وتخضعهم لأول مرة (١) . بل لقد اتخذت الغابة من فرسان الاستبس القوزاق « بوليسا » يحرس الاستبس من الجماعات الرعوية الاخرى . أو كما عبر البعض ، لقد تغلب « الدب » على « الحصان » بعد أن ظل هذا يحاصره طويلا ويقلقه فى قلب الغابة

ولهذا فقد كان ظهور الروسيا الحديثة ايذانا باغلاق ممر الاستبس الاوراسى وانتهاء طوفاناتهم الى الابد . وبعد أن كانت الخريطة السياسية للروسيا ما بين القرن العاشر والخامس عشر تتالف من مجموعتين اساسيتين من الامارات والدويلات : كوكبة روسية سلافية شمال الخط ، خط الغابة – الاستبس ، وكوكبة سريعةالتغير من الولايات الرعوية الاستبسية جنوبه، ابتداء من الخزر الى البلغار حتى المغول والتتار ، نقول بعد هذا اندمجت الروسيا جميعا فى دولة مركزية واحدة موحدة

التوسع القيصرى

هذه وحدة الروسيا القومية تتم اذن فى توقيت لا يختلف كثيرا ، وان تخلف قليلا ، عما حدث فىالدولة الوطنية الحديثة فى غرب أوربا . وكما خرجت هذه الى

(١) Owen Lattimore, Inner Asian Frontiers, opcit pp. 186-8.

التوسع والاستعمار عبر البحار غربا وجنوبا ، سنجد الروسيا تخرج بدورها وفى توقيت معاصر تقريباللتوسع والاستعمار ، ولكن برا ، شرقا وجنوبا . هنا نداءالبحر وهنا نداء السهول ، وكل يغرى بالتوسع ويدعو الى بناء الامبراطورية

وكما فى غرب أوربا ، يمكن أن نميز بين موجتين رئيسيتين من التوسع الروسى : الاولى فى القرنين السادس عشر والسابع عشر واتجهت كمثيلتها فى غرب اوربا الى عروض شمالية باردة ومناطق شبه خالية من السكان ، وكانت أقرب الى التعمير البشرى منها الى الاستعمار السياسى . أما الموجة الثانية فاتجهت ـ ايضا كمثيلتها فى غرب أوربا ـ الى عروض جنوبية ادفا ومناطق ماهولة بدرجة أو باخرى ، فكانت من ثم الى الاستعمار السياسى أقرب

وقبل ان نعرض بالتحليل لهذا التوسع القيصرى ينبغى أن نذكر انه ـ فى نظر اغلب الكتاب لا سيما منهم الغربيون ـ يعد « استعمارا امبرياليا » كاملا بكل معنى الكلمة ، وبنفس المعنى الذى يقصد به الاستعمار الغربى عبر البحار (١) . ولعلهم يقصدون بذلك أن هذه المناطق التى ضمتها الروسيا اليها واعتبرتها بعد ذلك جزءا لا يتجزأ من الوطن الاب ليست الا مستعمرات اجنبية عنها وان لم يفصلها عن الروسيا الاوربية فاصل بحرى أو برى . ومنطقهم فى هذا أن سكان هذه المناطق التى ضمت يختلفون تماما عن سكان الروسيا الاوربية، فهم سواء فى سيبريا أو التركستان من العناصر المغولية والتركية والتترية والطورانية ، بينما الروس من السلاف اساسا وان اختلطوا بنسب ثانوية من العناصر الفنية

(١) Goblet p. 200.

فى الشمال المتجمد والتترية فى الجنـــوب الاستبسى وقد كانت القيصريةتنظر اليهم على انهم اجانبمنحطون، وظيفتهم ان يقدموا العمل الرخيص للمتروبول الصناعية المتقدمة ، واقاليمهم ليست الا موارد خامات لها ، بينمـــا كانت هى تعتمد فى اخضاعهم على مضاربه شعوبهم المختلفة بعضها ببعض وباعنف وسائل الكبت والقهر (١)

والنقـاد أصحاب هـــذا الراى يعترفون بأن مسـافة الخلف الجنسية والاثنولوجية بين تلكالشعوب الاسيوية وبين الروس السلاف اقل بدرجة او باخرى منها بين الدول الاوربية الاستعمارية وبين ابناء المستعمرات عبر البحار الذين لا يربطهم بهم بالقطع ادنى رابطة جنسية او تاريخية . ولكنهم فى نفس الوقت يحتجون بان هذا لا ينفى صفة الاستعمار عن توسع روسيا القيصرية فى آسيا . ومن تساهل منهم عدها اشبه شىء «باستعمار» الانجلو سكسون لامريكا الهنود الحمر . وعلى اية حال، فان الثورة الشيوعية تشارك فى هذه النظرة ، فقـــد اعلن لينين نفسه ان الامبراطورية القيصرية لم تكن الا « سجن أمم » من مقياس رهيب (٢)

ومهما يكن من أمر ، فاذا ما نحن عـــدنا الى موجات التوسع الروسى فسنجد ان الموجة الاولى قد اتجهت شرقا الى سيبريا ، وبدأت أقرب فى الواقع الى نوع روسى من « الكشوف الجغرافية » القارية ، وانتهت فى النهاية كزحف قيصرى نحـــو الشرق Drang nach Osten ولم يبـــدأ التيار الا فى أواخر القرن السادس عشر وأوائل القـــرن السابع عشر ، حين عبر المغامر القوزاقى يرمك Yermek

---

(١ ، ٢) James Gregory, Land of the Soviets, Pelican, 1946, pp. 47-8.

جبال الاورال في سنة ١٥٨٠ واستولى على مدينة سيبير على الارتش . ولم يكن هذا جزءا من خطـــه غزو منظم موضوعة ، لا ولا يدل على أطماع استعمارية قيصرية ما . وانما كان الدافع والهدف ـ كما حدث في كندا ـ هو التجارة أساسا ، والفراء بوجه خاص ، ومن تنظيم وعمل كبار التجار في الأورال . أما الجانب العسكرى فيها فلم يزد على نشاط فرسان القوزاق الذين صاحبوا القوافل التجارية ، أصلا كحرس واحيانا كعصابات نهب (١) .

ولقد كانت سيبريا هي جبهة الريادة لروسيا مثلما كان العالم الجديد بالنسبة للانجلو سكسون ـ بل كانت بجدارة « العالم الجديد » بالنسبة للســلاف . بل ان تواريخ الزحف والتقدم تكاد تتعاصر وتتناظر فى أكثرمن حالة حتى ليمكن مقارنتها ومقابلتها بدقة مثيرة . وكما فى العالم الجديد ، جاء الزحف كاسحا سريعا كالسهم المرسل ، لانه تم فى مناطق مخلخلة السكان جدا ان لم تكن من الناحية العملية فراغا بشريا تقريبا ، كما كان المستوى الحضارى الذى ينحصر ما بين الرعى والصيد بدائيا أو شبه بدائى على الاحسن ، فلم تكن ثمة مقاومة فعليا

واذا كانت الروسيا قد توسعت فى حدودها الاوربية على طول الانهار بالذات ، فقد استمر توسعهم خارجها فى سيبريا على أساس الانهار كذلك . وكان كل نهـــر يؤدى بالرواد الى النهر الذى يليه ، وهذا يسلمهم الى ما بعده ، وهكذا . وتم هذا فى نطاق دهليزى ضيق من الاعشاب الجيدة يقع مباشرة الى الجنوب من «التاييجا» محصورا بينها وبين مرتفعات وسط آسيا فى الجنوب ، وهو نفس ذلك الدهليز الذى تتبعته فيما بعد ســـكة

---

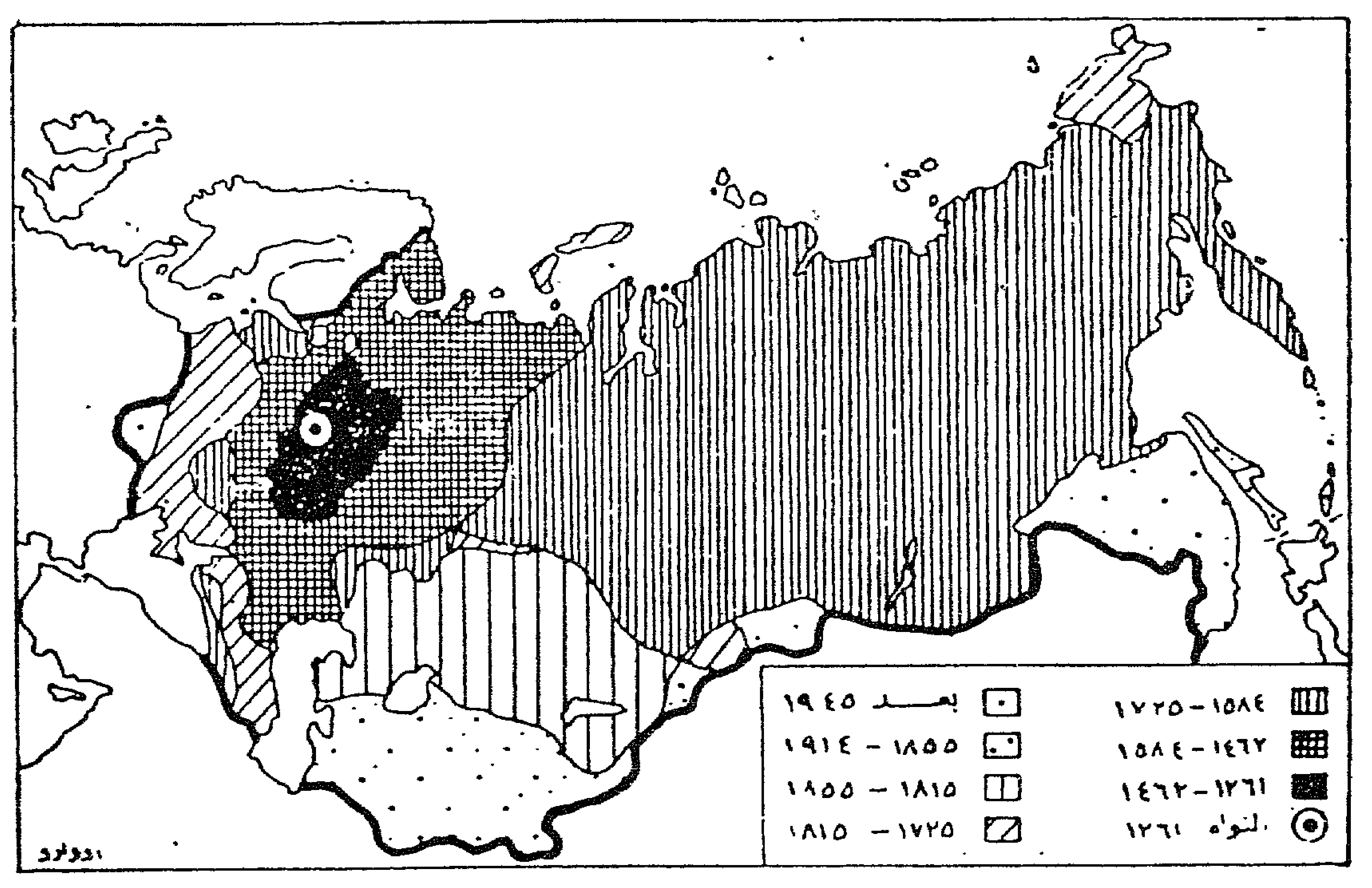
(١) Fitzgerald, New Europe, pp. 163-8.

حديد سيبريا . ولذلك فاذا كانت الانهـــار هي حملة الاستعمار هنا ، فقد جاءت بعدها السكك الحديدية لتصبح شريان الحركة فيها ، وذلك دون أن تمر المنطقة مطلقا بمرحلة الطرق البرية

وعلى طول الرحلة بذر الرواد بذور المدن المحصنة على ملاقى الانهار : تومسك على الارتش فى Ostrogs ١٦٠٤ (وتقـــابل جيمس تاون فى امريكا ١٦٠٧) ، ياكوتسك على نهر لينا ١٦٣٢ (وتقـــابل هارتفورد فى ١٦٣٨) . وبهذا نكون قد قطعنا أكثر من ٢٥٠٠ ميل فى أقل من نصف قرن !

وحين وصل الزحف الي بيكال انشعب الى شعبتين: الاولى الى الشرق توا نحو الهادى الى اوختسك وهى التى ستؤدى بالروســـيا بعد حين الى مواجهة امريكا الشمالية من بابهـــا الخلفى لتنتهى « ببهـرنج » الى اكتشاف الاسكا فى ١٧٤١ والى استعمار روسيا لها ، ثم الى الزحف جنوبا على طول الساحل الامريكى حتى اصبحت الروسيا على بعد ٤٠ ميلا فقط شمال سان فرنسسكو فى ١٨١٢ ، لتجد نفسها وجها لوجه مـــع اسبانيا ، بعد أن بدأ كل منهما من اقصى طرفى اوربا واعطى ظهره للآخر فى رحلة عكسية حول العالم !

وهنا نجد الروسيا لاول مرة تترك اليـــابس لتعبر المحيط ـ طفرة غريبةفى تاريخها وتكوينها القارىالبحت. وفضلا عن هذا فقد وصل بها هذا الاندفاع الصاروخى الى نقطة تبعد عن العاصمة الوطنية بمسافة قد لا تقل عن ثلث محيط الكرة الارضية ! ولهذا لم يكن غريبـا أن تنسحب الروسيا الى أوراســـيتها حين قررت ـ بحكمة ـ بيع الاسكا للولايات المتحدة فى ١٨٦٧ . ولعل هذا يذكرنا ببيع فرنسا للويزيانا وانسحابها الى أوربيتها،



شكل (١١) توســـع الروسيا : الامبراطورية القارية الكاملة

او كانما قد اصبح قانونا من قوانين السياسة الروسية الا تملك أراضى عبر البحار بمثل ما اصـــبح من قوانين السياسة البريطانية ان تملك أراضى عبر البحار

اما الشعبة الثانية من توسع الروسيا شرقا فانحرفت مع التضاريس الى الجنوب الشرقي الى هضبة فيتيم. التى هى خط تقسيم المياه بين الآمور ولينا ، لتنتهى الى فلاديفوستك ١٨٦٠ . وهذه الشعبة اتت بالروسيا الى ابواب الصين ومنشوريا حيث بدأت صداقة تقليدية ستتطور فى المستقبل لتصبح ذات مغزى سياسى كبير. ومع تقدم العمل فى خط حديد سيبيريا الى فلاديفوستك وبورت آرثر ازداد التعمير الروسى فى شمال منشوريا ، ولكن دون أن يعوق تيار الفلاحين الصينيين العرم الى هذا الاقليم أو يصطدم به

ولكن ، من الناحية الاخرى ، كان هذا الخط يحمل الروسيا الى ابواب اليابان التى كانت قد تطورت كثيرا وقطعت شوطا بعيدا فى التحضر والقـوة وبدأت تتطلع الى التوسع والنفوذ . من هنا جاء الصدام الذى تمثل فى الحرب الروسية ــ اليابانية عام ١٩٠٥ والذى كشف ضعف الروسيا او على الاقل سوء موقعها الاستراتيجى فى هذه التخوم المتطرفة بسبب بعدها السحيق عن قلب الدولة غرب الاورال

تلك هى الموجة التوسعية الاولى للروسيا الحديثة . وفيها سنلاحظ ان التعمير الروسى فى سيبريا طوال تلك المرحلة لم يكن جديا حقا . ولم يكن الاستعمار القيصرى مهتما بأملاكه الحديثة فى الشرق لانه كان منصرفا الى المجال الاوربى . بل لقد ظلت سيبريا لفترة طويلة مجرد منفى للمجرمين والمبعدين ، شانها فى ذلك شان البرازيل بالنسـبة للبرتغال ، واستراليا بالنسبة لبريطانيا . الا

ان الموقف تغير منذ منتصف القرن التاسع عشر ، حين انعطفت القيصرية على سيبريا بشدة ونظرت بطموح الى الهادى بحثا عن مخارج لها بعد ان فشلت فى الوصول الى مخارج لها فى المياه الاوربية . والواقع أن التعمير الروسى لسيبريا يقتصر تقليديا على سهم أو اسفين يبدو كرشاش متطاير خفيف مرسل من كتلة سلاف روسيا الاوربية على فرشة مخلخلة للغاية من السكان المغوليين الاصليين

هذه النكسة التى قابلت الروسيا فى سياستها الاوربية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر دفعت بها ايضا الى مجال آسيوى جديد غير سيبريا هو القوقاز والتركستان (١) . فكانت الموجة الاستعمارية الثانية ، او الاتجاه نحو الجنوب Drang nach Süden التى تناظر وتعاصر الموجة الثانية المدارية للاستعمار الاوربى .
وبحكم الموقع الجغرافى كان طبيعيا ان ياتى دور القوقاز اولا فى النصف الاول من القرن ، ثم التركستان بعد ذلك فى نصفه الثانى . ولهذا تاخذ الموجة شكل كماشة فكاها غرب بحر قزوين أو منطقة Trans-Caucasia وشرق البحر أو Trans-Caspia . وفى كلا الحالين كان لا بد أن تصطدم الروسيا فى نهاية توسعها بالنفوذ الفارسى الذى كان سائدا فى تلك التخوم ، وفى وقت كانت فارس فيه قوة ضخمة قادرة على أن تناطح تركيا

ففى غرب البحر بدأ الزحف مع بداية القرن وانتهى فى ثلاثة عقود بعد حربين مع فارس . وقد سارعت قوى اوربا البحرية فرنسا ثم بريطانيا الى مساعدة فارس والوقوف الى جانبها منعا للتوسع الروسى . ولكن بلا

(١) W. B. Fisher, pp. 161-3.

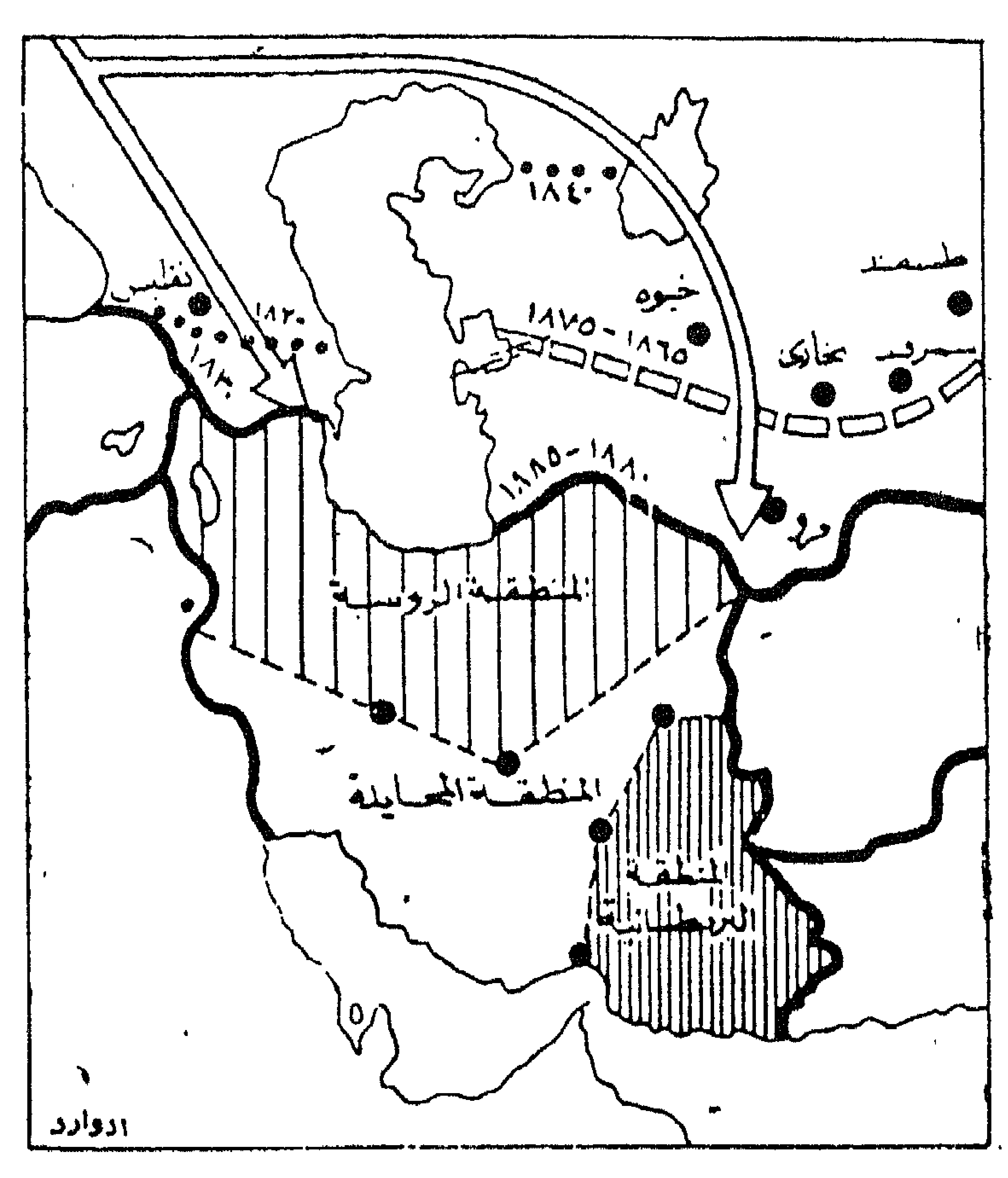
جدوى : فقد فقدت فارس جورجيا وأرمينيا (اريفان ولنكوران) . وبهذا انتهى الصراع الى الحدود التى ستظل حتى يومنا هذا . ومن حينها تداعت فارس واتضمت بصورة كاسفة وانتهت كقوى كبرى فى المنطقة ولم يعد نها بعدها قبل بأن تواجه الروسيا على الاطلاق

وبعد عقد واحد من اكتساح القوقاز ، كانت الروسيا قد استدارت فى ١٨٤٠ حول بحر قزوين متجهة الى سهل طوران لتخضع قبائل التركمان والازبك والقرغيز وغيرها من العناصر الطورانية او المغولية . وفى ١٨٤٦ كانت طشقند قد سقطت ، وفى ١٨٦٨ تلتها سمرقند ، ثم جاء دور خيوة فى ١٨٧٣ ، ولحقتها خوقند فى ١٨٧٦. أى أن أهم المراكز التاريخية سقطت جميعا فى عقد واحد

هناك لم يبق الا النطاق الجنوبى الاقصى من الحوض، حيث ضم نهائيا فى العقدين الاخيرين من القرن بعد اصطدام آخر مع فارس التى انتزعت الروسيا منها مرو ، ووصلت بذلك الى الفاصل الجبلى النهائى ، وبه تحددت الحدود السياسية القائمة حتى الآن . كذلك فقد أوصلها هذا الى تخوم الهند البريطانية وبدا التوتر يزداد بين القوتين النقيضتين ، قوة البر وقوة البحر

فى هذا التوسع الجنوبى بشقيه سيلاحظ انه — ابتداء — قد تأخر طويلا عن التوسع الشرقى فى سيبريا، فكانت الروسيا قد شارفت الهادى حين كانت بالكاد قد بدأت التوسع الجنوبى ، وذلك رغم القرب الجغرافى النسبى . كذلك فقد انفقت الروسيا فيه وقتا طويلا نسبيا . والسبب فى هذا وذاك هو أن التوسع شرقا فى سيبريا كان يتم كما رأينا فى شبه فراغ عمرانى وحضارى، أما التوسع الجنوبى فجاء فى وسط غير منفذ بسهولة للاستعمار: كثافة سكان أعلى، وتجمعات آهلة مستقرة،

وشعوب ذات تاريخ حضارى طويل ، وتكوين سياسى راق ، وتركيب دينى توحيدى (الاسلام شرق قزوين ، والمسيحية غربه) . لهذا كان لا بد من القضــــاء على « الخانات » الاسلامية وقمع الحضارة المحلية والشعور القومى بالارهاب • وتاريخ قياصرة آل رمانوف فى هـذا دموى ومعروف بما فيه الكفاية



شكل (١٢) توسع قياصرة رومانوف فى وسط آسيا

كذلك ، وبعكس سيبريا ، لم يكن هناك مجال للاستعمار السكنى أو لانتقال معمرين من الروس السلاف للاستقرار فى المنطقة وهى الآهلة العامرة بأصحابها من قبل ، ولذا تحتم ان يقتصر التوسع على الاستعمار الاستغلالى . ومما يلفت النظر ان الفارق فى هذا بين التوسع شرقا والتوسع جنوبا يكرر فى نفس الوقت الفارق بين الموجة الاولى من الاستعمار الاوربى عبر البحار فى العروض المعتدلة وبين موجته الثانية فى العروض المدارية

ما هو المغزى الاستراتيجى لهذا التوسع الخطير ؟ انقلاب ثورى فى تاريخ العالم القديم لا يمكن — مهما حاولنا — أن نبالغ فى تقديره ! فلأول مرة تظهر قوة توحد كل قلب أوراسيا فى تنظيم سياسى واحد ، ولاول مرة لا يكون الاستبس الاوراسى قوة رحل رعوية بل قوة زراعية مستقرة دائمة . ان الانقلاب الذى بدأت بدوره مع اختراع البارود قد استكمل الآن كل مغزاه الاستراتيجى ، وخضع الاستبس الاوراسى جميعا لسيطرة حكومة مركزية قوية فى قاعدة ارضية غنية متحضرة ، لتصبح الروسيا أول واضخم قوة بر فى التاريخ لا تعتمد على حركة الخيل وكوكبات الفرسان وانما على حركة القطار والمدفعية المدرعة

استراتيجية البر والبرد

من هذا التوسع المديد تخرج الروسيا أيضا بصفة اساسية هى بلا شك « القارية » ، القارية المطلقة . فهى اولا رقعة واحدة متصلة سحيقة الابعاد من اليابس ، كبقعة زيت تمددت . بل لعل العالم لم يعرف فى تاريخه دولة او امبراطورية برية متصلة contiguous فى مثل هذا

الحجم ، الا ان تكون امبراطورية جنكيزخان . ثم انها تخرج وهى دولة اوراسية ذات بعدين ، تضع قدما فى اوربا وقدما فى آسيا ، وتبدو كما لاحظ دستويفسكى أسيرية للاوربيين واوربية للاسيويين (١) ، وحين تلقى اعراضا أو انتكاسا هنا تتجه هناك ـ والعكس . على أنه لما كان مركز ثقل المعمور والنواة النووية هى روسيا الاوربية ، رغم ان المساحة الكبرى فى آسيا ، فيمكن أن نقول ان الراس أوربى والجسم أسيوى

والمهم أنها الآن الدولة القارية الكاملة وقوة البر الكلاسيكية ، والنقيض المباشر لبريطانيا فى القرن التاسع عشر ، النموذج التام للامبراطورية البحرية المتناثرة فى أركان الدنيا ولقوة البحر الكلاسيكية . واذا كانت الامبراطورية البريطانية ـ كما قيل ـ من صنع السفينة البخارية ، فان الروسيا القيصرية كالولايات المتحدة هى من صنع القطار

وهى بعد تخرج من ذلك التوسع وهى أطول الدول حدودا ، سواء برية أو بحرية : نحو ٣٨ ألف ميل (٢) أى مثل محيط الكرة الارضية مرة ونصف مرة ! ومع ذلك فلم يكن هناك دولة معزولة بالطبيعة وحبيسة عن عالم المعمور كالروسيا . فهى وان بدت ساحلية شكلا فهى قارية موضوعا . فشمالا ثمة المحيط المتجمد ، وجنوبا نطاق عميق من الصحارى والمرتفعات الصارمة ، وشرقا فراغ المحيط الهادى الهائل واضخم صحراء على ظهر الارض كما يعبر هويتلزى . انها ـ نكاد نقول ـ رهينة المحبسين ، صحراء الجليد وصحراء الرمل

لهذا جميعا كانت تطلعاتها وسياستها الخارجية

---

(١) Dostoyevsky, Diary of a Writer.

(٢) Gregory, p. 10

انعكاسا مباشرا وتلقائيا لتركيبها الداخلي : هنا القارية الحبيسة ، وهناك الخروج الى البحر والبحر الدافيء بالذات ، هنا الحدود الشاسعة ، وهناك الرغبة في خلق نطاق حولها من الدول الصغرى المحيدة أو الخاضعة لنفوذها لتكون حاجزا بينها وبين القوى الساحلية البحرية • وهذان هما المؤشران اللذان يكونان معا بوصلة السياسة الروسية أو حجر المغنطيس في استراتيجيتها• وقد بدأ التوجيه الى البحار الدافئة منذ بطرس الاكبر ، وبعده يمكن تفسير كل السياسة الخارجية « برغبة الدب الروسي في المياه الدافئة » أو بتعبير آخر « بجيوبولتيكا درجة الحرارة »

وكان معنى هذا مباشرة أن تصطدم بالقوى البحرية في أكثر من جبهة ، ومن ثم يأخذ الصراع السياسي شكل صراع سافر وبلا مواربة بين قوة البر وقوة البحر • ومن الغريب أن السياسة المعلنة للقوى البحرية الغربية في القرن التاسع عشر كان يعبر عنها بالاحتواء Containment والتطويق encirclement — وهي نفس الالفاظ التي تستعملها اليوم ـ حتى تظل الروسيا محصورة في قاريتها (١) • وباختصار فقد اتخذت القوى البحرية ازاء الروسيا : سياسة الصد Checkmate • ذلك كان صراع « الفيل » (قوة البر) و « الحوت » (قوة البحر) كما وصف في حينه

وقد كانت المنافذ البحرية الممكنة للروسيا هي أساسا البلطيق في الشمال والبحر الاسود في الجنوب ، ولو أنها بحار داخلية تتحكم دول في مخارجها كما تتحكم أخرى في سواحلها ، وفيما بعد أضيف الخليج الفارسي

(١) John S. Badeau, «Middle East; Conflict in Priorities», Foreign Affairs. Jan 1958, pp. 233-7.

(العربي) كمغنطيس ثالث · أما الهادي فنصف متجمـد فضلا عن أنه منطوح مقطوع ويمثل طريقا غير اقتصادية · ولهذا فقد تركز ضغط السياسة القيصرية في الغرب على ضلوعه الاوربيه · ففي البلطيق بدأ بطرس الاكبر «بنافذة الروسيا على أوربا » حين خلق سان بطرسبرج (لننجراد) من لا شيء · ثم كانت أوكرانيـا أرض صراع مزمن بين الروسيا وبولندة في البداية ، فلما تغلبت الروسـيا أصبحت بولندة نفسها هي الهدف

وفي النصف الثاني من القرن الثـامن عشر كانت الروسيا شريكا في تقسيمات بولندة الثلاث الشـهيرة وغالبا ما خرجت منها بنصيب الاسد · أما دويلات البلطيق فقد تمت السيطرة عليها في نفس الفترة ، بينما ضمت فنلندة في أيام الحروب النابليونية بعـد انتزاعها من السويد · وبذلك اصبح للروسيا جبهة بحـرية حقيقية فسيحة على البلطيق الى جانب نطاق أمان ضد وسـط أوربا · ويلاحظ أن الروسيا كانت بهذا أوسع رقعـة وأبعد حدودا ناحية الغرب من الاتحاد السوفييتي اليوم

ولكن البحر الاسود كان الهـدف الاكبر بالطبع نظرا لموقعه ودفئه ، ولان الجزء الاكبر من حـوضه روسي مباشرة أو على الاقل سلافي بوجه عام · الا أن مفاتيحه ليست في يدها وانما في يد تركيا · ولهذا كان الصراع بينهما هو قدرهما المشترك ، لا سيما أن تركيـا كانت القوة التي تقهر أكبر عدد من السلاف في البلقان وشرق أوربا ، بينما أن الروسيا هي بطل السلافية الحامي · أقطاب جغرافية متنافرة وأقدار تاريخية متصادمة ! هذه قوة بر ، وهذه قوة برمائية بينية

وقد شهد القرن الثامن عشر عدة اندفاعات روسـية عاصفة على عهد كاترين الثانية لتقتحم المضايق ، وذلك

بعد أن كانت الروسيا قد انتزعت السواحل الشمالية للبحر الاسود وشبه جزيرة القرم من الاتراك · وقد بدا أحيانا أن هدف الروسيا هو ضم المضايق ضما سياسيا كاملا ، وفى أحيان أخرى كان ضمان حقوق وامتيازات المرور الخاصة هي الهدف الوحيد ·· وبعامة فقد حدثت سبع حروب على الاقل بين الروسيا وتركيا للسيطرة على المضايق (١) وفى كل هذه الحروب بلا استثناء ولا اختلاف كانت تتقدم دولة بحرية غربية ـ فرنسا أو انجلترا ـ لتساند تركيا ضد الروسيا

أحيانا كانت انجلترا تصادق الروسيا وتقف موقف برود ازاء تركيا عندا فى فرنسا التى تساعد تركيا · واحيانا تساعد بريطانيا تركيا معارضه لفرنسا حين تتقارب هذه مع الروسيا · اى أن الصراع الداخلى بين الاشباه البحريه كان ينعكس على مواقفهما من صراع تركيا مع الروسيا ، ولكن فى كل الحالات لم تكن تركيا تعدم قوة ما منهما فى جانبها · ولعل حرب القرم فى سنة ١٨٥٣ هى أبرز وأخطر مجابهة من بريطانيا للروسيا فى تهديدها لتركيا · وقد انتهى الصراع بفشل الروسيا فى السيطرة على المضايق · واذا كان قد قيل ان هذا كان أول التحام مباشر ومواجهة بين الفيل (الروسيا البرية) والحوت (بريطانيا البحرية) ، فهل نضيف من جانبنا أنه كان يدور حول التمساح (تركيا الامفيبية) ؟

أيا ما كان ، فقد أدركت كل من فرنسا وبريطانيا بالتدريج بعد ذلك خطأ مواقفهما التكتيكية المتعارضة السابقه ازاء كل من الروسيا وتركيا والتى حكمتها مناورات العداء بينهما فى الوطن ، وسرعان ما أيقنتا وحدة مصالحهما الاستراتيجية العميقة ضد الروسيا وبالتالى مع

---

(١) Mogey, p. 132.

تركيا · ومن حينها أصبحت سياستهما المشتركة المتصلة هى تدعيم تركيا وحقنها بكل المساعدات الحربية والسياسيه لتكون درعا ضد توسع الروسيا ونطاقا صحيا حولها (١) · والمغزى الاستراتيجى واضح كل الوضوح: فى صراع القوى البحرية (فرنسا وبريطانيا) ضد توسع قوة البر (الروسيا) ، كانت قوة بينية (تركيا) هى أرض المعركة الطبيعية ، ولما كانت هذه مهددة بالسقوط أمام قوة البر فقد اجتمعت قوى البحر لتسندها وتدعمها

حتى حين هدد قطاع من المنطقة البينية ـ مصر محمد على ـ كيان تركيا وأنذر بان يرث السيطرة على تلك المنطقة ، اتضحت نفس الاستراتيجية ، فقد تكفلت قوتا البحر فرنسا وبريطانيا بكبت الحركة بالقوة فى سوريا· وهذه الاستراتيجية وحدها هى التى أطالت عمر رجل أوربا المريض اكثر مما كان يمكن له ، ومنحته « سلفة » جديدة من الحياة بكل الوسائل الاصطناعية

ومع ذلك فلم يجد هذا كثيرا · فقد اجتمعت طرقات الروسيا البرية مع طرقات امبراطورية النمسا ـ المجر البينية ضد تركيا البينية طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر فى البلقان · فالنمسا ـ التى استطاعت بعد حصار الاتراك لفينا فى القرن السابع عشر ، وبفضل موقعها الجغرافى ، أن تطردهم خطوة خطوة من المجر خلال القرن الثامن عشر وأن تؤسس بذلك الامبراطورية الثنائية النمسا ـ المجر ·· هذه النمسا عادت فى القرن التاسع عشر الى انتزاع البوسنة والهرسك من تركيا فى حرب ١٨٧٨ · وبعد ذلك أخذت تركيا تتقلص فى البلقان

(١) Reader Bullard, Britain & the Middle East, Lond., 1952, pp. 28-36.

بالتدريج حتى كانت النهاية الكاملة فى الحرب الكبرى الاولى حين أصبحت قوى البحر الغـــــربية ـ حاميتها القديمة ـ عدوة لتركيا البينية

لا يبقى لنا الان من مخارج الروسيا الا الخليج الفارسى· وهذا بدأت الروسيا تتطلع اليــه بعد توسعها الجنــوبى فى القوقاز ووسط آسيا منذ منتصف القرن التاســـــع عشر · وقد ازداد نفوذ الروســــيا فى فارس ، بعـــد انتصاراتها عليها وبعد أن أصبحت تطوقها من ثـــلاث جهات ، ازديادا خطيرا حتى انتزعت كثيرا من الامتيازات الاقتصادية الهامة فيها · وفى وقت ما اعتبرت السياسة الروسية أن المنطقة الواقعة جنوب القوقاز وفى اتجـــاه الخليج الفارسى هى الاطماع الشرعية لها ، وأن ايران هى « قناة السويس الروسية » وأن لابد لها من « ممر » الى الخليج الفارسى (١)

وفى أوائل القرن العشرين وصل تغلغل الروسيا فى ايران الى حد أن بدا أن هذه قد تسقط كاملة لسيطرتها· ولكن ـ كما حدث مع تركيا ـ وقفت فرنسا اولا فترة مع ايران ثم جاءت بريطانيا معتمدة على قوتها البحرية فى الهندى لتنذر بان أى محاولة روسية لبسط نفوذها فى الخليج ستقاوم بالقوة · على أن هزيمة الروسيا فى حرب اليابان كشفت عجزا غير منتظر ، فاضطرت الى مساومة تسوية مع بريطانيا·بمقتضاها قسمت ايران الى مناطق نفوذ ثلاث ، الشمالية للروسيا ، والجنوبية لبريطانيا ، والوسطى محايدة · وهذه التســــوية تلخص فى نفس الوقت كل استراتيجية ايران من أجل البقاء والمحافظة على كيانها منذ ظهرت قوة الروسيا على ضـــــلوعها ، وهى

---

(١) المرجع السابق ص ١٧٠

استراتيجية مضاربة كل من القوى البرية بالبحرية حتى تعيش هى على التناقض بينهما ، باختصار سياسة المضاربه Stalemate (١)

وبالمثل اصطدمت الروسيا مع بريطانيا على تخوم الهند الشمالية الغربية حيث كانت الاولى بتوسعها فى وسط آسيا قد بدأت تقرع باب الهند · من هنا كانت حروب الافغان فى القرن التاسع عشر التى انتهت «بتحييد» أفغانستان – التى شبهها أحد حكامها فى موقعها الاستراتيجى المسحوق بين قوة البر والبحر « بشاة » بين الدب الروسى والاسد البريطانى ! (٢) – لتصبح دولة حاجزية بين النفوذين البرى والبحرى · ومثل هذا اتفق عليه أيضا بالنسبة للتبت · وبهذا وذاك تحققت استراتيجية الروسيا على حدودها البرية من خلق نطاق من الدويلات الحاجزة بينها وبين القوى البحرية ، وان كانت قد فشلت فى تحقيق استراتيجية الوصول الى المياه الدافئة

(١) W. B. Fisher, pp. 163-4.
(٢) Cressey, p. 409.

الفصل السادس

الانقلاب الصناعى والاستعمار

اذا كان الانقلاب التجارى قد كشف عالما جديدا ، فقد خلق الانقلاب الصناعى عالما جديدا · ، وفرق بين الكشف والخلق كبير · ومهما حاولنا فلا يمكننا المبالغة فى خطورة ونتائج الانقلاب الصناعى ، ويكفى أن تاريخ البشرية كله قبل الصناعة وحدة واحدة ،وبعده وحدة أخرى بذاتها(١) · فالانقلاب اذن أخطر نقطة انقطاع فى تاريخ الانسانية ، ولعله كذلك فى تاريخ الاستعمار وسياسه القوة

واذا كان الانقلاب الميكانيكى فى القرن الثامن عشر هو الذى يمهد مباشرة للانقلاب الصناعى ، فان له ايضا جراثيم فى الانقلاب التجارى الذى سبق الاثنين فى القرن الخامس عشر · فان مكاسب المستعمرات واقتصاديات المركانتلية الجديدة خلقت بالتدريج فى أوربا البيئة والظروف التى ساعدت على تفريخ الانقلاب الصناعى ·· وهكذا يبدأ الانقلاب فى بريطانيا حوالى ١٨٢٠ لينتقل الى فرنسا فى العقد التالى ١٨٣٠ ثم لينتشر بعد ذلك شرقا عبر القارة خلال القرن

والانقلاب مركب حضارى كامل برمته ، لم يخلق علما

(١) V. Gondon Childe, Man Makes Himself, N.Y., 1951, pp. 17-19.

وفنا وتكنولوجيا جديدة فحسب ، ولا اقتصادا جديدا وكفى ، بل ومجتمعا جديدا وجيوبولتيك جديدا تماما • واذا كان هيكل الانقـــــلاب يتلخص فى أنه عصر الفحم والحديد ، والبخار والقطار ، فهو بنفس القوة والاهمية عصر السفينة البخارية والمواصلات السلكية واللاسلكية ، اى المواصلات المكانية واللامكانية ، كما انتهى الى أن يكون عصر الطيارة فى الجو والغواصة فى الاعماق • وقد ترتب على هذا كله ثورة جذرية فى النقل والمواصلات ، فتقلص العالم واختزلت المسافة ، واصـــبحنا نعيش فى « عالم صغير » منكمش باطراد جغرافيا ــ كما هو جيولوجيا ــ حتى وان تمدد ظاهريا ببعض كشوف من المجاهيل !

ولما كان القطار قد حقق وحدة اليابس ، فانه لم تعـد هناك قارات متعددة بل « قارة عالمية » World Island كما سمى ماكيندر العـــــالم القديم (١) ، وقارة صغرى هى العالم الجديد • ولان السفينة البخارية قـد حققت وحدة المحيط ، فانه لم يعد هناك عمليا محيطات متعددة وانما محيط واحد يغلف عالما واحدا متماسكا مترابطـا كما لم يكن قبل فى التاريخ • واتت المواصلات اللامكانية والجوية لتؤكد هذه الوحدة كل التوكيد

وفى الجانب السياسى ، كانت النتيجة المباشرة لهذه الانقلابات هى سهولة ضبط وربط الدولة من الداخــــل عمقا واتساعا • فبعد أن كان من المتعذر على الدول أن تتعدى حجما او مساحة معينة فى العادة ، امكن للـدول الكبيرة الحجم أن تظهر • وبعد أن كانت الدولة الكبـــيرة الرقعة نوعا تتعرض ، على بعد مئات قليلة من الاميال من العاصمة ، لحركات الانفصال والتمرد ، اصبحت الوحدة

---

(1) Democratic Ideals, p. 52.

القومية مضمونة حتى أبعد الحدود وهوامش الاطراف من الدولة (١) . ولهذا فان النصر هو عصر استكمال ما لم يكن قد تم من وحدات في القارة أو خارجها ، وتوسيع وتوطيد ما كان منها قد بدأ .

ومن ثم فالوحدات التي ولدت في عصر الانقلاب الصناعي تميل الى أن تكون من الدول الضخمة المساحة والحجم ، كالمانيا وكندا والولايات المتحدة واستراليا ، وبالتالى سيكون لها مكان خاص فى ميزان القوة السياسية (٢) . ولولا أن أتى الانقلاب الصناعى بكل أدواته ووسائله لا سيما منها وسائل النقل فى الوقت المناسب ، أو لو تأخر عقودا ، لما استطاعت بعض هذه الوحدات الضخمة ـ ربما ـ أن تظهر ، ولظهر بدلا من كل منها عدد أكبر من وحدات أصغر . فلولا القطار وخط سكة حديد الباسفيك لما دخلت كولمبيا البريطانية ـ وربما مقاطعات الوسط أيضا ـ اتحاد كندا . ومثل هذا وأكثر منه يقال عن الولايات المتحدة . بل لو ان الانقلاب الصناعى تقدم قليلا فى مجيئه فلربما لم تستقل ، أو لم تستطع أن تنفصل ، الولايات المتحدة عن بريطانيا . ولولا سكة حديد الجنوب لكانت استراليا الغربية ، وهى التى لا تزال تعانى من اتجاهات انفصالية ، دولة منفصلة عن الاتحاد الاسترالى (٣)

هذا داخل الدولة الواحدة ، اما خارج الدولة الوطنية فان انقلاب المواصلات والصناعة سيمكن للامبراطوريات المأموث والجبارة من الظهور مهما تباعدت أطرافها فى أركان المعمورة . لا سيما أن الانقلاب الصناعى نفسه

(١) Fawcett, op. cit., p. 428.
(٢) Mogey, p. 125.
(٣) Harrison Church, Modern Colonisation, p. 86.

خلق مستويات جديدة تماما من القوة المادية والعسكرية لا تقارن البتة بكل ما سبقها • ويكفي على ذلك دليلا أن أول حرب حديثة في العصر الصناعى ، وهى الحرب الاهلية الامريكية ، تفوق فى حجمها وجيوشها واهوالها آخر واضخم حرب فى عصر ما قبل الصناعة والتى تحتل مكانة خاصة فى كل التاريخ وهى الحروب النابليونية — حقيقة مذهلة ! (١)

ولهذا فاذا كان الاستعمار فى العصور القديمة والوسطى هو صراع بين الزراع والرعاة ، فانه الآن سيكون صراعا بين صناع ورعاة ، بين الحضارة الميكانيكية والحضارة البدائية ، بل بين العصر الصناعى والعصر الحجرى احيانا، وبين المدفعية المدرعة والقوس والسهم بالتالى • ومن ثم فقد كان الفارق رهيبا والنتيجة محتومة • وبهذا وذاك جميعا تستمر الحركة التاريخية الصاعدة النظيمة من اتجاه الامبراطوريات وصراع القوى الى أن ياخذ ابعادا وافاقا اكبر باطراد

ولم يكن مفر كذلك ولذلك من أن يصبح العصر الصناعى مرادفا للعصر الاستعمارى ، وأن يكون الاستعمار « وباء » القرن التاسع عشر • فاذا كان الانقلاب التجارى هو الجد الاعلى للاستعمار الحديث ، فان الانقلاب الصناعى هو أبوه المباشر • وتفسير ذلك أن الانقلاب الصناعى خلق اقتصادا مفتوح الشهية ، بل حاد الشهوة ، ينتج بالجملة ليستهلك بشراهة ، وهو فى النهاية أبعد ما يكون عن الكفاية الذاتية ، ولا يمكن لأى دولة أو مجتمع ان يجد عناصر وأركان صناعته داخل حدوده ، بل حتى داخل اقليمه الجغرافى الطبيعى الرئيسى • وانما هى

(١) Oswald Spengler, Decline of the West, trans., N.Y., 1946, vol. 2, p. 421.

تعتمد اساسا على عملية « استقطاب » تركيزية عنيفة لكل موارد وخامات وقوى الاقاليم المتباينة والعروض المتفاوتة والبيئات المتنافرة . انها ببساطة محاولة لاختزال الكرة الارضية ـ اقتصاديا ـ في نقطة . وكما يتفق ، فان اخطر طرفين في هذه العملية هما العروض المعتدلة والمداريه

والصناعة بعد هذا لا تخرج من حمى البحث عن الخامات وموارد الخامات الا لتدخل في حمى البحث عن الاسواق لتصريف ما قد انتجت . ولذا فالصناعة محمومة أبدا بتركيبها الذاتي ، وترياقها كما تصورت وكما لازالت تتصور هو الاستعمار ، والاستعمار المدارى بالذات . من هنا انطلقت القوى الاستعمارية الصناعية الى استعمار المدارات الجديدة ، أو تعميق استعمارها للمداريات القديمة . فاذا كان استعمار الكشوف والعصر التجارى كما رأينا « اندفاعا نحو الشرق «Drang nach Osten» (وان كان بعض هذا « الشرق » غربا في الحقيقة) ، فان استعمار الانقلاب الصناعى هو اساسا « اندفاع نحو الجنوب «Drang nach. Süden» الاول استعمار خطوط الطول ، والثانى استعمار خطوط عرض كما قد نقول

ليس هذا فحسب ، وانما خلقت الصناعة ايضا المجتمع الذى يحض على ، ويؤدى الى ، الاستعمار كواقع وكمثال . فلقد ولد الانقلاب الصناعى في ارهاصات تغيير اجتماعى من الاقطاع الى البورجوازية ترمز له الثورة الفرنسية ، وجاء هو بعدها بعقدين ليقفز بهذا التغيير الى ثورة اجتماعية سياسية كاملة وجذرية . فالانقلاب الصناعى تمخض عن الراسمالية وخلق المجتمع البورجوازى الراسمالى الذى هو في صميمه مجتمع تنافسى تملكى وتوسعى

ولهذا فلم يكن منتهاه وقصاراه خلق طبقات اجتماعية متعارضة متصارعة داخل الدولة ممن يملكون وممن لا يملكون The Haves & Have nots ، من البورجوازية والبرولتارية ، وانما خلق معها طبقات سياسية متنافرة بين الدول المختلفة ممن يملكون وممن يملكون Haves & Hads اى من المستعمرين والمستعمرين . فالاستعمار فعلا أعلى مراحل الرأسمالية . وهو امتداد خارج الحدود للطبقية داخل الحدود ، والمستعمرات ليست الا « برولتارية السياسة الدولية » . لذلك جميعا فقد كان الانقلاب الصناعى اشارة البدء بسباق محموم معربد نحو الاستعمار ، وعاملا حاسما فى الصراع الدولى ، وكان القرن التاسع عشر هو بالضرورة وبالامتياز قرن الاستعمار

كذلك لعب الانقلاب الصناعى دورا خطيرا ومباشرا فى التمكين للاستعمار والتعمير ، فقد قدم معا وفى وقت واحد « جسم » التعمير وضواغط التهجير وأداة الحركة وظروف التوطن . فمن ناحية حرك الانقلاب « ثورة ديموغرافية » عارمة لم تعرف البشرية لها مثيلا من قبل ، ففى القرن التاسع عشر ارتفع سكان اوربا من ١٨٧ مليونا فى ١٨٠٠ الى ٤٠١ مليون فى ١٩٠٠ (١) ، واصبحت أوربا متخمة بفائض سكانى تحول بالهجرة الى طفح بشرى خرج من القارة كالطوفان ليتوطن نهائيا فى المستعمرات والاقطار الجديدة

ومن ناحية أخرى كانت النظم الاقتصادية والاجتماعية الجديدة التى خلقها الانقلاب الصناعى من أهم الضواغط التى دفعت الى الهجرة من أوربا . فالصراعات الطبقية

---

(١) J.M. Houston, A. Social Geog. of Europe, Lond., 1953, p. 152; A. Landry, Traité de Démographie, Paris, 1949, p. 66.

والاضطرابات السياسية والثورات العديدة والضغوط المادية والانسانية على البرولتارية الكثيفة المسحوقة كانت عوامل طرد مباشرة ومحققة · وليس من الصدفة أن موجات الهجرة من اوربا تتعاصر زمنيا مع تواريخ الثورات الكبرى التي تنقط مجرى القرن الصناعي ابتداء من ١٨٣٠ الى ١٨٤٨ الى ١٨٧٠ (١)

ومع ذلك فلولا ما أحدث الانقلاب الصناعي من ثورة في وسائل النقل البري والبحري بالجملة ومن تسهيلات الحركة التي لم تعرف قط من قبل ، لما استطاع هذا التيار الكاسح أن يتحقق · وبعد هذا فانه الانقلاب الصناعي وحده ، بما أنتج من علوم وفنون وطب ووسائل صحية ومخترعات تدفئة صناعية وتكييف ·· الخ ، هو الذي خلق الظروف البيئية المعقولة والملائمة للسكنى والتوطن في « جبهات الريادة » القارية تلك · باختصار اذن ، لقد جعل الانقلاب الصناعي من الاستعمار حاجة وامكانية في نفس الوقت

يبقى أخيرا أن الانقلاب نفسه كان عاملا حاسما في تحديد مصاير الصراع الاستعماري وصدامات القوى · فقد كان نمط القوة السياسية وتوزيع مواطنها الطبيعية natural seats of power يتحدد في العصر التجاري ببعدين اساسيين ، هما موارد الزراعة المحلية وموارد الموقع التجاري · ولكن جاءت الصناعة لتضيف بعدا ثالثا وفيصلا ، أعاد تقييم الاوزان الجغرافية للاقاليم والدول المختلفة ، واحدث انتخابا جغرافيا جديدا للقوى السياسية ، فاستبعد البعض من الصدارة ودفع البعض الى المقدمة وخلق البعض جديدا او من جديد

---

(1) E. E. Bergel, Urban Sociology, Mc Graw-Hill, 1955, pp. 251-5.

وتفسير ذلك ان مركب الفحم والحديد ـ وهو « صدفة جيولوجية » اما لك واما عليك ـ قد اصبح اساس القوة الجديدة . ولهذا جاء الانقلاب الصناعي لينهى الى الابد الصراع على السيادة العالمية بين فرنسا وبريطانيا ، ذلك الذى كان ابرز طابع فى القرن الثامن عشر ، وليضع بريطانيا فى الصدارة المطلقة طوال القرن التاسع عشر . ولكنه خلق لها منافسها المقبل ـ المانيا ـ ليصبح النصف الاول من القرن العشرين هو عصر الصراع العالمى بين بريطانيا والمانيا ، ثم ليختزله بسرعه ليضعنا مع بداية النصف الثاني من القرن ، فى مواجهة صراع جديد من قدر اضخم واعظم هو هذا الذى نعيشه بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى

تلك اذن هى الخطوط العريضة فى الانقلاب الصناعى كمحرك وضابط للاستعمار والصراع الدولى . وعلينا الان ان نتقدم اولا الى دراسة الاستعمار فى هذا القرن المفعم خارج القارة فنبدا بالتعمير ثم نردفه بالاستعمار ، ثم نعود ثانيا الى القارة لنحلل محاور صراع القوى داخلها ثم خارجها فنتتبع حركة انتقال مركز القوة العالمية ونتابع ظهور القوى الجديدة واحدة بعد الاخرى ـ بريطانيا ثم الولايات المتحدة ثم اليابان فالمانيا ـ حتى نصل الى قمة الصراع فى العصر الصناعى وهى الحروب العالمية فى القرن العشرين

تعمير المعتدلات : الاستعمار السكنى

ينبغى لنا ان نميز بين ظاهرتين بارزتين فى القرن التاسع عشر : الاولى هى التعمير ، اى خروج اوربا الى القارات والاقطار الجديدة بقصد السكنى

والاقامة الدائمة فيها واستبدالا لوطن بوطن آخر ، اى بقصد الاستعمار السكنى . والثانية هى الاستعمار بمعنى الغزو والتملك السياسى بقصد استغلالها لا التوطن الدائم فيها ، اى بقصد الاستعمار الاستغلالى او الاستراتيجى

ولعلنا نذكر ان اغلب القارات الجديدة قد استعمر بالغزو فى ظل الانقلاب التجارى ، ولكن تيار الهجره طوال قرون اربعة لم يزد عن بضعة ملايين معدودة . مثلا لم يكن عدد المعمرين البريطانيين فى أمريكا الشمالية حتى سنة ١٧٠٠ ليزيد عن ٣٠٠ الف ، ولم يكن عدد البيض فى مستعمرات اسبانيا فى امريكا حتى سنة ١٨٢٠ ليزيد عن ٣ر٢٥ مليون اغلبهم نتيجة للتزايد الطبيعى (١) . أما التعمير الحقيقى فلم يحدث الا فى ظل الانقلاب الصناعى فى القرن التاسع عشر . اى ان التعمير السكانى قد تخلف طويلا عن الاستعمار السياسى . وعلى العكس من هذا نجد ان ما تم من استعمار سياسى فى ظل الانقلاب الصناعى لم يصحبه او يتبعه تعمير سكانى حقيقى يذكر . وتفسير هذا بطبيعة الحال انه ارتبط بالمداريات الكثيفة السكان أو المأهولة التى لا تشجع طبيعيا على الاستعمار السكنى أو لا تسمح به بشريا

وحتى نهاية القرن الثامن عشر كان الوجود الاوربى فى القارات الجديدة سواء تعميرا او استعمارا هو وجود ساحلى بحت لا يزيد فى اعمق جبهاته عن شقة ساحلية مضغوطة ، بعدها لا يزيد عن وجود رمزى . اما فى القرن التاسع عشر وبفضل ثورة

(١) Cole, Geog. of World Affairs, p. 40.

المواصلات الجديدة فقد غزا هذا الوجود داخل القارات استعمارا وتعميرا ، ولا ينتهى القرن حتى يكون كل شبر منها قد احتل . فالاستعمار العالمى من الوجهة الفعالة هو ابن الانقلاب الصناعى واخو القرن التاسع عشر

وقد لفظ القرن التاسع عشر وحده من اوربا نحوا من ٦٠ مليون نسمة ـ ولو ان نسبة كبيرة عادت الى اوربا بعد ذلك (١) ـ توزعت على القارات الملائمة مناخيا للسكنى الاوربية ، ابتداء من امريكا الشمالية الى امريكا الجنوبية ومن استراليا الى نيوزيلند . تلك اذن اضخم واطول رحلة فى التاريخ عبر القارات والمحيط ، تتضاءل بجانبها كل حركات رعاة الاستبس الرجراج فى العصور الوسطى ، ولا يفوقها الا تيار تهجير الرقيق . هذا اذن ، وليست فترة هجرات الشعوب فى التاريخ القديم ، هو « عصر الهجرة Völkerwanderung » الحقيقى فى تاريخ البشرية

وهو خروج ابيض اولا وقبل كل شىء . فقد صدرت اوربا وحدها هذا السيل لتحقق عالمية الجنس الابيض Universalisation ، او اوربة العالم Europeanisation ، ولتزرع خلايا بشرية انشطارية تخلقت منها أوربات صغرى Little Europes تدين لاوربا الام ، اوربا الكبرى ، بالولاء والتبعية بدرجة او باخرى . ومن الملاحظ ان هذه الشظايا التى انفصلت عن النواة تتحلق حولها من غرب وجنوب وشرق ، تحف بها كاقمار تابعة تدور فى فلك شمس كبرى ، وتحدق فى نفس الوقت بالاجناس البشرية الاخرى غير البيضاء وتطوقها

(١) Carr-Saunders, We Europeans, pp. 201 ff.

كحلقة خارجية متصلة بدرجة او باخرى . اما عالمية الجنس الابيض المترتبة فتنعكس فى انه اصبح وحده يملك ٤ قارات ، بينما يملك كل من الجنسين الآخرين قارة واحدة

واذن ، فلقد جعل الاستعمار اوربا قلب العالم وراسه جغرافيا وسياسيا ، وجعل العالم يتمركز حول قبلة اوربا Euro-centric ، وفى نفس الوقت جعل الرجل الابيض يحاصر بقية الاجناس من خلف ومن قدام ومن خلاف . بل قد يمكننا ان نتحدث عن « اوروقراطية » حقيقية ـ حكم اوربا Eurocracy بمعنى الكلمة ، وعن عصر الاوروقراطية العالمية ، عصر لعبت فيه هذه القارة دور ارستقراطية العالم ، وتصرفت فيه كما لو كان الجنس الابيض وحده دون الجنس البشرى كله خليفة الله فى الارض ، واتخذت فيه فى مجال السياسة والحضارة عقلية وفلسفة اشبه ما تكون بعقلية العصور الوسطى فى الفلك والكوزمولوجيا حين كانت تحسب الارض مركز الكون ومحور المجموعة الشمسية !.. واذا كان لهذا التشبيه مغزى فهو ان اوربا كانت تحتقر الجغرافيا وتحتكر التاريخ ، اى كانت ضد الطبيعة ، ومن هنا ستكون سقطتها وانهيارها فيما بعد

وانت تطالع ابسط مظهر لأوربة العالم فى اسماء البلاد الجديدة ، فكثير منها او اغلبها على مختلف المستويات ، من الاقطار الى المدن ، ليس الا سميا Homonym لاماكن وبقاع من القارة « الام » ، ابتداء من نيوانجلند ونوفاسكوشيا (اسكتلندة الجديدة) ومن قبلهما فرنسا الجديدة واسبانيا الجديدة ، الى نيوزيلند ونيوسوث ويلز ونيوبريتن ونيواورليانز

ومن فنزويلا الى هسبنيولا .. الخ .. هـــذا بينمـــا تحمـــل افريقيـــا فى كل جنبـــاتها اســـماء اجنبيـــة اوربيـــة صرفة كانما هى بصمات اصـــابع اللص يتركها على جسم جريمته

وقبـــل ان نحلل تيـــار الخروج الابيض العرم الى روافده وفروعه ، ينبغى الا نغفـــل عن حقيقة هـــامة وخطيرة تعـــد ــ ربما اكثر من تجارة الرقيق ــ نقطـــة ســـوداء فاجرة فى صـــفحة الاســـتعمار الاوربى سكنيا وغير ســـكنى . فهـــذا التعمـــير ، هـــذا الاســـتعمار السكنى ، ما قام الا على اشـــلاء وانقـــاض الســـكان الاصليين فى قارات المهجر ، فقـــد صـــحب الهجرة الاوربيـــة وتبعهـــا عمليـــة ابادة رهيبـــة ، عامدة او عفوية ، للاهـــالى الوطنيـــين ، وصلت بهم فى بعض الحالات الى حـــد الانقراض . فقد كان على الاستعمار السكنى لينجح ان ينتزع الارض الجديدة والجيـــدة ، ومن ثم ان يطرد منهـــا اصـــحابها الى الاطراف غير الصالحة للسكنى او للزراعة ، وذلك اما بالحرب والافناء واما بالمطاردة حتى الانزواء

يضاف الى هـــذا ان دخـــول الرجل الابيض الى وســـط بيولوجى مختلف وبمركب باتوجينى مختلف ، حمـــل معه فى حـــد ذاته عديدا من الامراض التى لم تكن معروفة فى المهجر ولم يكن لاهلها ضـــدها منـــاعة ، ولذلك احـــدثت الامراض الوافدة اوبئـــة رهيبـــة افنت مئات الالاف من الوطنيين . ولا ننسى كذلك دخول الاســـلحة النارية والـــكحوليات والسخرة الاوربية ، وكلها من عوامل الموت للوطنيين . وبهذا تكون الهجرة الاوربيـــة قد اتت للوطنيين بعوامل الموت المباشرة وغير المباشرة . من هنا نجد التعدادات تسجل زيادة مطردة

فى عدد المهاجرين وتناقصا خطـيرا فى عدد الاهالى ، خطوة بخطوة . وبمعنى آخر فقـد أتى التعمير الاوربى عمليـة دموية ابادية ، وانتهت من احتـلال سيـاسى الى احلال جنسى (١)

ففى استراليـا وصلت عمليـة ابادة الجنس الى حد « صيـد رؤوس head-hunting » علنى ومنظم ـ احيـانا كنوع من الرياضـة !.. بينما فى تزمانيا انقرض الجنس التزمانى تماما من عالم الوجـود ، وفى امريكا الشـمالية ـ تذكر الشـعار الامريكى الخالد « الهنـدى الطيب هـو فقط الهنـدى الميت » ! (٢) .. تحول الهندى الاحمر الى شبح واسطورة أو على الاكثر الى عينات متحفية لاجناس بائدة لا يأبه لها او يحتفل بها الا الانثروبولوجيون وهواة الحفريات البشرية وصناعة الافـلام ! .. وقـد كان مصـير هـذه الاجنـاس مقـدورا منـذ البـداية ، لان اعـدادها الاصليـة كانت ضعيفة جـدا بالنسـبة لتيـار المهـاجرين ، كما كان مستواهم الحضارى بدائيـا الى حـد لا قبـل له بمواجهتهم (٣)

والحالات الوحيدة التى نجت من هذا المصير الاسود على يد الجنس الابيض هم ماورى نيوزيلنـد (٩٠ الفا) الذين بدأوا أخـيرا يتزايدون بعد تنـاقص ، والاستراليون الذين تقلصوا كثيرا (١٥٠ الفا) . ثم هناك ممن افلتـوا من الاحتـراق بنـار الاحتـكاك الحضاري وارتطـام الاجنـاس هنود امريكا الجنوبية

(١) Carr-Saunders, World Population, op. cit.
(٢) Whittlesey, Earth & State, p. 508.
(٣) G. H. Pitt-Rivers, Clash of Cultures & Contact of Races, Lond., 1927.

والوسطى — اللاتينية بعامة — فنظرا لضخامة عددهم نسبيا (١٢ مليونا) مع صلاحية القارة فى معظمها للسكنى البيضاء اما بسبب خطوط العرض او خطوط الكنتور ، فقد حل هنا محل الاحلال الجنسى الخلط الجنسى الذى لا مثيل له فى العالم كله ، فهنا يزيد عدد العناصر الخلاسية على العناصر النقية من اى جنس ، ولا يمثل البيض الخلص الا نحو الثلث (١)

ولهذا السبب فان امريكا الجنوبية بوتقة اجناس melting-pot بدرجة اكبر فى مداها وعناصرها الجنسية من امريكا الشمالية . فهى تجمع بين ثلاثة اجناس هى : البيض ، والهنود ، والزنوج ، بينما ان امريكا الشمالية بوتقة انصهار للجنس الابيض وحده اساسا . ومع ذلك فان العالم الجديد ككل يختلف — كنتيجة لسيادة الاستعمار السكنى — عن القديم فى انه بوتقة جنسية الى ابعد مدى

والخلاصة العامة هى ان استعمار المتدلات السكنى فى القرن التاسع عشر اخذ صورة صراع اجناس اساسا ، اى كان حركة عنصرية ضخمة ، انتهت بابادة اجناس برمتها وابتزاز قارات بأسرها . وهو بهذا يعود بالبشرية الى احط مراحل البربرية والهمجية الاولى حين كان صراع الجماعات ينتهى بابادة المغلوب . ولن يجدى فى هذا تعلل الاستعمار او اعتذاره بانه لم يكن من المعقول ان تترك تلك القارات البكر بامكانياتها الهائلة لحضارات قليلة من البدائيين الذين عجزوا عن استعمارها ، فليس هذا الا منطق القوة الغاشمة

(١) We Europeans, loc. cit.

ولم يبدو غريبا شاذا بعد هذا منطق الاستعمار : بدأ بابادة الهنود الحمر فى العالم الجديد ، فلما افتقد اليد العاملة نقل اليه زنوج افريقيا بالجملة ، وحين دخل افريقيا بدأ يهجر اليها الهنود والاسيويين لتملأ الفجوة الناجمة ـ حركة تفريغ ونقل من الشرق الى الغرب باطراد !.. على انه اذا كان لهذا كله مغزى ، فهو ان "الاستعمار السكنى قد اعاد توزيع البشرية ديموغرافيا وانثروبولوجيا على ظهر الارض ، وغير الاوزان والالوان التقليدية للقارات ، ولم يكد جنس يفلت من هذه العملية ، ولكنها فى جميع الحالات كانت بفعل الاستعمار الابيض ولحساب الجنس الابيض

اما اذا انتقلنا الى جزئيات الهجرة البيضاء وروافد تيارها ، فقد وصلت الهجرة من اوربا فى بعض السنوات الى نحو مليون نسمة ، وكان السبق الزمنى لبريطانيا حتى منتصف القرن ، وبعدها وحتى اواخره اصبح السبق لشمال غرب اوربا عامة ، ثم تحولت بؤرة التصدير الى جنوب اوربا وشرقها . وقد صدرت بريطانيا خلال القرن نحو ٢٠ مليون نسمة ، وايطاليا نحو ١٠ ملايين ، وتأتى بعدهما المانيا (١)

اما عن الاستيراد فقد كانت الولايات المتحدة هى اعظم مستقبل (٣٦ مليونا او ٦٠ ٪) ، كما كان العالم الجديد كله هو المصب الاكبر للتيار (٩٠ ٪) ، وتلى الولايات المتحدة كندا (٧ ملايين) ثم الارجنتين (٦ ملايين) ثم البرازيل (٤ر٥ مليون) ثم استراليا

(١) Maurice Davie, World Immigration; We Europeans, p. 201.

(٣ ملايين) فنيوزيلند (مليونان) ، واخيرا جنوب افريقيا (٥ر١ مليون) (١).

ومن المهم ان ندرك المغزي السياسى لهذه الهجرة . لقد اضافت الى هيبة اوربا السياسية وقوتها الاستراتيجية والاقتصادية الشيء الكثير ما فى ذلك شك ، وبفضلها اصبحت اوربا سيدة القارات ومحور ارتكاز العالم . ولكن هذه البلاد الابناء daughter countries لن تلبث ان تستقل اما تماما واما كدومنيون فى حالة بريطانيا ، ولذا فهي في النهاية مخصومة من حساب اوربا وعامل ضعف لها هى ذاتيا . ولقد كانت اكثر الدول الخاسرة هى بريطانيا بعكس المانيا مثلا ، وكان لهذا بالفعل انعكاسه المباشر على القوة البشرية لكل منهما وصراع القوة داخل القارة وخارجها (٢)

الاستعمار المدارى

المجال الجديد للاستعمار فى القرن التاسع عشر ، والذى يرمز « لاصالة » الانقلاب الصناعى بالذات ، هو الاستعمار المدارى . فهنا يضرب الاستعمار ارضا جديدة وقف عاجزا عن ولوجها ثلاثة قرون من قبل . وينقسم هذا المجال الى دوائر ثلاث واضحة هى : افريقيا المدارية ، والعالم العربى دون المدارى ، والشرق الاقصى الموسمى . ففى هذا القرن انطلقت اوربا فى موجة مدية عاتية لتبتلع هذه المناطق ، وتم لها ذلك فى وقت قصير نسبيا ، واكثر من هذا فى مراحل متعاصرة الى حد بعيد

(١) Kimble, World's Open Spaces, pp. ،5-6.
(٢) Fitzgerald, The New Europe, pp. 222-3.

والسؤال المدخلي الذي يفرض نفسه منطقيا هو : لماذا تأخر استعمار المداريات الى هذا المدى ، ولماذا حدث ـ حين حدث ـ بتلك السرعة المثيرة ، واخيرا لماذا تعاصرت قطاعاته في سقوطها له ؟ .. الذي لاشك فيه ان الاستعمار قد طرق سواحل أو بعض سواحل هذه المناطق من قبل ولكنه ظل يتارجح معلقا امامها طويلا مكتفيا « بالاستعمار الديموغرافي » في افريقيا ، او القرصنة شبه الصليبية على العالم العربي ، او بالتجارة الابتزازية مع الشرق الاقصى . ولكن حضارة الانقلاب التجاري ـ وسائل نقله خاصة ـ لم تكن لتستطيع ان تمرق به الى داخل القارات

ففي افريقيا المدارية كانت الطبيعة تغلف القارة السوداء بساحل خطي صقيل غير مضياف تقل فيه المراقيء الجيدة وتتكاثر عليه الامواج الضاربة surf بينما في اعماق القارة بأبعادها السحيقة والساحقة معا تسود اما صحراوات قاحلة موحشة ، واما غطاءات نباتية تتكاثف كالاسلاك الشائكة . وحتى انهار القارة العظيمة هي الاخرى طرق مسدودة او شرايين مقطوعة ، وذلك بحكم تركيب القارة ككتلة هضبية ، فقرب مصابها تهوى من حالق في شلالات ومدافع « تشل » الملاحة والحركة دخولا او خروجا (١)

افريقيا المدارية اذن كانت للاستعمار صندوقا مغلقا رهيبا ، يدور حوله جيئة وذهابا ولكنه لا يملك مفاتيحه ولا يملك ان ينفذ اليه . ولهذا ظلت تستمد كل اهميتها طوال العصر التجاري من انها عقبة

---

(١) Dudley L. Stamp, Africa. N.Y., 1953; W. Fitzgerald, Africa, Lond., 1950.

مناطق لم تخضع للاستعمار الأوروبي الحديث
استعمار أوروبي لمناطق مخلخلة السكان
الاستعمار المداري غير السكني
أوروبيون ووطنيون كأغلبية أو كأقلية
من أصول أوروبية على الإطلاق
أوروبيون

شكل (١٣) العالم اليوم كما شكله الاستعمار ووحدته «الأوربة» لاحظ غالبية الجنس الأبيض أو أوربة العالم

لا عتبة الى الهند . وبعض هذا ، مضافا اليه البعد الجغرافي الشديد ، يقال عن الشرق الاقصي الموسمي. ولكن الانقلاب الصناعي قلب هذا الوضع ، فقد مد اوربا بالمفتاح الحضاري اللازم لقهر هذه البيئات الطبيعية الصعبة . اي ان الاستعمار عجز عن دخول المداريات بحضارة الانقلاب التجاري ولكنه نجح بحضارة الانقلاب الصناعي

اما العالم العربي فله في هذا التحليل وضع خاص . فهو لم يكن ببعيد عن موطن الاستعمار الاوربي ، بل هو الجار المواجه مباشرة . وهو ليس بالبيئة الطبيعية المغلقة او الطاردة . ولكن الذي اعجز الاستعمار دونه انما هو العامل الحضاري .. فرغم كل شيء ، كان للشرق العربي حضارة قديمة عريقة وقوة اكبر من هينية . ومن هنا ظل صامدا للضغوط الاوربية المتزايدة التي تهاوت امامها - مثلا - حضارة آسيا الموسمية في الهند وجزر الهند . الى ان كانت طفرة الغرب الحضارية الحاسمة في الانقلاب الصناعي ، فكان هذا ايذانا بعدم جدوى المقاومة . فمرة اخرى ، وكما في افريقيا وان يكن لاسباب حضارية لا طبيعية ، عجزت اوربا عن التغلب على العالم العربي بحضارة الانقلاب التجاري ولكنها نجحت بحضارة الانقلاب الصناعي (١)

ولعل هذا الذي قلناه ان يكون ردا ضمنيا على سؤالنا عن سبب تعاصر توقيت الاستعمار المداري في قطاعاته الثلاثة : فهو قد تاخر في العالم العربي رغم الموقع القريب والبيئة المفتوحة ، اساسا بسبب

---

(١) جمال حمدان ، الاستعمار والتحرير في العالم العربي ، ص ٢٢ - ٢٣

تماسك وصمود المستوى الحضارى ، اى اساسا بسبب الجغرافيا الحضارية . وهو قد تاخر بنفس الدرجة فى افريقيا المدارية رغم المستوى الحضارى البدائى والعجز المادى المحقق ، اساسا بسبب البعد الجغرافى والبيئة المغلقة المصمتة ، اى اساسا بسبب الجغرافيا الطبيعية • وفى المنزلة بين المنزلتين يأتى الشرق الاقصى

السؤال الآن : ما اغراض الاستعمار المدارى واهدافه ؟ .. وهذه حسمتها الطبيعة مرة واحدة والى الابد . فلم يكن فى هذه العروض المدارية بمناخها المضاد للرجل الابيض anticlimes مجال للاستعمار السكنى او التوطن . ولهذا كانت الصبغة السائدة بالضرورة هى الاستعمار الاستغلالى او الاستراتيجى .. وثمة عامل يعمل فى نفس الاتجاه ويجب كل فرصة للاستعمار السكنى ، ونعنى به العامل السكانى

فهذه كلها مناطق قديمة العمران ، كثيفة السكان ، وبعضها عريق الحضارة ، فليس فيها طاقة او كوة لدخيل يستوطن . وحتى فى ادناها حضارة لم يكن هنالك اى احتمال لابادة الجنس والاحلال الجنسى كما عرفت المعتدلات الجديدة او مداريات العالم الجديد . ففى افريقيا كانت حيوية الجنس الزنجى ، وهى التى هزمت تجارة الرقيق والاستعمار الديموغرافى من قبل ، كفيلة بان تهزم أى مشروع للاستعمار السكنى

ومع ذلك فثمة جيوب من افريقيا المدارية وخارج المدارية معا لم تنج من الاستعمار السكنى : فى افريقيا المدارية جزر الكنتور المرتفع التى تصحح المناخ للابيض (alticlimes) ، وافريقيا خارج المدارية فى قطاعات المناخ دون المدارى او المناخ المشابه لجنوب

اوربا homoclimes . فالاولى تتحدد فى نطاق المرتفعات الهضبية الممتدة بتقطع من كتلة الحبشة حتى الروديسيتين ، حيث حوله الاستعمار الى « المرتفعات البيضاء » وحاول ان يتوطن فيها ببضع مئات من الالاف موزعة هنا وهناك لا سيما فى كينيا وروديسيا الجنوبية . اما الثانية فتتحدد فى الشمال بشبه جزيرة المغرب الكبير ابتداء من ليبيا حتى المغرب ولكن الجزائر بالذات . وهنا وصل الاستعمار السكنى فى مجموعه الى المليونين تقريبا . ثم هناك جنوب افريقيا فى طرف القارة حيث زرع الاستعمار ثلاثة ملايين من المستوطنين

وفيما عدا هذا الشذوذ الذى يؤكد القاعدة ، فقد كانت حوافز الاستعمار المدارى اساسا هي الاستغلال او الاستراتيجية او كليهما معا . وبصورة عامة يمكن ان نغلب الاستعمار الاستراتيجى على الاستغلالى فى العالم العربى ، وان لم يلغه مطلقا . والعكس صحيح فى افريقيا المدارية والشرق الاقصى ، فهناك ياتى الاستغلال فى الدرجة الاولى وتتراجع الاستراتيجية الى الصف الثانى

وتغليب الاهداف الاستراتيجية فى العالم العربى لاسيما منه المشرق ، انما يرجع بطبيعة الحال الى موقعه الجغرافى البؤرى الحاسم الذى اصبح مركز ثقل العالم القديم بلا منازع بعد شق قناة السويس فى اواسط القرن . فقد اصبح العالم العربى هو عنق الزجاجة فى طريق الاستعمار الى الشرق الاقصى جميعا وبوابة الامبراطورية ـ اى امبراطورية ـ و«خط الحياة» للامبريالية

فى ضوء هذا التحديد والتوجيه ، اصبح حجر

المغناطيس فى الاستعمار المدارى فى العصر الصناعى هو موارده الخام الثمينة الرخيصة معا ، زراعية ومعدنية ، غابية او سكانية . وبعدها تأتى السوق المحتكرة المضمونة لتصريف منتجاته وخاصة سلعه الرخيصة الرديئة . وسوق المستعمرات وان كانت فقيرة في قدرتها الشرائية فهى تعوض بضخامة حجمها

وتجربة الاستثمار الاستعمارى لم تخرج يوما ، وباعتراف كتابه ، عن اقتصاد هدمى ابتزازى سافر Raubwirtschaft لم يكتف بأن يسرق السكان بل والطبيعة ايضا . فقانونه هو امتصاص زبد الاقليم Skim the cream حتى يتركه زبدا وغثاء احوى . حتى الزراعة الاستعمارية ، الابعاديات التى هى مشروع صناعى بقدر ما هى عملية زراعية ، وصفت بانها زراعة تعدينية mining agric. اى تخريبية هدمية ببساطة (١) · ميكانيكية الاستعمار باختصار انه مضخة ماصة في المستعمرات ، كابسة فى المتروبول ، ورياضياته عملية طرح هنا وجمع هناك

الاستغلال اذن هو بوصلة الاستعمار المدارى وقبلته . واذا كان هذا الاستعمار قد وجد محركه فى الانقلاب الصناعى ، فانه سرعان ما اصبح وقوده وبخار آلته الضخمة . فمن المحقق انه لولا موارد المستعمرات ومكاسبها الفلكية التى ذهبت لتنصب فى تراكم رأس المال الاوربى ، لما وصل التطور الصناعى ــ بكل ما يعنيه من تطور حضارى ومعيشى ونمو فى القوة ·· الخ ــ الى ما وصل اليه · فبقدر ما كان الاستعمار

(١) Karl J. Pelzer, Geog. & the Tropics, in Geog. in 20th Century, Lond., 1951, p. 321.

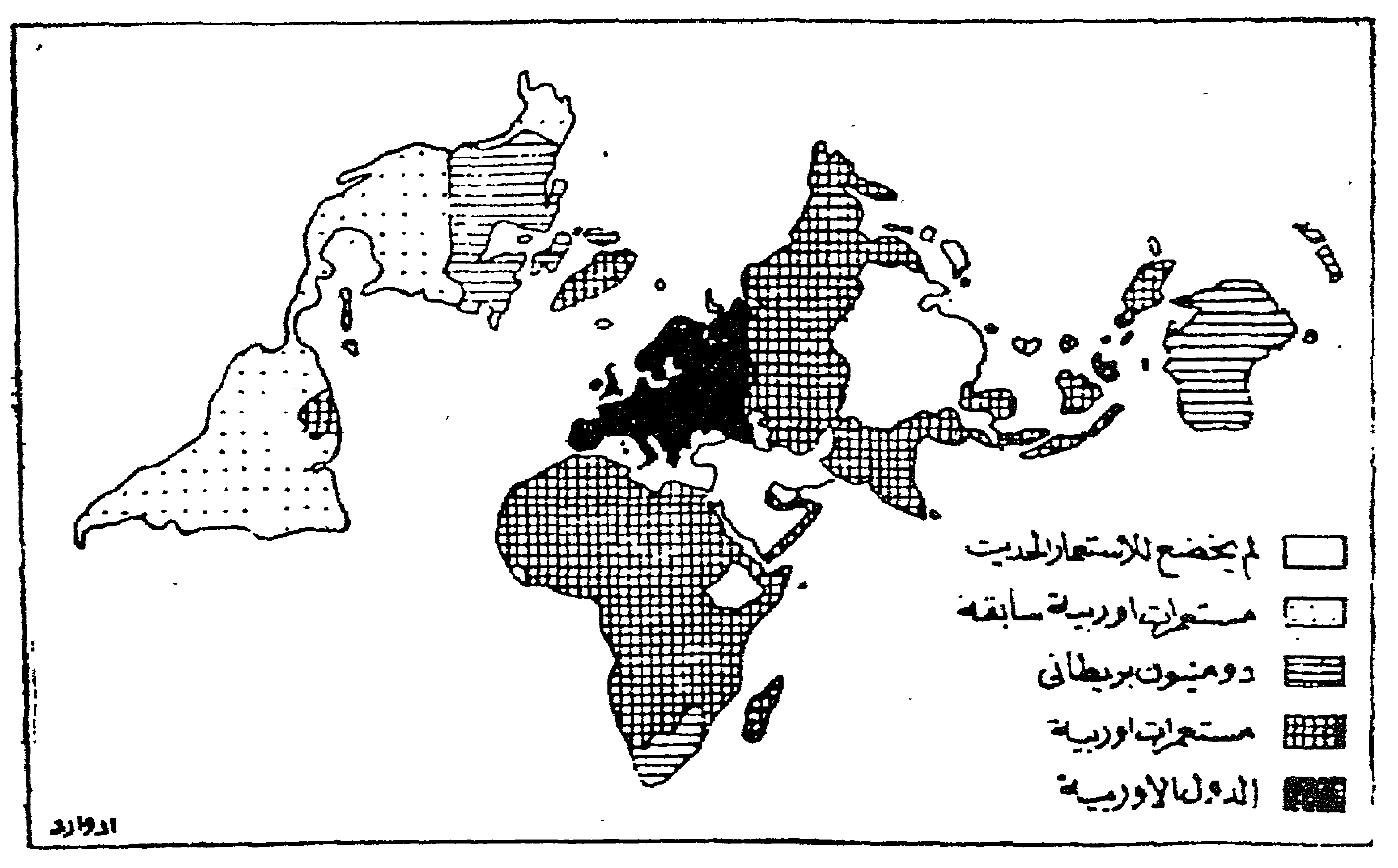
نزيفا اقتصاديا رهيبا اصاب المداريات بالشلل الزاحف ، كان يضخ فى الاقتصاد الاوربى ما لا يمكن حصره بل تخيله من آلاف المليارات من اجنيهات

وقد كان طبيعيا لذلك ان ينتهى الاستعمار الى تقسيم عمل يحتكر فيه الحرف الثانية (الصناعة) والثالثة (التجارة) وهى التى تدر اعلى الدخول ، ويفرض على المستعمرات الحرف الاولية (الزراعة والتعدين) التى لا تكاد ترد من الدخل الا الفتات . وبهذه القسمة غير السليمانية الضيزى احتكرت اوربا لنفسها دور مصنع العالم وابقت على المستعمرات كمزرعة له ، وبه ايضا اصبحت هى مدينة العالم والمستعمرات ريفه . وهذا هو التكامل الاقتصادى الذى زعمه الاستعمار . والحقيقة ان الاستعمار كان ينظر الى المداريات على انها « اقاليم تكميلية «Ergaenzungsraeume » كما سماها الجغرافيون الالمان (١) ، تكمل عروضه المعتدلة ، ومن ثم مجال حيوى لاوربا Lebensraum . وفى افريقيا مثلا كان الاستعمار يتشدق بانه شركة تعاونية بين « العقل الابيض والعضل الاسود White brain & black brawn (٢) . وعلى هذه الدعاوى رتب انه « زواج سياسى » بين المتروبول ، اى الدولة الأم ، وبين المستعمرة التابعة !

ولكن الحقيقة الموضوعية المحايدة هى ان المداريات لم تكن اكثر من سندرلا اوربا ، وان الاستعمار لم يكن الا شركة ابتزازية غير مقدسة ، اما العلاقة

(١) Ibid., p. 314.

(٢) D. Westermann, The African Today & Tomorrow, Lond., 1939, p. 3.



شكل (١٤) الاستعمار العالمي في ذروته ١٩١٤ . مناطق ثلاث فقط نجت من الاستعمار : اليابان ، الصين ، وجزء من الشرق الاوسط

السياسية المفروضة فليست الا اغتصابا سياسيا داعرا . واذا صح ان المداريات كانت المجال الحيوى لاوربا ، فانها فى معنى حقيقى جدا مجال الموت Todesraum لابنائها هى (١) . ولئن صح كذلك ان الاستعمار خلق كأمر واقع « اورافريقيا » وغير اورافريقيا ، فانها لم تكن فى الحقيقة الا نوعا من « اوربا العظمى » ، لم تكن فيه افريقيا وغيرها الا ظلا اسود للقارة البيضاء ، او ضاحية ضخمة للمتروبول وشرنقة استعمارية منتفخة حول نواته الكثيفة

وهنا نجد ان الاستعمار قد « ارتقى » فى هذه المرحلة عما كان عليه فى مرحلة الموجة الاولى ، فاستبدل بالابادة الاسترقاق ، ثم استبدل بهذا الاستعمار السياسى ، ثم سنجده مع الاستعمار الجديد يستبدل بالاستعمار السياسى الاستعمار الاقتصادى . ولكن يظل الجميع على خط النسب المباشر الذى ينحدر من صراع الابادة ، ويظل الاستعمار فى صميمه صراع اجناس Rassenkampf وحركة عنصرية من الناب والظفر برهانها الوحيد

ومن الحقائق الجديرة بالتامل والتى تؤكد هذا الذى نقول عن عنصرية الاستعمار وصراع الاجناس ، ان الاستعمار كله ما تم الا على يد اوربا وما تم الا خارجها . فلم يحدث فى التاريخ الحديث أن استعمر جزء من اوربا باستثناء نقط من الاستعمار الاستراتيجى فى جبل طارق ومالطة وقبرص . وفيما عدا هذا ، فقد تشتعل الحروب الدامية داخل اوربا ، ولكنه

(١) فايفيلد وبيرسى ، الجيوبولتيكا ، حـ ١ ص ١٥٧

احتلال عسكرى مؤقت او تسوية حدود داخل اطارات القوميات ، ذلك الذى يحدث . اما ان تستعمر دولة أو شعب اوربى دولة أو شعبا اوربيا آخر فهذا قط لم يحدث . لقد كان الاستعمار - بوضوح - صناعة اوربية مسجلة ولكنها للتصدير الى خارج اوربا فقط وغير قابلة للاستهلاك المحلى بحال

ولقد كان الاستعمار فى اوج بطشه يبرر نفسه - متبجحا - بنظريات القهر والتفوق العنصرى ، حتى اذا استشعر نهايته وطاردته عقدة الذنب بحث - منافقا - عن التبرير فى نظريات الانسانية والاخوة ! وبين النقيضين خرج من النظريات ما يندى له اليوم جبين العلم والحقيقة خجلا . فمن نظريات القهر والتفوق بدأ بتقسيم حضارى للاجناس او تقسيم جنسى للحضارات ، فزعم مرة ان « الرجل الاصفر يعيش فى الماضى ، والاسود فى الحاضر ، أما الابيض فيعيش فى المستقبل » (١) . ومرة اخرى وضع نظرية « الاجناس الاطفال » ... واخيرا انتهى الاستعمار مع العنصرية النازية الى تصنيف بيولوجى للاجناس يميز بين الاجناس السادة Herrenvolk وهم البيض ، والاجناس الفعلة Hilfenvolk وهم « الملونون » ، وكلا جعل مراتب ودرجات ! (٢)

واذا كانت عنصرية الاستعمار فى عنفوانه سافرة بلا حياء ولا خجل ، فهى لم تفعل فى شيخوختها الا أن تقنعت بنقاب الرياء والزيف دون ان تغير جلدها ، فكانت النظريات « الانسانية والابوية Paternalism » فى الاستعمار

(١) G. Montandon, Traité d'Ethnologie, Paris.
(٢) فايفيلد وبيرس . جـ ١ ، ص ١٧٨

(كذا !) مثل « عبء الرجل الابيض ورسالة الحضارة والاب الابيض White Father او الاخ الاكبر Elder Brother ... الخ (١) . ولكن هذا جميعـــــا منطق تبـــــرير فج لا يبرر اكثر مما يبرىء ، ويظـــل الاســـتعمار وصمة فى جبين المستعمر اكثر منه فى جبين المستعمرات وعار اوربا اكثر منه عار المداريات ، ويظل فى النهاية ظاهرة عنصرية جنسية بحتة . ويكفى ان يتحدث بعض الكتاب الاوربيين انفسهم عن « السجل الماســـــاوى القـــــذر لعملية الاوربة » وعن « قصة الاوربة التعســـــة » (٢)

---

(١) N. Sithole, African Nationalism, Cape Town 1959, p. 122.

(٢) Cole, pp. 47, 49

الفصل السابع

نماذج من الاستعمار المدارى

افريقيا

لننتقل الان بشىء من تفصيل الى تحليل حركة الاستعمار فى كل قطاع من المداريات على حدة . ولنبدأ بافريقيا المدارية . كان مؤتمر برلين سنة ١٨٨٤ ، الذى اجمعت فيه القوى الاوربية على ان الادعاءات الاستعمارية فى افريقيا لا تكون الا بالاحتلال الفعلى الواقع ، اشارة البدء بسباق جنونى مسعور على القارة . هذا هو « التكالب » المشهور Scamble for Africa . وجاء الزحف كاسحا بصورة لم تعرف بالقطع فى التاريخ ، حتى فى العالم الجديد . ففى مدى عقد واحد كان قد تحدد كل شىء

ففى سنة ١٨٩٣ ، اى بعد عقد واحد من مؤتمر برلين ، كانت كل القارة قد اقتسمت بين القوى الاوربية وانخفضت نسبة المساحة المستقلة فيها من ٩٥ ٪ فى سنة ١٨٨٥ الى ٨ ٪ فى سنة ١٩١٠ ! (١) هذا بينما فى آسيا لم يصل الاستعمار الى منتهى رقعته الا على مدى فترة طويلة ، كما انه لم يتعد فيها فى حده الاقصى الا قطاعا معينا من القارة . اما افريقيا فانها تنفرد بين القارات الجنوبية بانها

(١) Stamp, Africa.

الوحيـدة التي خضـع اغلبهـا . وفى وقت ما لم يكن دولة مسـتقلة ـ ولـكن شكليا ـ الا ليبيريا . وبهـذا كانت افريقيـا هى القـارة المسـتعمرة أو المسـتعمرة القارة بالضرورة ، كانت اكبر مستعمرة منفردة فى العالم واضخم معمـل للتجارب الاسـتعمارية فى التاريخ

والـذى شـارك فى هـذا التـكالب هو دول اوربا البحـرية بالذات ، لـكن مع تخلف واسـتبعاد بعض القوى القديمة كهولندة والدنمرك ودخول بعض القوى الجديدة كالمانيا وايطاليا وبلجيكا . وقد كان الصراع فى افريقيا انعكاسا للصراع فى اوربا ، وتحددت نتـائجه باقـدار واوزان تلك القوى فى قارتها ، كما ان هـذه النتـائج بدورها اكدت تلك الاقدار والاوزان والهيبـة فاما ضاعفتها واما اضعفتها . ففازت القوى الـكبرى بنصيب الاسد ، وخرجت القوى الصغرى بفتات المائدة

ولقد كان الحد الأقصى من التوسع هو الهدف المباشر للجميع ، يضاف اليه الوصول بقدر الامكان الى الانهـار الرئيسية ، وان امكن كذلك تحقيق الاتصال الأرضى بين مستعمرات كل قوة . وفى هذا التوجيه ، بدأ الهجوم على القارة من جميع الجهات تقريبا . وعدا القوة المباشرة ، كان للمقايضات الاقليميـة والمساومات ، والمبـادلات والتفاهمات دورها مثلما كان للعداوات والتحديات ، والمخالفات والمصادمات

وبوجه عام كانت الصدامات الاكثر خطرا هى تلك التى دارت بين القوى الكبرى كبريطانيا وفرنسـا والمانيا ، بينما كانت القوى الصغرى تعتمد اما على نوع من الرعاية أو حتى الحماية الصامتة من بعض القوى الكبرى (مثل البرتغال بالنسبة الى بريطانيا) ، واما على « تحييد »

القوى الكبرى لبعضها البعض (مثل بلجيكا بين بريطانيا والمانيا) . وبصفة عامة يمكن أن نقول ان كل الصراع الاستعماري فى افريقيا لم يصل ابدا الى حد الحرب وان اشرف أحيانا على المبارزة (١) • والمغزى هام وخطير : فللاستعمار حتى يعيش « وحدته » . وعلى التناقضات أن تتراجع فى النهاية امام وحدة المتآمرين !

وقد بدأ التوغل ببريطانيا ، وبدأت بريطانيا التوغل من قواعدها الساحلية فى غرب افريقيا حيث حققت توسعا « بحريا » يتمثل فى عدة مستعمرات متوسطة الاحجام ولا تتعمق كثيرا في الداخل فضلا عن انها منفصلة عن بعضها البعض (٢). كذلك دخلت المانيا باسفينين منفصلين فى توجو والكمرون • اما فرنسا فقد دخلت من الكوة أو البوابة الحقيقية لغرب أفريقيا وهى ذلك الشريط السفانى المحصور بين الصحراء شمالا والغابة جنوبا • وقد قادها هذا الى الشارع الرئيسى للحركة فى غرب افريقيا وهو نطاق السودان (٣)، فاندفعت فيه شرقا واندفعت منه جنوبا لتدخل اقليم غانة من الباب الخلفي ولتملأ الفجوات الارضية الواسعة بين الأسافين البريطانية والالمانية

وبهذا أصبح النمط السياسى متداخلا على التوالى : مستعمرة فرنسية فبريطانية ، ففرنسية فالمانية ، ففرنسية فبريطانية ، وهكذا . وهنا أيضا نرى «قارية» التوسع الفرنسى واضحة كل الوضوح ، لا سيما أن خلف

(١) Whittlesey, pp. 331-341.
(٢) R.W. Steel, Some Problems of Population in British West Africa, in Geog. Essays on British Tropical Lands, Lond., 1956, pp. 27 et seq.
(٣) Fairgrieve, op. cit., pp. 278-9.

ذلك جميعا كانت تترامى لفرنسا امبراطورية عسكرية قارية صحراوية بداتها من الجزائر من قبل . وكما دخلت فرنسا من شمال غرب افريقيا ، دخلتها بريطانيا من شمالها الشرقى فى مصر حيث اتخذتها قاعدة للتوسع فى سودان النيل

وفى شرق افريقيا بدات بريطانيا بمستعمرة فى كينيا واوغندة ، لم تلبث ان اتصلت بمستعمراتها النيلية فى الشمال . ولم تلبث أن ناظرتها المانيا بمستعمرة واسعة فى تنجانيقا ، بينما اغلقت بلجيكا جذع القارة من الغرب بمستعمرتها الضخمة فى الكنغو . والى الجنوب من هذا كانت البرتغال تتوسع من شريطيها الساحليين القديمين لتكون موزمبيق وانجولا . وفى نفس الوقت كانت بريطانيا ، بعد ان انتزعت الكاب من هولنده فى الحروب النابليونية ، قد اتخذت منها راس حربة للاندفاع الى قلب القارة شمالا على طول العمود الفقرى للمرتفعات والهضاب السفانية . بينما ملأت المانيا الفراغ على الساحل الغربى بين الكاب وانجولا بجنوب غرب افريقيا

وهنا حاولت كل من المانيا والبرتغال ان تصل ما بين اراضيها شرقا وغربا لتغلق الطريق على التوسع البريطانى : المانيا ما بين تنجانيقا وجنوب غرب افريقيا ، والبرتغال ما بين موزمبيق وانجولا . ولكن كانت اليد العليا لبريطانيا ، فنجحت فى أن تتمدد شمالا عبر الروديسيتين . الا ان هذا كان معناه — فى الحقيقة وللغرابة — « امبراطورية داخلية » لبريطانيا القوة البحرية اساسا وبالضرورة ، وصاحبة الاستعمار الساحلى بامتياز ! (١) على أنها لم تر بأسا أن تعتمد على

(١) G. Hamdan, «Political Map of the New Africa» Geog. Review, Oct. 1963, pp. 425-6.

المستعمرات البرتغالية كمخرج ، وذلك لصداقتها التقليدية بل حمايتها الحقيقية للبرتغال . وبعد هذا بدات بريطانيا تتطلع الى حلم ضخم هو طريق الكاب ـ القاهرة فى محاولة عظمى لربط مستعمراتها فى أقصى شمال وجنوب القارة على محور طولى هضبى فى الجنوب نيلى فى الشمال

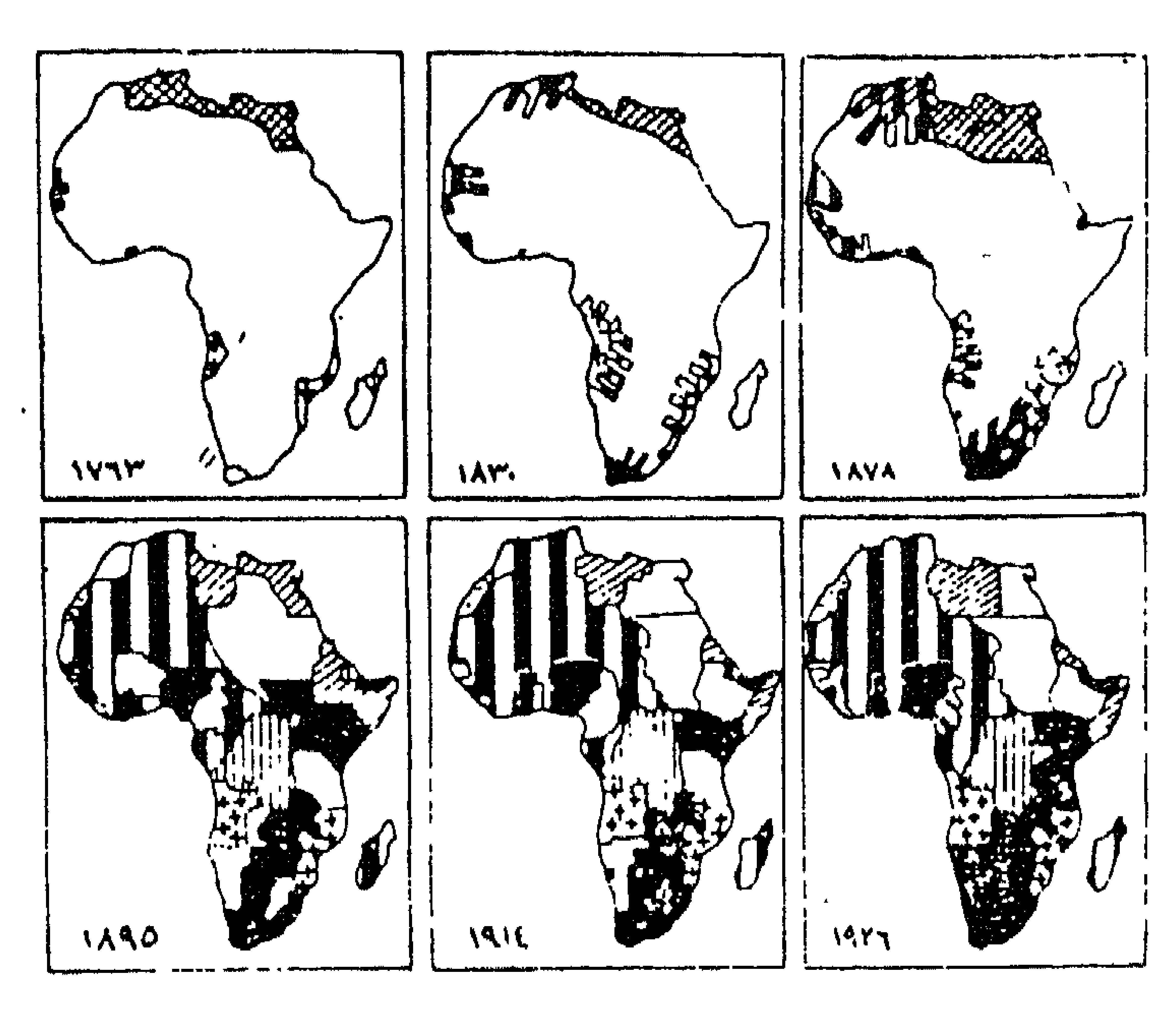
وقد اصطدم هذا المشروع مع مشروع مماثل ـ ولكنه عرضى ـ لفرنسا للتوسع على طول محور السفانا عبر السودان الاوسط حتى يصل عبر سودان النيل الى جيبها الصغير فى الصومال الفرنسى على البحر الاحمر . وكان اللقاء بين الاسد والنمر فى سفانا فاشودة ، فكانت « الحادثة » المشهورة التى حسمها فى الحقيقة توازن الاساطيل الحربية فى الاطلسى اكثر منه توازن الكتائب المتوغلة فى افريقيا (١) ، فتراجعت فرنسا وتحطم المحور العرضي الفرنسي ، ليسود المحور الطولى البريطانى ، الا من حلقة فى شرق افريقيا لم تلبث أن استكملت فى الحرب الكبرى الاولى حين آلت تنجانيقا الى بريطانيا التى تقاسمت مع فرنسا مستعمرات المانيا المنهزمة

لم يبق بعد ذلك الا القرن الافريقى الذى تتوسطه وتسوده الحبشة التى استطاعت بنوع من المضاربة Stalemate أن تحتفظ باستقلالها الحرج نتيجة للصراع المثلث بين بريطانيا وفرنسا وايطاليا هناك . وقد حدث هنا فى الواقع تكالب صغير يعرف محليا « بالتكالب الثانى Second Scramble (٢) تقاسمت فيه القوى الثلاث الصومالات الثلاثة وارتريا. وحاولت ايطاليا غزو الحبشة ولكنها هزمت فى معركة عدوة ، حتى عادت فى ثلاثينات

(١) Fairgrieve, p. 279.

(٢) J. Drysdale. The Somali Dispute, Lond., 1964, p. 25.

القرن العشرين ، فسقط آخر معقل مستقل فى افريقيا . الا ان هزيمة ايطاليا الاولى لم تنس قط وكانت صفعة لادعاءاتها الامبراطورية ولهيبتها فى ميدان القوة ، اذ انها كانت أول قوة أوربية تهزم فى العصر الحديث على يد غير أوربية وتسبق فى هذا هزيمة الروسيا على يد اليابان



شكل (١٥) زحف الاستعمار على افريقيا :
مرحلة طويلة من الاستعمار الساحلى والديموغرافى يلخصها « الرق » ، ثم مرحلة خاطفة من الاستعمار الداخلى والجغرافى يلخصها «التكالب»

واذا نحن الآن حللنا المحصلة النهائية للصراع كما أخذت شكلها النهائى بعد الحرب الكبرى الاولى ، فسنجد ان بريطانيا هى التى خرجت بنصيب الاسد مسيطرة على

بحو ٤٥ ٪ من سكان القارة وموزعة فى وحدات كلها من اغنى مناطق افريقيا طبيعيا واقتصاديا . انها «الامبراطورية الثالثة» لبريطانيا بعد أمريكا سابقا والهند لاحقا . ثم تلى فرنسا بنحو ٢١٪ من السكان (١) فى مساحة مترامية ، لكن رقعة ضخمة جدا منها صحارى واشباه صحارى. هذان اذن هما : «الاستعمار الكبير» ، ينتشر فى كل أركان القارة وفى اغلب اقاليمها الطبيعية ، فى النصف الشمالى والجنوبى ، شرقا وغربا على السواء

اما « الاستعمار الصغير » — وهو محلى التوزيع كقاعدة — فتمثله ايطاليا التى خرجت « بصندوق من الرمال » فى الأعم الأغلب ، داخلى بقدر ما هو ساحلى ، ويطل على البحرين المتوسط والاحمر ، ويتالف من اربع وحدات تلتئم فى كتلتين منفصلتين . وتأتى البرتغال بوحدتين كبيرتين واسفينين قزميين . ولكن اذا كان الاستعمار الايطالى هو احدث استعمار فى القارة ، فالبرتغال أقدمه اطلاقا (خمسة قرون) . واذا كانت مستعمرات ايطاليا لفقرها اعجز من ان تتلقى الاستعمار، فان البرتغال على العكس قوة أعجز من أن تتحمل أو تستثمر مستعمراتها . ومن الناحية الاخرى فان امبراطورية اسبانيا فى افريقيا لا تخرج عن امبراطورية جيوب واسافين هزيلة فقيرة مشتتة ما بين المغرب وخليج بيافرا . هى امبراطورية رمزية بحتة ، وميكروسكوبية عند ذلك

لا يبقى الا دول المستعمرة الواحدة . ثمة منها بلجيكا

(١) United Nations, Review of Econ. Conditions in Africa. 1951.

انظر ايضا: جمال حمدان . افريقيا الجديدة ، دراسة فى الجغرافية السياسية ، القاهرة ، ١٩٦٦

التى لا تملك فى العالم الا الكنغو ، لكن الكنغو قد يكون اغنى مستعمرة فى افريقيا اقتصاديا (١) ، كما يبلغ ٥٠ مرة مساحة بلجيكا ! على ان هنا حالة اخرى لقوة صغرى تستعمر ولكنها وحدها اعجز عن ان تستثمر . ثم هناك الولايات المتحدة فى ليبريا ، وكالمألوف مع الولايات، ليس هذا استعمارا رسميا بل علاقة مثل عليا وفروسية سياسية ، ترجع الى محاولة توطين الرقيق الامريكى المحرر العائد ، وتترجم فى الواقع الى استعمار غير رسمى كما يعترف الكتاب الامريكيون انفسهم (٢) !

الشرق الاقصى

شهد القرن التاسع عشر مسرحا جديدا للصراع الاستعمارى فى الشرق الاقصى فى ثلاث دوائر : الهند الصينية بما فيها الملايو ، والصين لا سيما سواحلها ، وجزر الاوقيانوسية المتناثرة . فأما الهند الصينية فهى - ابتداء - لم تخضع لأى قوة خارجية من جهة القارة طوال التاريخ فيما عدا بعض فترات من السيطرة الصينية . والفضل فى ذلك يرجع الى طبيعتها الجبلية الغابية المنعزلة . الى أن جاء الاستعمار البحرى : فبدأ يحوم حول المنطقة منذ القرن السابع عشر حين بدأ يعمل فى شبه القارة الهندية ، الا انه لم يتدعم الا منذ منتصف القرن التاسع عشر . وكانت القوى الاستعمارية هنا هى بريطانيا وفرنسا ، وقد بدأ صراعهما المتبادل فى الهند حتى اذا انتهى فيها انتقل الى الهند الصينية ليصبح هو النغمة السائدة فى كيانها السياسى

(١) Church, Modern Colonisation, p. p4.

(٢) G.T. Renner, Africa : A Study in Colonialism, in World Political Geog., ed. Pearcy & Fifield, N.Y., 1951, p. 411.

فقد اتجهت فرنسا الى الهند الصينية نتيجه لطردها من الهند وتعويضا عنه ، واستطاعت منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى اواخره ان تكون لنفسها مستعمرة الهند الصينية الفرنسية باقسامها المختلفة . اما بريطانيا فقد تبعتها امتدادا لوجودها فى الهند . فمن هناك انساحت تلقائيا الى بورما حيث كونت مستعمرة ضمتها الى الهند حتى فصلتها فى اخريات ايامها بها . كذلك توسعت بريطانيا من الجنوب من سنغافورة التى اشترتها فى ۱۸۱۹ بابخس ثمن والتى أصبحت قاعدة ونواة لاخضاع الملايو حتى اصبحت مستعمرة بريطانية خلال القرن ، لكن دون أن تتصل أرضيا ببورما (۱)

وهكذا بقى بين شقى الرحى نواة شبه جزيرة الهند الصينية ــ سيام . فأصبحت هدفا لضغوط توسعية عنيفة من الشرق والغرب ، حتى اتفقت القوتان المتنافستان على « تحييدها » فى آخر القرن التاسع عشر (۱۸۹٦) لتكون دولة حاجزة تحفظ التوازن بينهما وتمنع الاصطدام . وبهذا اصبحت سيام ــ التى لم تستعمر قط من قبل فى التاريخ ــ الوحدة الوحيدة فى جنوب شرق آسيا التى نجت من الاستعمار الاوربى الحديث ، ومن هنا غيرت اسمها الى تايلاند اى أرض الاحرار . ولكن دور الدولة الحاجزية هو تقليديا دور المضاربة stalemate بين القطبين المتاخمين وذلك حتى تحفظ استقلالها (۲) . وهكذا كان . فقد ظلت تايلاند مسرحا للمؤامرات الاستعمارية والدسائس المزمنة ، فكانت بمثابة « أفغان موسمية »

---

(۱) Cressey, Asia's Lands & Peoples, pp. 494 ff.
(۲) Ibid., p. 509.

ولا بد ان نشير هنا الى الصين فى مجال النشاط الاستعمارى الاوربى فى الشرق الاقصى ، فاستعمار هذا العملاق ـ نائما او غير نائم ـ لم يكن قط مجال تفكير الاستعمار الاوربى ، وهو فى الواقع احد منطقتين اثنتين فى العالم كله (ثانيتهما هى شرق الشرق الاوسط) افلتتا من الاستعمار بشكله المطلق (١) . ولكن توغل النفوذ الاجنبى كان ممكنا على السواحل ، وبالفعل ارغمت القوى الاوربية الصين على فتح ابوابها وموانيها للنفوذ والامتيازات الاجنبية . وذلك بعد حرب الافيون فى اربعينات القرن التاسع عشر . وكنتيجة لهذا انتزعت بريطانيا هونج كونج ، وظهرت مناطق الامتيازات المعروفة Extra-territorialities ومنذ ذلك الحين كانت سياسة القوى الاوربية هى الابقاء على الصين كمجال مفتوح لنفوذها جميعا ، وهى ما تعرف « بسياسة الباب المفتوح » (٢)

اما فى الأوقيانوسية ـ هذا الارخبيل السديمى المترام كنهر مجرة فى غرب الهادى ـ فقد كان مجالا سهلا للسيطرة البحرية الاوربية فى القرن التاسع عشر . فحوالى منتصف القرن كانت فرنسا قد استولت على مجموعة من الجزر اهمها نيوكاليدونيا .. بينما تأخرت نيوهبرديز الى العقد الاول من القرن الحالى حين اقتسمتها فرنسا مع بريطانيا . والى الشمال كانت اسبانيا قد وضعت يدها على جزر كارولين وماريانا فى العقد السابع من القرن ، بينما استولت المانيا على جزر مارشال فى العقد التالى . ولكن بعد الحرب الاسبانية ـ

---

(١) Cole, p.

(٢) Dorothy Woodman, A.B.C. of the Pacific, Penguin Books, 1943, pp. 34-5.

الامريكية فى نهاية القرن باعت اسبانيا جزرها لالمانيا فيما عدا جوام التى آلت الى الولايات المتحدة . ثم فقدت المانيا بدورها تلك الجزر لليابان بعد هزيمتها فى الحرب الاولى ، الى أن فقدتها اليابان بدورها للولايات المتحدة بعد هزيمتها فى الحرب الاخيرة (١)

العالم العربى (٢)

قبل الاستعمار الحديث ، يحسن ان نذكر حالة خاصة وشاذة من الاستعمار الوسيط عرفها العالم العربى ولم تزل تعشش فى كيانه السياسى حتى اليوم . تلك أعنى جيوب الاستعمار الاسبانى فى سبتة ومليلة التى اقتطعها فى أخريات القرن الخامس عشر ، بل وبالتحديد قبيل خروج العرب من الاندلس ذاتها ! فهذا على شدة ضآلته أقدم استعمار أوربى فى العالم العربى اطلاقا حيث يبلغ الآن خمسة قرون ويعاصر بذلك اقدم استعمار برتغالى فى افريقيا المدارية . وهنا وجه الخطورة ، فقد تحولت أغلبية السكان فى هذين الاسفينين القزميين الى اسبان مسيحيين ، تدعى اسبانيا لذلك أنهما جزء لا يتجزأ من التراب والتراث الاسبانى !

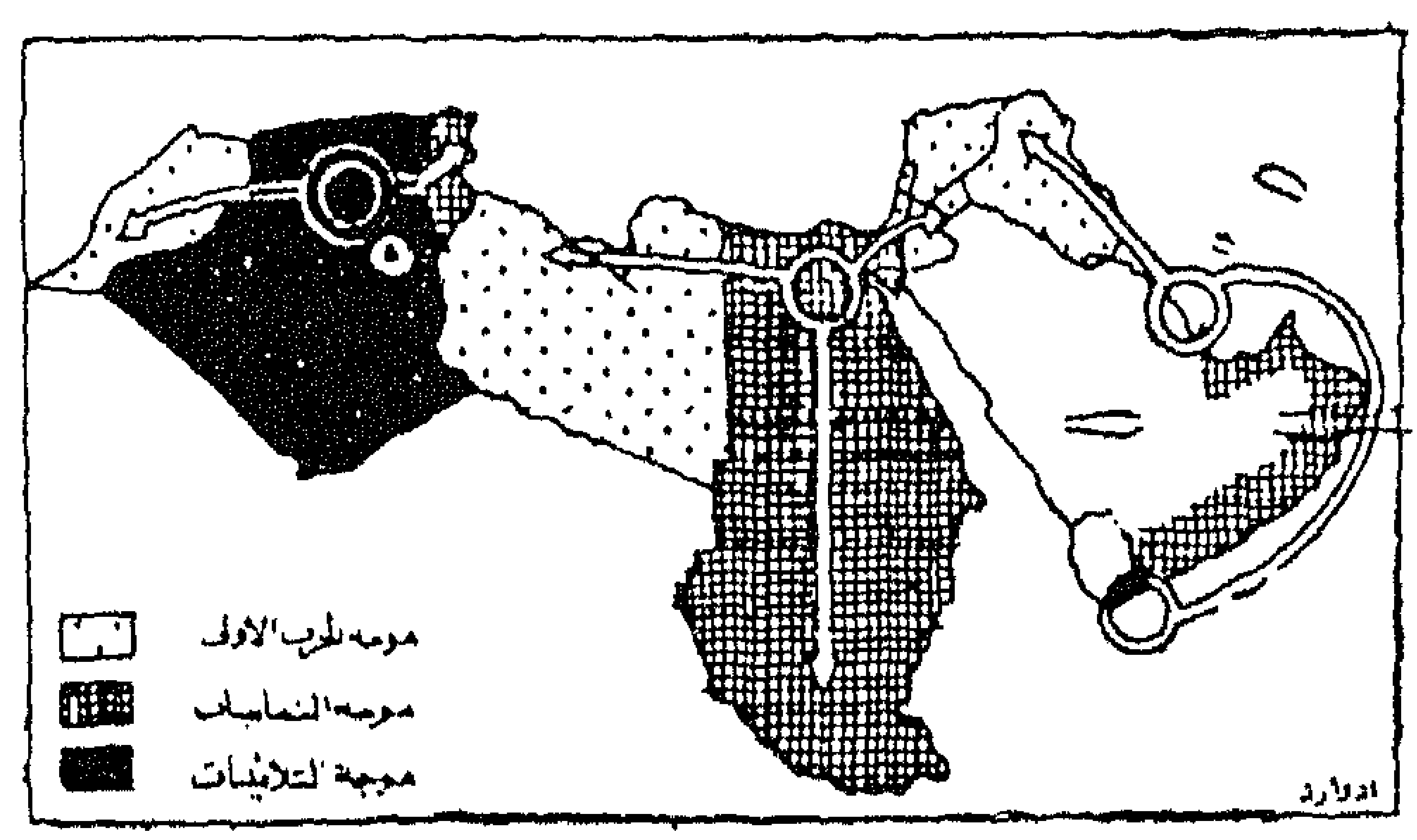
أما عن الاستعمار الحديث ، فان الزحف الاستعمارى فى العالم العربى لم يات دفعة واحدة ، بل يمكننا بالقياس الى منطقة شاسعة مثل افريقيا المدارية ، ان نقول أن زحف الاستعمار فى العالم العربى كان بطيئا متسكعا . فلم تتحقق له السيطرة على المنطقة الا فى مدى ٩٠ عاما من ١٨٣٠ الى ١٩٢٠ . وقد تم هذا الزحف فى ثلاث

---

(١) الجيوبولتيكا . جـ ٢ . ص ٢٠ ، ١٧٦

(٢) جمال حمدان ، الاستعمار والتحرير فى العالم العربى ص ٢٦ ـ ٣١

موجات رئيسية واضحة التحديد . ولم تنته كل موجة في تاريخها تماما بل لها ما بعدها من توسيع وتعميق بحيث تؤدى نهايات كل موجة الى طلائع التالية . وبوجه عام كانت كل موجة لاحقة أوسع انتشارا ونطاقا من سابقتها



شكل (١٦) موجات الاستعمار فى الوطن العربى
لاحظ نقط الارتكاز كبؤرات للتوسع والتشعع

فأما الموجة الاولى ففى ثلاثينات القرن التاسع عشر ، وفيها وقعت الجزائر فى يد الاستعمار الفرنسى فى ١٨٣٠، وعدن فى يد البريطانى فى ١٨٣٩ . ومنذ ذلك الوقت أخذ الاستعمار البريطانى يزحف بانتظام واطراد من عدن على طول الساحل الجنوبى والشرقى للجزيرة العربية حتى سيطر عليها جميعا حتى الكويت شمالا قبل نهاية القرن

وجاءت الموجة الثانية فى الثمانينات حين مدت فرنسا نفوذها من الجزائر الى تونس فى ١٨٨١ ، واحتلت بريطانيا مصر فى ١٨٨٢ . وفى العقدين التاليين استطاعت بريطانيا أن تتخذ من مصر قاعدة للتوسع فى السودان تحت ستار التبعية التركية ، وعند دورة القرن كان قد استقر به تماما

الموجة الثالثة والاخيرة فى العقـــد الثانى من القرن

الحالى قبل وفى أثناء الحرب الكبرى الأولى . وقد بدأت بانقضاض ايطاليا على ليبيا واقتطاعهــا من « الدولة العلية » العاجزة فى ١٩١١ ــ ١٩١٢ . وفى نفس الوقت بدأت فرنسا تتوسع من الجزائر غربا فى مراكش لتنفرد بها من بين مناورات القوى المختلفة ، وتم لها هذا خلال الحرب حتى ١٩١٤ . أما فى المشرق العربى فقد كانت هذه الموجة أخطر فترة فى تاريخه ، فقد سقط أغلبه ــ الهلال الخصيب ــ للاستعمار دفعة واحدة وذلك كجزء من مساومات الصلح . فاستولت فرنسا على ســوريا ولبنان ، وبريطانيا على فلسطين والاردن والعراق

من هذه الصورة نرى ان الاستعمار بدأ فى كل موجة ساحليا ثم توسع تدريجا نحو الداخل ، فتلك طبيعــة الاستعمار البحرى والضبط الساحلى . وفى كل موجة اتخذ الاستعمار من أول مستعمرة نقطة ارتكاز يتوسع منها دائريا أو خطيا : دائريا كما حدث من مصر الى السودان ففلسطين والاردن ثم فيما بعد الى ليبيــا ، وخطيا كما حدث من الجزائر الى تونس فمراكش حيث ــ كما قيل ــ افطرت فرنسا بالجزائر وتغدت بتــونس وتعشت بمراكش !

كذلك نرى تناظرا وســمترية نادرة بين الزحف فى المشرق العربى والمغرب . ففى كل موجة يسقط عضو أو اكثر فى كل من القطاعين معا بحيث يصبح لدينا هــذه الازواج المتناظرة على الترتيب الزمنى : الجزائر ــ عدن والجنوب العربى ، تونس ــ مصر والسودان ، مراكش وليبيا ــ الهلال الخصيب

وعدا هذا فسنرى أن العالم العــربى الافريقى كان اسبق وقوعا فى مجموعه فى يد الاستعمار من العــالم العربى الاسيوى . والجزء الاكبر منه وقع بالفعل فى

القرن الماضى ، بينما لم يسقط نظيره الأسيوى الا فى القرن الحالى . هذا ولم يفلت من الاستعمار فى العالم العربى كله الا قطاع ضئيل فى الجانب الاسيوى هو قلب الجزيرة العربية وقلعة اليمن ، وكل منطقة فقيرة فى ذاتها صحراوية او جبلية، وداخلية بعيدة عن مجال واهتمامات الاستعمار البحرى

واخيرا نرى ان الاستعمار اللاتينى فى المغرب اخذ ترتيبا مناظرا ومقابلا للاوطان « الأم » على الساحل الشمالى للبحر . فالاستعمار الاسبانى فى مراكش الخليفية أو الريف يواجه اسبانيا والايطالى فى ليبيا يواجه شبه الجزيرة ، بينما فى الوسط يقابل النطاق الفرنسى فرنسا فى القارة

أما اذا وضعنا قوى الاستعمار فى العالم العربى فى الميزان ، فان الجدول الآتى يعطى النسب التى اقتسم بها المنطقة كما كانت حوالى منتصف القرن الحالى قبيل التحرير

الاستعمار	المساحة بالكم ٢	٪	السكان بالمليون	٪
البريطانى	٤ر٦٥٤ر٧٠٠	٤١ر٦	٣٨	٤٨
الفرنسى	٢ر٩٢٣ر٠٠٠	٢٦ر٢	٢٧	٣٤
الايطالى	١ر٧٥٩ر٥٠٠	١٥ر٧	١	١ر٢
الاسبانى	٥٠ر٠٠٠	٠ر٤	١ر٧	١ر٤
الوحدات المستقلة	١ر٧٩٥ر٠٠٠	١٥ر٥	١١ر٥	١٥ر٤

ويبدو أن نحو سبعة اثمان الوطن والشعب العربى (٨٥ ٪) سقطت ضحية للاستعمار ، وبالاخص للاستعمار البريطانى والفرنسى ــ الاستعمار الكبير ــ فكانا معا يسيطران على ثلثى مساحة العالم العربى (٦٧ر٨ ٪) واكثر من ثلاثة ارباع الأمة العربية (٨٢ ٪).

وكانت بريطانيا بالذات هي القوة الاستعمارية السائدة : نصف السكان وخمسا المساحة ، وبذلك تعادل الاستعمار اللاتيني جميعا من حيث المساحة تقريبا ولكن تفوقه بكثير من حيث السكان

أما الاستعمار الصغير ففيه يتقارب الاسباني والايطالي سكانا ، ولكن يختلفان جدا في المساحة . فالاول شريط كثيف نسبيا ، أما الثاني فبه اعلى نسبة من المساحة الى السكان . وفيما عدا هذا فيلاحظ أن الاستعمار كان يملك في العالم العربي مساحة تزيد على مساحة اوربا باسرها ، وفيما عدا اسبانيا فكانت كل قوة استعمارية تملك مساحة تبلغ اضعاف مساحتها هي نفسها عدة مرات!

هذه صورة عامة للاستعمار الغربي في الوطن العربي كما مارسته القوى الاوربية ، ولكنها لا تكتمل الا بالحديث عن حالة خاصة واخيرة من الاستعمار مكنت له وخلقته فقط تلك القوى ، أما الذي مارسته فطائفة عالمية معينة ، ونعني بذلك الاستعمار الصهيوني في فلسطين المحتلة باسم اسرائيل . وليس ها هنا من مجال الا لتحديد الهيكل الاساسي لطبيعة اسرائيل وموقعها بين انماط الاستعمار . ففي ايجاز شديد ، ماذا تعني اسرائيل علميا وموضوعيا بالنسبة الى طالب الجغرافيا السياسية؟

تتعاصر بدايات الحركة الصهيونية مع آخر موجة كبرى من موجات الاستعمار الاوربي الحديث وهي الموجة المدارية وخاصة منها التكالب على افريقيا ، ولكن تحققها يتعاصر مع نهايات عصر الاستعمار بوجه عام . فلقد تعلقت الصهيونية باذيال الموجة المدارية لتركبها ولتستثمر المناخ السياسي الاستعماري العام وصولا الى تحقيق اهدافها الخاصة في انشاء « الدولة اليهودية » . والصهيونية من بدايتها حركة سياسية في

الحقيقة (الصهيونية السياسية) ، ولكنها تقنعت منذ اللحظة الاولى بالدين (الصهيونية العاطفية) ، لتخلق من « رؤيا العودة الى أرض الميعاد » ايديولوجية تاريخية ودينية تجمع يهود الشتات حولها ، وكذلك قناعا وشعارا تخفى به حقيقة أهدافها عن العالم الخارجى . ولهذا رفضت عدة اقتراحات لوطن قومى فى غير فلسطين

ولقد كان من المستحيل منذ البداية أن يتحقق الحلم الا بالمساعدة الكاملة من قوى السيادة العالمية ، ومن هنا التقت الامبريالية العالمية مع الصهيونية لقاء تاريخيا على طريق واحد هو طريق المصلحة الاستعمارية المتبادلة : فيكون الوطن اليهودى قاعدة تابعة وحليفا مضمونا أبدا يخدم مصالح الاستعمار ، وذلك ثمنا لخلقه اياه وضمانه لبقائه . وعلى طريق هذه المصلحة الاستعمارية المشتركة تحرك ارتباط الصهيونية بالامبريالية بحسب تحرك مركز الثقل فى زعامة الامبريالية ، فكانت بريطانيا هى التى خلقت الوطن القومى منذ الحرب العالمية الاولى ، بينما خلقت الولايات المتحدة الدولة اليهودية منذ الحرب الثانية

وقد مر تكوين اسرائيل بمرحلتين : التغلغل ثم الغزو . فبعد عدة موجات من التسلل والتسرب المبعثر حتى ما قبل الحرب الاولى ، فتح الانتداب الباب للهجرة الى الوطن القومى ليبدأ تغلغل حقيقى خلق جسما خطيرا من أقلية يهودية كبيرة وانتزع موطىء قدم بسياسة شراء الاراضى المخططة من قبل . وبهذا وذاك تكونت نواة « اليشوف » أى المجتمع اليهودى فى فلسطين ، ونجح فى خلق دولة داخل الدولة . وقد اتسمت هذه المرحلة بالدموية فى شكل حرب عصابات

يهودية شجعها الانتداب بالسلاح ، فى وجه مقاومة عربية ثورية قاومها الانتداب بالقوة

أما مرحلة الغزو فتم فيها الاغتصاب الشامل بعد انسحاب الانتداب ـ متواطئا ـ فى ١٩٤٨ ، وعن طريق حرب ضد العرب يسميها اليهود بحرب الاستقلال (عن الاستعمار البريطانى) أو حرب التحرير (من « الاستعمار العربى » ، كذا ..) . وفى هذه الحرب ، التى حدد مصيرها سياسة التسليح ومناورات السياسة من جانب الدول الاستعمارية ، طرد نحو مليون من العرب الاصليين خارج الارض المحتلة ، بينما تدفقت الهجرة الكبرى لتجمع فى النهاية نحو المليونين من الصهيونيين يمثلون حوالى ١٣٪ من اليهودية العالمية

وقد إعتبرت اسرائيل نفسها منذ ذلك الوقت « اسرائيل الصغرى » فقط ، على أساس ان هدفها المعلن هو « اسرائيل الكبرى » من النيل الى الفرات . وفى سبيل تحقيق هذه الخطة ، قامت بحربين عدوانيتين اخريين مع الدول العربية فى ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ ، عملت فيهما بالتواطؤ مع دول الاستعمار الغربى ، ولكنها فشلت فى التوسع فى الاولى ، أما الثانية فلازالت المواجهة قائمة

تلك هى الحقائق الاولية البحتة فى قيام ووجود اسرائيل ، منها يمكن للجغرافى السياسى ان يحدد فى اطار موضوعية العلم المطلقة التشخيصات والنتائج الآتية :

فأولا ، اسرائيل ـ كدولة ـ ظاهرة استعمارية صرفة . فهى قد قامت على اغتصاب غزاة اجانب لارض لا علاقة لهم بها دينيا أو تاريخيا او جنسيا ، وان زعموا عكس ذلك تماما ودواما . دينيا ، لان رؤيا العودة الخرافية والوعد الاسطورى المزعوم لا اساس لهما او سند من الدين والا لجازت نفس العودة لبقية الاديان ، فضلا

عن انه ليس على اصحاب دين اى التزام بدعاوى اصحاب دين آخـــر . وتاريخيا ، لان علاقة اليهود بفلســـطين انقطعت تماما منذ نحو ٢٠ قرنا . وجنسيا ، لان هناك « يهودين » فى التاريخ ، قدامى ومحدثين ، ليس بينهما اى صلة انثروبولوجية مذكورة ، ذلك أن يهود فلسطين التوراة بعد الخروج تعرضوا لظاهرتين اساسيتين طوال ٢٠ قرنا من الشتات فى المهجر : خروج اعداد ضخمة منهم بالتحول الى غير اليهودية ، ودخول أفواج لا تقل ضخامة فى اليهودية من كل اجناس المهجر . واقترن هذا بتزاوج واختــلاط دموى بعيـــد المدى ، انتهى بالجسم الاساسي من اليهود المحدثين الى أن يكونوا شيئا مختلفـا كلية عن اليهود القدامى ، ولم يعد اليهود اليوم من نسل بنى اسرائيل التوراة باى نسبة ذات بال

وبهذا فعودة اليهود الى فلسطين بالاغتصاب هو غزو وعدوان غرباء لا عودة أبناء قدامى ، أى استعمار لا شبهة فيه بالمعنى العلمى الصارم . واسرائيل بالتالى تمثـــل جسما غريبا ودخيلا مفروضا على الوجود العربى ، أبدا غير قابل للامتصاص ، ولكنه حتى الان غير ممكن اللفظ ، وبين هذا وذاك يبقى عنصر اضطراب وتهيج ومضاعفات سياسية . وبتعبير آخر يبقى بؤرة حرب كامنة ومفجر صدام استعمارى ــ تحريرى مسلح

ثانيا ، اسرائيل استعمار طائفى بحت ، والدولة دولة دينية صرفة . فهى تقوم على تجميع اليهود ، واليهـــود فقط ، فى جيتو سياسى واحد ، ومن ثم فأساسها التعصب الدينى ابتداء . واذا كان من الواضح أنها بذلك تمثـــل شذوذا رجعيا فى الفلسفة السياسية للقرن العشرين الذى لا يعرف أو يعترف بالدول الدينية ، فانها فى الواقع تعيد الى الحياة حفريات العصور الوسطى بل القديمة ، ومنطق

العصور القبلية المتحجرة • وهى كذلك تفرض من طرف واحد حربا دينية ليس الطرف الاخر مسئولا عنها بل هو يرفضها ، واسرائيل تبعث بذلك شبهة صليبيات جديدة في منطقة لا تعرف الا التسامح الديني تقليديا

ثالثا ، اسرائيل استعمار عنصرى مطلق • فرغم ان اليهودية ليست ولا يمكن أن تكون قومية باى مفهـــوم سياسى سليم كما يعرف كل عالم سياسى ، ورغم ان اليهود ليسوا عنصرا جنسيا فى أى معنى بل جماع ومتحف حى لكل أخلاط الاجناس في العالم كما يدرك اى أنثروبولوجي ، فان فرضهم لانفسهم كأمة مزعومة مدعية فى دولة مصطنعة مقتطعة يجعل منهم ومن الصهيونية حركة عنصرية اساسا ، وذلك بكل معنى العنصرية من استعلاء وتعصب واضطهاد ودموية

وتأخذ هذه العنصرية ـ كما تحب اسرائيل أن تراها ، سواء صح ذلك أم لم يصح ـ صورة مليونين من «البيض» وسط بحر من « الملونين » العرب • فهذه ـ مباشرة ـ عنصرية بيضاء • ولكنها أيضا عنصرية بيضاء نازية بالدقة فهى تعد نفسها « الشعب المختار » على غرار « المانيا فوق الجميع » أيام الهتلرية • وبالفعل ، وباعتراف الكثير من المحايدين ، يبدى وجود اسرائيل منذ نشأتها كل ملامح العنصرية النازية • وهنا تتجسد سخرية المفـــارقات الاستعمارية : فقـــد تلقت اسرائيل اضطهاد العنصرية النازية في أوربا بكل مرارة التجزبة ، ولكنها انما تعلمت الدرس لتنقله وتعكسه مضاعفا على العرب فى فلسطين ، وهنا تتضاعف المفارقة سخرية لأن العرب ـ وحدهم من بين كل المجتمعات ـ هم الذين لم يضطهدوا اليهود عبر التاريخ

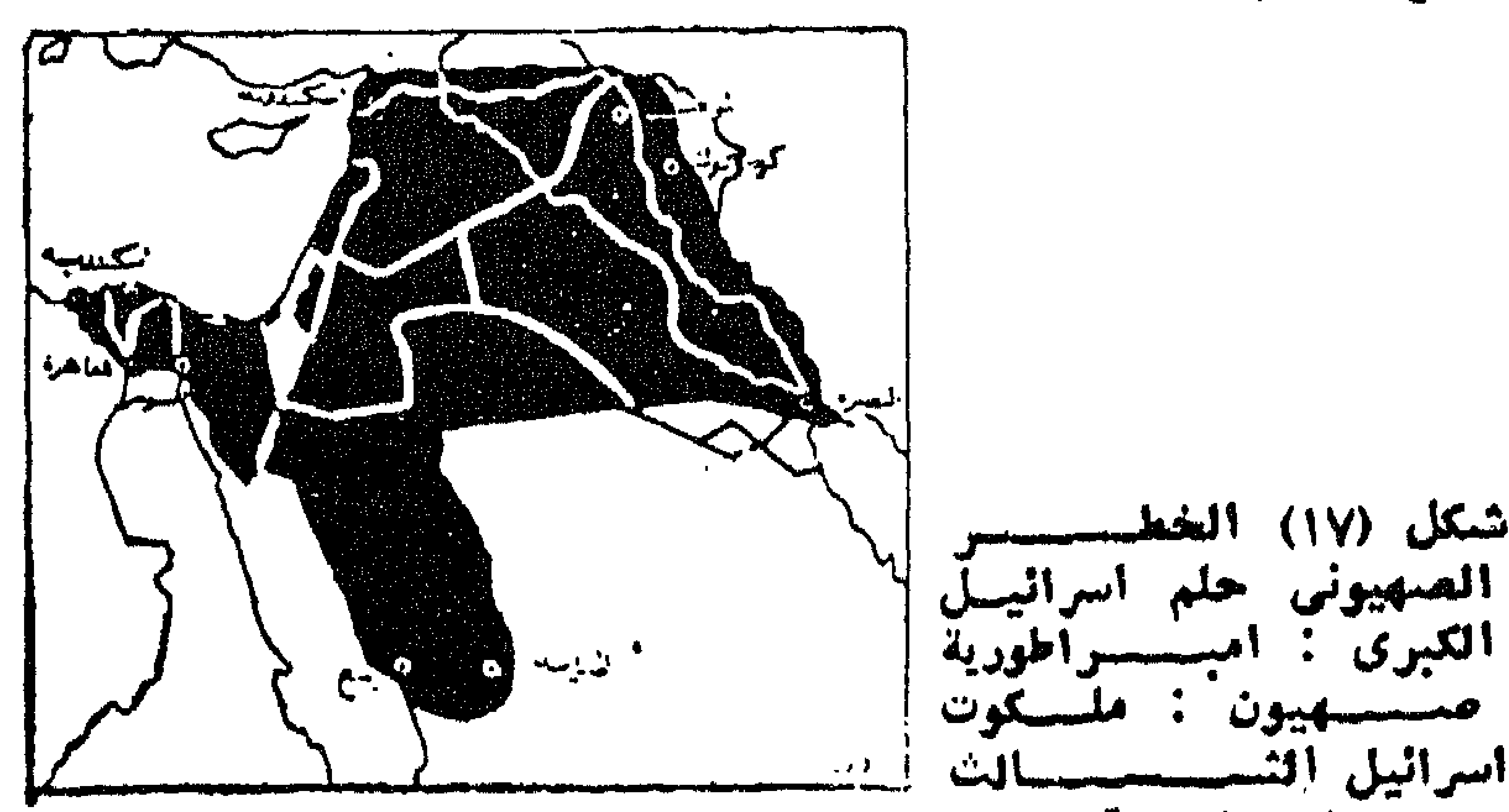
رابعا ، اسرائيل قطعة من الاســـتعمار الاوربى عبر البحار • فمع أن اسرائيل منصفة عدديا بين اليهود الغربيين

الاشكناز واليهود الشرقيين السفارديم ، فان القيـــادة والسيطرة المطلقة للنصف الاول ، وهي تعتبر نفسها دولة غربية لا شرقية • ولو حققت اسرائيل أهدافها في تهجير يهود الشتات جميعا ، لاصبحت وجودا غربيا أساسا بحسب الجنس والحضارة وبحسب التطلعات والعلاقات • انهـــا جزيرة أوربية على ضلوع اسيا ، ومستعمرة غربية في قلب الوطن العربي ، وذلك جنسيا وحضاريا على السواء . وككل دعاوى الاستعمار الاوربي عبر البحار ، وتبريرا لاغتصابها لم تتورع اسرائيل عن أن تدعى رسالة الحضارة والتطور ، فزعمت نفسها واحة التقدم في صحراء الرجعية العربيـة وجزيرة الصناعة في بحر التخلف الشرقي •• الخ

خامسا ، اسرائيل استعمار سكني في الدرجة الاولى . فلئن كانت بداياتها قد واكبت موجة الاستعمار المدارى في القرن التاسع عشر ، الا أنها استهدفت وحققت كل مقومات استعمار المعتدلات الذى ساد في القرنين الســابع عشر والثامن عشر وسعى الى التوطن الدائم في بيئات معتدلة شبه أوربية المناخ • ولعل استعمار الجزائر كان أقــرب سابقة لهـــا تاريخيا ، ولكنها تظل تمثل اخر موجة من الاستعمار السكنى الاستيطانى في العالم كله • واذا صح أن نميز في الاستعمار الســـكنى للمعتدلات بين النمط اللاتينى الذى يضيف المستعمرين الى الاهالى الاصليين بلا ابادة عامة كما في أمريكا اللاتينية أو الجزائر ، وبين النمط السكسونى الذى يقوم على احلال المستعمرين محل الاهالى الوطنيين بالابادة أو الطرد كما في استراليا وجنوب أفريقيا والولايات المتحدة ، فان اسرائيل تقع بالتأكيد في النمط السكسونى

ومع ذلك فهى تتميز عنه بما يجعلها حالة فريدة شاذة لا مثيل لها بين كل نماذج الاستعمار السكنى ، فهى تجمع

بين أسوأ ما فى هذه النماذج ، ثم تضيف اليه الاسوأ منه • هى كاستراليا والولايات المتحدة انتظمت قدرا محققا من ابادة الجنس ، وهى كجنوب افريقيا تعرف قدرا محققا من العزل الجنسى ، ولكنها تختلف عن الجميع من حيث أنها طردت كل السكان الاصليين خارجها تماما ليتحولوا الى لاجئين مقتلعين معلقين على حدودها • واسرائيل بهذا كله اعلى ـ أم نقول أدنى ؟ ـ مراحل الاستعمار السكنى



شكل (١٧) الخطر الصهيوني حلم اسرائيل الكبرى : امبراطورية صهيون : ملكوت اسرائيل الثالث

سادسا ، اسرائيل رغم ذلك تجسيم للاستعمار المتعدد الاغراض ، فهى تمثل استعمارا مثلث الابعاد • فعدا الجانب السكنى ، فانها تمثل أيضا استعمارا استراتيجيا واستعمارا اقتصاديا • فوجودها غير الشرعي رهن من البداية الى النهاية بالقوة العسكرية وبكونها ترسانة وقاعدة وثكنة مسلحة ، فما قامت ولن تبقى ـ وهذا تدركه جيدا ـ الا بالدم والحديد والنار • ولهذا فهى دولة عسكرية فى صميم تنظيمها وحياتها ، و « أمن اسرائيل » هو مشكلتها المحورية ، أما حلها فقدتحددفىأن اصبحجيشها هو سكانها وسكانها هم جيشها ، وهو مايعبر عنه «بعسكرة» اسرائيل

أما أنها استعمار اقتصادى ، فهذا أساسى فى كيانها

منذ أن اغتصبت الارض وما عليها من ممتلكات ، فالاستعمار الاسرائيلي عملية رهيبة من نزع الملكية على مقياس شعب ووطن بأسره • وهي من هذه الزاوية اســـــتعمار طفيلي ابتزازى ابتلاعي بحت بطبيعة الحال • ومن بين تلك الصفة العسكرية وهذه الجذور الطفيلية ، تخرج الصفة الفاشية الواضحة في كيان اسرائيل كنتيجة منطقية للغاية

سابعا ، اسرائيل استعمار توسعي أساسا • واطماعها الاقليميـــــة معلنة بلا مواربة ، وخريطة اسرائيل الكبرى محددة من قبل ومتداولة ، ومن « النيل الى الفرات أرضك يا اسرائيل Erets Israel » هو شعار الامبراطورية الصهيونية الموعودة • وهدف اسرائيل الكبرى أن تستوعب كل يهود العالم في نهاية المطاف ، ومثله لا يمكن أن يتم الا بتفريغ المنطقة من اصحابها اما بالطرد واما بالابادة • وبطبيعة الحال ، فلا سبيل الى هذا الا بالحروب العدوانية الشاملة • ونحن بهذا ازاء اخطبوط سرطاني في آن واحد ، ازاء عدوان آني واقع وعدوان سيقع في أي آن

وهنا نجد أن الصهيونية تكرر في الواقع قصة النازية بحذافيرها • فكما كانت المانيا تطالب « بمجال حيوى » ، تتكلم اسرائيل عن اسرائيل الكبرى • وكما كانت المانيا تدعى أنها « شعب بلا مجال » ، لا تخفى اسرائيل منذ وحسب هرتزل أنها ترى في المنطقة العربية « مجالا بلا شعب » • وكما كانت المانيا تحث على زيادة النســـــل كمبرر لادعاءاتها الاقليمية ، تحث اسرائيل يهود العالم على الهجرة اليها • وتكتيك افتعال ضغط سكاني متورم متفجر تبريرا للتوسع الاقليمي ، هو تكتيك الامر الواقع Realpolitik كما سمى في المانيا ، fait accompli كما عرف عن اسرائيل • وفي النهاية وفي النتيجة ، فقد تعين في حالة اسرائيل كما كانت حالة المانيا ، أن تصبح حدودها هي

جيوشها ، وجيوشها هي حدودها . واذا كان لهذا من معنى ــ أى معنى ــ فهو على الفور أن الشرق العربى لا يمكن أن يتسع للعرب ولاسرائيل معا ، فوجود أحـــدهما نفى لوجود الاخر ، ولكى يبقى أحدهما لا بد أن يذهب الاخر . أما من يبقى ومن يذهب فأوضح ــ علميا ــ من أن يذكر

ثامنا ، وأخيرا ، فان اسرائيل من البداية الى النهاية استعمار من الدرجة الاولى والثانيه معا ، استعمار بالاصالة والوكالة فى نفس الوقت . ونقصد بذلك أن اسرائيل قامت وأقيمت بفعل ولحساب نفسها والصهيونية العالمية ، وكذلك قامت وأقيمت بفعل ولحساب الاستعمار العالمى . فبالنسبة الى الصهيونيه العالمية ، فان الدولة اليهودية ملجأ من الشتات وأخطاره المحتملة أو الموهومة ــ بوليصة تأمين كما وصفت ــ ووثيقة لاستثماراتها المالية الاحتكاريه . ولكن تحقيقها فى البداية وبقاءها بعد ذلك لم يكن ممكنا بغير المشاركة الكاملة للاستعمار العالمى الذى تطابقت الى حد التماثل خططه ومصالحه . فهى بالنســـبة اليه قاعدة متكاملة آمنة عسكريا ، ورأس جسر ثابت استراتيجيا ، ووكيل عام اقتصاديا ، أو عميل خاص احتكاريا ، وهى فى كل أولئك تمثل فاصلا ارضيا يمزق اتصال المنطقة العربية ويخرب تجانسها ويمنع وحدتها واسفنجة غير قابلة للتشبع تمتص كل طاقاتها ونزيفا مزمنا فى مواردها وأداة جاهزة لضرب حركة التحرير . واسرائيل بهذا المعنى دولة مرتزقة لا شك ، تعمل مأجورة فى خدمة الاستعمار العالمى ، بمثل ما هى صنعه وصنيعته وربيبته

هذا الالتقاء والتداخل العميق بين مصـــالح الصهيونية والامبريالية العالميتين هو مفتاح الوجود ــ والمصـــــير ــ الاسرائيلى برمته . وهو الذى يفسر كثيرا من مظاهر الغرابة والتفرد فيه . فالاستعمار العالمى هو الذى خلق اسرائيل

بالسياسة والحرب ، وهو الذى يمدها بكل وسائل الحياة من أسلحة وأموال ، ثم هو الذى يضمن بقاءها ويحميها علنا . ولذلك فانها تكاد تكون الحالة الوحيدة فى العالم تقريبا التى تجسدت فيها آخر مراحل الاستعمار القديم وأولى طلائع الاستعمار الجديد . فهى كجسم استعمارى واقع تمثل استعمارا قديما ، ولكنها بدور الاستعمار العالمى فى كيانها وأمنها تمثل أداة وقاعدة للاستعمار الجديد . كذلك فانها ـ اسرائيل ـ تكاد تكون الارض المشتركة الوحيدة تاريخا ولقاء ، مصالح ومصاير ، التى التقى عليها الاستعار القديم والجديد بغير صراع أو تنافر ، فقد كانت بريطانيا (الاستعمار القديم) هى التى خلقتها ، ولكنها سلمتها بعد ذلك طواعية لوصاية أمريكا (الاستعمار الجديد) . فكانت الاولى بمثابة الأب البيولوجى ، والثانية بمثابة الأب الاجتماعى

واذا كانت اسرائيل ملتحمة كلية فى الوقت الحالى بالولايات المتحدة ، فانه ليس من الواضح تماما من الذى يستعمر من : فاسرائيل تكاد تبدو اليوم وكانها أمريكا فى الشرق الاوسط ، أو الولاية الحادية والخمسون من الولايات المتحدة كما قيل ، أو على الاقل قاعدة أمريكيه ـ أكبر قاعدة أمريكية ـ عبر البحار ، الا أنها قاعدة بدرجة دولة والا أن كل طاقمها من اليهود . وفى نفس الوقت تمارس الصهيونية العالمية لحساب اسرائيل نفوذا وضغطا غير متناسب على الولايات المتحدة ، وأيا ما كان ، فلا شك أن اسرائيل هى أخطر تحديات الاستعمار فى التاريخ العربى ، ولعلها أعلى مراحله فى الوطن العربى ، بمثل ما أن الصهيونيه العالمية هى أعلى مراحل الامبريالية العالمية

الفصل الثامن

صراع القوى
فى العصر الصناعى

بريطانيا

ودع القرن التاسع عشر فترة مراهقته ، وقد اجتمع انقلابان خطيران : أولهما انتقال السيادة العالمية نهائيا الى بريطانيا بعد أن أزاحت فرنسا الى الابد عن الصدارة ، وثانيهما بدء الانقلاب الصناعى فى بريطانيا الامر الذى أكد زعامتها فى العالم بلا منافس حقيقى . ومنذ ذلك ولمدة قرن تقريبا ظلت القوة السياسية والمادية فى العالم احتكارا لبريطانيا ، وكان القرن التاسع عشر بحق قرن السيادة البريطانية ــ قرن بريطانيا

ورغم أن فرنسا ظلت تناوئها وتتصدى لها ، فلم يكن هذا الا من موضع اليد السفلى ، الى أن اضطرت بعد قرن كامل أن تعترف بالامر الواقع لتسوى خلافاتها معها فى الاتفاق الودى سنة ١٩٠٤ ، ولتتحول فى النهاية الى شريك ثان لها وحليف ، أو بالاحرى الى صديق لدود ، لا سيما منذ بدأ منافس خطير يهدد الاثنين ، ولكن فرنسا بصفة مباشرة ، ونعنى به ألمانيا

هنالك انطلقت بريطانيا تتفجر وتتواثب ، بل وتعربد حول العالم لتستكمل أضخم وأوسع امبراطورية بحرية

عرفها التاريخ . ففى قمة توسعها وصلت الامبراطورية الى ان تغطى ربع مساحة اليـــابس ، وان تحكم ثلث سكانه ، أو نحو اكثر من ١٤ مليون ميل مربع ، ١٠٠٠ مليون نسمة على الترتيب . وابرز حقيقة فى هـــذه الامبراطورية الماموث ، هى بلاشك تبعثرها فى كل اركان العالم فى « جزر » سياسية منفصلة متقطعة تفصلها آلاف الاميال من البحار والمحيطات ، ولا يكاد محيطها يقل ـ عمليا ـ عن محيط الكرة الارضية

ومن هنا فقد كانت امبراطورية عالميـــة بكل معنى الكلمة : لها أعضاء تمثلها فى كل قارة بما فى ذلك اوربا نفسها ، وتكاد تترامى عبر كل خطوط الطول والعرض فى العالم (٣٢٠ درجةطولية × ١٣٠ درجة عرضية !) (١) وتمتد بلا اســتثناء فى كل المناطق المناخيـــة والانواع النباتية والبيئات الطبيعيةوالاقاليم والانماط الجغرافية، كما انتظمت تقريبا كل الاجناس الرئيسية والديانات والى حد ما اللغات (٢) . باختصار كانت متحفا منثورا لعينات



شكل (١٨) الامبراطورية البريطانية فى اوجها .. النموذج المثالي للاستعمار البحرى : ربع مســاحة العالم : الف مليون نسمة : انتشارمطلق حـــول الكرة الارضية : خمسة احزمة بحرية تربط شتاته .

(١) Whittlesey, p. 111.

(٢) الجيوبولتيكا ، جـ ٢ ، ص ١٠٨ ـ ١٠٩

من الكرة الارضية والعائلة البشرية « لا تغيب عنه الشمس »

ومثل هذه الامبراطورية الدائرية المترامية كانت بطبيعة الحال — ولم يكن لها بد من ان تكون —امبراطورية قوة بحر فى الدرجه الاولى ، بل الحقيقة انها كانت بالضرورة نتج السفينة البخارية وامبراطورية عصر البخار ، بغيرها ما كان يمكن ان تقوم ؛ واذا قامت فبغيرها ما كان يمكن ان تستمر . ولهذا كانت خطوط الملاحة هى شرايين الامبراطورية وخطوط الحياة بالنسبة لها . وكان الهيكل الذى يمسك بهذه المستعمرات المبثوثة يتألف من خمسة خطوط تسمى احزمة الامبراطورية Girders of Empire اهمها بلا شك طريق السويس البحرى الداخلى الذى يشق قلب الامبراطورية الفعال ، ثم طريق الراس الدائرى البديل . والى الغرب تنبعث الخطوط الثلاثة الاخرى ، واولها خط كندا والولايات المتحدة ولم يكن يقل اهمية عن طريق السويس ، وهو اليوم أهم ما تبقى لبريطانيا . والطريق التالى هو طريق بنما — هاواى — استراليا ونيوزيلند . اما الطريق الاخير فطريق جزر فوكلند بحذاء شرق أمريكا الجنوبيه

وعلى هذه الشبكة الاخطبوطية ترتكز الامبراطورية على مجموعة من القواعد العسكرية البحرية التى تمثل نقط أو عقد القوة الاستراتيجية فيها ، والتى تعتمد أساسا على الضبط والاستعمار الساحلى marginal control ومع مقدم عصر الطيران ازدوجت هذه الشبكة فى الواقع بشبكة جوية مركبة فوقها ، كما تكملها فى بعض حلقاتها شبكة طرق وسكك حديدية على القارات (١)

(١) L.M. Alexander. World Political Patterns, Chicago, 1957.

فى هذا الاطار اكتملت سيادة بريطانيا البحرية الى درجة الاحتكار المطلق للقوة البحرية فى العالم ، واصبحت عملية مراقبة البحار العليا والاشراف عليها وظيفة بريطانية بحتة ، وتحققت بهذا وحدة المحيط العالمى كأكمل واقوى ما يكون ، ولا نقول أصبح المحيط العالمى بحيرة بريطانية ! ولقرن برمته لم تستطع قوة ما ان تتحداها . غير ان هذا كان فى الواقع دورا « بوليسيا » لا شك فيه (١) ، وفى هذا المعنى وحده ينبغى ان نفهم « السلام البريطانى «Pax Britannica» » الذى فرضته طوال ذلك القرن وظلت تفخر به طويلا ـ وتضليلا

وفى ظل هذه الاستراتيجية البحرية المدرعة استطاعت بريطانيا ان تصبح تاجر العالم الاول مثلما جعلها الانقلاب الصناعى مصنعه الاكبر . ففى اقتصاديات آسيا وافريقيا كان لها الدور الاحتكارى المطلق ، بينما كانت هى وحدها المسيطر الرئيسى على الاستثمارات والتمويل فى امريكا الجنوبية . وفى النتيجة اصبحت بريطانيا تستمد من هذا الدور الجزء الاكبر من قوتها وثرائها المادى بدرجة تتضاءل بجانبها كثيرا ، مواردها وامكانياتها الذاتية والبحتة

ولم يكن غريبا لذلك ان تضاعف سكانها اربع مرات فى ذلك القرن رغم الملايين التى ارسلت الى ما وراء البحار خاصة امريكا (٢) . وفى حمى هذه القوة العسكرية المطلقة والرخاء الاقتصادى النادر ، لم يكن غريبا ـ أليس كذلك ؟ ـ ان يصل الصلف والغرور الانجليزى الى منتهاه ، وان يظن الاستعمار البريطانى أن الأرض قد دانت له ، وأن يتصور نفسه مركز الكون . بل لقد تساءل بعضهم أيامها بالفعل ـ كذا ـ عما اذا كان « الله

---

(١) الجيوبولتيكا ، جـ ٢ (٢) فوست ، ص ٤٢٧

بريطانيا ? Is God British» • لقد وصل غرور القوة وعبادة الذات ، ودعك من واجهة التهكم ، الى حد الكفران!

بيد أن المهم ان بريطانيا انما بنت دورها هذا على اساس نظريات ومدارس اقتصادية معينة تبنتها او خلقتها هى حرية التجارة اولا وتخصص الانتاج ثانيا — ولو ان المبداين جانبان فى الحقيقة لشىء واحد . على ان الذى لم يعد فيه شك الآن حتى عند عتاة الامبرياليين البريطانيين هو ان تلك المبادىء ابعد شىء عن الحقيقة ، بل قلب صارخ هى للحقيقة . فحرية التجارة دعوة تتخفى وراء أعتى انواع الاحتكار القائم على القوة العسكرية ، وهى كما قال بسمارك «سياسة الاقوى» . أما التخصص فوسيلة لحرمان المستعمرات من التطور وللابقاء على تخلفها الى الابد بحجة الجغرافيا الطبيعية

والنتيجة ان اقتصاد « عصر بريطانيا » كان فى جوهره اقتصاد حرب ، واقتصاد قوة ، وبغير الاسطول وديبلوماسية الزوارق المسلحة ، كان مستحيلا ان تظهر « مدرسة مانشستر فى التجارة الحرة » ، وكان السلام البريطانى المزعوم سلام قوة ، يقوم على الظلم والقهر ويعتمد على التهديد بالحرب (١) • ومن هذه الحقيقة بالذات ستنبعث جرثومة الحرب العالمية الاولى كما سنرى بعد قليل

الولايات المتحدة

يبدأ تاريخ الولايات المتحدة كدولة منذ حرب الاستقلال فى عام ١٧٨٣ اى فى أواخر القرن الثامن عشر ، وقبيل الثورة الفرنسية . فقد خرجت من هذه الثورة على

(١) Democratic Ideals, pp. 107.

الاستعمار البريطاني برقعة محدودة بالولايات الثلاث عشرة ومحددة بجبال الليجنى ثم فى مرحلة تالية بالمسيسبى ، وبقوة بشرية لا تزيد على الاربعة ملايين نسمة . فكانت تلك هى النواة النووية التى لم تلبث أن انفجرت فى نمو عارم لتصل فى النهاية الى ان تصبح اعظم قوة فى العالم . وفى هذا النمو والتاريخ تشبه الولايات المتحدة بعض خطوط عريضة من توسع الروسيا من ناحية ومن تاريخ بريطانيا من ناحية اخرى

فكما بدات الروسيا من النواة الاوربية غرب الاورال ثم انطلقت شرقا على حساب العناصر المغولية حتى الهادى ، انطلقت الولايات المتحدة من نواتها شرق الليجنى والابلاش والتى ظلت قابعة فيها أكثر من قرنين، انطلقت بسرعة مماثلة ولكن فى اتجاه عكسى كصورة المرآة enantiomorph صوب الغرب حتى الهادى ، وعلى حساب السكان الاصليين من الهنود الحمر Amerinds . ولهذا فلو عد أحدهما « استعمارا » لوجب أن يعد الآخر كذلك . وكلاهما اذن حقق أبعادا قارية هائلة وتوسع توسعا قاريا بكل وضوح ، الا أن الروسيا بعد هذا لم تتعد قاريتها ، بينما قفزت الولايات المتحدةالى البحار والمحيطات المجاورة

أما مع بريطانيا ، فتاريخ الولايات المتحدة القصير يشبه فى مراحل توجيهه الجغرافى تاريخ بريطانيا الاكثر طولا . فقد مرت الولايات المتحدة — كبريطانيا — اولا بالمرحلة الاستعمارية حتى حرب الاستقلال ، ثم بالمرحلة القارية فى ايام لنكولن ، واخيرا بالمرحلة الجزرية حين توحدت تماما وأدركت وضعها بالنسبة للعالم القديم (١)

---

(١) المرجع السابق ، ص ٥٦

ويمكن أن نتعرف فى توسع الولايات المتحدة (١) الى حدودها الحالية على ثلاث مراحل واضحة : مرحلة القارة ، مرحلة الهادى ، مرحلة الكاريبى . فالمرحلة القارية ١٧٨٣ ـ ١٨٥٠ ، حوالى النصف الاول من القرن التاسع عشر تقريبا ، بدات بشراء لويزيانا ١٨٠٣ من فرنسا نابليون ، ثم بالاستيلاء على فلوريدا من اسبانيا فى ١٨١٩ ، ثم بضم تكساس (جمهورية النجم الاوحد) فى ١٨٤٥ من المكسيك (أسبانيا سابقا) . وبهذا وبذاك وصلت الجمهورية المتمددة من المسسبى الى الروكي ومن البحيرات الى خليج المكسيك . وبعد ذلك مباشرة سوت حدودها مع كندا البريطانية بعد صراع طويل حول اوريجون ١٨٤٦ ، ثم بنفس السرعةانتزعت كاليفورنيا من المكسيك فى ١٨٤٨ ، واستكملت آخر حدودها مع المكسيك بشراء رقعة صغيرة هى جيب جاسدن فى ١٨٥٣

ومعنى هذا أن الولايات المتحدة ظلت منقوقعة تتشرنق على نفسها فى حدود نواتها الاطلسية الضئيلة زهاء قرنين ، بينما اكتسحت بقية القارة فى نصف قرن فقط، بل بالاحرى فى عقد واحد مفعم منذ ضم تكساس فى ١٨٤٥ ! كانما كانت سرعة الانقضاض وظيفة لطول مدة الكمون والاختمار . ومعناه أيضا أن الولايات المتحدة فى حدودها الحالية على القارة لا يزيد عمرها اليوم عن قرن لا أكثر

والمهم انها بذلك وصلت الى الهادى لتصبح دولة محيطين شاسعة الامتداد والرقعة ـ دولة قارة تقريبا. وكان أغلب هذا التوسع أشبه ما يكون فى فراغ ، وكانت

(١) جوبليه ص ٤٤ ـ ٥٢ ، الجيوبولتيكا جـ ١ ، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٥ ، ٢٢٥ ـ ٢٢٧

طلائع التعمير الفعلى والهجرة (« اذهب غربا أيها الشاب » !) غالبا ما تسبق الضم السياسى الرسمى . كذلك سيلاحظ أن أكبر صراع فى هذا التوسع كان مع المكسيك التى تضاءلت وانكمشت رقعتها كثيرا بالتالى، ولهذا ستظل علاقاتها مع الولايات متوترة حتى العقود الاولى من القرن العشرين

ولا شك أن تحقيق الوحدة أو الدولة الواحدة على مثل هذا المقياس الضخم لهو طفرة كبرى فى تاريخ التوسعات السياسية . فقد كان من الممكن أن تنتهى الى أن تتقاسمها أكثر من دولة واحدة كما حدث فى أمريكا الجنوبية . بل لقد بدأت الدولة اتحادا كونفدراليا قبل أن تتحول الى اتحاد فيدرالى . ومن قبل ذلك شك الكثيرون فى امكان قيام دولة واحدة على هذا المقياس المديد بل المريد . ولكن بساطة التركيب الجغرافى نسبيا وانفساح الوحدات الطبيعية كثيرا بالمقارنة بأمريكا الجنوبية ، مع اتفاق فترة التكوين السياسى مع عصر القطار ، هى من العوامل التى تفسر هذه الوحدة القارية النادرة

وفى هذا المعنى ، يصح أن نقرر أن الولايات المتحدة هى من صنع القطار ، وبنت عصر البخار . وليس من الصدفة أن الخطوط الحديدية عبر القارية بدأت تظهر ثم تتضاعف فى الولايات خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر . ولو قد سبق تكوين وتبلور الولايات سياسيا عصر السكة الحديدية كما حدث فى دول أمريكا الجنوبية ، أو لو قد تأخر هذا العصر عما حدث بالفعل، فلربما كانت الولايات المتحدة اليوم عدة دول لا دولة واحدة . ولكن الواقع أن مساحة الولايات التى بدت أكثر مما ينبغى فى البداية ، يتضح اليوم انها جاءت

من المقيــــاس الامثل بالنسبة لنظم النقل والمواصــلات الحديثة (١)

هذا عن مرحلة القارة . اما عن مرحلة الهادى ، فقد اقتيدت الولايات المتحدة تلقائيا الى اضخم محيط بعد ان اصبحت أضخم دولة تطل عليه . وتحتل المرحــلة النصف الثانى من القرن التاسع عشر . فبعد الحــرب الاهلية بدات الولايات بشراء آلاسكا وجزر الوشيان من الروسيا فى صفقة بخسة عدت فى ذلك الحين حمــاقة سميث ـ باسم مهندسها ـ حماقة سيوارد Seward Folly ـ على أساس أنها ليست الا « صندوقا من الجليد » . وسنرى فيما بعد مفارقة مثيرة حين يتحول هــــذا الصندوق من الجليد الى صـــندوق من الذهب حقيقة ومجازا ، معدنيا واستراتيجيا !

ثم بدأت الولايات تتوسع على طول الجزر الباسيفيكية على طريق الشرق الاقصى ، وذلك على حساب أسبانيا غالبا ، فمن قبل استولت على جزر هاولاند وبيكر فى ١٨٥٧ ، ثم على ميدواى فى ٥٩ ــ ١٨٦٧ ، ثم على جوام وويك وبعض جزر من مجموعة فينكس فى التسعينات . وفى نهاية القرن ضمت هاواى ملتقى طرق الهادى وجزر ساموا ، الى أن وصلت فى خاتمة القرن والمطـــاف الى الفلبين فانتزعت بعد حربها مع اسبانيا وضمتها فى عام ١٨٩٩ لتنقلها فجاة من العصور الوسطى الى القـــرن العشرين (٢) . وستظل الولايات تستعمر الفلبين حتى نهاية الحرب العالمية الثانية حين منحتهـــا ـ بمحض ارادتها وكمثال على « فروسية » السياسة الامريكية كما تلح دائما ـ استقلالها فى ١٩٤٦

---

(١) هويتلزى ، ص ١١ ـ ١٢
(٢) جوبليه ، ص ٥١

أما المرحلة الثالثة مرحلة الكاريبي فتبدأ مع القرن العشرين لتمتد فى عقوده الاولى . ففى نهاية حربها مع اسبانيا ، استولت الولايات على كل من بورتوريكو وكوبا فى ١٨٩٨ ، ولكنها منحت كوبا استقلالها مباشرة بعد ان احتفظت لنفسها فيها بقاعدة بحرية فى جوانتانامو فى ١٩٠٣ . أما بورتوريكو فقد ظلت تابعة لها منذ ذلك كمستعمرة محمية الى ان اصبحت كومونولث فى ١٩٥٢ (١) . ثم حصلت الولايات على منطقة القنال فى بنما ١٩٠٣ لتشق فيها بعد ذلك القنال الذى اصبح من أخطر النقط الاستراتيجية فى تركيبها كقوة عالمية . وقد استدعت القناة تامين ضلوعها الشرقية فى جزر الكاريبى فكان شراء جزر فرجين « جبل طارق امريكا » (٢) من الدانمرك ، ومن بقايا الاستعمار البحرى الصغير القديم، فى ١٩١٧ . هذا عدا ضم بعض جزر صغيرة فى الارخبيل واستئجار البعض الآخر من نيكاراجوا

وسنرى من هذا التوسع البحرى الشاسع انالولايات قد خرجت من الدور القارى الى الدور البحرىالمحيطى بصورة حاسمة ، ولم تعد قوة بر بل وقوة بحر ايضا حتى كاد الهادى ـ الشرقى على الاقل ـ أن يكونبحيرة امريكية ، بينما تقاسمت السيطرة على الاطلسى مع بريطانيا . وستصبح منطقة الدفاع الغربى عن الولايات تتألف من مثلث رؤوسه هاواى ـ الاسكا ـ بنما ، بينما سيصبح الكاريبى برمته خط الدفاع الامامى عن بنما نفسها . كذلك سنلاحظ ان هذا التوسع البحرى هو استعمار لا شك فيه ، واستعمار استراتيجى بالتحديد فى الهادى ، واستراتيجى اقتصادى فى الكاريبى ، هدفه

(١) كول . ص ٢٥٩ (٢) بيكلز ص ٢٤٦

١٨٥٣
١٨٤٨
١٨٤٦
١٨١٩
١٨٠٣
١٧٨٣
النواه

ادوارد

شكل (١٩) نمو الولايات المتحدة على القـــارة . الموجـــة المدية ٪ فى نصف قرن فقط ، حملت الدولة الجـديدة من المسيسبى الى الهادى ، بعد أن انفقت قرنين فى نواتها النووية

أن يضمن نقطا وقواعد بحرية لتكون خطــوط الدفاع الامامية عن الدولة . هــذا وتبلغ مساحة ممتـــلكات الولايات المتحدة خارج كتلتها القارية نحو ربع مساحتها الكلية

ولا شك أن هذا التوسع البحرى ـ الهائل بأبعاده وان لم يكن بمساحته ـ هو نتج عصر السفينة البخارية. ولو أن نشأة الولايات المتحدة السياسية قد ســبقت بقرون ، فليس من المحتم انها كانت بمستطيعة أن تتوسع مثل هذا التوسع ـ تماما كما رأينا بالنسبة لرقعتهــا القارية ذاتها . والمغزى الجغرافى والاســتراتيجى لهذا التوسع وذاك هو ان امريكا جــزيرة عظمى معزولة بين اعظم محيطين على الكرة الارضية ، مجموع اتساعهما نحو ٨٠٠٠ ميل أى أقل قليلا من ثلث محيط الارض .. وأى تهديد لها انما يأتى من البحر سواء شرقا أو غربا، ولهذا فالدفاع عنها لا يكون الا بالقوة البحرية

وفى نفس الوقت فان مثـــل هذا الاطار المحيــطى السحيق ما كان يمكن لاى قوة أن تسيطر عليه الا أن تكون قوة كبرى ذات قاعدة أرضية هائلة حتى تستطيع ان تجد من الموارد والفائض الحربى ما يمكنها من ذلك. ولو ان امريكا كانت جزيرة صغيرة المساحة لما زاد دورها كثيرا عن دور هاواى أو غيرها من جزر الهادى الضائعة فى خضمه الشاسع . وتلك جيوبولتيكيا آفة الجــزر الصغيرة فى وسط محيطات ضخمة (١) . وانه لمنطقى جدا أن يكون عرض الدولة التى تولد فى رحم بحـرى عرضه ٨٠٠٠ ميل ، فى حدود لا تقل عن ٣٠٠٠ ميل

وفى النتيجة فان الولايات المتحدة تخرج بكيان سياسى

(١) جون موجى ، ص ١٢٤

أدنى الى ان يكون وسطا بين طبيعة الاستعمار البحرى البريطانى والتوسع القارى الروسى ، أو قل هو يجمع بين طبيعتيهما معا . فبكتلتها القارية المندمجة المتماسكة وبما تمتاز به من دفاع بالعمق ، تشبه الولايات المتحدة الروسيا من حيث أنها تستطيع أن تنسحب بأى عدو غاز الى نواتها الداخلية غرب الابلاش او شرق الروكى حتى تشترى الزمان بالمكان . هذا بينما تجعلها مستعمراتها البحرية الجزرية المترامية قريبة من تركيب الامبراطورية البريطانية المفتتة المشتتة عبر البحار

كذلك لا بد أن يسترعى انتباهنا فى توسع الولايات المتحدة سواء فى بيتها القارى أو فى مستعمرتها البحرية ظاهرة فريدة قل أن نجد لها مثيلا فى الدول والقوى الاخرى . تلك أعنى ظاهرة « الشراء والاستئجار » الاقليمى . فجزء كبير جدا من رقعة الولايات المتحدة اكتسب بالشراء او بالاستئجار ـ شراء الاسكا والوشيان، لويزيانا ، جاسدن ، جزر فيرجن ، واستئجار جوانتانامو، وجزر نيكاراجوا فى الكاريبى ، وحديثا استئجار قواعد عديدة فى الاطلسى . ولعل هذه الظاهرة الغريبة مرتبطة بطبيعة العالم الجديد كجبهة ريادة سياسية ضخمة وكاقليم جيوبولتيكى جديد يعمر ويستقر دوليا لاول مرة

اذا كانت هذه هى السرعة المذهلة التى تم بها توسع الولايات المتحدة الكاسح أرضيا واقليميا ، فان نموها المادى والاقتصادى لم يأت باقل سرعة أو اندفاعا . فقد بدأت باقتصاد زراعى واسع ، وبمجتمع ريفى بحت مخلخل ، وظلت طوال القرن التاسع عشر دولة زراعية أساسا تصدر الخامات وتستورد المصنوعات من العالم القديم ، حقل اوربا باختصار ، وتمثل حضارة ريفية غير مدنية . ولكن فى النصف الثانى من القرن كانت

الصناعة والمدنية تثور التركيب الاقتصادى والحضارى(١)

حتى اذا ما كان القرن العشرون نجدنا بازاء أعظم واغنى دولة صناعية واضخم قوة حضارية حديثة . وهى فى الوقت الحالى تقود العالم بسهولة فى كل مجالات الانتاج وتحتكر الاولوية والصدارة فى أغلب قطاعاته ، كما وصلت أخيرا الى علامة المائتى مليون فى السكان ، وبذلك تكون قد تضاعفت ، فى ١٧٠ سنة منذ ثمانينات القرن الثامن عشر ، أكثر من ٤٠ مرة (٢)

والولايات بحكم رقعتها وامتداداتها تمتاز بالتنوع الثرى والفنى فى أقاليمها الجغرافية الطبيعية ومن ثم الاقتصادية الانتاجية ، فتكاد تبلغ حد الكفاية الذاتية فى أغلب جوانب الانتاج الا أقلها ٠٠ المدارى فى الزراعة، والبترول فى المعادن . ومع ذلك فالكاريبى يعوضها فى الناحيتين الى حد أو آخر . وكنتيجة لهذه الكفاية الذاتية كثيرا ما نجدها فى عديد من خطوط الانتاج أعظم منتج ، ولكنها ايضا أعظم مستهلك ، ومن ثم فنسبة تجارتها الخارجية محدودة بالقياس الى انتاجها . ومن المدهش أن نعلم أن حجم تجارتها الداخلية يعادل حجم مجموع التجارة الخارجية للعالم اجمع ثلاث مرات ونصف المرة ! (٣) ومع ذلك فتلك النسبة من التجارة الخارجية كفيلة وحدها بأن تجعلها مع كثير من الدول أعظم مصدر عالمى أو مستورد !

والضوابط الكامنة خلف هذه الانقلابات الجذرية فى

---

(١) A.P. Brigham, The United States of America, L.U.P., 1927.

(٢) كول ٠ ص ٢٦٠

(٣) E.G. Bowen, «The Geog. of Nations», Geog., Jan, 1963, p. 10.

قوة الولايات المتحدة واضحة بما فيه الكفاية . فهي اولا قد بدات حضاريا من حيث انتهت أوربا ، اى انها اخذت عنها نقاط قوتها وتخلصت من مواطن ضعفها . وفى بيئة بكر ، كان هذا جديرا بأن يغل قمة الحضارة الحديثة

وثانيا، ولدت الولايات الحديثة فى ظل الانقلاب الصناعى، فهى لم تعرف عصرا اقطاعيا بمعوقاته واثقاله الاجتماعية والاقتصادية ووقر التقاليد وعدم المرونة الطبقية ، بل تحررت من ثقل الماضى كله واستبدلت بالاقطاع والعبودية الريادة «والفردية العارمة rugged individualism» والليبرالية باختصار ولدت وفى فمها ملعقة بورجوازية كما عبر البعض

ثالثا ، وأخيرا ، ليست الولايات دولة بالمعنى الاوربى ، بل هى دولة قارة تفوق أوربا مساحة وموارد وان لم يكن سكانا . ومحصلة هذا جميعا ان أمريكا بدات ابنة اوربا ، بدات وهى اوربا الصغرى Little Europe فاذا بها تنتهى اليوم الى ان تتفوق على امها قامة وقوة وتطورا ، وان تتحول فى الواقع الى اوربا الكبرى Greater Europe

وفى ضوء هـــذا الكيان العملاق كان لابد أن تتحول الولايات الى قطب غلاب من الاشعاع السياسى والنفوذ الاقتصادى ، يرسم حوله دائرة كهربية عظمى تدور فى فلكها كثير من الدول وتقع فى مجالها المغنطيسى جيوبولتيكيا واقتصاديا . وفى اطار التركيب « الجيوديزى » للقارات لم يكن مفر من ان يكون العالم الجديد هو ذلك المجال . فمنذ وقت مبكر تجد الولايات نفسها كتلة عملاقة وسط مجموعة من الدول الاقزام او الصغيرة ــ كجليفر فى بلاد الاقزام سياسيا ، أو كسمكة القرش وسط السردين كما قيل . فهى تمثل خير تمثيل تطـــرف « الانحـــدار الجيوبولتيكى » فى العالم الجديد

خذ مثلا جارتيها الشـــمالية والجنوبية : اما دولة صغيرة او متخلفة ، لا تزيد اى منهما فى حقيقتها عن أن تكون دولة حدية حاجزة أو خطوط دفاع أمامية يمكن أن تكون بمثابة ماصة للصدمات shock-absorber وعمقا استراتيجيا فى الحروب ومجالات نفوذ فى السـلم . ولذا فان الحـدود معهمـا حدود غير مخفورة «Our unguarded frontier» ــ مثل نادر ! ــ والحواجز الجمركية عبرها أقل ما يمكن

وليست كندا الا امتدادا شماليا شريحيا بحتا للولايات سواء جغرافيا أو بشريا . وهى اذا كانت تعانى من الصراع بين القصور التاريخى والجاذبية الجغرافية ، فيشـدها التاريخ الى بريطانيا وتشدها الجغرافيا الى الولايات ، فان المستقبل للجغرافيا . وكندا تنزلق بالتدريج الى فلك الولايات . وأما المكسيك فبعد علاقات متوترة فى القرن التاسع عشر أصبحت اليوم ــ اقتصاديا ــ كوكبا يدور بهدوء واستكانة فى فلك الشمس الامريكية

تبقى أمريكا اللاتينية التى فتتت ذريا فى أمريكا الوسطى ومزقتها الجغرافيا المعقدة والتاريخ الاسبانى ــ البرتغالى المزدوج فى أمريكا الجنوبية على محور طولى بعكس أمريكا الشمالية التى قسمت عرضيا . هنا ــ سياسـيا ــ الامبراطورية الامريكية بحق وان يكن دون الاسم ، وهنا ــ اقتصاديا ــ المجـال الحيوى للولايات ولو رفض التشبيه !

فمنذ أوائل القرن التاسع عشر حين اعلن مبدأ مونرو فى ١٨٢٣ ليستبعد دول أوربا او العالم القديم من التدخل فى شئون العالم الجديد ، كان هذا بمثابة اعلان بأن هذا الاخير هو منطقة نفوذ الولايات المتحدة . وحين قامت دول امريكا اللاتينية بالثورة وحرب الاستقلال ــ على

غرار النمط والمثل الذى قدمته الولايات نفسها من قبل ـ وارادت القوى الاوربية الاستعمارية ان تجتمع فى « حلف مقدس » لتعيدها الى حظيرتها ، أصدرت الولايات المبدأ وأعلنت أنها ستمنع المحاولة بالقوة

ومنذ ذلك الحين انفصلت اللاتينية سياسيا عن الدائرة الكهربية للعالم القديم لتكون مع الولايات دائرة أخرى جديدة ، أو بالأحرى لتقع فى دائرة الولايات . استبدال لوصاية الأم بوصاية الأخت الكبرى ! ومنذ ذلك الحين تراوح مبدأ مونرو ـ تطبيقا ـ بين سياسة « العصا الفليظة » وحسن الجوار » . ولطالما تدخلت الولايات عسكريا فى كل هذه الوحدات بصورة لا تختلف عما تفعل الدول الاستعمارية التقليدية فى مستعمراتها . ولم تكد تفلت وحدة فى امريكا اللاتينية من هذا التدخل سواء ديبلوماسيا أو عسكريا عدة مرات على الاقل

ولقد شددت الولايات قبضتها على اللاتينية منذ وبفضل قناة بنما ، وأصبحت الاستثمارات والاحتكارات الامريكية فى دولها هى ـ دون ارقام ـ اساس اقتصادياتها المتخلفة ، وابتلعتها منطقة الدولار ، وانتزعتها بذلك من احتكارات الراسمالية البريطانية التى كانت تلعب الدور الاقتصادى الرئيسى فيها خلال القرن التاسع عشر . ومنذ ذلك الوقت ودور اللاتينية دور مزرعة أو منجم للولايات بمثل ما ان الولايات مصنع لها ، نفس العلاقة ـ يعنى ـ بين اوربا مثلا وبين افريقيا

وفى الوقت الحالى لا تزيد اللاتينية ـ موضوعيا ـ عن أن تكون تذييلا أو ذنبا اقتصاديا للولايات (١) تؤلف

---

(١) هويتلزى . ص ٨٣

ما وصف جديا بامبراطورية الدولار ، وتهكما باستعمار الكوكاكولا Coca-Colonisation (١) ، وما تسميه أمريكا اللاتينية بامبريالية اليانكى Yanqui Imperialismo اما الوضع السياسى فلعله ليس افضل بكثير ، لاسيما فى ظل منظمة اتحاد الدول الامريكية Pan-American Assoc

وان من الكتاب والعلماء الامريكيين انفسهم من يعترف صراحة بأن دول أمريكا اللاتينية عامة ، والكاريبى خاصة ، مستعمرات اقتصادية امريكيه وان كانت مستقلة سياسيا . بل هناك منهم من يذهب الى أن تبعية دول الكاريبى بالذات ، والقائمة بصفة فعلية وان لم يكن بصفة اسمية ، انما هى حتم جغرافى لا مفر منه ، بحسبانها اقزاما تعتمد اعتمادا مطلقا على العملاق المتاخم ، وان الاستقلال لا يمكن أن يزيد يوما عن خرافة قانونية بحتة (٢) !

ولهذا فلعلنا لا نبالغ أو نتطرف اذا شخصنا علاقة التبعية الاقتصادية والارتباط السياسى بين أمريكا اللاتينية والولايات المتحدة بانها نوع مبكر وخاص من « الاستعمار الاقتصادى » أو « الاستعمار الجديد » بمعناه الحديث . ومن هنا فالاستعمار الجديد ليس جديدا تماما كما قد نتصور ، فالنسخة الامريكية منه قد لا تقل اليوم عن القرن سنا . واذا كانت الولايات لا تعترف ولا تسمح دستوريا بامتلاك « مستعمرات » ، فقد نكون أقرب الى الحقيقة اذا قلنا انها فى اللاتينية تمارس الامبريالية دون الاستعمار

تلك فى خطوطها العريضة صورة الولايات المتحدة

---

(١) L. Dudley Stamp. Applied Geog., Pelican, 1960, p. 188.

(٢) هويتلزى . ص ٤٧٩ ـ ٥٨٤

كفوة عالمية حين خرجت من عزلتها لتظهر على مسرح العالم القديم فى العقود الاولى من القرن العشرين ، لتبدأ فى الحقيقة ما يمكن ان يعد فى تاريخها مرحلة توسع رابعة ، وان تكن سياسيا لا اقليميا ، وامبرياليا وليس كاستعمار بالمعنى الفنى

اليابان (١)

« بريطانيا الشرق الاقصى » هى ، وفى أكثر من معنى ذلك . فهى مثلها أكبر ارخبيل جزرى على رصيف قارة لا يفصله عنها الا مضيق ضيق ، وهى مثلها لا تزيد كثيرا عن المائة الف ميل مربع (١٤٣ الفا) . واذا كانت اليابان تترامى عبر قطاع اكثر امتدادا من بريطانيا واكثر قربا من المدار ، فهما تشتركان جزئيا فى بعض خطوط العرض . وكل منهما بيئة جزرية بحرية مشالية كاملة يفتحها تيار دافىء وتحيط بها الاسماك من كل الجهات . ولان القاعدة الارضية الزراعية فى اليابان اشد ضآلة منها فى بريطانيا ، بينما أن المد السكانى فيها أشد علوا ، فهى تلفظ أبناءها الى البحر بدرجة ملحوظة

كذلك فان كلا منهما تلقى تعميره وحضارته أصلا من القارة ، ثم عرف فترة من السيطرة على اجزاء من القارة . فقد غزت اليابان كوريا فى القرن السادس عشر بمثل ما ملك الانجليز غرب فرنسا فى العصور الوسطى . ثم دخلت كل منهما فترة عزلة ، ففى مقابل « العزلة الرائعة » التى عرفتها بريطانيا حينا ، فرض الاقطاع اليابانى الحاكم على اليابان « فترة العزلة

---

(١) الجيوبولتيكا . جـ ٢ ص ٩ ـ ٨٠ ، كريسى : ص ١٦٦ ـ ١٧٩

«Seclusion Period» الشهيرة التى ـ حماية لنفسه ـ حرم فيها على اليابانيين الاتصال بالعالم الخارجى لنحو قرنين تسبق بداية عصرها الحديث

اكثر من هذا ، كان الذى كسر هذه العزلة وتلك عامل لا يخلو من تشابه : غزو الارمادا هناك ، واقتحـــــام الكومودور بيرى هنا • بل اكثر من هذا أيضا ، اذا كانت كشوف اسبانيا للعالم الجديد هى التى أعطت بريطانيا موقعها الجغرافى البؤرى الجديد ، فان ظهور أمريكا على الجانب الاخر من الهادى هو الذى اعطى اليابان موقعها الحاسم الجديد بعد أن كانت مثلها من قبل فى نهـــاية العالم وعلى هامش المعمور . وفضلا عن هذا فقد وفر الموقع الجزرى الحماية الطبيعية لكل منهما . فكما لم يستطع احد أن يغزو بريطانيا منذ الغزو النورماندى لم يطأ أحد ارض اليابان منذ محاولة المغول الفاشـــــلة بقيادة كوبلاى خان فى القرن الثالث عشر الا فى الحرب العالمية الاخيرة

لا ، ولا ينتهى التناظر عند هذا الحد . فكما كانت بريطانيا أسبق دول أوربا الى التصنيع وأولاها تمدينا ، فكذلك كانت اليابان اولى دول آسيا الى الاخذ الكامل بالحضارة الحديثة والصناعة المتطورة وبالتالى أدوات القوة الجديدة • وبدأ هذا بعد أن فتح بيرى موانيها للغـــرب فى ١٨٥٣ م وسرعان ما دخلت عصر الانقلاب الصناعى ، ربما قبل بعض دول من أوربا نفسها . وفى هذا المعنى صح أن يقال أن اليابان هى اكثر آسيا أوربية بمثل ما أن الروسيا اكثر اوربا اسيوية

كذلك تشترك اليابان مع بريطانيا فى أن كلا منهمـــا بصورة عامة اكثف او من اكثف وحدات قارته سكانا ، الا أن اليابان الان ضعف بريطانيا سكانا . وليس غريبا

بعد ذلك ان كلا منهما يعتمد فى ا[illegible] الجديد اعتمادا كليا على الاستيراد والتصدير ، ا[illegible] الخام الزراعى والمعدني على السواء ، وتصدير الصناعات بكل مراحلها وانواعها . ومن ثم فكل منهما أبعد ما يكون عن الكفاية الذاتية ، ويتوقف مصيره على التجارة عبر البحار . بل ان هـذا لأوضح فى اليابان منه فى بريطانيا ، لان الاولى افقر كثيرا فى مواردها الزراعية وكثيرا جدا فى مواردها المعدنية خاصة الفحم والحديد

ومن الطبيعي بعد ذلك جميعا أن تخرج اليابان كقوة بحرية مثالية كاملة الى الاستعمار ، وأن تتطلع فى وقت ما الى السيادة العالمية او شبه العالمية . وفى هذا تقف اليابان كالقوة الاسيوية الوحيدة التى – دعك من ان تخضع للاستعمار الاوربى – مارست الاستعمار على قدم المساواة معه ، بل وستهزمه أكثر من مرة لحين أو لآخر ، وبهذا كانت أول قوة غير أوربية تهزم قوى اوربية فى التاريخ الحديث هزيمة حقيقية

ولكن اليابان تختلف بعد هذا عن نظيرتها فى نواح عدة . فاليابان ، لأمر ما ، لم تعرف الهجرة بالجملة الى ما وراء البحار ، ولذلك سيظل كل استعمارها محصورا فى دائرة – على سعتها الهائلة – محلية أساسا لا تخرج عن حوض الهادى الغربى ، بعكس الاستعمار البريطانى الذى لف الكرة الارضية لفا . وربما كان جزءا من السبب فى هذا ان اليابان خرجت الى الاستعمار بعد ان كانت أوسع ابوابه قد اغلقت ولم يبق الا فتات المائدة

واخيرا فان التوسع الاستعمارى اليابانى ظل منذ بدايته موزعا بين هدفين اساسيين يتجاذبانه فيما بينهما من وقت لاخر ولكنه جمع بينهما فى النهاية : الاول هو التوسع على القارة ، اى توسع برى . والثانى

هو التوسع فى المحيط ، أى توسع بحرى . وهذا على عكس بريطانيا التى كان جوهر استراتيجيتها السياسية العزلة عن القارة وعدم التدخل أو التورط فى صراعاتها . وقد كان على اليابان ان تصطدم فى توسعها هذا المزدوج مع عدد من القوى برا وبحرا

فعلى البر كان الصدام لا مفر منه مع الصين والروسيا، ولهذا لم يكن غريبا ان تعرف منطقة الالتحام بينهمـــا وبينها فى كوريا الشمالية ومنشــوريا بحلبة صراع العالم Cockpit of the World أو أن توصف بانها مهد الصراع Cradle of Conflict (١) ، فى حين تعدها اليابان بمثابة بلجيكا وهولندة بالنسبة لبريطانيا ، أى بمثابة مسدس مصوب اليها . وسنذكر هنا ـ بين قوسين ـ أن هــذا هو نفس تشبيه بريطانيا للاراضى المنخفضـــة . وكما عملت هذه على ضمان حيادها وتجميدها ســـتعمل اليابان على تحييد او تجميد كوريا ومنشـــوريا أولا ثم ابتلاعهما بعد ذلك

أما فى البحر فكان الصـــدام أساسا وبالضرورة مع بريطانيا والولايات المتحدة . فالحوض الجنوبى الشرقى من الهادى منطقة نفوذ بريطانية تضم مستعمراتها في الاوقيانوسية واستراليشيا والبحار الجنوبية وجنوب شرق آسيا ، ومفتاحها الاستراتيجى فى سنغافورة . أما شرق الهادى فهو نطاق الامان للولايات المتحدة وقد جعلت منه بفضل مثلثها الاستراتيجى بنما ـ الاسكا ـ هواى بحيرة امريكية الى حد بعيد ، كما كانت الفلبين وبعض جزر الاوقيانوسية بمثابة مواقع امريكية متقدمة تهدد اليابان البحرية كما تهددها هذه . وبالفعل ســـيكون مسرح

---

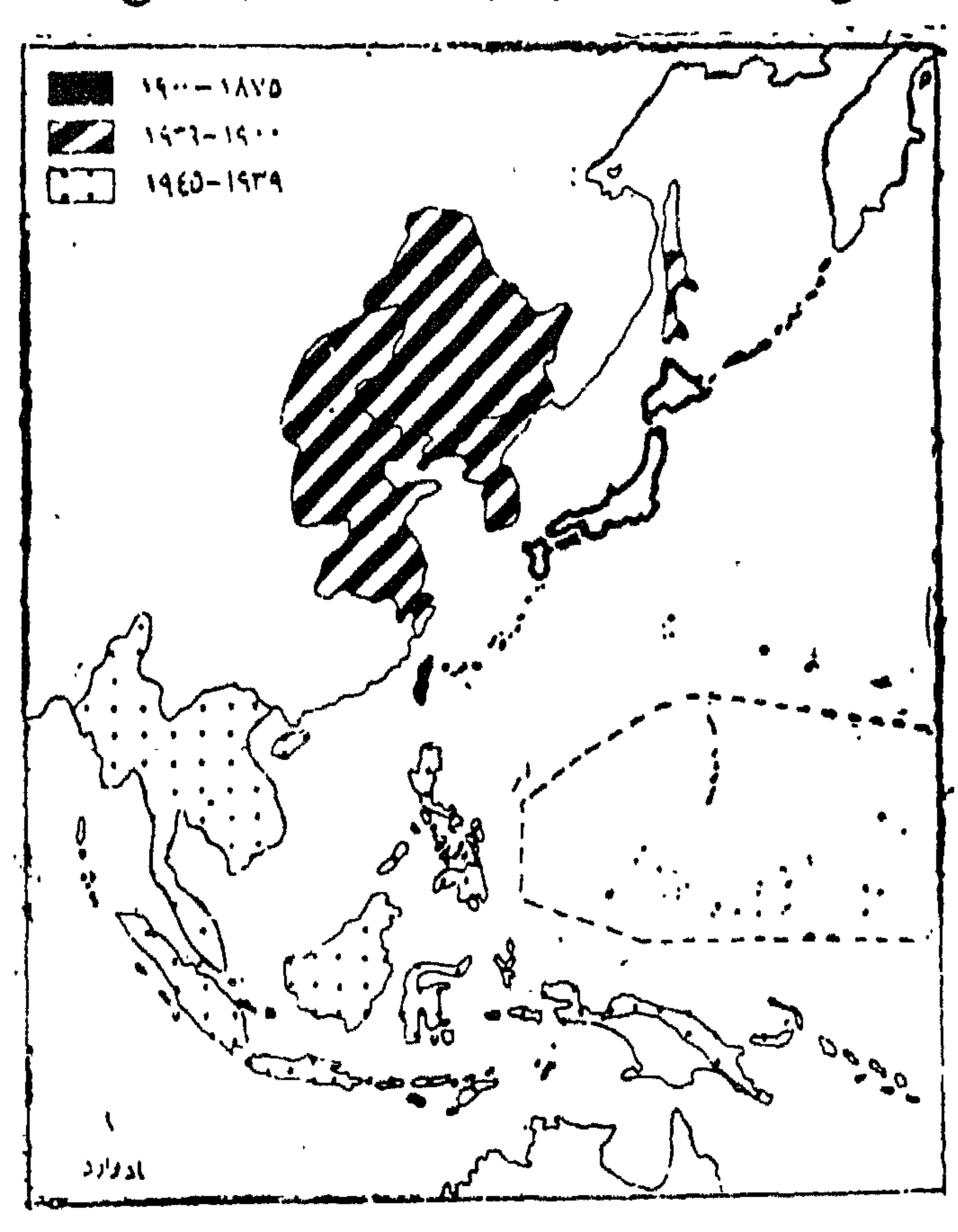
(١) H. Weigert, V. Stefansson, R. Harrison New Compass of the World. N.Y., 1949.

الصراع اليابانى فى الحرب العالمية الثانية هو هـــــذه الجبهة الشاسعة ابتداء من كوريا حتى الاوقيانوسية ، وستكون المعركة برية فى الشمال وبحرية بصورة مطلقة فى الجنوب

السؤال الان : كيف توسعت اليابان ؟ اذا اعتبرنا ان اليابان الاصلية هى الجزر الاربع ، فان التوسع لم يبدأ الا فى الربع الاخير من القرن التاسع عشر بعد أن بدأ تحول اليابان الى دولة صناعية حديثة ، ولو أن قليلا من التوسع المحلى المحدود على أطراف هذا الوطن الاب حدث قبل ذلك . ويمكن ان نميز ثلاث مراحل للتوسع: المرحلة القوسية فى القرن التاسع عشر ، والمرحلة القارية ـ الجزرية مع بداية القرن العشرين حتى الحرب الثانية، والمرحلة شبه الجزرية ـ المحيطية فى أثناء الحرب الثانية . ويمكن بصفة عامة ان نعد المرحلتين الاوليين من استعمار المتدلات ، والثالثة من الاستعمار المدارى ، وبذلك تتكرر هنا الثنائية الاساسية التى رأيناها فى زحف الاستعمار البحرى الاوربى أو الروسى القيصرى

فالمرحلة الاولى ١٨٧٥ ــ ١٩٠٠ ارتبطت بقـــوس الجزر « الفستونية » الممتد ما بين كمتشكا وفورموزا . فقد بدأت اليـــابان بضم جزر كوريل (تشيشيما) بالاتفاق مع الروسيا فى ١٨٧٥ . وبعدها مباشرة استكملوا ضم جزر ريوكيو ، وهو الذى كانوا قد بدأوه فى مطلع القرن السابع عشر . وفى العقد الاخير من القرن التاسع عشر دخلت اليابان مع الصـــين فى حرب ١٨٩٥ التى انتهت بان انتزعت لنفســها فورموزا وجزر بسكادور ، وكادت أن تنتزع لياو تونج لولا تدخل القوى الغربية فى صف الصين ، كما فرضت عليها استقلال كوريا تمهيدا لضمها لنفسها فيما بعد

اما المرحلة الثانية ١٩٠٠ ــ ١٩٣٩ فقد كان مسرحها ارض القارة بصفة اساسية والجزر بصفة ثانوية . فقد بدأت بالحرب اليابانية الروسية ١٩٠٥ ، وهى التى نشبت منعا لتوغل الروسيا فى منشوريا ونحو الهادى حيث كانت قد توغلت فى لياو تونج ، ذلك المجال الذى كانت تطمع اليابان فيه من قبل فى اثناء حربها مع الصين .



شكل (٢٠) توسع الامبراطورية اليابانية

بمعنى اخر نشبت الحرب تطويقا لسياسة الروسيا من الوصول الى البحار فى هذا الجانب ، وكانت بذلك صراعا مباشرا بين قوة بحر وقوة بر

وفى هذه الحرب التى كانت اول مرة تهزم فيها قوة اوربية امام قوة غير أوربية فى القرون الاربعة الاخيرة ؛ استولت اليابان على النصف الجنوبى من سخالين (كارافوتو) وبعض موانى ومصالح فى لياوتونج ، وفرضت على الروسيا تحييد منشوريا ، أيضا تمهيدا لضمها فيما بعد . وفى ١٩١٠ لم تلبث اليابان أن ضمت كوريا الى امبراطوريتها

حتى اذا كانت الحرب الاولى ووقفت اليابان الى جانب الحلفاء ، انتهزت فرصة سقوط الروسيا وقيام الثورة الشيوعية فيها لتعود الى تطويقها وعزلها عن البحر ، فشاركت بالقسط الاكبر فى حملة سيبيريا حتى بيكال واحتلت شمال سخالين ، الا انها عادت فأجبرت على الانسحاب هنا وهناك . على انها فى الصلح نالت من المانيا كياتشاو ميناءها فى لياوتونج ، وأوشكت أن ترث نفوذها فى شانتونج اولا ضغط الحلفاء . ولكن كانت جزر الهادى الالمانية هى الجائزة الحقيقية التى فازت بها اليابان ـ كانتداب ـ فى هذه الحرب : مجموعات ماريانا ، كارولين ، مارشال ، وهى تترامى شرقا بغرب على مدى ٢٥٠٠ ميل وعلى نصف ذلك شمالا بجنوب ، وتمثل استراتيجيا مواقع بحرية امامية للقفز والسيطرة المحيطية

وفى الفترة ما بين الحربين كانت بؤرة الاطماع اليابانية مركزة على القارة ابتداء من منشوريا حتى شمال الصين . وحاولت التوغل بنفوذها فيهما ، حتى اذا كانت « حادثة موكدن » غزت منشوريا واقامت فيها حكومة

منشوكو الصنيعة التابعة . وكانت منشوريا بذلك اكبر توسع برى لليابان حتى ذلك الوقت ، وقدمت مجـــالا للاستعمار الاقتصادى ولكن ليس للاستعمار السكنى . ومن منشوريا بدأ الاحتكاك مع الصين وبدأت حرب ممطوطة متقطعة ستستمر حتى بداية الحرب الثانية

هذه هى الحرب التى تمثل الحرب الجالسة Sitzkrieg خير تمثيل ، والتي كانت همـزة الوصـل بين المرحلتين التوسعيتين الثانية والثالثة . وحتى بدايه الحرب الثانية كانت اليابان قد استولت فيها على نحو الثلث الشمالى من الصين جميعا بما فى ذلك الجزء الاكبر من ساحلها . ولعلنا نذكر أنه منذ القرن الماضي وسياسة الباب المفتوح ، والدول الغربية تقف فى وجه أطماع اليابان الخاصة فى الصين وتقف الى جانب هذه منعا لتغلغل اليـــابان . ويمكن أن يشبه هذا الوضع بوقوف دول الغرب البحرية الى جانب تركيا العثمانية فى وجه أخطار التوسع الروسى من قبل . واستمرارا لنفس السياسة وقفت القوى الغربية مع الصين ضد الزحف اليابانى فى الثلاثينات وســـاعدت حـكومة الصين الحرة فى الجنوب لتكون نواة المقاومة حتى قيـام الحرب العالمية الثانية

مع هذه الحرب تبدأ المرحلة الثالثة والاخيرة فى توسع اليابان ، وهي المرحلة شبه الجزرية والمحيطية ، وفيهـا خرجت بلاد الشمس المشرقة فى محاولة عظمى لتجـــد لنفسها مكانا تحت الشمس . وقبل هذه الحرب كانت جيوبولتيكية اليابان تدور حول طرد الاستعمار الاوربى من اسيا تحت شعار « اسيا للاسيويين » ، ولكن ذلك كان أســاسا لكى ترثه هى فيها . فدعت لهذا الى مبدأ « مونرو لليابان » لا يستبعد النفوذ الاجنبى فى شرق آسيا الا لتنفرد هى بها ، واصبحت تتطلع الى شرق آســـيا

كمجال النفوذ والمجال الحيوى الطبيعي ، وتبلورت هذه الجيوبولتيكية فى الصيغة المشهورة « نطاق شرق آسيا الاكبر للرخاء المشترك

Greater East Asia Co-Prosperity Sphere

غير أن ابعاد هذا النطاق كانت غامضة مطاطة ، يمكن أن تتمدد حتى تصل حدودها الى الهند واستراليا وكل جزر غرب الهادى ، وأن تستوعب كل ما داخلها • والمهم على وجه التحقيق أن اليابان كانت تتطلع الى امبراطورية مدارية مترامية تكمل اقتصادياتها شبه المعتدلة شأنها فى ذلك شأن الاستعمار الاوربى المدارى • وقد أصبح هذا التوسع جزءا من سياسة اوسع هى سياسة تقسيم العالم الى مناطق نفوذ كبرى بالاشتراك مع المحور

وقد دخلت هذه الاستراتيجية مجال التطبيق حين دخلت اليابان الحرب مع المحور ضد الحلفاء • وبحكم موقعها الجزرى كانت فى وضع يسمح لها بان تضرب فى كل اتجاه • ولكن السهم المحورى انطلق جنوبا • فبدات باكتساح شبه جزيرة الهند الصينية ، بما فيها بورما والملايو ، اكتساحا خاطفا يقدر فى بعض وحداتها بالساعات (تايلاند ٥ ساعات !) • وبهذا أصبحت الهند مهددة مباشرة ، بينما تحولت حكومة الصين الجنوبية على ضخامة نطاقها الى اسفين محصور فى بحر السيطرة اليابانية

كذلك لم تصمد هولنده فى جزر الهند الشرقية الا خمسة أيام بعدها انهار الاستعمار الصغير العتيق ! ثم قفزت اليابان الى جزر الفلبين فالجزر المحيطية فى البحار الجنوبية جميعا حتى مشارف استراليا • وبذلك اصبح غرب الهادى برمته بحيرة يابانية فى أقل من شهور • ومن الواضح أن الصراع بين اليابان والحلفاء فى هذه الحرب

كان صراع قوى بحر مطلقة ، أى صراع أشباه بحرية اساسا

وفى أوجه فى ١٩٤٢ ، امتد التوسع اليابانى نحو ٥٠٠٠ ميل طولا وعرضا ، ابتداء من جزر الوشيان الى جزر سولمون ، ومن جزر ويك الى بورما وغطى نحو ٣٫٢٥٠٫٠٠٠ من الاميال المربعة تضم حوالى ٣٠٠ مليون نسمة · ولم يحدث قط أن توسعت قوة أخرى فى مثل هذه الرقعة فى مثل هذه السرعة فى مثل هذه السهولة كما يقول كريسى

فلقد كان الزمن مؤقتا فى صف اليابان ، واضاف اليها التوسع عنصر الدفاع بالعمق على القارة وفى المحيط · أما اقتصاديا فقد منحتها الامبراطورية ثروة ضخمة من الموارد الاستراتيجية الحيوية ، وفى وقت ما كانت اليابان تقريبا أدنى الى الكفاية الذاتية من الولايات المتحدة ··

ولكن بنفس السرعة التى قامت بها الامبراطورية سقطت وانهارت · ولم تكن المقاومة من الاهالى الوطنيين الذين ، باستثناء تايلاند التى أفقدها الغزو اليابانى استقلالها لاول مرة فى التاريخ ، كانوا جميعا يخضعون للاستعمار الاوربى أو الامريكى · بل ان الاستعمار اليابانى « منح » كل هذه الوحدات استقلالها ، ولعب بهذا ان عفوا أو عمدا دورا خطيرا فى حركة التحرير فيما بعد

وانما جاءت المقاومة من القوى الاستعمارية القديمة ، وفى عكس اتجاه التوسع ، أى من الجنوب والجنوب الشرقى محيطيا والجنوب الغربى قاريا · وفى هذه المرة لم يعد الوقت فى صف اليابان ، ولم تستطع أن تبيع المكان لتشترى الزمان · فبدأ التراجع باطراد شمالا الى اليابان الاصلية حتى سقطت بدورها بعد أن عجلت القنبلة الذرية بالنهاية ، وبذلك انهارت الامبراطورية فى بضع سنين

واذا كانت الامبراطورية اليابانية هي أسرع الامبراطوريات قياما وسقوطا ، فانها تمثل النقيض للامبراطورية البريطانية التي ربما كانت أبطأها نشأة وانهيارا . أو كما عبر البعض ، كان الاستعمار الياباني مرضا حادا حيث كان الاستعمار البريطاني مرضا مزمنا . واليوم وقد فقدت اليابان جميع مستعمراتها وفتوحاتها ولم يعد لها الا جزرها الاربع الام ، فانها تعود الى النقطة التي بدأت منها منذ نحو قرن تقريبا في ١٨٧٠ !

لقد عادت سفينة « الداي نيبون » على أعقابها بعد رحلة دموية عاصفة طولها قرن وعرضها قارة الى مينائها الذي بدأت منه . وأسوأ منه ، عادت لتجد نفسها محتلة وتابعة لغريمتها في الهادي الولايات المتحدة ، وقد ضاع أملها الى الابد في السيادة العالمية ، بل حتى في الصدارة الاسيوية ذاتها مع ظهور الصين

ولقد بدأنا فقلنا ان اليابان هي بريطانيا الشرق الاقصى جغرافيا ، ولكن يمكننا الان أن نختتم بأنها لعبت في اسيا دور المانيا في أوربا استراتيجيا . فهي مثلها دخلت التصنيع وخرجت الى العالم في السبعينات الماضية ، وهي مثلها انحرفت في اتجاهات عسكرية فاشستية أو شبه فاشستية ولم تخل من أوهام العنصرية وتفوق الجنس ، وكل منهما وضع لقارته « نظاما جديدا » أداته اليونكرز هنا والساموراي هناك ، وليس صدفة تحالفهما معا بعد ذلك ، ولكنها أساسا توسعت مثلها توسعا كاسحا رهيبا ، وبقدر ما كان تألقها كان خبوها ، هذه كتلك

الفصل التاسع

امتداد صراع القوى

المانيا

لم تحقق المانيا وحدتها القومية الا فى مرحلة متأخرة للغاية هى السبعينات الماضية ، ولهذا كانت آخر القوى العظمى التى ظهرت على المسرح الاوربى والعالمى • ولقد تأخرت تلك الوحدة لاسباب تاريخية معقدة غذتها من خلف أسباب جغرافية لا تقل تعقيدا • فبحكم موقعها المتوسط فى وسط أوربا تلقت تأثيرات عديدة وأحيانا متعارضة ، أو على الاقل شكلت أجزاءها المختلفة بطوابع وتوجيهات مختلفة • وأكد اللاندسكيب الطبيعى الذى تقطعه الجبال والهضاب والغابات والمستنقعات الى وحدات وأحواض وجيوب منفصلة لا تخلو من عزلة ، أكد تلك الطوابع المحلية المختلفة

ولعل أبسط مظاهر هذه الفروق أن الشمال السهلى ارتبط بالبروتستانتية ، بينما ظل الجنوب الهضبى كاثوليكيا ، مما عمق الصراعات الدينية • والسهل الشمالى نفسه كجزء من «الممر القارى الاوربى العظيم Durchgangsland» أصبح دهليزا تكتسحه الموجات البشرية من هجرات وغزوات جيئة وذهابا ، ذات اليمين وذات الشمال • ومرة اخرى لعل ابسط مظاهر هذه الحركة البندولية ذلك المد

والجزر التاريخى بين السلاف فى الشرق والتيوتون فى الغرب والذى وصل بالسلاف حتى منطقة برلين وبالتيوتون حتى ضفاف الفولجا • وقد كانت النتيجة تداخلا شنيعا فى التوزيعات الاثنولوجية ظهر فى شكل أقليات عديدة فى التخـــوم والاطراف تنتشر كالجزر فى كل شرق أوربا ، ووضع أساس الصراع التاريخى الرهيب بين عالم السلاف وعالم الجرمان ، وهو الصراع الذى سيلعب دورا خطيرا فى استراتيجية ألمانيا بعد الوحدة الحديثة (١)

وكنتيجة لهـــذا جميعا فقد ظلت ألمانيـــا بلا قلب وبلا حدود : بلا قلب لانهـــا لم تعرف عاصمة بؤرية غلابة ، بل هاجرت فيها العواصم عبر التاريخ على طول الحدود عامة من الغرب الى الشرق • وبلا حـــدود لان الانسياح والتميع البشرى جعل تخومها مختلطة السكان غير واضحة المعالم . ومثل هذا انما هو نمط مضـــاد للوحدة . والواقع ان ألمانيا فى هذا الصدد كانت فى وضع أسوأ من ايطاليا التى وصفت بانها لم تكن الا تعبـــيرا جغرافيا . فاذا كانت ايطاليا بلا قلب سياسى واضح ، فقد كان لها على الأقل حـــدود جغرافية حاســـمة أما ألمانيا فلم تكن تعبيرا سياسيا ولا جغرافيا

فى هذا الاطار ورثت ألمانيا الامبراطورية الرومانيـــة المقدسة الصورية منذ أنشأها شارلمان حتى حطمهـــا نابليون . وقد قلنا صورية لانها لم تكن أكثر من تجمع متميع شكلى مفكك من مئات من الوحدات الســـياسية المنفصلة التى تتراوح بين وحدات ميكروسكوبية ووحدات أقلبمية ضخمة : دول مدن قزمية ، مقاطعات اقطاعية ، أحلاف تجارية ، أسقفيات كنسية ، ممالك أسرية •• الخ •

---

(١) فيرجريف • ص ٢٠٠ ـ ٢٢٤

وقـــد ثبتت الصراعات والـــوراثات الاسرية بوجـــه خاص هذا النمط الفسيفسائي الحفرى . وحتى نهاية القرن الثامن عشر كان عدد الوحدات السياسية الالمانية يزيد عن الثلاثمائة . واذا كان هذا النسيج المهلهل قـــد إختزل فى أوائل القرن التاسع عشر الى نحـــو العشر (٣٩ وحدة) ، فقد ظل أبعد شيء عن الوحدة

غير أنه حدث أن أستطاعت بروسيا ، من نواة أولية فى براندنبرج وبعد تاريخ خطر من التمدد والانكماش ، أن تتوسع منذ القرن السابع عشر حتى أصبحت أقوى وأضخم وحدة فى إلمانيا ، وهذا رغم أنها تعد أصـــلا من أراضى التخوم الشرقية الفقيرة جغرافيا **marks** والتي لم تدخل المحيط الالمانى وفلك الحضارة الا متاخـــرة تاريخيا . فبدات تجمع المانيا فى أتحـــاد جمـــركى ـــ الزولفرين ـــ يزيل الحوائط « الصينية » والحواجـــز الاقتصادية غير المعقولة التى تفتتها . وكان الـــزولفرين بهذا خطوة حقيقية نحو الوحدة السياسية التى ستأتى ضد رغبة وفى وجه مقاومة ومناورات كل الدول الاوربية الكبرى القائمة (١)

فمن البداية كانت طفرة بروسيا بســـــمارك نحو الزعامة تحديا للنمسا ذات التاريخ العريق ، فكان صدام الاقدار بينهما الذى انتهى بهزيمة النمســـا . ومن ثم انفتح الطريق الى الوحدة الالمانية التى بدأت باتحـــاد فيدرالى للشمال اتسع بعدها ليشمل الجنوب ولكن بغير النمسا . كذلك ظلت كتل ووحدات المانية كثيرة خارج دولة الوحدة ، لانها تبلورت من قبل على تنظيم سياسى منفصل بحكم ظروفها الجغرافية أو التاريخيةمثل أجزاء من سويسرة والاراضى المنخفضـــة وســـيكون لهـــذه

(١) جوردون ايست . ص ٢٦١ وما بعدها ، ٤٢٧

« الاقليات » وغيرها خارج الرايخ دورها الخطـــير فى تحديد دور المانيا الاستراتيجى فيما بعد

وقد اتفق نمو الوحدة الالمانية مع عـدة تطـورات تكنولوجية ساعدت على ميلادها من ناحية وعلى تدعيمها بعده من ناحية اخرى . اولها دخول السكك الحديدية التى جمعت ما قد فرقت الجغرافيا والتاريخ . والحقيقة أنه كان على وحدة المانيا أن تنتظر قدوم السكك الحديدية، وهى لذلك والى حد بعيد نتج لها ، وبفضـلها ولدت المانيا من مقياس ضخم نسبيا . وهى التى أعطتها قلبا جغرافيا وعقدية اصطناعية مكتسبة . اما العامل الثانى فهو الانقلاب الصناعى الذى وصلها وقد بلغ حدا كبيرا من التطور ، ولذلك ولدت المانيا من البداية وهى « دولة تكنولوجية » بكل معنى الكلمة ـ دولة الكولتور Kultur وسيصبح هذا ملمحا أساسيا فى كيانها ومن اخطـر مواطن القوة فى تركيبها (١)

والمحصلة العامة ان المانيا ولدت عملاقا يتمتع بقاعدة ارضية ضخمة لا تقل كثيرا عن فرنسا وتكاد تعـادل ضعف بريطانيا بينما تزيد عن اكثرهما سكانا . قاعدة تجمع بين الانتاج الزراعى الكثيف والانتاج الصـناعي الثقيل الذى يعتمد على ثروة معدنية منـوعة ضخمة على اى مقياس ، وتكاد تكون اقرب بالقوة واذا لزم الأمر الى الكفاية الذاتية Autarky من فرنسا واقرب بالتاكيد من بريطانيا . قاعدة تحتل موقعا يتوسط قلب القارة ويتاخم عددا كبيرا من دولها ، وفى نفس الوقت يملك جبهة ساحلية كافية على البحر . ومعنى ذلك انهـا بموقعها وطبيعتها دولة امفيبية تجمع بين قوة البر وقوة

---

(١) فتزجرالد . ص ٩٥ ـ ١٠٩

البحر ، وبمواردها ومقوماتها يمكن ان تتطلع الى الصدارة فى القارة

لم يكن مفر لهذا من ان تصطدم الدولة الجديدة بالقوى الكبرى القائمة . فمنذ اللحظة الأولى كان عليها أن تواجه فرنسا المتاخمة ، الا أن هذه كانت بريطانيا قد حطمت قوتها من قبل فى صراعها من اجل السيادة العالمية وما ظهرت المانيا كقوة الا انتهازا لهذه الفرصة التى لولاها لما سمحت فرنسا لها بذلك بالتأكيد . ولهذا لم يكن من الصعب على المانيا ان تجهز نهائيا على فرنسا فى الحرب السبعينية لتزيحها من صراع القمة

وكما كان على فرنسا فى أثناء صراعها مع بريطانيا أن تواجه أيضا قوة برية على القارة فى الشرق هى النمسا ، فكذلك كان على المانيا أن تواجه أيضا قوة برية اضخم بكثير هى الروسيا . ورغم أن الروسيا كانت مركز الثقل السياسى فى شرق أوربا حينئذ ، واضخم دول القارة مساحة وسكانا ، وتمثل زعيمة السلاف ، فقد كانت متخلفة حضاريا وماديا ، وتشكل بذلك تحديا اقل من التحدى الفرنسي . ولهذا لم يلبث مركز الثقل فى شرق القارة أن انتقل من الروسيا الى المانيا ، من سان بطرسبرج الى برلين . بل ان من المثير أن المانيا بديناميتها وحضارتها واندفاعتها الشابة استطاعت أن تتغلغل بنفوذها فى الروسيا القيصرية دولة وشعبا . ولعل فى الشكل الألمانى لاسم العاصمة الروسية وحده رمزا بليغا لهذا النفوذ (١)

ويجدر بنا هنا أن نلاحظ أن افتتاح الزحف الالمانى من اجل القوة العالمية بالصدام مع اكبر دولتين على القارة

(١) Mackinder, Democratic Ideals, p. 105.

بالذات ، وهما فرنسا والروسيا اللتان تحصران المانيا من شمال ويمين ، انما يرجع الى ويؤكد ان مجـــال حركة المانيا كان مرتبطا دائما وأساسا بصلب القارة اكثر منـه بما وراء البحار . ومما له مغزاه في هذا الصدد أنه أصبح من سياسة المانيا التقليدية أن تشجع هاتين الدولتين على المغـامرات الاستعمارية خارج القارة لتبعـد انظـارهما ولتبعدهما عن القارة نفسها بقدر الامكان لتخلو لها هذه، مجالها الطبيعي الوحيد . فعلى سبيل المثال ، كانت هى سياسة بسمارك الواعية العامدة التى وجهت فرنسـا الى تونس بعد حربهما السبعينيـة ، وكانت هى المانيا التى حثت الروسيا وشجعتها على حربها اليابانية فى بداية هذا القرن

هذا على القارة . غير انه كان على المانيـا من الناحية الاخرى أن تواجه بريطانيا مباشرة ليبدأ صراع جبـابرة يكرر نفس القصة التى رايناها مرارا من قبل فى غرب أوربا منذ البرتغال حتى بريطانيـا : قوة أكثر بحرية (بريطانيا) تحطم قوة أكثر قارية (فرنسا) ، فترثهـا قوة أكثر واكثر قارية (المانيا) ، ليبدأ الصراع بين الأولى والأخيرة . . وهكذا سـنجد ان الربع الأخير من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين هو عصر الصراع بين بريطانيا والمانيا

وكما كان كل صراع من الصراعات السابقة ينقلنـا باستمرار الى أبعاد ومستويات أضخم واخطر ، فسنجدنا الآن على أبواب صراع عالمى يلخصه ببلاغة تسميتنا للحرب الكبرى الأولى والثانية بالحرب العالمية . فقد كان هذا أول صراع للقوى العالمية فى ظل العصر الصناعى بكل فنـونه التكنولوجية والعسكرية ، واول صراع بين قوى رأسمالية مكتملة وسافرة

وقد خرجت المانيا من وحدتها لتجد نفسها حبيسة بحر الشمال الذى تغلقه بريطانيا تماما بموقعها وبقوتها البحرية ، وسجينة وسط أوربا بما يطوقها من دول من كل ناحية . انها فى معنى كالروسيا : رهين المحبسين . فأخذت لذلك تنمي ــ تحت عسكرية اليونكرز ــ قوة برية ضخمة جنبا الى جنب مع اسطول بحرى خطر كانت الفواصة فيه بالذات رمزا لمحاولة الافلات من انغلاقها البحرى ، ونكاد نقول نتيجة جغرافية لموقعها وبيئتها . ولو ان المانيا ولدت وقد ضمت المناطق الجرمانية الساحلية فى الاراضى المنخفضة فى دلتا الراين سواء فى هولندة او بلجيكا ، لجاء خطرها البحرى ودورها الاستراتيجي مختلفا جدا بالتاكيد

ولهذا فقد كانت بريطانيا ــ مقتبسة نابليون ــ تعد هذه الاراضى المنخفضة ــ شكلا وموضوعا ــ بمثابة مسدس موجه اليها ، بل لقد ذهبت احيانا الى حد اعتبار الراين « حدودها » الاستراتيجية (١) ! وكان رد فعلها المباشر هو التحالف الدائم مع هولندة وبلجيكا وضمان حيادهما دوليا ووحدة اراضيهما الاقليمية فى وجه هذا الخطر . والواقع ان موقع هاتين الدولتين ــ الصغيرتين ــ داخل مثلث القوى الكبرى بريطانيا وفرنسا والمانيا هو الذى حيدهما ووضعهما فى نقطة الخمود السياسي والعسكرى فى أوربا

ومع ذلك فقد استطاعت المانيا ان تخرج الى المحيط باسطول حربى وتجارى انتشر حول العالم بحثا عن أسواق التجارة وعن ميادين الاستعمار . غير انها مالبثت ان وجدت الأسواق ــ كل الاسواق ــ احتكارات بريطانية باسم حرية التجارة والافضليات الامبراطورية ، ومن ثم

(١) Reader Bullard, Britain & the Middle East. p. 169.

رفعت سلاح التعريفة الجمركية ومبدأ الحماية لتبدأ الحرب الاقتصادية

وبالمثل وجدت ميدان الاستعمار وقد أغلق أو كاد ولم يبق على مائدته الا الفتات . وبالكاد ، وبصراع استعمارى حاد ، استطاعت أن تنتزع بعض المستعمرات فى أفريقيا وبعض جزر الهادى : فنالت فى « التكالب » مستعمرات اربعا ، وفى الهادى حصلت على ارخبيلها الجزرى بالحرب والشراء ، وتمكنت من ان تجد لنفسها موطىء قدم على ساحل منشوريا فى كياتشاو . وتلك فى مجموعهـــا امبراطورية استعمارية من درجة متواضعة للغاية

من هنا بحثت المانيا عن التعويض فى التوسع البرى على القارة ، وذلك بالتوغل الاقتصادى والنفوذ السياسى فى دول شرق أوربا المتخلفة المفككة والتى تتناثر فى تضاعيفها غالبا اقليات المانية هامة ، ولكن هدفها الأســـاسى كان امبراطورية النمسا ـ المجر واكثر منهـــا الامبراطورية العثمانية العجوز . ورسمت بذلك محورا يندفع من قلب القارة ليصل الى الشرق الاوســط . ذلك كان مشروع الاتجاه نحو الشرق الشهير Drang nach Osten ، الذى اتخذ بخاصة من مشاريع السكك الحديدية عمودا فقريا يرتكز اليه . ولعل مشروع خط برلين ـ بغـــداد (أو همبورج ـ الكويت) هو أهم تلك المشاريع

وفى رأى البعض ان الهدف الأخير للاتجاه نحو الشرق هو ان تصل المانيا بين نفوذها فى الشرق الأوســط وبين وجودها فى الشرق الأقصى حتى كياتشاو . ولكن كان معنى المشروع أن تعود مرة أخرى فتصطدم ببريطانيا ـ ومعها فرنسا ـ التى كان لها النفوذ الأكبر فى العثمانية . اخطر من ذلك كان معناه ان تصل المانيا الى الخليج العربى لتضرب بريطانيا فى العراق على طريق الهند مثلما حاولت

فرنسا من قبل فى مصر . ولقد تعاظم النفوذ الألمانى الاقتصادى والسياسى بالفعل فى الدولة العثمانية وانتزعت من الامتيازات والمصالح ما عمق أبعاد الصراع بين القوتين الاوربيتين بل وحتم الصدام بينهما

واذا نحن نظرنا الى الصراع الاستعمارى بينهما عبر البحار جنبا الى جنب مع الصراع الاقتصادى فى الشرق ، فيمكن — مع ماكيندر — أن نلخص الموقف جميعا فى أن « البريطانيين والالمان اخذوا مقاعد فى قطارات سريعة على نفس الخط ، ولكن فى اتجاهين مضادين . ولعله لم يكن مفر من التصادم منذ حوالى ١٩٠٨ . وقد يمكن أن نحدد الفارق بين المسئولية البريطانية والالمانية كالآتى : السائق البريطانى بدأ أولا ، وسار بلا اكتراث ، مهملا الاشارات ، بينما أن السائق الألمانى قوى عن عمد قطاره وحصنه حتى يتحمل الصدمة ، ثم وضعه على الخط الخطأ ، وفى آخر لحظة فتح صمامات بخاره » (١) . لقد أصل بسمارك سياسة الدم والحديد داخل حدود المانيا من اجل الوحدة ، ولكن القيصر بعده نقلها الى خارج الحدود من أجل التوسع

وفى هذا الصدام الرهيب لعبت حقيقة جغرافية معينة دورا استراتيجيا حاسما وفاصلا . ان المانيا التى يقع جزء منها فى شرق أوربا وجزء فى غربها ، والتى تضع قدما على البر وقدما فى البحر ، هى اساسا منطقة بينية تنحصر بين قوى البر الكبرى فى شرق القارة وقوى البحر الكبرى فى غربها . انها اليوم « التمساح » الأكبر بين فيل الشرق وحيتان الغرب ! ومن هذه الحقيقة نبعت كل المواقف والتجمعات والتشكيلات السياسية والاستراتيجية فى الحرب العظمى الأولى

---

(١) Democratic Ideals, p. 110 1.

فمنذ ما قبل الحرب الأولى كانت فرنسا قد تحالفت مع الروسيا ، وفى الحرب نفسها لم تجد بريطانيا صعوبة فى حشد كل دول غرب أوربا البحرية ابتداء من ايطاليا حتى هولندة ضد المانيا ، ثم فى استكمال الكماشة من الشرق بجذب الروسيا الى المعركة . وتفسير ذلك ان دول غرب أوربا البحرية قد شعرت بسرعة بوحدة مصالحها الكامنة ، حتى – على سبيل المثال – لقد أدركت بريطانيا بالندم والأسف خطأها حين تركت فرنسا بلا مساعدة ضد المانيا فى الحرب السبعينية . وبالمثل أدركت الروسيا والغرب وحدة مصالحهما المباشرة أو المؤقتة ضد القوة البينية ، فما قامت الحرب مباشرة الا لثورة السلاف على قهر الجرمان فى امبراطورية النمسا – المجر

اما فى الجانب الاخر ، فقد كانت استراتيجية المانيا هى – كما لو بالغريزة – تجميع قوى المنطقة البينية فى شرق أوربا ووسطها : النمسا – المجر ،بعض دول البلقان ثم الدولة العثمانية · وكلمة «دول الوسط «Central Powers التى أطلقت عليها تعبير جغرافى واستراتيجى دقيق بالفعل فى هذا الصدد · ومن ثم يبدو النمط الجغرافى للصراع واضحا كل الوضوح وبسيطا الى حد مثير : لقد اجتمعت قوى البر الضخمة فى الشرق مع قوى البحر السائدة فى الغرب لتهصر ، بين شقى رحى ، المنطقة البينية المحصورة بينهما

بهذا حاربت المانيا فى جبهتين ، وحققت فى البداية انتصارات داوية فيهما ، الى أن انهارت القوة الشرقية الروسيا وخرجت من المعركة وقد خسرت فى برست ليتوفسك كل مكاسبها الاقليمية فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر وهى دويلات البلطيق وفنلندة وشرق بولندة . فاصبح الصراع حينئذ بين القوى البينية والقوى

طاقة الشمس كانت بمثابة تغيير بالقوة فى خطوط عرض الاقليم ذاته كما قد نقول ، وما نظن فى هذا كثيرا من المبـــالغة ، ولا نعنى به بالتـــــأكيد أن نقلل من وزن الايديولوجية لحساب التكنولوجيا ، وحسبنا أنه هـــو لينين نفسه الذى قال منذ البداية ان « الشيوعية هى كهربة الاتحاد »

والواقع ان تاخر وصول الاتحاد الى الصدارة العالمية حتى آخر مرحلة من التاريخ الحـــــديث ، فى حين ان الروسيا دولة قديمة نسبيا من الناحية البشرية ، انمـا يعنى انها كان لا بد أن تنتظر وصول التكنولوجيا ووسائل قهر المناخ البارد الى ذروتها القصوى . والامر كله يؤكد ما رايناه من قبل من تحرك مركز ثقل الحضارة والقـــوة عبر التاريخ من البلاد الدافئة الى الباردة باطراد متصل بدرجة أو بأخرى

تلك بعض من جوانب التشابه فى بداية وصعود كل من الاتحاد والولايات كقوى عظمى . وعدا هذا ، وبعد هذا ، فهما وحدهما اللذان يشتركان فى ثلاث خصائص هى الاساس الشرطى لمقـــومات القوة فى العصر الحـديث : المساحة الضخمة المتصلة ، حجم السكان الكبير ، الموارد الطبيعية الهائلة (١)

فاما المساحة الضخمة ، فكلاهما اشباه قارات جبارة على اى تقدير . الاتحاد خرج من الثورة وهو اكبر دولة داخلية عرفها التاريخ على الأرجح ، وانتهى وهـــو يحتل سدس مساحة اليابس ويربو على ضـــعف مســاحة اى دولـــة أخرى او علـــى اى دولتين أخـــريين فى العالم . والولايات وان كانت أقل كثيرا من نصف الاتحاد مساحة . فهى تظل الخامسة بين دول العالم فى هذا الصدد

(١) Bowen, op. cit., p. 9.

اما سكانا ، فكلاهما يدور الآن حول علامة المائتى مليون ـ الاتحاد يتعداها بوضوح (٢٣٠) والولايات تقع اليوم عليها بالضبط (٢٠٠) . ولكل منهما نواة عمـــرانية وحضارية واضحة تعد مركز الثقل والقوة الحقيقيـــة فيه ، هي الربع الشمالى الشرقى فى الولايات ، والقطاع الجنوبى مما غرب الاورال فى الاتحاد . وقد تكون نـواة الاتحاد أكبر قليلا من نواة الولايات ، كما أنها اكثرتجانسا فى كثافتها وأقل تركيزا

ولكل منهما بعد هذا درقة ضخمة كالشرنقة السميكة من الاراضى خفيفة الاستثمار والتعمير تغلف النـــواة وتمنحها عمقا استراتيجيا ودرعا دفاعيا فى الشـــمال وعلى أحد الجانبين . ولعل الخلفية القطبيـــة ودون القطبية التى تدعم نواة الولايات والتى تشمل كندا اعمق وأوسع قليلا منها فى حالة الاتحاد . وقد يكون من الاصح أن نقارن الاتحاد مساحة وتركيبا وربما سكانا لا بالولايات المتحدة وحدها وانما بها وبكندا معاً (١)

والقوتان بعد هذا تتشابهان فى أن ترامى رقعتهمـــا عبر خطوط العرض والطول منح كلا منهما غنى وتنـوعا فى الاقاليم الطبيعية والنباتية ، وثراء وتعددا فى الانتاج الزراعي والمعدني ، اقترب بهما من الكفاية الذاتيـــة والاستقلال الاقتصادى الى حد بعيد ، وبالتالى جعـــل تجارتهما الخارجية تمثل نسبة ضئيلة من مجمـــوع انتاجهما الضخم

كذلك فان السكان فى كل منهما عصبـــة امم كاملة : الولايات بوتقة اختلطت فيها كل أجناس العالم ولكن اساسا كل قوميات أوربا بعد أن تخلت جميعا عن أصولها طواعية وطمعا ، والاتحاد مجتمع متعدد العناصر متعدد القوميات

---

(١) Fawcett, Geog. & Emipre, pp. 429-30.

ولكنه يؤلف بينها فى تماسك نادر وبنجاح ملحوظ بفضل سياسته الثورية فى تنمية القوميات والحضارات المحلية والمحافظة عليها بدلا من كبتها او تنميطها ، وذلك فى اطار الاستقلال الذاتى والحكم المحلى . على ان هناك عنصرا معينا يسيطر عدديا وحضاريا فى الحالين : الانجليز فى الولايات والروس فى الاتحاد . وكل منهما لهذا وذاك دولة اتحادية لا وحدوية ، وان كان حق الخروج من الاتحاد ممنوعا فى الولايات المتحدة ، وغير واضح تماما فى الاتحاد السوفييتى (١)

وعدا هذا فان القوتين تتشابهان فى انهما كانتا فى عزلة طويلة اختيارية أو جبرية ، ثم خرجتا فجاة الى العالم الخارجى . فالولايات فى ظل مبدا منرو نات بنفسها عن عمد وبمحض ارادتها عن التورط فى مشاكل العالم القديم ، ولم تشارك فيها الا راغمة حين بدت اخطاره تهددها فى الحرب الاولى . وبعدها عادت على أعقابها لتنعطف على نفسها فى عزلتها الاثيرة ، الى أن فرضت عليها الحرب الثانية أن تخرج منها . ومهما يكن ، فانها فى الحالين لم تدخل الحرب الا متاخرة سنة أو سنتين نتيجة لترددها وتأرجحها بين العزلة والخروج

أما الاتحاد فطالما ضربت أوربا حوله « نطاقا صحيا » أيام القيصرية فعاشت فى شبه عزلة ، حتى اذا كانت الثورة وجدت نفسها مطوقة بل مغزية بجيوش أوربا واليابان فى « حرب التدخل » : جيوش رانجل فى القرم ، جيش كولشاك فى سيبريا ، جيش بولندة فى أوكرانيا ، جيش رومانيا ، جيش بريطانيا فى اركانجل ، وجيش اليابان فى شرق سيبريا ، بل لقد وصلت الاخيرة الى بحيرة بيكال !(١)

(١) East, New Europe. p. 180-1; Cole. pp. 235 ff.
(٢) ايست . ص ١٦٤

كل اولئك لواد الثورة في مهدها .وكل أولئك دون جدوى،
الا أن الاتحاد بعد ذلك فرضت عليه العزلة المطلقة ،وتجنبه
العالم الخارجي كما يتجنب المجذوم ! وكان « الستار
الحديدى » حقيقة واقعة لا منذ الحرب حين صك الاسم
ولكن منذ ثورة اكتوبر

واخيرا فان كلا منهما بلا تاريخ استعمارى قوى او محدد
شكليا على الاقل ، او هو بحكم التوسع الارضى المتصل
قد لا يعد استعمارا الا فى معنى خاص ومن نوع خاص.
وعلى أية حال ، فكل منهما ادعى المثالية السياسية فى
البداية وتبنى مثلا عليا ضد ـ استعمارية ولم يسع الى
الاستعمار السياسى السافر ، بل ولا يعترف او يسمح
لنفسه به نظريا . وربما كان ذلك لانهما خرجتا الى العالم
الخارجى وقد اغلق باب الاستعمار عبر البحار تقريبا

ومع ذلك فان كلا منهما يتهم الاخر بممارسة الاستعمار
بطريقة او باخرى . فالاتحاد السوفييتى بعد الثورة ورث
امبراطورية القياصرة كما هى ولم يتخل عن الاقاليم التى
عدت استعمارا كوسط آسيا ، بل اكثر من هذا ضم فيما
بعد مزيدا من الاراضي . اما الولايات فقد ضمت عديدا من
الجزر فى الهادى والكاريبى بالغزو حينا والشراء حينا آخر.
واذا كان الاتحاد يتهم الولايات فى هذا بالاستعمار
الاستراتيجى كما يدمغها بالاستعمار الاقتصادى فى العالم
الخارجى كبديل عن الاستعمار السياسى المباشر ، فان
الولايات ترد له الاتهام «بالاستعمار المذهبى» اوالايديولوجى
الذى يختفى من السطح ليعمل تحتيا هدما وتخريبا

وقد خرجت الولايات والاتحاد من الحرب الاخيرة
وهما أقوى قوتين على ظهر الارض ، لا ثالثة لهما . فحتى
الامبراطورية البريطانية فى مجموعها لم تكن لتقارن فى قوتها
باى منهما ، فضلا عن تباعد وانتشار أعضائها ولائم تفككها

واستقلال أغلبها بعد ذلك ثانيا . فكان هذا التكافؤ او التقارب فى القوة مما اذكى الصراع وحدة التناقض بينهما كفرسي رهان

وفى مقابل هذه المشابهات ، بقيت الفروق والاختلافات الايديولوجية والاستراتيجية محورا عميقا للصراع والتناقض . فقد اتى الاتحاد بفلسفة شيوعية شمولية ، ضد راسمالية ، ضد طبقية ، ضد قومية ، وضد عنصرية مبشرا بها كدين جديد يريد ان ينشره فى العالم او يفرضه عليه « بالثورة العالمية » بدلا من الاديان المعروفة . ومحور هذه الفلسفة اولا واخيرا هو ديكتاتورية البروليتاريا

وعلى النقيض من هذا وقفت الولايات المتحدة كأعلى واعتى رمز للراسمالية الجامحة ، هرميةالطبقات،تتعصب القومية الذاتية مثلما تمارس التفرقة العنصرية ضد الاجناس الاخرى فيها · وفي مقابل الايديولوجية التى تقدم بها الاتحاد السوفييتى الى العالم كنقطة قوته ودعوة حياته شرعت الولايات المتحدة التكنولوجيا كنقطة تفوق نظامها ، وقدمت فلسفة مضادة ترى تطور التاريخ والمجتمع فىمراحل التكنولوجيا لا فى مراحل الصراع الطبقى ، وتكاد تعتقد على أية حال ان هذا العصر هو فى النهاية عصر الصراع بين الايديولوجية والتكنولوجيا ، بين الثورة الاجتماعية والثورة التكنولوجية · أقطاب متنافرة ، وتناقض حياة أو موت ، ومن ثم أقدار متصادمة ·· وهكذا بالفعل كان · اعتبرت الولايات ومعها أسلافها وحلفاؤها دول الغرب الصراع ضد الشيوعية حربا صليبية وكفاحا مقدسا ، وخرجت لمحاصرته ومبارزته

واخذ هذا التناقض صورة جغرافية محددة حين اصبح الصراع الاستراتيجى هو بين قوى بر مطلقة وقوى بحر مطلقة يكفى لنرمز للفروق بينهما ان نذكر انالروسيا

او الاتحاد كانت تاريخيا ارض معركه لحروب الكر والفر ، والانسحاب والانقضاض ، بينما ان الولايات المتحدة لم تطأها اقدام الغزاة ولا حتى طائراتهم منذ بداية القرن التاسع عشر (١٨١٢) . وتبلور هذا التضاد الاستراتيجى بعد الحرب حين احتفظ كل منهما بمواقعه ومكاسبه الاقليمية

فالاتحاد من ناحيته ضم منافذ البلطيق وحول دويلاته الى سوفييتات لا تتجزأ منه ، بالاضافة الى قطاع ضخم من شرق بولندة وشريحة من رومانيا . وخارج هذه الحدود الجديدة أصبحت دول شرق اوربا حتى المانيا الشرقية وتشيكوسلوفاكيا والمجر ، مضافا اليها كل البلقان عدا اليونان ، أصبحت جميعا دولا شيوعية ملتحمة اشد الالتحام ، مصيريا وبقائيا ، اقتصاديا وحربيا ، بالاتحاد . أصبحت كتوابع أو اقمار تدور فى فلك شمس الاتحاد . ويلخص هذه الكتلة سياسيا حلف وارسو ، واقتصاديا منظمة الكوميكون

ولقد كان معنى هذا ان قوة البر العظمى المرتكزة على اوسع قاعدة فى أوراسيا قد تضخمت حتى ابتلعت لاول مرة المنطقة البينية او الامفيبية التقليدية التى تقع فى شرق أوربا حتى وسطها ، ووصلت بذلك الى البحار المفتوحة فى البلطيق وبحر الشمال والبحر الاسود ومشارف البحر المتوسط ، ولم تعد بذلك حبيسة قاريتها . لقد اتحد الفيل والتمساح فى حظيرة واحدة

وبالاضافة الى هذا فلم تلبث كتلة الصين الضخمة ، وقد استيقظت من بياتها الشتوى التاريخى وتجدد شبابها بالثورة ، ان انضمت الى المعسكر الشيوعى ، لتؤكد فيه اكثر واكثر صفة القارية والامتداد المتصل بلا انقطاع ابتداء من بحر الشمال حتى المحيط الهادى الجنوبى ، ومن

القطبيات حتى المداريات . وكنتيجة لهذه التوسعات المطردة ارتفعت نسبة الكتلة الشيوعية باطراد : فقبل الحرب كانت تضم نحو ١٠٪ من سكان العالم ، وفى ١٩٥٥ بلغت ٢٦ ٠/٠ من مساحة العالم ، ٣٦ ٠/٠ من سكانه ، وتسيطر على ٣٠ ٠/٠ من انتاجه الصناعى . أى انها بوجه عام تزيد اليوم عن ألف مليون نسمة (١)

ماذا عن الجانب المقابل ؟ هنالك التامت كل أوربا الغربية تحت زعامة ــ ولا نقول وصاية او حماية ــ الولايات فى كتلة مضادة تمتد من أشباه جزر البحر المتوسط حتى اشباه جزر اسكندناوة ، بعمق فى الداخل يصل الى المانيا الغربية ويستوعبها . ومعنى ذلك ان قوى البحر فى أوربا جميعا ، ومن ورائها موارد مستعمراتها عبر البحار ، ومن خلف الجميع قوة البحر الكبرى أمريكا ، قد تجمعت فى حلف مقدس ضد الاتحاد وكتلته

وعلى الفور تبدو المحصلة الاستراتيجية العامة للموقف وقد استقطب العالمان المتنافران « استقطابا ثنائيا «bi-polarisation» فى كتلتين رهيبتين تتقاسمان العالم كمعسكرين مسلحين كالترسانة ، وتقفان وجها لوجه بغير حاجز ارضى أو فاصل اقليمى بينهما . الكتلة الشرقية الشيوعية، والكتلة الغربية الرأسمالية . والنقطة الحيوية انه باختزال المنطقة البينية الفاصلة ، قد تأكد لاول مرة النمط الجيوستراتيجى الجديد للعالم : لقد أصبح العالم سياسيا « نصفى كرة » ، بعد ان ظل قرونا وهو يمثل نظاما واحدا مغلقا يبتلع الكرة الارضية بأسرها . غير اننا لن ننسى فى هذا الانقلاب ان « نصف الكرة» الماركسى ماظهر ولا فرض نفسه الى جوار النصف الراسمالى الا بفضل

---

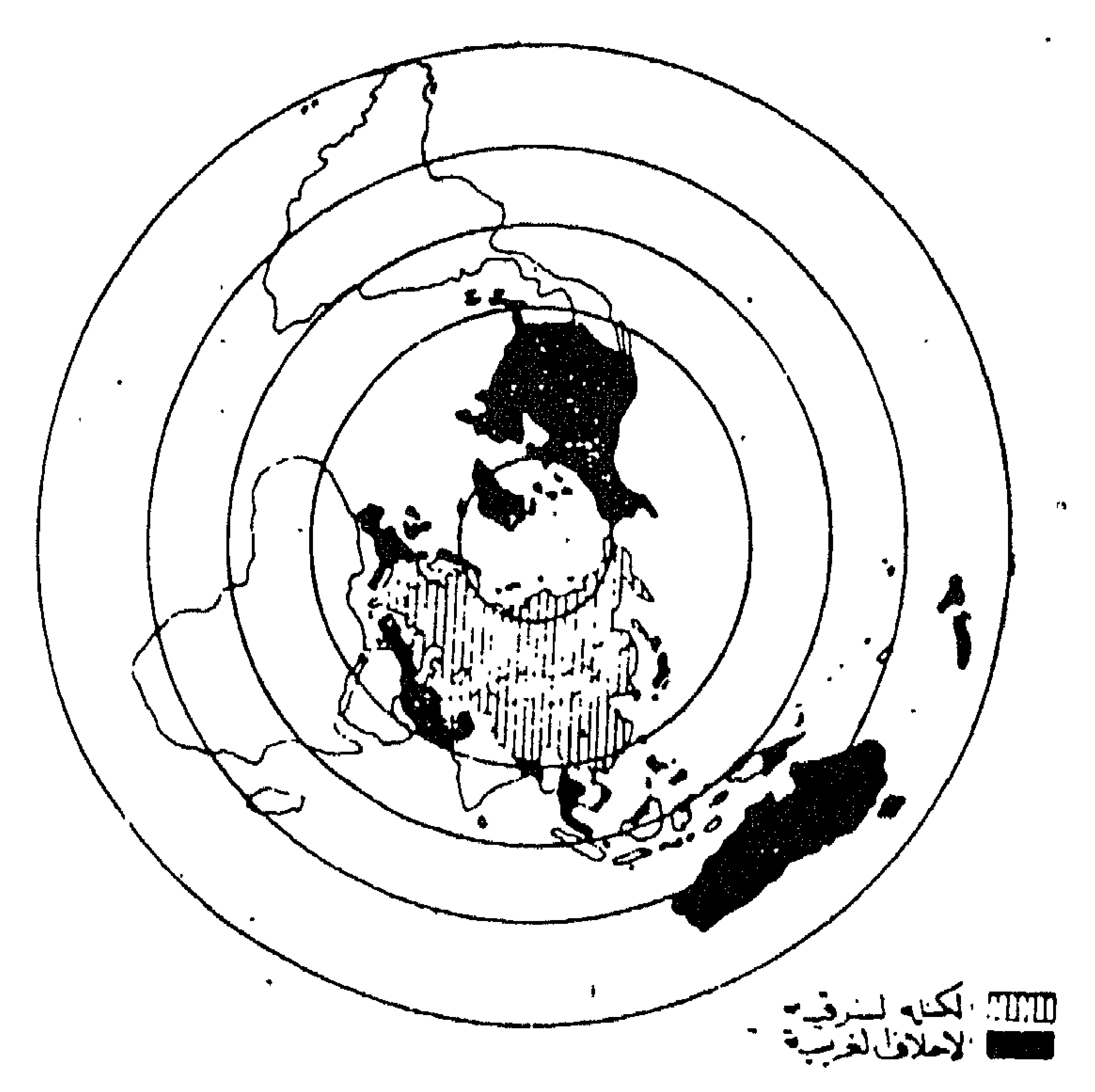
(١) Keith Buchanan, «West Wind, East Wind», Geog. Nov. 1962. p. 334; J.P. Cole, p. 245.

استفادته الى اقصى حد من الصراعات الداخلية والتناقضات الفائرة بين قوى هذا الغرب . وفى النتيجة زال الى الابد احتكار القوة فى يد الغرب الاوربى ، وانتقل العالم لاول مرة فى التاريخ الحديث الى مرحلة ثنائية القوة . وذلك هو المغزى العميق ، والمفعم بالنتائج لاخر تطورات الصراع العالمى

وسيلاحظ فى هذا النمط الثنائى البتار ظاهرة لها مغزاها . فعلى طول جبهة الالتحام بين المعسكرين تنتشر الدول والوحدات الممزقة التى اخضعها الاستقطاب الثنائى لقسمته السليمانية ــ فى الشرق على محور عرضى وفى الغرب على محور طولى . فثمة فى الشرق كوريا الشمالية والجنوبية ، والصين الشعبية والوطنية ، ثم فيتنام الشمالية والجنوبية . وفى الغرب يبدا الانشطار من مستوى الدولة حتى يصل الى مستوى المدينة ،على الترتيب اوربا الشرقية والغربية ، المانيا الشرقية والغربية ، وبرلين الشرقية والغربية !

وعند هذا الحد سيلاحظ ان الكتلة الغربية بفضل مستعمراتها المترامية حول العالم ، كانت عشية الحرب اكبر مساحة وسكانا من الكتلة الشرقية ، واخطر من ذلك انها كانت تطوقها من الغرب والجنوب والشرق ، بل ومن الشمال كذلك حيث تقترب امريكا الشمالية اقترابا شديدا من شمال اوراسيا عبر المحيط المتجمد . وبمعنى اخر فقد كانت الكتلة الشرقية تمثل جزيرة ــ ضخمة حقا ولكن جزيرة فى النهاية ــ فى وسط بحر الكتلة الغربية . ومن هذه الحقيقة الجغرافية نبعت كل استراتيجية الغرب بعد الحرب

الاحتواء containment او الاحاطة encirclement هى جوهر تلك الاستراتيجية ، ومعمارها سلسلة متصلة



شكل (٢٢) الاستقطاب الثنائى ، واستراتيجية الاحاطة والاحتواء .

الحلقات من الاحلاف العسكرية السياسية ، الدفاعية الهجومية ، تتحلق حول الاتحاد وتنقطها نحو ١٠٠ من القواعد الحربية والبحرية والجوية ، أما مهندسها فهو الولايات المتحدة التى تختزن نصف مجموع قواتها المسلحة تقريبا فى تلك القواعد . فهناك من الشمال الغربى حلف الاطلنطى n.a.t.o. ــ وما هــو باسم على مسمى تماما ــ راس السلسلة والركيزة الاساسية التى تترامى من النرويج حتى تركيا بلا انقطاع حول أوربا ــ

ثم يلى حلف بغداد سابقا والحلف المركزى Cento حاليا فى الشرق الاوسط . هذا عدا حلقة اخرى — مفقودة — هى منظمة حلف دفاع الشرق الاوسط Medo حاول الغرب أن يفرضها عبثا على العالم العربى . ثم يأتى فى النهاية حلف جنوب شرق آسيا s.e.a.t.o, وبعده تتكفل قوة الولايات المتحدة نفسها بالضلوع الشرقية للمعسكر الشرقى ، لا سيما بفضل وجودها فى اليابان المحتلة وكوريا الجنوبية وصين فورموزا

لقد ضرب الغرب فى مقابل الستار الحديدى الشيوعى نطاقا ناريا أو حلقة حديدية راسمالية ! وبين هذا وذاك استمرت « الحرب الباردة » واشتعل السلم المسلح ! ولن يخفى أن الكتلة الشرقية فى هذا كانت عشية الحرب. اقرب الى موقف الدفاع بينما ان الكتلة الغربية كانت اقرب الى الروح الهجومية

على انه قد كان من الواضح فى ظل الاستراتيجية التقليدية اى السابقة للذرة ان الفريمين الجبارين اذا أرادا ان يشتبكا فى معركة ، فان ارضها لا يمكن الا أن تكون فى غرب أوربا . لماذا ؟ لان هناك ثلاثة ميادين واتجاهات يواجه فيها كل منهما الاخر مباشرة : الاتجاه القطبى فى الشمال ، ودائرة الهادى على أحد الجانبين ، ونطاق غرب أوربا على الجانب الآخر (١)

فاما الطريق القطبى فصحيح انه لم يعد بحرا جليديا مغلقا تماما بفضل التطورات البحرية الحديثة وخاصة جهود الروس فيها ، وأهم من ذلك أن الطيران قلب قيمته الاستراتيجية كلية فجعله أقصر طريق بين الاتحاد

---

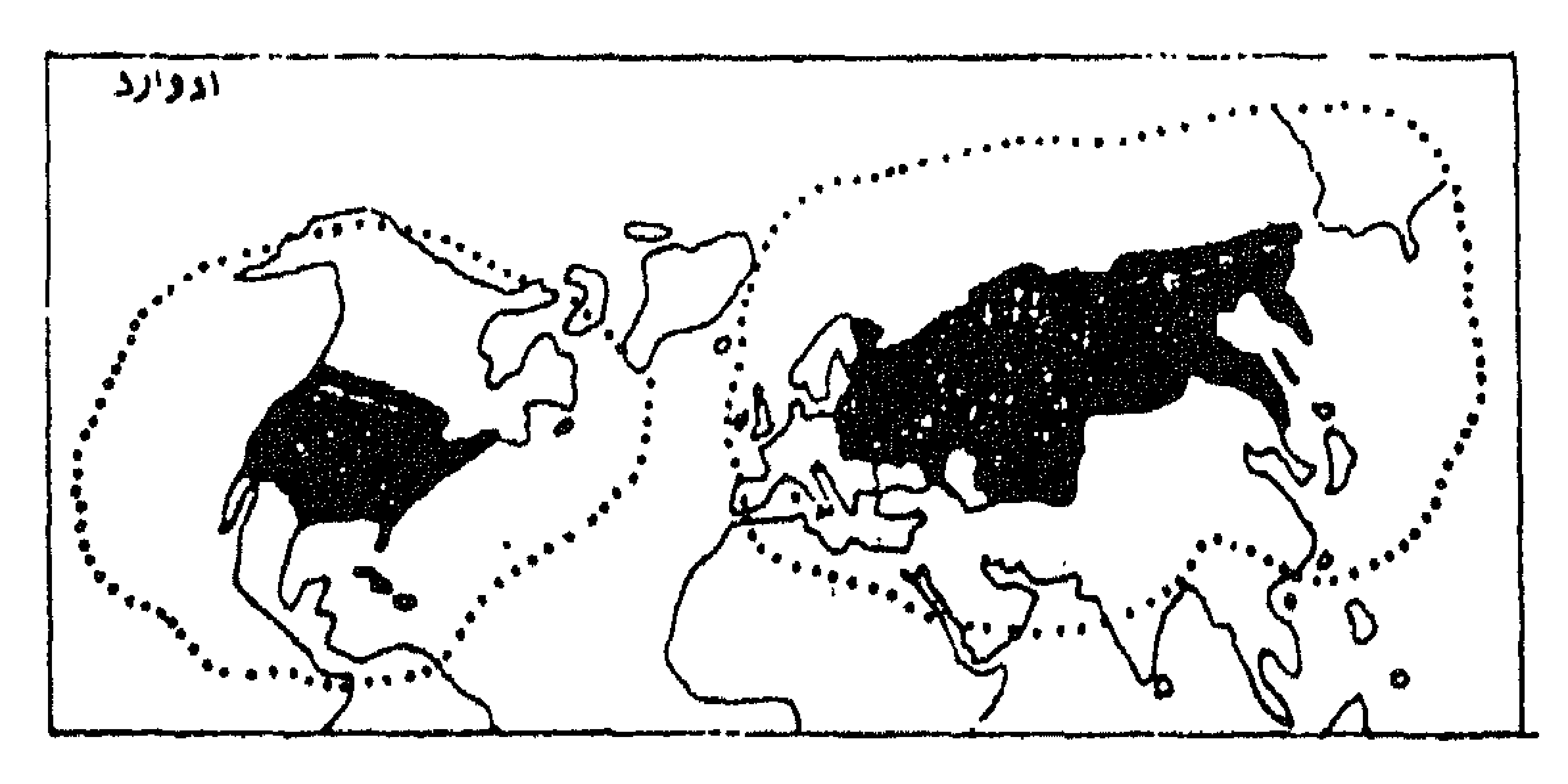
(١) فوست ، ص ٤٣٠

والولايات بل جمله « البحر المتوسط » القطبي الجديد . ولكنه مع ذلك يظل غير صالح الا للغارات الجوية المداهمة وعمليات التدمير الفجائية stunt flights وليس لحركة الجيوش

أما جبهة الهادى ازاء سيبيريا والاسكا ، حيث يكاد يتماس العملاقان ، فطريق برى طويل جدا ومتطوح عن القاعدة البشرية والعمرانية الكبرى فى كل من الاتحـــاد والولايات على حد سواء . ولهذا لا يبقى الا جبهة غرب أوربا التى اصبحت بذلك ارض تخوم بكل معنى الكلمة بين الاتحاد والولايات وخط الدفاع الاول عن الأخيرة ، حتى لقد عدها البعض حينذاك اهم منطقة استراتيجية فى العالم . من هنا تاتى أهمية حلف الاطلنطى الحيــوية والحرجة معا

وهناك بعد هذا بعض فروق جغرافية بين المعســكرين والقطبين تؤثر فى استراتيجية كل منهما . فبين المعسكرين نجد أن المعسكر الشرقى كتلة ارضية واحدة متصـــلة بلا انقطاع ، بينما يتــالف المعسكر الغــربى من جزيرتين كبيرتين هما غرب أوربا وامريكا الشمالية ، يفصل بينهما كالأخدود المحيط الاطلسى . ومع ذلك فلا ينبغى أن ننسى ان المعسكر الشرقى رغم اتصاله الارضى شكلا ، فهـــى ينقسم أيضا الى جزيرتين بشريتين عظيمتين همـــا شرق أوربا والاتحاد فى الغرب ، وكتلة الصين وزوائدها كوريا وفيتنام فى الشرق ، ويفصل بينهمـــا « خط الاستـــواء الصحراوى » الهائل فى العالم القديم ممثلا فى صحـــارى ومرتفعات وسط آسيا وسيبريا

ثم يأتى فارق جغرافى آخر بين القطبين . فبحكم الموقع، يستقر الاتحاد فى نصف الكرة « اليابس » ، بحيث يتصل مع أو يقترب من رقعة كبيرة من مسطح الارض وعدد



شكل (٢٣) خط ابعاد ١٥٠٠ ميل حول
الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة .

وفير من الدول ونسبة هامة من البشرية . وهو لهذا يستطيع ان يضرب وأن يتمدد بسهولة وفاعلية فى مدى نطاق ضخم بمجهود اقل . اما الولايات المتحدة فمعزولة فى نصف الكرة « المائى » عن كتلة اليابس وجمهرة الدول واغلبية سكان العالم ، وعليها لكى تصل اليها أن تنفق مجهودا وتتكلف باهظا للانتقال الى مسرح الصراع . ويتضح هذا اذا نحن رسمنا خطوط أبعاد متساوية isostades حول حدود كل منهما وموازية لها . فمثلا خط ابعاد ١٥٠٠ ميل يضع الاتحاد فى احتكاك أو اتصال بمساحة ضخمة من الأرض والناس ، ولكنه لا يكاد يضيف الى الولايات شيئا من ذلك (١)

تلك اذن استراتيجية الصراع الجديد ، فهل تشكل مع الماضى معادلة ما اختزالية مكثفة ؟

---

(١) جون كول ، ص ٢٧١ ـ ٢٧٢

الفصل العاشر

النظريـة العـامة فى الاسـتراتيـجيـة العالميـة

بمعنى آخر ، انها نظرية عامة فى الاستراتيجية العالمية . تلك التى آن لنا ان ننشدها بعد أن تتبعنا ، فى موضوعية تقريرية بقدر الامكان ، مراحل التاريخ وأدوار الصراع . ولسوف تكون مثل هذه النظرية بطبيعتها ، وبالضرورة ، محاولة شخصية تقديرية أكثر منها موضوعية تقريرية . يجوز ان تكون موضع خلاف أو محل تعديل ، ولكن هذا لن يقلل من خطرها ، لأنها ـ بالاسقاط المستقبلى ـ يمكن دائما أن تخضع للتحقيق والاختبار ، فاذا ما نجحت فيمكن ان تكون بوصلة للمستقبل ومؤشرا للتنبؤ الاستراتيجى . وهى بهذا جديرة بان تكتسب قيمة كبرى فى التطبيق العملى عند الاستراتيجيين والساسة الى جانب قيمتها الاكاديمية للجغرافى والمؤرخ وطالب العلوم السياسية

ونبدأ على الفور فنقول ان الذى قدم مثل هذه النظرية العلوية الطموح هو الجغرافى السياسى الكبير هالفورد ماكيندر ، الذى طالما اعتمدنا فى بحثنا هذا على كثير من الحقائق والتفاصيل التاريخية التى اوردها فى عرض نظريته . وما نعرف محاولة لوضع مثلها قبله الا اقتصرت على جزئيات ضيقة غير مكتملة ، ولا بعده الا وكانت تعديلا له أو تعليقا عليه . فقبله تكلم الجغرافى الألمانى الكبير راتزل فى ١٩٠٠ كثيرا عن قوة البر ازاء قوة البحر ، وسبق

ماكيندر الى التنبؤ بان النصر النهائي سيذهب الى قوة البر بفضل تفوق مواردها (١)

وقبله كذلك تكلم الاميرال ميهان عن قوة البحر ودورها فى التاريخ فى كتابه Influence of Sea Power on History وهو ـ الذى كان يكتب فى عصر سيادة بريطانيا المطلقة على البحار ـ يرى أن الغلبة فى الصراع من اجل السيادة العالمية مقدرة للقوة البحرية بفضل مرونتها وحريتها فى الحركة وامكان اعتمادها على موارد ما وراء البحار . وعلى هذا الأساس دعا بلده الولايات المتحدة الى بناء قوة بحرية ضخمة تتكافأ مع قاعدتها الارضية العظيمة من ناحية ، ومحيطيها الهائلين ، من ناحية اخرى ، وطالب بحفر قناة بنما لتتحول بها من دولة ساحلين الى دولة ساحل واحد ، وحدد مجال نفوذ الولايات البحرى بغرب الاطلسى وشرق الهادى ، واعتبر ان الدفاع عن الولايات المتحدة لا يبدأ عند سواحلها بل عند حدود هذا المجال البحرى ، ورأى ان بريطانيا هي الحليف البحرى الطبيعى للولايات ، وتنبأ بعد هذا باهمية جزر الهادى هاواى والفلبين ، كقواعد أمامية متقدمة للدفاع ، كما تنبأ بخطورة جزر الكاريبى بالنسبة لبرزخ بنما ، واوصى بضرورة السيطرة على هذه وتلك ، اى دعا الى الاستعمار البحرى بصراحة (٢)

ومن الواضح أن جميع آراء وتوصيات ميهان قد نفذت بالفعل حوالي دورة القرن فى ادارة تيودور روزفلت ، وواضح كذلك أن دعوته متفائلة بالنسبة للقوى البحرية اذ يبشرها بالانتصار ، على ان الاوضح انها لا تقدم نظرية استراتيجية كاملة بمعنى الكلمة وان فسرت جانبا من الحقيقة . بالاختصار ، انه قدم آراءه فى اطار ومجال

(١) Bowen, «Geog. of Nations», p. 4.
(٢) الجيوبولتيكا . جـ ١ ص ٢٠٧ – ٢٠٩

أمريكي اولا ، وفي ظل عصر السيادة البحرية القائمة ثانيا

اما بعد ماكيندر فليس ثمه الا تعديلات وتحفظات على النظرية ، تملأ ثغراتها أو توضح معالمها دون أن تهز اركانها على الارجح . ولعل اهم هذه التعليقات ما جاء من اقلام الجغرافيين البريطانيين أيضا ، فوست وفيرجريف وايست ثم العالم السياسي الامريكي سبيكمان . فكان فوست اكثر حذرا في تفسير الحقائق الطبيعية والبشرية ، الامر الذي دعم النظرية أكثر مما قوضها . اما فيرجريف فقد كتب كتابا كاملا عن « الجغرافيا والقوة العالمية » تبدو فيه بلا جدال افادته الكبيرة من ماكيندر مثلما يبدو في نهايته تحديد أدق واوضح لخطوط النظرية اثراها بالتأكيد . بل سنرى أن كتابه هذا سيقرن في الترجمات الاجنبية في الخارج بكتابات ماكيندر . أما سبيكمان فقد أدخل تعديلات جوهرية على صلب النظرية قد تصل الى حد الانتقاض عليها . وسنعرض نحن أولا لنظرية ماكيندر ثم نردفها بتعديلاتها وتفريعاتها المختلفة هذه

ماكيندر والهارتلاند

نشر ماكيندر اساسيات نظريته في ١٩٠٥ في مقال قصير وسعه الى كتاب في ١٩١٩ ، ثم عاد في مقال أخير في أثناء الحرب الثانية ليعدل بعضا من ارائه لتتفق مع تطورات السياسة العالمية (١) . وقد بدأ بالنظر الى العالم ككل ، فوجده يتوسع بالتدريج عبر التاريخ نحو وحدة كوكبية . فمع تطور الحضارة ، ولا سيما منها وسائل

(١) Geographical Pivot of History; Democratic Ideals & Reality; «The Round World & the Winning of Peace», Foreign Affairs, 1943, pp. 595-605.

النقل والمواصلات ، اتسع نفس الحركة البشرية ومدى التوابطات الانسانية ، الى ان كان القرن التاسع عشر فوحدت القاطرة القارات والباخرة المحيطات ، وفى القرن العشرين احكمت الطيارة نسج الجميع فى وحدة كوكبية شامله حتى لم يعد هناك « اقليم كامل متكامل اقل أو اكثر من سطح الارض جميعا »

وعلى هذا نظر ماكيندر الى العالم القديم كقارة واحدة ضخمة ذات ثلاثة فصوص ملتحمة يتوسطها اسما وفعلا البحر المتوسط وتضم ثلثى مساحة اليابس ودعاها « الجزيرة العالمية World Island . وتضم الجزيرة العالمية وحدها سبعة اثمان سكان العالم ، بل ١٥ على ١٦ اذا اضفنا الجزر التى تحف بسواحلها . اما القارات الأخرى . الامريكتان واستراليا ، فلا تزيد مساحة عن ثلث اليابس ، وسكانا عن ١ على ١٦ من البشرية . فهى اذن لا تزيد عن ان تكون اقمارا صغيرة مبثوثة حول الجزيرة العالمية وتدور فى فلكها . والكل يقع فى محيط واحد وان تعددت اسماؤه هو « المحيط العالى World Ocean »

ثم نظر ماكيندر الى هذه الجزيرة العالمية فوجد لها قلبا يمثل محور ارتكازها ونواة العالم القديم دعاه اولا منطقة الارتكاز Pivot Area ثم عدله الى قلب الأرض Heartland . وقلب الارض فكرة طبيعية مركبة ، هى محصلة عناصر ثلاثة : سهولة التضاريس ، الصرف الداخلى ، وسيادة الحشائش . وعلى هذا الأساس الثلاثى يمتد الهارتلاند من حوض الفولجا غربا حتى سيبيريا شرقا ، وقلب ايران جنوبا . وهو بهذا يضم مساحة ضخمة متصلة بلا انقطاع من اوراسيا تبلغ ٢١ مليون ميل ، وتبتلع كل الاستبس الأسيوى ، فيبدو كما لو كان قارة داخل قارة الجزيرة العالمية

ولأن الهارتلاند سهلي في مجموعه - عشبي في غطائه ، فهو منطقة الرعاة بالضرورة واقليم حركة الخيالة والفرسان بامتياز . ولأن الهارتلاند منطقة صرف داخلي تضيع انهارها في قلب القارة في بحار داخلية او تنتهي مشلولة الى المحيط المتجمد في الشمال ، فهي منطقةلايمكن للأساطيل البحرية الساحلية أن تصعد فيها ، وبالتالى لا يمكن أن تلجها . انها المنطقة الوحيدة على سطح الأرض التى تترامى مساحتها بما فيه الكفاية لكى تبتعد ابتعادا سحيقا عن البحار والسواحل ، وبالتالى تمتاز بحصانة طبيعية تامة ضد الغزو البحرى

ومن ثم فهي يمكن ان ترسل تباعا بموجات الفرسان والرعاة على الاقاليم المجاورة ، ولكن يستحيل على تلك الاقاليم ان تتبعها داخل الهارتلاند لترد عليها . وبالفعل فان التاريخ يسجل عشرات الموجات والغزوات التاريخية ، ابتداء من الهون والآفار حتى المغول والأتراك والتتار ، خرجت من الهارتلاند تضرب في كل اتجاه دون رادع حقيقي يتعقبها في عقر دارها . ومعنى هذا أن الهارتلاند يمكن أن يهاجم لكنه لا يهاجم : انه قلعة دفاعية طبيعية ـ أعظم قلعة دفاعية ـ على الارض ، واضخم معقل لقوة البر وأمثل نموذج للدفاع بالعمق

وقد ظلت قوة الهارتلاند محدودة مابقيت كل قاعدة اقتصادها الرعى وكل قوتها البشرية الرعاة . لكن الأمر اختلف تماما حين تحول الى اقتصاديات الزراعة والصناعة الحديثة ، واستقرت جذور السكان في الأرض وتضخمت قوتهم البشرية عدديا . وقد حدثت هذه الثورة الحقيقية حين وحد من مسكوفي ، وورثت الروسيا امبراطورية المغول ، وحلت حركة القطار محل حركة الخيل . ولعل أثر القطار كان أخطر في الهارتلاند منه في اى منطقة أخرى

فى العالم ، فقد اصبح اداة توحيده سياسيا واستراتيجيا . وما الضغوط التى مارستها الروسيا والاتحاد السوفييتى فى تاريخهما الحديث على دويلات البلطيق وبولنده وشرق اوربا وتركيا والشرق الأوسط وايران والهند والصين الا الترجمة الحديثة للضغوط التى سبق ان مارسها رعاة الاستبس على جميع حواف الهارتلاند . والآن ــ ولأول مرة فى التاريخ ــ تحتل قلعة الهارتلاند حامية كافية فى العدد وكفء فى العدة

وعلى الطرف النقيض من الهارتلاند تعرف ماكيندر على نطاق ساحلى محيطى بحت ضخم يفلف الجزيرة العالمية على شكل هلال متصل بدرجة او باخرى . ذلك هو « الهلال الخارجى او الجزرى Outer or Insular Crescent » الذى يضم بريطانيا وكندا والولايات المتحدة وجنوب افريقيا واستراليا واليابان . وهذا النطاق هو مهد القوى البحرية ويتمتع ، منذ الكشوف الجغرافية ، بحركة وحرية الملاحة على اوسع نطاق فى المحيط العالمى . وهو الذى وضع هيكل الاستعمار البحرى كنظام كامل فى العصر الحديث

واخيرا ، وبين الهارتلاند البرى البحت والهلال الخارجى الجزرى البحت ، يضع ماكيندر نطاقا ثالثا يسميه « الهلال الداخلى Inner Crescent » يضم المانيا ، النمسا ، تركيا ، الهند ، والصين . والنطاق بطبيعته برى جزئيا ، محيطى جزئيا . ومن الواضح ان هذا يقابل ما وصفناه من قبل بالمنطقة الامفيبية او البينية . ولكن لعل خير تسمية له هى ماقدم فيرجريف ، اذ دعاه بمنطقة الارتطام او الالتحام Crush Zone (١) . وهى تسمية موفقة للغاية لأنها تعبر عن طبيعته كضحية للتصادم وكأرض للمعركة بين الهارتلاند والسواحل

(١) Geography & World Power. p. 334.

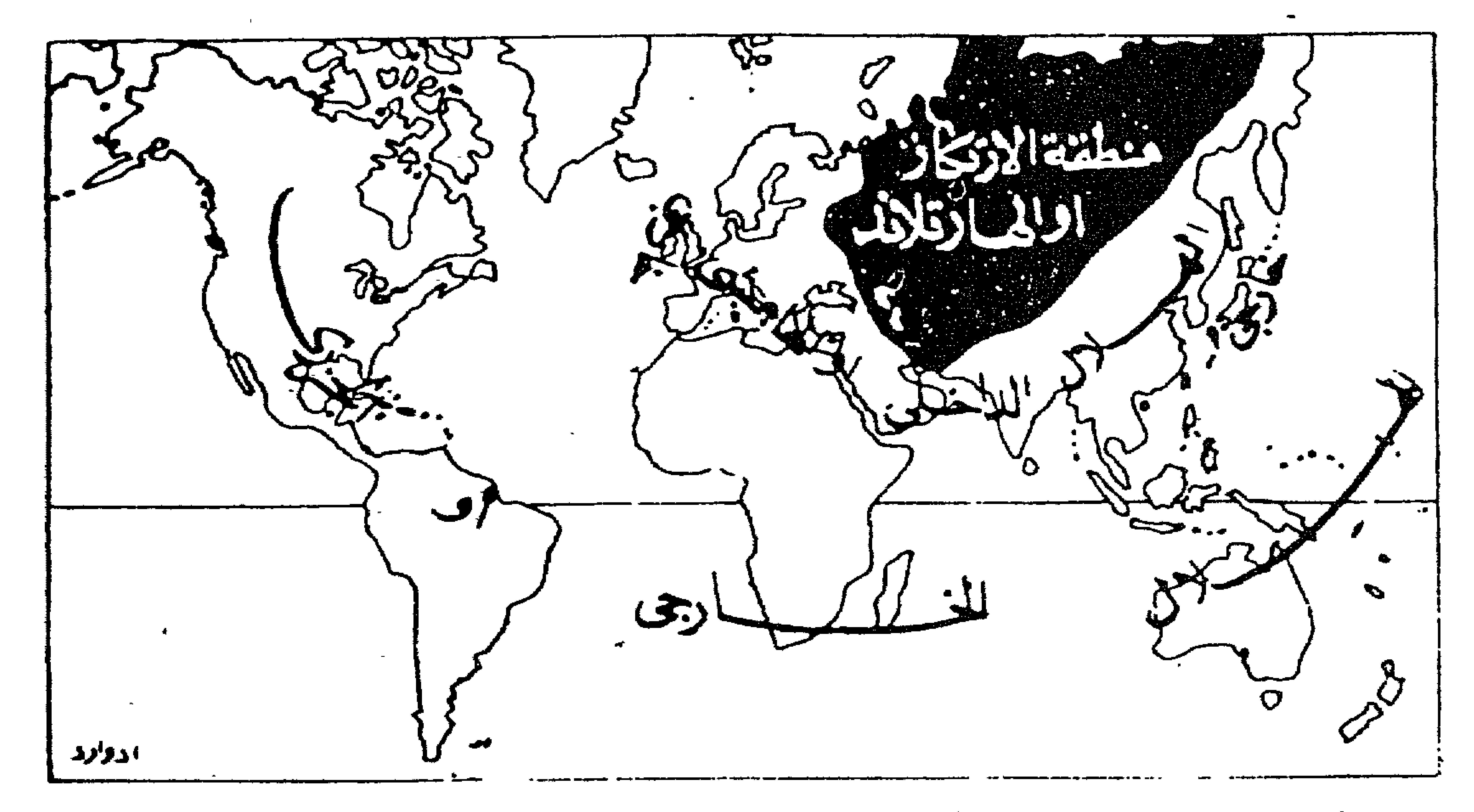
وقد تعمق ماكيندر التجربة التاريخية للسواحل الهامشية فى صراعها مع القوى القارية ، فوجد أنه رغم سيادة القوى البحرية المطلقة ممثلة فى بريطانيا على البحار ، ورغم ما يبدو فى القرن التاسع عشر وفى الحربين العالميتين ، من ان كفة القوى البحرية هى الراجحة ونجمها هو الصاعد ، الا أن هذه نظرة جزئية وللتاريخ فى مجموعه درس آخر . فهو نذير دائم للقوى الساحلية البحرية ، وتحذير لها من أن تطمئن تماما الى تفوقها وسيادتها

حقا أن الوحدات الساحلية البحرية تمتاز بنمو مبكر Precocious بفضل ما تتمتع به من حماية طبيعية ، ولها بحكم حركتها الطلقة واتصالاتها وانفتاحها على العالم فضل المبادرة الى التحضر والثروة سواء بالتجارة او بالاستعمار ، وبالتالى فلها فضل السبق الى القوة . ولكنها فى النهاية تعانى من صغر القاعدة الارضية ان لم تكن ضآلتها احيانا . وفى المدى الطويل لا تلبث الوحدات القارية الضخمة أن تلحق بركب التطور والحضارة ، فتنطلق من قاعدة ارضية فسيحة غنية منوعة نحو السواحل والبحار . وعندها تسقط لها الوحدات البحرية كالثمرة الناضجة كما لو بحكم القدر

وما اكثر الأمثلة فى درس التاريخ : بمجرد أن وحدت ايطاليا تحت روما ، اصبحت صقلية تابعا لشبه الجزيرة ، وبمجرد أن نضجت اليونان سياسيا وماديا ، فقدت كريت لها استقلالها وقوتها وكانت من قبل مركز الحضارة والسيادة . وبمجرد أن ظهرت قوة مقدونيا الأكثر قارية سقطت لها اليونان الاكثر بحرية ، وبمجرد أن ظهرت قوة روما سقطت لها اليونان (١).

---

(١) Democratic Ideals, pp. 50 et seq.



شكل (٢٤) نظرية ماكيندر فى الهارتلاند . لاحظ التركيب الحلقى حول منطقة الارتكاز

هكذا قد تبدأ الغلبة والسيطرة للجزر على أشباه الجزر ، ولأشباه الجزر على الوحدات القارية ، ولكنها تعود في النهاية لتستقر في أيدي الوحدات القارية الضخمة. من هنا يرفع ماكيندر صيحة التحذير للقوى البحرية ، ويقرع نواقيس الخطر بالنسبة للمستقبل ، ويرفض أن يخدعه تفوقها الحالى أو القريب ، ولا يجد مبررا لأن يفترض أن المستقبل يمكن أن يختلف عن الماضي

وفي هذا السياق يعود ماكيندر الى الحاضر فيجد أن « رجحان كفة القوة في صف دولة الهارتلاند جدير بأن يؤدى بها الى توسعها على حساب الأراضى الهامشية في أوراسيا وبالتالى يمكنها من ان تجند مواردها القارية الضخمة لبناء الاساطيل البحرية ، ومن ثم تكون الامبراطوزية العالمية على مرأى النظر · ومن الممكن أن يحدث هذا لو ان المانيا تحالفت مع الروسيا » (الاتحاد السوفييتى) ، اى اذا اتحد الهارتلاند بصورة أو بأخرى مع الهلال الداخلي ، سواء كانت السيطرة في هذا الاتحاد للروسيا أو لألمانيا ، وسواء تم هذا الاتحاد بالغزو أو بالاتفاق

وعند هذا الحد يتضح بجلاء ان شرق أوربا هو مفتاح الهارتلاند . وبالتالى يصل ماكيندر الى معادلته الثلاثية الشهيرة التي تلخص كل نظريتهالتى جاءت أحداث الحربين العالميتين مصداقا لكل فروضها :

من يحكم شرق أوربا يسيطر على الهارتلاند
من يحكم الهارتلاند يسيطر على الجزيرة العالمية
من يحكم الجزيرة العالمية يسيطر على العالم

وفي هذا الضوء يرى ماكيندر ان الحرب العالمية الأولى وأكثر منها الثانية هى حرب مباشرة بين القاريين

والساحليين . بين قوى البر والبحر بلا ادنى جدال .
وفى كلتا الحربين حاولت المانيا أن تخضع الروسيا او الاتحاد السوفييتى لتسيطر على الهارتلاند . واذا كان قد حدث العكس بالفعل ، وانتهت الحرب الأخيرة بسيطرة الاتحاد السوفييتى على كل شرق اوربا بمـا فيه شرق المانيا ، فان هـذا لا يغير من النتيجة فى شيء ، وانما يستبدل بألمانيا الاتحاد السوفييتى كالقوة التى تسيطر على الهارتلاند ومفتاحه شرق أوربا ، ومن ثم التى يمكن أن تسيطر بعدها على الجزيرة العالمية ، فالعالم فى التحليل الأخير

وهو يرى أن الاتحاد السوفييتى قد خرج من الحرب وهو اعظم قوة برية على وجه الارض ، واكثر من ذلك ، وهو فى أقوى وضع دفاعى استراتيجيا ، بينما يجد ان الجزر البريطانية فى المحيط المتوسط (الأطلسى) اصبحت فى عالم المردة الجديد اشبه شيء بمالطة فى البحر المتوسط ، وليس هناك ما يمنـع لذلك من أن تقـع فى يد قوة قارية بالغزو او على الأقل أن تزداد التحاما بالقارة فى سياستها ومصيرها . وهذا الوضع برمته يعيد الى الاذهان بقوة درس التـاريخ ما بين القوى البحرية الصغـيرة (ولكن السابقة) والقوى البرية اللاحقة (ولكن الضخمة)

وعلى هـذا فمستقبل العالم يتوقـف على حفظ التوازن فى القوى بين الاقاليم السـاحلية وبين القـوى الداخلية المتوسعة . وفى سبيل هذا التوازن نصـح ماكيندر بخلق نطـاق من الدول الصـغيرة المتماسـكة فى شرق اوربا ـ الصف الاوسـط Middle Tier كما دعاه ـ حتى يفصـل بين الهـارتلاند والقوى السـاحلية ويعزله عنهـا . وقد تحقق هـذا بالفعـل منـذ فرسـاى ، ولـكن هـذا الصـف الاوسـط

نفسه اصبح جزءا من الكتلة الشرقية ، اى ارتبط الهلال الداخلى بالهارتلاند اوثق الارتباط . ولهذا فان التوازن المطلوب لابد ان ياتي الان من جانب الولايات المتحدة ، اكبر وآخر معاقل القوة البحرية

ومع ذلك فينبغى ان نلاحظ ان الولايات المتحدة بدورها يمكن نظريا ان تتحول بمنطق ماكيندر الى شيء اشبه ببريطانيا فى المحيط الاطلسي . فلو ان هارتلاند الاتحاد السوفييتى الذى يحكم شرق اوربا توصل يوما ما الى السيطرة على الجزيرة العالمية ، فان العالم الجديد سيصبح محاصرا من الشرق ومن الغرب كجزيرة اقل وزنا وقوة بين ذراعى الجزيرة العالمية . وحينئذ يكون هذا قلبا كاملا للوضع الذى كان سائدا قبل الحرب الاخيرة حين بدا الهارتلاند كجزيرة محاصرة داخل بحر القوى البحرية ومستعمراتها . وحينئذ تكون الامبراطورية العالمية على مرمى حجر او على مراى النظر

واخيرا فان ماكيندر يرى ان الصراع بين القوى البرية والبحرية ، الذى يعبر عن حركة القطار ضد حركة السفينة ، لم يتاثر بمقدم الطيارة ، بل انها لتؤكده بمثل ما تدعم نظريته . ففى رايه ان الملاحة الجوية والقوة الجوية هى فى الدرجة الاولى سلاح لقوة البر ، انها بمثابة سلاح فرسان امفيبى جديد ، فى صف قوة البر اكثر مما هو فى صف قوة البحر ، لان الموقع المركزى المتوسط كهذا الذى يمتلكه الهارتلاند ميزة كبرى فى الحرب الجوية . كذلك تنبأ بأن استخدام القوى البحرية لطريق كالبحر المتوسط فى الملاحة لن يكون الا بموافقة او تحت رحمة قوى البر ، لان هذه تستطيع من قواعدها البرية ان تغلق هذا الطريق بالحرب الجوية ، كما حدد وظيفة بريطانيا

منذ القوة الجوية فى انها مجرد « مطار فى خندق » او حاملة طائرات كما قد نقول

ذلك فى اساسياته هو هيكل نظرية ماكيندر فى الاستراتيجية العالمية . ويمكن الان ان نحدد فضله هو وقيمتها هى فى ثلاث . فاولا ، استطاع ان ينظر الى العالم ككل فى ضوء وحدة الارض ، وعلى اساس ان العالم قد صار عالما واحدا ، ومن ثم نظاما سياسيا واحدا — « نظاما مغلقا » يعنى . وبهذا كان « اول من امدنا بفكرة كوكبية عن العالم » وهو فى هذا قد « جند الجغرافيا فى خدمة السياسة والاستراتيجية » كما عبر السفير وينانت (١) . وقد كان هدف ماكيندر الاساسى كما قال ان يضع « معادلة جغرافية تستطيع أن تركب فيها اى توازن سياسى » . وبفضل نظرته الكوكبية الشاملة استطاع ان يرى جوهر هذه المعادلة فى الصراع بين قوى البر والبحر

ثانيا ، الى جانب النظرة الكوكبية لم يغفل النظرة الاقليمية ، ومن هنا استطاع ان يخرج بثلاثيته الاساسية : الهارتلاند ، الهلال الداخلى ، الهلال الخارجي الجزرى . وهذه لا شك هى الاقاليم السياسية الطبيعية الكبرى والاكثر خلودا فى العالم ، وقد نجح فى أن يتعرف على ملامح وتوجيهات كل منها . ومن الواضح ان الاقاليم الثلاثة هى فى الحقيقة بناء حلقى concentric ، فثمة فى القلب حول القطب الشمالى يقوم الهارتلاند ، ثم حوله كحلقة وسطى الهلال الداخلى ، وفى النهاية حلقة اوسع واكبر محيطا هى الهلال الخارجي . ولن يخفى ان الاساس الدفين الذى يحدد هذه الاقاليم انما هو فى النهاية الموقع — الموقع الجغرافى —

(١) Geogr. Journal, 1944, p. 131.

الموقع النسبى ــ الموقع اعنى قربا او بعــدا من قلب اليابس او ساحل البحر

ثالثا ، واخيرا ، لم يكتف ماكيندر بالتشخيص ولـكن توصل الى التنبؤ مع انه يعلن انه ليس هدفه . فقـد استطاع من البعد التاريخى ان يضع يده على احتمالات ومصاير الصراع بين قوى البر والبحر . فلم تخدعه شهادة تجربة مرحليـــة ، ورأى نذر الخطر على الافق بالنسبة للقوى البحرية ، وذلك رغم انه ــ بل لانه ــ شخصيا كان « استعماريا عتيدا » ، يهمه جدا كيان الامبراطورية البريطانية . وقد جاءت نبوءته ، بعكس ميهان ، تحذيرية متشائمة بدرجة او بأخرى بالنسـبة لمستقبل القوى البحرية . وبينما نظر ميهان الى الماضى ليركز على الحاضر ، نظر ماكيندر الى الماضى والحاضر ليركز على المستقبل

والشىء الذى ينبغى ان نلاحظه انه اذا كان ماكيندر قد صنف اقاليم الصراع الاستراتيجى على اســاس « الموقع » ، فقد نظر فى الحقيقة الى مصــايرها على اساس « الموضـــع » اى مدى قوة القاعدة الارضيـــة (بمواردها الطبيعية وقوتها البشرية ودرجتها الحضارية والتكنولوجية .. الخ) . فوجــد ان المستقبل بعامة ليس للمواقع الممتازة ولكن للمواضع الاغنى

نقد النظرية

الســؤال الان : كيف قوبلت نظرية ماكيندر ؟ من المفارقات التاريخية ان هذه النظرية الخطيرة اهملت فى وطنها ، بينما نالت شهرة داوية وعناية فائقة خارجه فى المــانيا ، والمــانيا النازية بالذات .. فقــد تلقفتهــا

مدرســـة « الجيوبولتيك » الالمـانية ممثلة فى معهـــد الجيوبولتيك فى ميونيخ برياسة الجنرال كارل هاوسهوفر وترجمتها هى وكتاب فيرجريف ووجدت فيهـــا وثيقة استراتيجية خطيرة ، واصبحت النظرية اســـاســـا فى فلسفتها . وكثيرا ما اعتمد هاوسهوفر فى كتاباته على كتابات ماكيندر واعترف بدينه له رغم أنه «عدو بغيض» بل لقد عد مقاله عن « المحور الجغرافى للتـــاريخ » ، « اعظم النظريات الجغرافية العالمية جميعا » واكد انه « لم ير قط شيئا اعظم من هـــذه الصفحات القليلة كرائعة جيوبولتيكية » (١) . وقد تلقف هاوســـــهوفر خشية ماكيندر من ان تتحالف المانيا والروسيا ليقلبها الى دعوة الى مثل هذا التحالف . والمقول ان هذا بالفعل كان المحرك خلف تحالف هتلر وستالين فى بداية الحرب. فقد الهم هاوســـهوفر رودلف هس بالكثير من افكاره ، والهم هذا هتلر بدوره بالكثير منها فى « كفاحى »

ولـكن الاتجاه الان هو الى ان تاثير هاوسهوفر على الحكم النازى قد بولغ فيه كثيرا . وبالتالى يكون قد بولغ فى تاثير ماكيندر على السياسة الالمانية (٢) . وايا ما كان فقد كانت النتيجة لهذا كله ان اتهم ماكيندر بانه ساعد على وضع اساس العسكرية النازية ، وهو ما نفاه هو بشدة وغضب ــ وعلى حق ــ لانه وضع اســـس نظريته قبل قيام النازى بثلاثين عاما

على ان الحرب الثانية أدت الى « اعادة اكتشـــاف » ماكيندر فى الغرب واعادة تقييمه ، فاشتد الاهتمام به وبآرائه لا فى مدارس الجغرافيـــا وحـــدها ولـــكن فى

(١) Zeitschrift für Geopolitik, 1925.
(٢) G.R. Crone, «A German View of Geopolitics», Geog., Journal, 1948, p. 108.

الاكاديميات العسكرية والمعاهد السياسية كذلك . بل لقد اصبح ماكيندر بفضلها ـ سواء لحسن الحظ او لسوئه ، كما عبر احد الجغرافيين ـ اشهر الجغرافيين خارج الدوائر الجغرافية والمهنة ، كما عد كتابه واحدا من اخطر الكتب التى ظهرت فى القرن ، فيه من البصيرة والنبوة اكثر مما فيه من السرد والوصف . غير ان البعض يحس ان آراء ماكيندر ربما قد قبلت بروح نقدية اقل ما ينبغى .

ويمكن ان نحصر النقد الذى وجه الى نظرية ماكيندر فى الشكل والموضوع . فمن حيث الشكل اخذ عليه انه عدل كثيرا فى حدود الهارتلاند بصورة مربكة ، ولكنه احتج بأن تلك هى طبيعته المركبة التى تقوم على اساس ثلاثى من السطح والنبات والصرف مما لا يسمح بالتحديد الصارم . كما ان تعديله للنظرية فى اثناء الحرب العالمية الثانية يعده البعض طفيفا ولكن لا يكاد يتعرف فيه البعض على النظرية الاصلية ! (١)

واخطر من هذا تحديده للهلالين الداخلى والخارجى . فلقد ترك ماكيندر منطقة بلا تحديد بين الهلالين تشمل الاراضى المنخفضة وفرنسا وايبريا وايطاليا ، ولم يضمن الهلال الخارجى فى اوربا الا بريطانيا باعتبارها جزرية محيطية بحتة . ولكن هذه الدول الساحلية قوى بحرية بلا شك رغم انها أقل بحرية من بريطانيا . بل ان ماكيندر عالج كثيرا من هذه الوحدات فيما بعد فى كتابه على انها قوى بحر . ولهذا ينبغى ان نأخذ مفهوم قوة البحر او البر كمسألة نسبية بالتأكيد . من هنا عدل فيرجريف نطاق القوى البحرية ليشمل تلك

(١) Bowen, p. 6.



شكل (٢٥) استراتيجية القوقواقاليم الصراع السياسى فى العالم القديم حسب فيرجريف

الدول ، كما يضم اليها مستعمراتها البحرية على سواحل افريقيا وآسيا

وبالمثل فان ماكيندر لايرسم الهلال الداخلى كاملا ،

بل يترك ثغرات هى لاشك فى صميمه كوحدات الدانوب والبلقان ، كما يغفل الشرق الاوسـط . ومرة اخرى يعدل فيرجريف هذا فيمد « منطقة ارتطـامه » من البلطيق حتى الشرق الاوسط فالاقصى بلا انقطاع

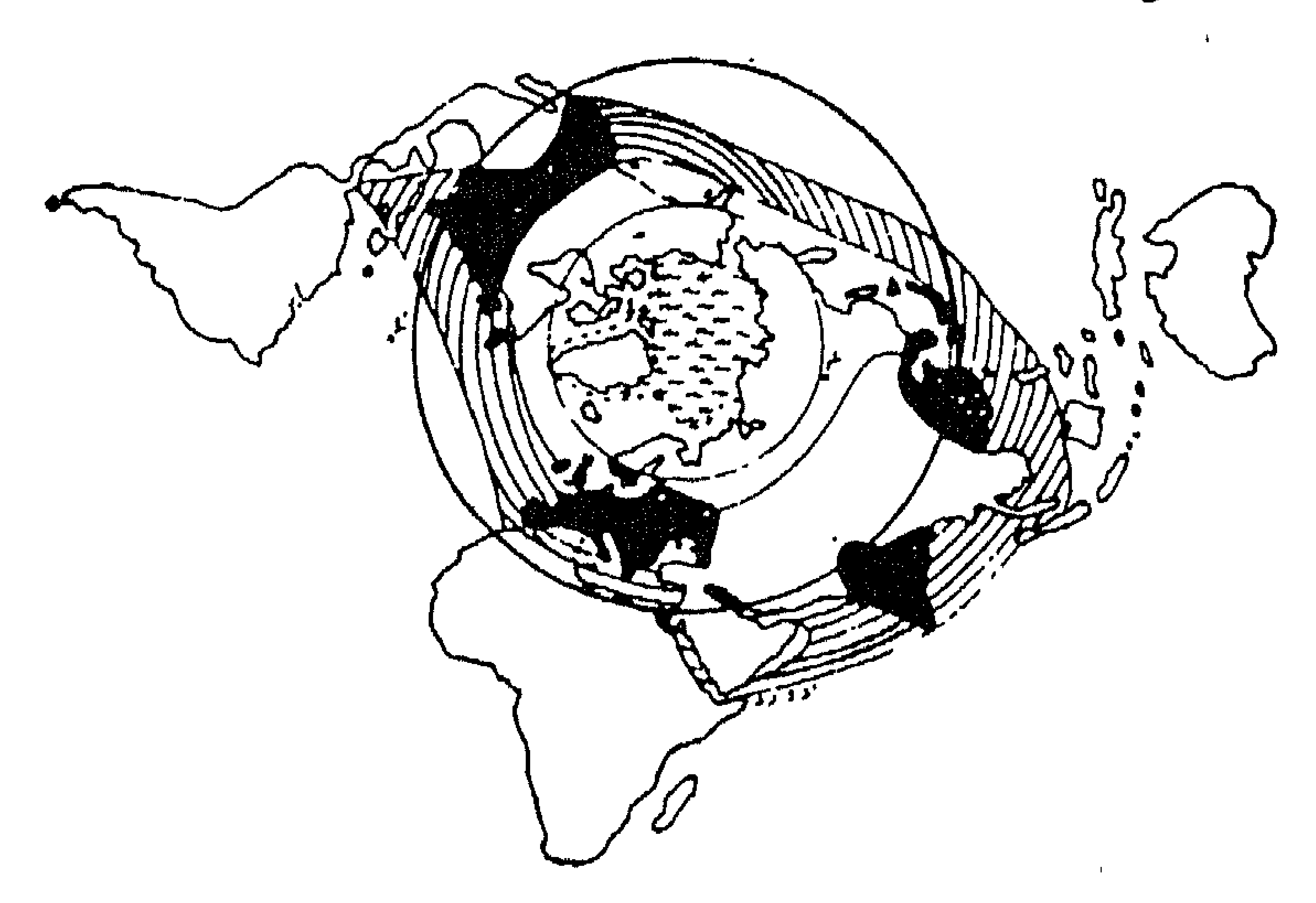
اما عن الموضوع ، فقد تساءل البعض عن مدى القوة الحقيقية ــ موارد وسكانا وانتاجا ــ لكل من الهارتلاند والسواحل . وتكفل فوست وايست خاصة بالاجابة (١) فتوزيع السكان فى العالم القديم يرسم نمطا واضحا جدا فى اساسياته . فهناك قاطع محورى كثيف يمتد من غرب اوربا شاملا وسطها وجنوبها ليستمر بدرجة او باخرى فى الشرق الاوسط حتى يستعيد كثافته فى آسيا الموسمية . هـذا هو العمود الفقرى فى ديموغرافية العالم كله ساحلى او شـبه ساحلى ، ويشمل الجزء الاكبر اطلاقا من البشرية . وعلى هـذا النطاق يتعامد قاطع آخر من اللامعمور او شبه اللامعمور ، يبدأ من سيبريا وينتهى بالصحراء الكبرى ، متداخلا مع نطـاق المعمور فى منطقة الشرق الاوسط

ومن ثم فالهارتلاند يقع اغلبه فى اللامعمور ، واقله متوسط الكثافة . واذا كان الهارتلاند يستمد وزنه الديموغرافى من قطاعه الاوربى غرب الاورال ، فانه فى آسيا شرق الاورال اما قليل الوزن كما فى التركستان او فاقده كما فى سيبريا . هذا بينما ان السـواحل

---

(1) C.B. Fawcett, «Marginal & Interior Lands of the Old World», Geog., 1947 pp. 1-12; Hans Weigert. Heartland Revisited, in New Compass of the World, 1949, pp. 80-90; W.G. East, «How Strong Is the Heartland ?», Foreign Affairs, 1950, pp. 78-93.

تضم نحو الفى مليون نسمة على الاقل . وبصورة عامة تتبع الموارد والانتاج نفس النسبة . المحصلة النهائية ان الهارتلاند قد يكون قلب اليابس طبيعيا ، ولكنه قلب ضعيف ـ ولا نقول قلبا ميتا ـ بشريا . اما السواحل فقد تكون هامشية ولكنها متخمة بالحيـاة والحيوية



شكل (٢٦) نطاق اوحزام العمران والحركة حول نصف الكرة الشمالى . هذا هو العمود الفقرى فى هيكل البشريه

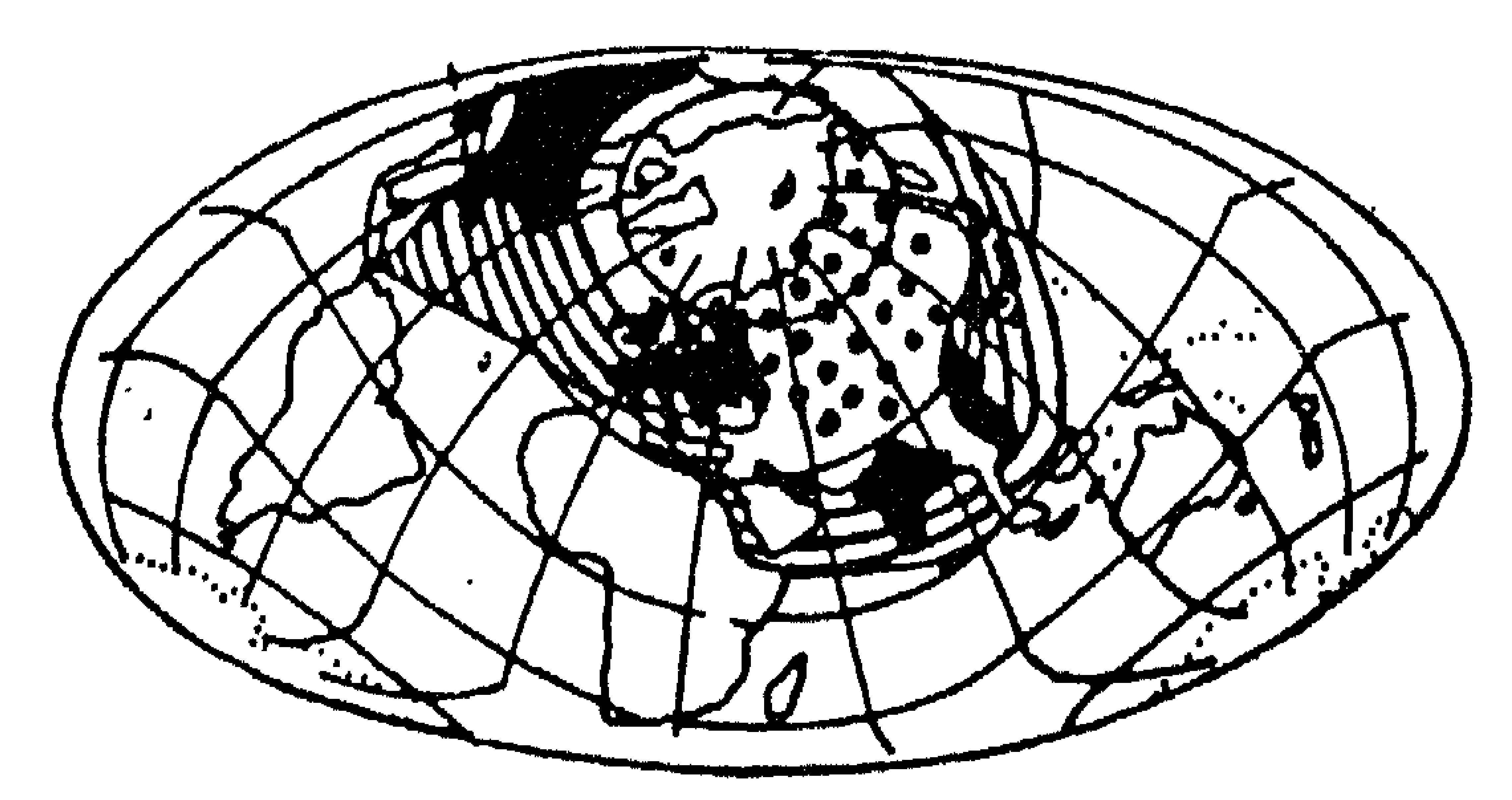
ومن هنا يلتقط العالم السياسى الامريكى نيكولاس سبيكمان الخيط . فهو يناقش معادلة القوة عند ماكيندر ، ولا يرى ان كفة الهارتلاند ترجح فى القوة البشرية او الموارد المادية ، وينتهى الى ان « من يحكم المناطق الساحلية يسيطر على الجزيرة العالمية » . ومعنى هذا ان سبيكمان يتعارض بصورة مباشرة مع اتجاهات ماكيندر ، ويضع المستقبل فى صف القوى البحرية وضد البرية

ثمة بعد هذا نقد هام وجه الى النظرية : لقد اغفل ماكيندر - او بالدقة قلل - من وزن الولايات المتحدة ودورها كثقل ضخم فى كفة القوى البحرية . وحين كتب ماكيندر لاول مرة فلا شك ان قوة الولايات لم تكن قد اكتملت ودورها الطاغى فى سياسة القوة العالمية لم يكن قد بدأ الا بالكاد . اما بعد هذا فقد امدت الولايات المتحدة العالم الجديد بهارتلاند منافس لهارتلاند العالم القديم ، وحددت مصير الحربين العظميين ، الى ان انتقل قطب القوة العالمية اليها نهائيا وبصورة حاسمة ، بينما تحولت القوى التقليدية فى غرب اوربا الى شبه تابع لها

واخيرا ، فان كثرة من النقاد ابتداء من لورد امرى الى الميجور سفرسكى ترى ان الحرب الجوية تقوض دعائم نظرية ماكيندر . وقد رد ماكيندر على هذا - ان صوابا وان خطأ كما يلاحظ جلبرت - بأن الحرب الجوية تدعم قوة الهارتلاند وصحة نظريته . والاتهام يقوم على اساس ان الطيران قد كشف الهارتلاند للغزو وسلبه مناعته الطبيعية وعمقه الاستراتيجى ، او انه على الاقل قد حيد الموقف بين قوى البر والبحر

ولقد كان امرى فى تعقيبه على ماكيندر سنة ١٩٠٤ سباقا فى بصيرة ثاقبة الى ان يرى اثر الحرب الجوية على النظرية . فأعلن انه مع مقدم حركة الطيران الى جانب حركة القطار والبحر فان كثيرا من تلك التوزيعات الجغرافية التى رسمها ماكيندر سيفقد اهميته ، وستكون القوى الناجحة هي تلك التى تملك اعظم اساس صناعى ، واضخم قاعدة تكنولوجية . وانتهى الى انه لن يهم ان تكون فى وسط قارة او على جزيرة ؛ وانما اولئك الذين يملكون القوة الصناعية وقوة

الاختراع والعلم سيمكنهم ان يهزموا كل من عداهم



شكل (٢٧) الهارتلاند « بالنقط » قلب العالم القديم ولكنه سكانيا قلب ضعيف . وكتلة السكان فى العالم « بالاسود » ونطاق الحركة والمواصلات حول الارض « بالخطوط » تقع على سواحل القارات

اما سفرسكي ــ من جيل الحرب الثانية ــ فهو اكبر دعاة القوة الجوية بحسبانها السلاح الفيصل فى الحرب الحديثة (١) . ويلخص بوين الموقف فى ان القوة الجوية بمراحلها المختلفة « جعلت من نمط ماكيندر العالمى هراء ، ولكن قط هراء من ادراكه ان القوة فى المستقبل تكمن مع الامبراطوريات القارية بفضل تفوق مواردها » (٢) . ومعنى هذا النقد جميعا فى الحقيقة ان الطيران قد افقد عامل « الموقع » الجغرافى قيمته الحيوية ، ونقل الاهمية كل الاهمية الى عامل « الموضع » الجغرافى

وعلى هذا يمكن ان نلخص الموقف النهائى من النظرية فى انه تضارب واختلاف : البعض يعدلها بما ينقضها

(١) الجيوبولتيكا . جـ ١ ص ١٥
(٢) بوين . ص ٥

او يقلبها على راسها كما فعـل سبيكمان . والبعض يقبلها معدلة او غير معدلة كما فعل الميجور جورج فيلدنج اليوت الذى اعلن فى اثناء الحرب الثانية : « انه لا مجال للهروب من منطق ماكيندر » (١) . كما ان هناك من لا زال يعتقد انها قد تكون سليمة حتى اليوم ، هـذا بينما يتوسط البعض فيرى انها ان صحت فى المـاضى فهى لا تصح فى عصر الحرب الجوية وبخاصة الحرب الصاروخية الذرية

تعديلات جزئيـة

والذى نراه هنا هو ان النظـرية اذا عدلت فى بعض جزئياتها فيمكن ان تقـدم بكل تأكيد مفتـاحا عاما Passepartout ومعـادلة جغرافيـة سليمة تلخص كل التـاريخ السياسى والاستراتيجى وتستوعب كل تفاصيله وتتفق معها حتى ــ وهـذا هو المهم ــ نهـاية الحرب الاخيرة ، اما بعدها فقد حدثت انقلابات هائلة من اخطر ما عرف التـاريخ الحديث لابد من تحليلها قبل ان نرى انعكاساتها على النظـرية . وعلى هـذا الاسـاس ، وكخلاصة نهائية لدراسـتنا التاريخيـة السابقة ، نطرح الان صورة معدلة للنظرية يمكن ان نركب فى معادلتها كل تفاصيل تلك الدراسة وجزئياتها وتقابل فى نفس الوقت النقد الذى وجه الى النظرية

ونقترح لذلك ان تظل الثلاثية الاستراتيجية تتـألف من الهارتلاند والسواحل ومنطقة الارتطام ، لـكن مع تعديل حدودها . الا ان التعـديل الاسـاسى الذى نقترحه هو ان نحصر هـذه الثـلاثية فى دائرة العـالم

(١) الجيوبولتيكا . جـ ١ ص ٢٤

القديم وحده اكثر منها العالم ككل . اولا لانه فى هذا الاطار يمكن للنظرية ان تفسر معظم تاريخ الاستراتيجية السياسية فى العالم وان تتفق مع اغلب تفاصيله وجزئياته . وثانيا لان القارات الجديدة بما فى ذلك الولايات المتحدة لم تظهر على مسرح السياسة العالمية الا حديثا واكثر منها لم تظهر كقوة حاسمة فيصل الا حديثا جدا

فى هذا الضوء نجد ان الهارتلاند ـ بحدود ماكيندر ـ وحدة استراتيجية حقيقية فى التاريخ ، وحدة توسعية بطبيعتها السهلية التى تسهل الحركة وتدعو الى الامبراطورية . وقد وحد الهارتلاند ـ بعد صراعات داخلية من نوع صراع الاشباه ـ اكثر من مرة فى التاريخ ومن اكثر من نواة : مرة من التاى ، ومرة من طوران ، ومرة اخيرة وحاسمة من الروسيا (١) . وكلها ـ يلاحظ ـ مراكز هامشية على اطراف الهارتلاند . ولهذا مغزاه الكبير ، وهو ان قلب الهارتلاند نفسه هو أضعف ما فيه بشريا وحضاريا

ومن المهم جدا ان نلاحظ ان سهولة توحيد الهارتلاند فى قوة قارية الابعاد جعلته غالبا وحدة سياسية واحدة لا تعرف التجزئة ، وهو الان برمته يقع فى دولة واحدة او يؤلف دولة واحدة . وفى هذا يتناقض تماما مع السواحل الهامشية التى تتمزق فى عدد ضخم من الدول المنفصلة ، فهناك قوة بر واحدة بالمفرد ولكن قوى البحر تأتى بصيغة منتهى الجموع ! من هذه النقطة يستمد الهارتلاند قوة سياسية واستراتيجية هائلة

ولكنها فى نفس الوقت تجعل منه دولة خلاسية

---

(١) فيرجريف ص ٣٢٨

متعددة القوميــات والاجناس مما يمكن ان يمثل خطرا داخليا ، ويعرضه ـ ان خطــأ او صوابا ـ للاتهام من جانب الغرب بالاستعمار الداخلى ، بل لقد كانت النازية تنظر الى الاتحاد السـوفييتى كامبراطورية اقليات ، وكان من اهدافها ان تمزقها الى وحداتها القومية الطبيعيــة فى شكل مجموعة دول مســتقلة تماما !

ولقـــد كانت ضغوط الهارتلاند المركزية الطـّـاردة تسعى قديما الى الوصول الى الزراع ، وحديثـــا الى الوصول الى البحر . وبعد ان كان الصراع بين الهارتلاند وبين المناطق الهامشية يمثـــل صراعا بين الاســتبس والغابة ، اصبح صراعا بين قوة البر وقوة البحر . وفى هذا الصراع لا شك ان الهارتلاند قلعة دفاعية مثالية وغير منفذ لجيوش الزراع قديما وغير مفتوح لاساطيل البحارة حديثا . ولــكن مناعته الدفاعية هذه لا تعنى بالضرورة وبالحتم انه القوة الهجومية المثالية

فرغم ضخامة قوته وعظمة موارده التى لا جـــدال فيها ، فان به نسبة كبيرة من الاراضى غير الصالحة للتعمير والانتاج الا من رصيد معدنى ورصيد عمق استراتيجى . ولاشك ان من نقاط القوة فى الهارتلاند اليوم ان السلاف فى اوربا تنمو بمعدل تزايد سكانى اعلى واسرع بكثير من بقيــة اجنــاس اوربا من التيوتون او اللاتين ، مما عده الغرب خطرا شـديدا على المســتقبل ودعاه بالخطــر السلافى (١) . ومع ذلك فان عدد ســكان الهارتلاند ـ قديما ايام الرعى وحديثا بعد تحوله الحضارى ـ يظــل دائما لا يقارن بمجموع سكان المناطق الساحلية الهامشية

(١) F. W. Notestein et al., The Future Population of Europe & the Soviet Union. Geneva, 1944, pp. 18 ff.

اما السواحل الهامشية ــ موطن قوة البحر بامتياز ــ فنحن نرى ان من الضرورى ان تشمل اسكنديناوه والدنمرك وهولندا وبلجيكا وفرنسا ، عدا الجزر البريطانية ، واشباه جزر البحر المتوسط الثلاث ابتداء من ايبريا حتى اليونان . وكل من هذه لعب دورا بحريا قياديا فى وقت او آخر ، وكل تاريخ القوة البحرية يدور فى محيطها . وينبغى كذلك ــ مع فيرجريف ــ ان نضيف الى مفهوم القوى البحرية فى غرب اوربا الساحلية مستعمراتها عبر البحار فى افريقيا وآسيا ، فقد اصبحت سواحل هذه وتلك امتدادات لقوى البحر

ونقاط القوة فى هذه الوحدة الاستراتيجية واضحة . فهى اذ تقع فى الهوامش المطيرة والخصيبة من القارة كانت شديدة الكثافة سكانا وطاقتها الانتاجية والبشرية عالية ، وهى فى هذا ترجح الهارتلاند على اساس وحدة المساحة بكل تأكيد . ثم هناك الموقع ، الموقع البحرى الحر الذى يوفر الحركة الطلقة خلال المحيط العالمى . وقد راينا كيف كان هذا الموقع البحرى مرادفا فى النهاية للاستعمار البحرى

فقد انتهى هذا الموقع بالقوى البحرية الى الاستعمار ، وانتهى بها الاستعمار الى السيطرة على موارد قارات باسرها صبت فيها موارد ومكاسب خيالية لم يعرفها سكان الهارتلاند . ويمكن ان نلخص الاستعمار البحرى جميعا فى انه كان محاولة من القوى البحرية الموجبة فى غرب اوربا للسيطرة على السواحل البحرية السالبة فى افريقيا وآسيا ، وهو بهذا فى النهاية صورة على نطاق شاسع من صراع الاشباه . وبهذا تضاعف الفارق فى الثروة والموارد بين القوى البحرية والبرية . وبفضل هذا الموقع وهذه الموارد قد يمكن ان نفترض ان القوى

البحرية الساحلية فى موضع هجومى قوى الى حد بعيد

ومع ذلك فللقوى الساحلية مواطن ضعف واضحة . فأولا تمثل هـذه القوى قمة التفتت والتجزئة والتعدد السياسى . فهنا عشر وبضع عشر من الدول المستقلة . لماذا ؟ لنفس الاسباب الجغرافية الطبيعية التى جعلتها دولا بحرية مثالية . فنطاق القوى البحرية هـذا لم يصبح بحريا ملاحيا من الدرجة الاولى الا لان البحر قد قطعه بالخلجان العميقـة والبحار الداخليـة الى وحدات طبيعية منفصلة ـ تذكر تعبير شبه جزيرة من اشباه الجزر

ولـكن نفس هـذه الحقيقة انتهت به الى قوميات ووحدات سياسية منفصلة كثيرة العدد صغيرة المساحة. وهذا يفسر اولا تلك الصراعات التاريخية الرهيبة بين هـذه الوحدات بعضها البعض ، فكل التاريخ الدموى الحديث فى العالم تركز فيها ، وكان الصراع الداخلى بينها صراع اشباه ، القصد منه تصفية القوى البحرية الى قوة سائدة بينها . وقد اخذ هـذا الصراع مسارا محددا هو الذى يؤلف هجـرة الحضـارة والقوة من الجنوب الشرقى الى الشمال الغربى فى داخل النطاق . وقد كان هـذا من عوامل ضعف القوة البحرية الـكامنة ككل وباستمرار

هـذا التفكك السياسى والضآلة المساحية فى القوى البحرية تتناقض تماما مع الوحدة السياسـية الطاغية للهارتلاند وضخامته البـالغة . وهـذه الصراعات الداخلية بين اعضاء القوى البحرية لم يعرفها الهارتلاند فيما بين اجزائه ، وحينما كان مسـتوى الهارتلاند الحضارى وقوته العسكرية متواضـعة ونفس الحركة البشرية محدودا ، لم يكن هـذا التناقض يشكل تهديدا

خطيرا للقوى البحرية ، فكان يكفى فى القرن الثامن عشر مثلا ان تتصدى للهارتلاند دولة بحرية واحدة كفرنسا او بريطانيا ، وفى القرن التاسع عشر كان يكفى دولتان بحريتان كفرنسا وبريطانيا معا

ولكن حين وصل الهارتلاند الى قمة القوة ، كما هو الحال الان ، اصبح مجموع القوى البحرية يمثل شقة مساحية ضئيلة بالنسبة لمساحة الهارتلاند تفتقد ميزة الدفاع بالعمق ، وتعانى من التعدد السياسى ، واذا كانت بفضل موقعها البحرى فى موقف هجومى حر فانها فى موقف دفاعي ضعيف ، يضاعف من هذا ان غرب اوربا كدول بحرية لا تملك جيوشا برية كبيرة ، بينما الاتحاد السوفييتى كقوة بر يملك اضخم جيش برى فى العالم

هنا تحتم على الدول البحرية ان تتحد جميعا فى وجه الهارتلاند ، بل ان تلجأ الى سند اقوى على الجانب الاخر من المحيط هو الولايات المتحدة التى هى اصلا امتداد بشرى لغرب اوربا مثلما هى تكملة جغرافية للقوة البحرية . ومن هنا نجد ان حلفا كالاطلنطى ليس فى الحقيقة الا جماع القوى البحرية فى غرب اوربا بالاضافة الى الولايات المتحدة . وما الحديث الملتهب اليوم عن « وحدة اوربا » اقتصاديا او سياسيا أو اقتصاديا وسياسيا الا رد فعل مباشر لهذا التناقض المزمن بين وحدة قوة البر فى جانب وتفتت القوة البحرية فى جانب آخر

وعدا هذا ، فان الاستعمار اذا كان من اسباب قوة وتفوق الدول البحرية حينا فهو نقطة ضعف كامنة فيه فى النهاية . فمكاسب المستعمرات المغتصبة موقوتة بالضرورة ، ورهن ببقاء هذا الاستعمار . واذا ما توقف

تدفقها او ضاعت فان القوى البحرية ستجد الارض وقد سحبت من تحت اقدامها وانكمشت قاعدتها الجغرافية والمادية الاقتصادية . ويكون عليها ان تنكفيء على مواردها الذاتية المباشرة التى لا تقارن بموارد الهارتلاند . وهذا ما حدث الان بالفعل بعد ذوبان الاستعمار . فلم تعد غرب اوربا فى مجموعها بند للاتحاد السوفييتي ولولا قوة الولايات المتحدة من ورائها لما صمدت فى الصراع الجديد

هذا فيما يختص بالهارتلاند والسواحل البحرية ، الفيل والحوت ، وتبقى اخيرا منطقة الارتطام او التمساح ... هذه هى ما دعونا فيما مضى بالمنطقة البينية ، وهى جغرافيا بينية بموقعها بين قوى البر شرقا والبحر غربا ، وتمثل بطبيعتها وبيئتها منطقة انتقال بينهما تجمع بين الصفة البحرية والبرية بدرجات متفاوتة ، وهى استراتيجيا منطقة ارتطام وجبهة تصادم بين تلك القوى القطبية ومن ثم ارض المعركة الحتمية بينهما ، فلا يستطيع اى منهما ان يصل الى الاخر ويضربه الا بالمرور على هذا الجسر الامفيبى

ونحن نحدد هذه الوحدة الاستراتيجية بنطاق يشمل المانيا وشرق اوربا والبلقان فيما عدا اليونان ثم الشرق الاوسط بما فيه تركيا وايران والمشرق العربى، كما نجد له امتدادات فى الشرق الاقصى بين السواحل والداخل . فهى اذن اشبه بقوس او هلال يحيط بالهارتلاند وتحيط به القوى البحرية ، اى انها تتوسطهما . ولعل مما له مغزاه ان تكون احدى الحلقات الهامة فى هذا النطاق « الاوسط » هى الشرق « الاوسط » ، بل لعل هناك اكثر من صدفة فى ان ماكيندر يطلق على شرق اوربا والبلقان وما فى تخومه

من منطقة الارتطام فى اوربا اسم « الشرق الاوسط الاوربى » (١) تأكيدا لفكرة الارتطام المتاصلة فى الموقع المتوسط

وفى هذا الموقع المتوسط تكمن شدة خطورة المنطقة — منطقة الارتطام — ودور الجسر بالنسبة لكل من قوى البر والبحر واهتمامها بها او بالسيطرة عليها . وفى الواقع ان كل تاريخ الصراع بين البر والبحر هو محاولة التحكم فى هذه المنطقة بالذات ، فهى تمسك زمام الموقف بين القوى القطبية ويمكن ان ترجح كفة على الاخرى ، وبالتالى فان مصيرها فى النهاية هو الذى يحدد مصير الصراع بين الهارتلاند والسواحل

ولا شك ان هناك قطاعات معينة من هذا النطاق تمتاز بموقعها وبطبيعتها بقيمة استراتيجية حرجة ، ولعل اهمها هو شرق اوربا فى الشمال والشرق الاوسط فى الجنوب . وليس صدفة بالتأكيد ان معظم من حاولوا البحث عن اخطر المواقع الاستراتيجية فى العالم — أيا كانت صحة آرائهم — وضعوها فى هذا النطاق أولا وفى هذه القطاعات منه بالذات ثانيا .

مثلا كان تاليران يرى ان اخطر نقطة استراتيجية فى العالم هى مصب الدانوب (٢) (أ) ، وكان بسمارك يضعها فى بوهيميا ، من سيطر عليها سيطر على وسط أوربا ثم على أوربا (٣) ، بينما حددها نابليون بمصر ، وبعده ومثله قال اندريه زيجفريد : « قل لى من يسيطر على قناة السويس أقل لك من يسيطر على

---

(١) Democratic Ideals, p. 122.
(٢) East Historical Geog. of Europe, p. 368.
(٣) الجيوبولتيكا ،، جـ ١ ص ١٨٥

العالم ؟ (١) . لا ، وليس صدفة كذلك ان المعارك الفاصلة المصيرية فى الحربين العالميتين الاخيرتين حدثت فى شرق اوربا وفى الشرق الاوسط ابتداء من « الجبهة الشرقية » الى « الحملة التركية » ومن ستالينجراد الى العلمين

والمنطقة بعد هذا وفى مجموعها اقل مساحة وسكانا وقوة واكثر تمزقا وتفتتا سياسيا من اى من القوى القطبية . وهى من ثم فى موقف هجومى او دفاعى ضعيف ، محصورة بين فكى كماشة او بين شقى رحى ، وقد يبدو من هذا لاول وهلة ان التبعية والعجز قدرها الجغرافى والتاريخى وانها ضحية موقعها المتوسط وان دورها الاستراتيجي لا يمكن ان يزيد عن دور الدول الحاجزة التصادمية التقليدى

ولكن الحقيقة ان نفس هذه الخصائص وذلك الموقع يمكن ان تكون عامل قوة لهذه المنطقة اذا ما جمعت قواها فى تكتلات او قطاعات اقليمية كبيرة ، فحينئذ يمكن لها ان تلعب دورا مختلفا تماما . ويمكن من هذه الزاوية ان نقسم دور هذه المنطقة عبر التاريخ الى ثلاثة : اما خط خمود سياسى ، واما منطقة رهو سياسى ، واما خط استواء سياسى

خط خمود حين تسقط لاحدى القوتين البرية او البحرية ، وفى الاغلب الاعم كان شرق اوربا بحكم الموقع وطبيعته السهلية من نصيب القوى البرية ، بينما كان الشرق الاوسط من نصيب القوى البحرية . فمنذ فجر التاريخ وشرق اوربا تكتسحه موجات الرعاة المتواترة ابدا ، ومنذ ظهرت الروسيا وكل تاريخ دويلات

(١) Siegfried, Mediterranean.

البلطيق وبولندا وبروسيا والى حد ما الدانوب والبلقان لا ينفصل عنها اما بالخضوع الفعلى او التهديد الشكلى. وكل ماساة بولندا فى التاريخ من تقسيم متكرر ، بل وزوال احيانا لا يخرج تفسيرها عن هذا . وشرق أوربا اليوم ملتحم التحاما عميقا مع الهارتلاند

اما الشرق العربى فقد كان مستعمرة واحدة كبرى للاستعمار البحرى منذ القرن التاسع عشر ، وكان هذا يشدد قبضته عليه بشراسة وضراوة خاصة بحكم حيوية وخطورة موقعه كالطريق الحقيقى الوحيد الى مستعمراته الساحلية فى الشرق الاقصى

اما حين تعجز القوتان القطبيتان عن ابتلاع المنطقة تماما فقد تكتفيان باقتسامها وتنازعها ، القطاعات الاكثر برية للقوة البرية والقطاعات الاكثر بحرية للقوى البحرية . هنا تصبح منطقة الارتطام والتصادم منطقة رهو سياسى ، منطقة شد وجذب ومد وجزر بين الطرفين . هكذا كان الشرق الاوسط القديم بين فارس وورثتها وبين اثينا وروما حين تقاسم الطرفان المنطقة فى توازن حرج متوتر

كذلك ففى هذه الحالة كثيرا ما يفرض التفتيت السياسى على المنطقة ـ سياسة البلقنة ـ حتى تكون سلسلة من الدويلات الحاجزة . وهذا ما فعله الحلفاء بعد الحرب الكبرى بشرق اوربا والبلقان والشرق الاوسط . وعادة ما تلجأ دول النطاق الى لعبة خطرة هى استراتيجية مضاربة الطرفين ببعضهما وذلك بأمل ان تضمن بقاءها ، كما فعلت ايران طوال تاريخها الحديث . كذلك انتهت الحرب الاخيرة بتقسيم المانيا الى شطرين يخضع كل منهما لاحد الطرفين

وقد يتفق الطرفان المتصارعان على تحييد جبرى يفرض على دول المنطقة حيث يتوازن نفوذهما ويتعادل ، وبذلك تصبح نوعا من الارض الحرام أو ارضا بلا مالك no man's land ، وخير ما يتمثل هذا فى أفغانستان وتايلاند ، فهما تدينان باستقلالهما القلق الباهت لا الى قوتهما الذاتية ولكن الى تعادل قوى الشد والجذب حولهما

واحيانا اخرى قد يؤدى الصراع ـ بمنطق عكسى ـ الى الحفاظ على كيان بعض دول المنطقة ، والمثل الكلاسيكى النادر هو تركيا . ففى وجه الخطر البرى ـ الروسيا ـ الذى هدد اكثر من مرة كيان الامبراطورية العثمانية فى صميمها ، تقدمت القوى البحرية ـ فرنسا وبريطانيا ـ بسرعة الى دعمها ومساندتها حتى عاشت بالفعل أطول مما ينبغى

ويبقى فى النهاية دور خط الاستواء السياسى ، وبه نقصد ان ترتفع قوة المنطقة الى مستوى خطورة موقعها لتؤكد وجودها وتفرض نفسها على التوازن العالمى بين قوى البر والبحر وترغمهما معا على التزام حدودهما ، وتمنع الالتحام بينهما بل وقد تخضع احداهما أو كليهما لسيطرتها هى . ومن المهم ان هذا دور أقل حدوثا فى التاريخ حتى ليوشك ان يكون شذوذا عابرا

ولكن الاهم أن ذلك الدور لم يتحقق الا بعد نوع ما من الوحدة بين أجزاء من المنطقة سواء منبثقة من الداخل أو مفروضة من الخارج . وهناك حالات ثلاث ارتفعت فيها منطقة الارتطام الى هذا الدور ، وهى تتراتب تاريخيا كما تتراتب جغرافيا من الجنوب الى الشمال

ففى الشرق العربى قامت الدولة العربية الاسلامية

فى العصور الوسطى لتضع مركز القوة العالمية فى قلب منطقة الارتطام على حساب كل من القوى البرية والبحرية ، كما استطاعت ان تفسد عليهما خططهما فى التحالف ضدها . ولكن كما انها بفضل الوحدة قامت ، فبفعل التفكك والانفصال زالت وسقطت لقوى برية المصدر

ثم يأتى بعد هذا تاريخيا والى الشمال جغرافيا ، المثل التركى حيث احتلت الامبراطورية العثمانية رقعة ارتطامية بحتة ابتداء من العالم العربى حتى البلقان ، ومع ذلك استطاعت ان تكون الى حين قطبا من اقطاب القوة فى عالم العصور الوسطى وطلائع العصور الحديثة. وأخيرا يتحرك القطب شمالا مع ظهور المانيا الموحدة التى رنت الى السيطرة العالمية ــ لا اقل ــ وكادت تحققها فى حربين عالميتين . ولكن ، وكما حدث فى حالة الدولة العربية الاسلامية ، سقطت المانيا الارتطامية حين اجتمع عليها الهارتلاند والسواحل البحرية معا

وفى الوقت الحالى يقع اغلب القطاع الشمالى من منطقة الارتطام بأوربا فى يدالهارتلاند ، وجزء محدود فى يد السواحل البحرية ، بينما فى الشرق الاوسط والاقصى زال الاستعمار البحرى واصبحت المنطقة مستقلة لاول مرة منذ وقت طويل .. وهنا نجد مثلا حيا على استمرارية الخطوط العريضة فى استراتيجية المنطقة . فهى لم تعد خط خمود سياسى ولا هى منطقة رهو ، ولكنها ليست بعد خط استواء سياسى غلاب . غير أنها وهى تدرك موقعها الحاسم تحاول اولا ان تحفظ كيانها أدخل فى استراتيجية العالم المعاصر ، وهو ما ينبغى أن نتقدم الان الى دراسته

الفصل الحادى عشر

عالمنا المعاصر

حين يكتب مؤرخو المستقبل تاريخ هذا القرن ، فاغلب الظن انهم لن يملكوا الا أن يعتبروا نهاية الحرب العالمية الثانية ــ قل بالتقريب منتصف هذا القرن ــ خط تقسيم جوهريا وجبهة افتراق عميقة فى التاريخ الحديث جميعا ، لا تقل خطرا ولا مغزى عن فترة الكشوف الجغرافية او الانقلاب الصناعى . ففى تلك الفترة المضغوطة زمنيا المفعمة تاريخيا ، اجتمع ــ كأنما على ميعاد ــ انقلابان حافلان مذهلان : ثورة التحرير ، والانقلاب النووى . الاول ثور المناخ السياسى فى العالم برمته ، والثانى قلب قوانين الاستراتيجية الكوكبية رأسا على عقب . ونحن فى معنى حقيقى جدا نعيش اليوم فى عالم جديد ــ كدت أقول فى كوكب جديد ! ــ خرج من رحم عالم الصناعة والاستعمار ولكنه بنفس الدرجة خرج عليه

وفى الجيولوجيا والبيولوجيا كما فى التاريخ ان مسار التطور يظل عادة رتيبا تقليديا كالخط المستقيم اوكالمنحنى الانسيابى ، ثم اذا به يتفجر فجاة فى ثوران بركانى قصير ولكنه عنيف يغير تضاريس الوجود ومعالم الزمان ويضبع ملامح العصر وتوازناته ويحددها لأمد بعيد ، ومعها يعود ايقاع الحياة رتيبا تقليديا مستقرا ، حتى تبدأ الدورة الانفجارية من جديد ، وهكذا . تلك هى النظرية النكبائية

catastrophism في العلم الطبيعي (١) ، والنظـرية الثورية في العلم الاجتماعي . وما نحن بحاجة فيمـا نحسب الى سيسموجراف تاريخي أو بارومتر سياسي لندرك اننـا نركب اليوم قمة موجة عاتية من موجات التاريخ الانفجارية زلزلت تضاريس السياسة العالمية ، وخلقت طبوغرافية جديدة للاستراتيجية الكوكبية . ومن هنا نبدأ . .

الثورة السياسية : جغرافية التحرير

انها لمفارقة من الجغرافيا مثـيرة أن يستطيع مليونان ومائتا الف ميل مربع هي كل مساحة غرب اوربا أن تنشر نفوذها وظلها وان تفرض استعمارها على اكثر من سبعة وخمسين مليون ميل مربع هي مساحة العالم المعمور وغير المعمور ، وذلك في اقل من خمسمائة عام (٢) ! ولا تقل غرابة عن ذلك جزئيات الصورة : ففداة الحرب الأخيرة كانت بريطانيا تملك قدر مساحتها ١٤٢ مرة ، وفرنسا ٢٢ مرة ، أما هولنده فنحو ٥٧ مرة ، وبلجيكا ٨٠ مرة ، وايطاليا ١٩ مرة

ويمكن على اساس الموقع من منحنى التطور الاستعماري ان نصنف القوى الاستعمارية في ذلك التاريخ الى اربع طبقات او فئات (٣) . فثمة اولا « القوى العتيقة » ، بدأت الاستعمار في اوائل عصر الكشوف ، ولكنها بقـدر ما تعاظمت في البداية تضاءلت في النهاية وازاغتها القوى الاحدث ، فاصبحت امبراطوريتها حفرية fossil empire ونوعا من الاستعمـــار المتخلف residual المفتت .

---

(١) F. Zeuner, Dating the Past, Lond. 1950; Wooldridge & East, Spirit & Purpose of Geog., Lond., 1950.

(٢) هويتلزى ، ص ٨٦

(٣) جمال حمدان ، الاستعمار والتحرير في العالم العربي ص ٣٢

ومن المتفق عليه انها كانت قد اصبحت اعجز فى حقيقتها من ان تلك امبراطوريات ، وان كياناتها الامبريالية ليست الا سخريات سياسية ، بل لقد عد بعضها رجل اوربا المريض الجديد . هنا تاتى البرتغال واسبانيا والى حد ما هولندة

يلي ذلك « القوى العتيدة » ، وهى أحدث من العتيقة دخولا الى الاستعمار ، ولكنها اقدم واخطر دول اوربا توحيدا وتصنيعا وقوة . ولذا كانت اكبر قوى استعمارية ظهرت فى التاريخ الحديث وتمثل الاستعمار الكلاسيكى او الراديكالى بكل ما اصبح يعنى من استغلال ورجعية واحتكارات . والواقع ان تاريخ الاستعمار القريب يتحلل اساسا ونهائيا الى تاريخ الصراع بين هذه القوى بعضها البعض ، وبينها وبين من سبقها ومن لحقها من القوى . وتشمل هذه المجموعة دولتين فقط هما بريطانيا وفرنسا

ثم هناك « القوى الوليدة » التى لم تصبح دولا موحدة الا بالامس القريب فقط ، والتى تأخر فيها بدء الانقلاب الصناعى نسبيا ، وبالتالى تأخر خروجها الى ميدان الاستعمار فلم تجد الا الفتات . وحتى هذا لم تنعم به طويلا فى اغلب الحالات، فقد تجمعت ضدها القوى العتيدة لتجردها منه فى اثناء الحربين العالميتين . تحت هذه العائلة تندرج المانيا وايطاليا ، والى حد ما بلجيكا ، وفى معنى خاص اليابان

واخيرا تأتى « القوى الجديدة » ، وهى تلك التى ظهرت متاخرة على مسرح الصراع السياسى الاستعمارى دون ان تكون دولا جديدة فى ذاتها كالقوى الوليدة او ان يكون لها نفوذ سابق كالقوى العتيدة . ولهذا فهى لم تمارس الاستعمار بشكله التقليدى بل تنكر صلتها بالاستعمار وتستنكره . ومع ذلك فهى متهمة من غيرها باشكال خاصة

من الاستعمار اما الاقتصادي واما الايديولوجي . وتتألف هذه المجموعة من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي

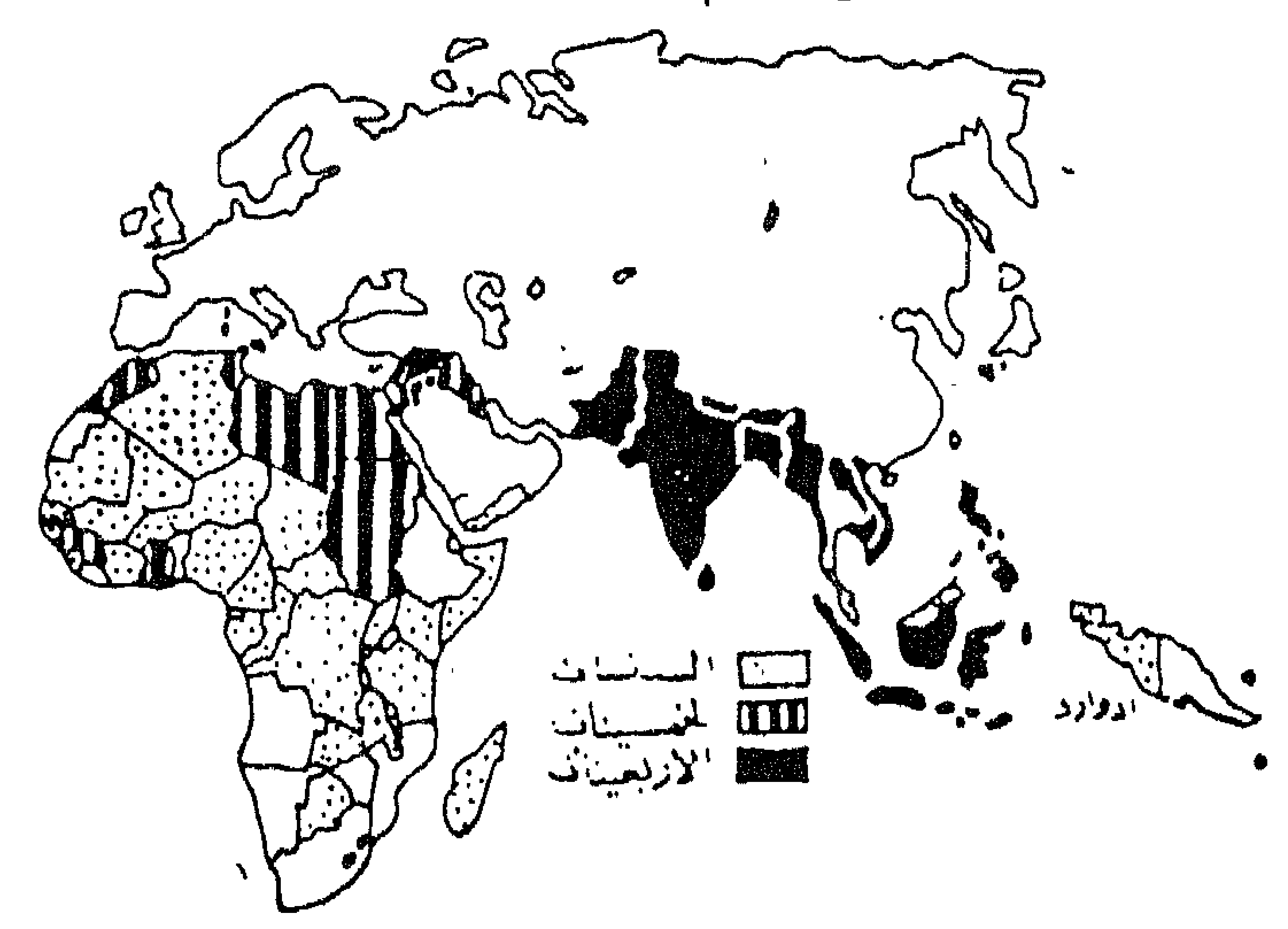
هذا في خطوط عريضة تصنيف طبقات الاستعمار غداة الحرب الثانية . اما عشيتها فكان الاستعمار المباشر يغطي حوالي ٣٥ ٪ من مساحة العالم ، وكانت أوربا ترى فيه بلسما ودواء كاملا panacea لكل أمراض الحرب وجراحها . كانت تحسب تلك العلامة القياسية قمة الاستعمار ، بل وكانت تخطط للبقاء في مستعمراتها قرونا عديدة (١) ! وما كان يدور بخلدها انها النهاية

أجل ، فانها لمفارقة من التاريخ اشد اثارة مما سبق ، ان ما بناه الاستعمار في خمسة قرون هدمه التحرير في عقدين اثنين . فبين ١٩٤٥ ، ١٩٦٥ هوت رقعة الاستعمار من ٣٥ ٪ من مساحة العالم الى ٤ ٪ ، اى ان معدل سرعة المد التحريري يعادل عشرات اضعاف معدل الزحف الاستعماري ، حتى قيل ان الاستعمار اذا كان قد أتم مشرقه في ساعات فقد عبر خط الزوال وشهد شفقه وغسقه ثم غروبه في دقائق معدودات . وبينما اتى الاستعمار في موجتين كبريين لكل منهما بدوره ذبذباته الثانوية ، جاء التحرير في موجة واحدة طاغية كاسحة . واذا كان البعض قد تحدث في هذا الصدد ـ تقليلا في الحقيقة ـ عن « رياح التغيير » ، فاولى بنا ان نقول اعصارا او هاريكين !

انها بلا ريب ثورة التحرير ، وانه عصرذوبان الاستعمار de-colonisation ما في ذلك شك ، ونهاية الامبراطورية واوربة العالم dis-Europeanisation . واذا كان القرن التاسع عشر قرن الاستعمار ، فان القرن العشرين بحق قرن

(1) Karl Pelzer, op. cit., pp. 314-5.

التحرير . ولئن كان الاول وباء القرن الماضى ، فان التحرير اليوم ظاهرة « معدية » كما قيل ، ولكنها عدوى صحية حين تبدأ لا تتوقف وانما تتداعى فى سلسلة من الافعال وردود الافعال حتى تشكل موجة مدية غلابة . ان الاستعمار الذى ولد ولادة غير طبيعية وغير شرعية يموت الآن ميتة طبيعية ، بل لعلنا نكون أقرب الى الصواب اذا قلنا بالسكتة القلبية . ومعها — هذه الميتة — ينتقل الاستعمار من الجغرافيا السياسية الى الجغرافيا التاريخية ، ويصبح من حفريات التاريخ السياسى . لقد تمت دورة كاملة من قيام وسقوط أوربا (1)



شكل (٢٨) زحف موجة التحرير :
فى عقود ثلاثة ، هدم التحرير ما بناه الاستعمار فى خمسة قرون . لاحظ الموجات الثلاثة : الاسيويه فى الاربعينات ، العربية فى الخمسينات ، والافريقية فى الستينات

ولنتتبع الآن جغرافية التحرير فى خطوطها العريضة

(1) جون كول ، ص ٢٩٧ — ٢٩٩ .

قبل أن نعرض لدوافعها وضوابطها . ومن الصعب أحيانا أن نحدد تاريخ ومسار التحرير الحقيقى ، تمييزا له عن الاستقلال الشكلى . ولكن اول تحرير حقيقى بدأ فى اثناء الحرب فى لبنان (١٩٤١) وسوريا (١٩٤٣) ، وذلك كنتيجة لتصادم بريطانيا وفرنسا معا فى اللفانت . فقد حاولت فرنسا الحرة ان تعود ، فى وجه الثورة الوطنية ، الى السيطرة فى الشام ، ولكن بريطانيا تذرعت بظروف الحرب لتطرد فرنسا من المنطقة ـ منطقتها التقليدية ـ وترثها فيها ، فأرغمتها على التسليم للنضال الوطنى بالاستقلال . ولكن الشام بداية منعزلة وارهاصة محدودة ، أشبه بنذير النفير . أما العاصفة الحقيقية فلم تجمع قواها الا بعد الحرب ، ومن بعدها يمكن ان نميز بين ثلاث موجات زمنية ـ اقليمية واضحة بما فيه الكفاية

الموجة الاسيوية

الاولى هى الموجة الاسيوية فى الاربعينات المتاخرة ، ومركزها الشرق الاقصى . ففى ١٩٤٦ «منحت» الولايات المتحدة الفلبين استقلالها ـ طواعية كما تلح هى وتؤكد دائما . وفى ١٩٤٧ استقلت مع التقسيم كل من الهند والباكستان وبورما ، وذلك بعد نضال وطنى طويل بدا سلميا بالمقاومة السلبية المشهورة (الساتيا جراها (Satia Graha) وانتهى عنيفا فى اثناء الحرب . وفى ١٩٤٨ جاء دور سيلون فى الاستقلال .

ثم كانت ١٩٤٩ سنة جنوب شرق آسيا حيث خرجت فرنسا مهزومة بعد حرب عصابات تحريرية مريرة ترمز لها وتلخصها ببلاغة بل تخلدها دين بين فو ، فنالت كل من فيتنام ولاوس وكمبوديا استقلالها . وبالمثل خرجت

هولندة من اندونيسيا بعد هزيمة قاسية فى حرب عصابات وادغال مماثلة فى نفس التاريخ ، ولو ان تحرير ايريان الغربية تأخر الى أوائل الستينات (١٩٦٢) . وبهذا لم تبق الا الملايو بغير استقلال فى هذه الموجة ، حتى انتزعته بعد حرب عصابات مطولة فى أواخر الستينات . وكانت آخر القائمة هى جزر ملديف السديمية على اطراف الهند

ولا ينبغى أن نتكلم عن التحرير فى آسيا دون أن نذكر دورا ما غير مباشر وغير مقصود لليابان. فقداكتسح الغزو اليابانى جنوب شرق آسيا فى اثناء الحرب الاخيرة اكتساحا خاطفا ، حطم نهائيا قداسة القوة الاستعمارية الغربية ، وكان له تاثير صاعق على أسطورة سيادة الرجل الأبيض الذى رآه كل الآسيويين مهزوما مدحورا على أيدى آسيويين مثلهم (١) . وايا كانت اهداف الدعاية اليابانية من شعار « آسيا للآسيويين » ، وايا كانت قيمة الاستقلال الوطنى الذى منحته لشعوب تلك المستعمرات ابان الغزو ، فقد افسد هذا مرة واحدة والى الابد التربة والنفسية القديمة الصالحة للاستعمار

كذلك لجا اليابانيون حين اضطروا الى التسليم الى اعطاء الأسلحة للوطنيين ، كما ان الحلفاء الاستعماريين من جانبهم سلحوا الوطنيين بقصد مقاومة اليابانيين . ولهذا حين عاد الاستعمار بعد الحرب وجد الوطنيين مسلحين ضده قوميا وعسكريا . ومن هنا بدأ التحرير . وبعده ، فى المعركة نفسها ، جاء عاملان آخران ليحاربا فى صف الوطنيين ضد الاستعمار العائد

فأما الاول فهو البيئة الطبيعية ، فان بيئة آسيا

(١) Ritchie Calder, Dawn over Asia, News Chronicle Publication, 1952, pp. 18. 20.

الموسمية كانت حليفا طبيعيا لأبنائها : ادغال واحراش وغابات كثيفة ، ثم انهار ومستنقعات وجبـــال تمثل ـ لاسيما فىالفصل المطير ـ مجالا مثاليا لحرب العصابات ، يدوخ الجيوش النظامية ميكانيكية وجوية على السواء . وعلى سبيل المثال فقد كانت الهند الصينية فى الحقيقة مصيدة طبيعية ضخمة لقوات الاستعمار . اما العامل الثانى فهو أن الاستعمار هنا كان استعمارا استغلاليا لاسكنيا ولا استراتيجيا ، ولهذا كان على ضراوته اضعف جذورا واسهل استئصالا

والى جانب هذا وذاك جميعا بقى عامل خارجى على جانب كبـــير من الاهميه ، ونعنى به الموقع الجغـرافى والسياسى . فمن ناحية كانت آسيا الموسمية ابعد قطاعات الاستعمار عن اوربا ، ومن ثم اصعبها منالا وارتباطا . ومن ناحية أخرى فقد كانت تقع على خط الاستواء السياسى بين الكتلين الشرقية والغربية وتكاد تستقر على ضلوع المعسكر الشيوعى وتحارب وظهرها يستند الى اعمـاق الصين . بمعنى آخر كانت ابعـد شىء عن فلك الغـرب الجغرافى وادخل شىء فى فلك الشرق ، ومن هنا تدفقت عليها المساعدات بالاسلحة والتأييد ضد الاستعمار

الموجة العربية

اما الموجة الثانية من موجات التحرير فهى موجة العالم العربى فى الخمسينات ، ولو أن طلائعها ظهرت فى لبنان وســوريا فى الاربعينـات واواخرها تأخـرت فى الكويت والجزائر الى الستينات الباكرة وفى الجنوب اليمنى الى الستينات المتـاخرة . ففى ١٩٥١ نالت ليبيا استقلالهـا بفضل المناورات الاستعمارية من اجل الوصاية على ارث

الاستعمار الايطالي . فقد حاولت كل من بريطانيا وفرنسا وايطاليا ان تتولى الوصاية على ولايتها برقة وفزان وطرابلس على الترتيب . ولكن اعتراض الاتحاد السوفييتى على عودة ايطاليا ومحاولته ان يحل محلها كان وحده كافيا لان يدفع بالاستعمار الى ان يقرر الاستقلال ، لا حبا فى ليبيا ولكن كرها فى الاتحاد السوفييتى وهلعا من ان « يتسلل » الى الشرق الاوسط (١)

وفى ١٩٥٣ تحررت مصر نهائيا بعد حرب عصابات ومقاومات مسلحة فى منطقة القنال ، سبقتها سلسلة من التوترات والتحديات الشعبية من قبل ، الى ان توجت فى النهاية بحرب حقيقية كاملة وحاسمة فى ١٩٥٦ . وهذه الحرب ستكون نقطة تحول عظمى فى التحرير لا فى العالم العربى ولكن فى افريقيا وخارجها كذلك . والواقع منذ البداية ان مصر بحكم موقعها ووزنها كانت سباقة الى النضال التحريرى وكانت دائما مركز الوعى ومنبع الوحى فى الكفاح ضد الاستعمار ، فكانت نموذجا للمغرب العربى ومثالا للمشرق ، وحجر الزاوية والقوة الركن موقعا ودورا . باختصار ، كانت مصر واحة العرب سياسيا . فمنذ ثورة يوليو الأم ، رصع العالم العربى بنسل دافق من الثورات التحريرية ، تبدو كالاقمار حول الشمس أو كالنويات حول النواة ، وكان لكل منها بدورها صداها العميق الفاعل ، ابتداء من الجزائر وانتهاء باليمن

ومرة أخرى كانت ١٩٥٦ عاما حاسما بالنسبة للعالم العربى الافريقى ، اذ استقلت فيه ثلاث وحدات هى تونس والمغرب والسودان ، وبعدها بقليل استكمل العراق استقلاله الحقيقى . ففى السودان استطاعت

(١) P. Birot & J. Dresch, La Méditerranée et le Moyen-Orient, Paris, 1951.

مصر الثورة المستقلة ان توفر له الفرصة لتصفية الحكم الثنائى ليمكنه من طرد الاســـــتعمار البريطانى . وفى المغرب وتونس حدثت مصادمات عنيفة مع الاســـتعمار الفرنسى حتى اضطر الى الخروج ، ولو أنه بقيت بعــد ذلك فى تونس بعض جيوب استعمارية متخلفة فى بنزرت طهرت فيمـــــا بعد فى ١٩٦٣ ، وفى المغرب فى الاسافين الاسبانية سبتة ومليلة وافنى وهى ما تزال حتى الان

وبهذا كان العالم العربى الافريقى قد تحـــرر كله فى ١٩٥٦ فيما عدا الجزائر التى أتى دورها فى ١٩٦٢ بعد حرب تحريرية سبعية كاملة ــ حرب السنوات السبع العربية ــ كلفت الجـــــزائر مليونا ونصف مليون من الشهداء ، ولعبت فيها المساعدة الحربية والسياسية المصرية دورا خطيرا . ومما له مغزاه أن ثورة التحرير الجزائرية لم تشـــتعل الا بعد عام من الثورة المصرية ، وفضلا عن هذا فان فرنسا لم تشترك فى حرب السويس الا « لتخضع الجزائر عن طريق القاهرة »

هذا ، وقبل الجزائر وفى ١٩٦١ كانت الكويت قد تحررت على الخليج ، منتزعة اســتقلالها من بين براثن الاستعمار البترولى فى صميمه . أما بعــد الجزائر ــ وعلى نحو بكررها على تصغير شديد ــ فقد ســـــجل الجنوب العربى اخر موجات المد القومى ، حيث أرغم الاستعمار البريطانى على الخروج فى أواخر ١٩٦٧ من « عدن والمحميات » أو « اتحاد الجنوب العربى » كمـــا سماها الاستعمار على التعاقب ، وحيث قامت جمهورية جديدة باسم جنوب اليمن بعد حرب تحريرية حقيقية بدأت منذ ١٩٦٤ ، تحت ايحاء الثورة اليمنية الملاصقة وفى ظـــل المساعدة المصرية ــ تماما كما بدأت الثورة الجزائرية

وسيلاحظ عند هذا الحد انه بالعالم العربى قد بدات اول عملية تحرير فى افريقيا على طول ضلعى ساحل البحر الاحمر والمتوسط . اما فى آسيا العربية فمن السهل أن نرى سهم الحركة يبدأ من الشمال عموما سواء فى الشام او العراق ثم يرسم قوسا عريضا عكس عقارب الساعة ليصل الى الجنوب اليمنى . وهو لاشك سيمضى فى نفس الاتجاه على طول بقية سواحل الجنوب العربى ثم الى الخليج العربى فى النهاية ، اى على نفس المحور الذى تمدد عليه الاستعمار فى البداية ، بل لقد اعلنت بريطانيا اخيرا وتحت ضغط المد العربى عزمها على الانسحاب من الخليج العربى نهائيا قبل ١٩٧١

والملاحظ بذلك وبعد ذلك أن افريقيا العربية قد تحررت كلية فيما عدا الجيوب والاسافين الاسبانية فى المغرب . هذا بينما ان آسيا العربية ، التى كانت معقل القطاع الوحيد الذى نجا من الاستعمار أولا وموطن بدء عملية التحرير ثانيا ، قد أصبحت الآن المعقل الاخير حقا للاستعمار فى العالم العربى . فالاستعمار المتخلف هنا يتوزع فى فلسطين المحتلة فى الشمال وفى الجنوب العربى ابتداء من ظفار حتى البحرين

ومن ناحية المدى الزمنى لكل من المد الاستعمارى والمد التحريرى ، فالظاهرة اللافتة بوضوح هى شدة تضاغط الثانى بالقياس الى الاول ، فما بناه الاستعمار فى ٩٠ سنة ـ باستثناء فلسطين المحتلة ـ هدمه التحرير أو هدم معظمه فى أقل من ٢٥ سنة . اما من حيث الترتيب التاريخى وتوقيت التحرير ، فسنلاحظ نوعا عريضا وعاما ـ دون أن يكون مطردا مع ذلك بأى معنى ـ من العلاقة العكسية بين اولوية الاستعمار وأولوية التحرير . فبصورة تقريبية كانت اخر الوحدات العربية

التى سقطت للاستعمار (كسوريا ولبنـــان وليبيا من ضحايا الموجة الثالثة) هى من ابكرها استقلالا ، بينما كانت اخرها استقلالا هى أولى ضحايا الاســـــتعمار (الجزائر والجنوب اليمنى من ضحايا الموجة الاولى) ، وباستثناء الشــذوذ البحت فى فلســطين المحتلة مرة أخرى ، فكل بقايا الاستعمار الان هى أيضا من ضحايا الموجة الاولى . ويترتب على هذا كله ان أولى الضحايا كانت سيئة الحظ مرتين وكان عمر الاستعمار فيهـــا اطول مرتين

واذا نحن توقفنا لنتمعن ضوابط التحرير فى العالم العربى ، فلن نخطىء اثر الموقع الجغرافى ونوع الاستعمار بالاضافة الى البيئة الطبيعية . فمن بين كل منـــاطق الاستعمار فى العالم القديم يقع العالم العربى أقرب ما يقع الى أوربا بل هو ادخل فى فلكها الجغرافى . وبالتالى فقد كان من السهل على الاستعمار أن يشدد قبضته هنا دون ان يقابل مواجهة مباشرة من توازن قوى مع معسكر مضاد أو كتلة أخرى

كذلك فقد كانت جذور الاستعمار هنا متغلغلة عميقة لان نوعه السائد كان أما من الاستعمار الاستراتيجى كما فى مصر بوجه خاص واما من الاستعمار السكنى كما فى الجزائر بوجه خاص . كما جاء البترول فى ســواحل المشرق العربى ليدعم الجانب الاســـتراتيجى ويضيف الجانب الاستغلالى فى طبيعة الاستعمار ، ولهذا استمات الاستعمار بشراسة وقابل المقـــاومة الوطنية بمزيد من القوة الضارية . ففى مصر يرمز الكفاح المســلح وحربا القنال الى مدى صعوبة استئصال الاســــــتعمار الاستراتيجى . ولو ان الهند قد استقلت فى وقت مبكر ،

فلربما كان من الراجح أن تنتزع مصر استقلالها منذ ذلك التاريخ

اما فى الجزائر حيث وصل الاستعمار السكنى الى ابشع درجاته واشدها ضراوة حتى اعتبرها جزءا لا يتجزأ من وطنه ، فقد اثبتت التجربة ان مشكلة التحرير مع الاستعمار السكنى مشكلة مزدوجة ، فهو لا يكافح القوة المتروبوليتانية فقط بل والمستوطنين ايضا . فكلما اشرف على انتزاع تنازلات من الجانب الاول تحول الثانى الى عصابة ارهابية داخلية « تأخذ القانون فى يدها » وتفرض نوعا خاصا من حكم الملاك Landocracy هو حكم ملاك الاستعمار Plantocracy وتعلن العصيان والتمرد على الحكومة « الام » مهددة « بحرب استقلال » (!) للانسلاخ عنها والانفراد بالمستعمرة

ثم حاول ارهاب المتوطنين أن يفرض ، دون جدوى ، التقسيم الى دولتين مستقلتين اوربية على الساحل المعمور ووطنية فى الداخل الصحراوى الى ان قذف به التحرير فى البحر تماما . وفى جبهة المعركة اخذت الطبيعة ، كقلعة جبلية غابية وعرة ، صف الوطنيين ، تهيىء لهم حرب العصابات فى الوقت الذى تضاد جيوش المستعمر الميكانيكية والجوية ، حتى اصبحت القبائل واوراس رمزا وطنيا وموطنا للتحدى والنضال القومى

ورغم ان الاستعمار فى الجنوب اليمنى لم يكن سكنيا ، فقد استمات فى تشبثه بالبقاء ، وذلك بسبب طبيعته الاستراتيجية ـ وبفضلها ايضا . فمنذ ضياع السويس اصبحت عدن اضخم قاعدة بريطانية بحرية شرق السويس وذلك اساسا فى منطقة مخلخلة السكان

نسبيا . ولكن الارض هنا ـ كما هى القاعدة دائما ـ حاربت مع ابنائها ، وتكررت تجربة الجزائر على مقياس مصغر . فلعبت جبال ردفان ـ كاوراس ـ دور المشعل والمعقل فى حرب العصابات ، بينما لعبت عدن باحيائها الشعبية المكتظة دور مدن الساحل الجزائرى بقصباتها الوطنية الشهيرة ، وكما ناور الاستعمار فى الجزائر بخدعة التقسيم ، ناور فى الجنوب العربى ـ دون جدوى ايضا ـ بمحاولة فصل الجزر الساحلية عن الارض الام ليتخذ منها قواعد او حاملات طائرات لا تغرق تدخل فى فلك استراتيجيته الجديدة العامة ، استراتيجية الجزر المحيطية فى المحيط الهندى

الموجة الافريقية

تبقى الان الموجة الثالثة والاخيرة للتحرير وهى الافريقية ـ بمعنى افريقيا المدارية ـ فى الستينات (١) . ولقد سبقتها فى الواقع بعض حالات معزولة فى اخريات الخمسينات تضم غانا فى سنة ١٩٥٧ وغينيا فى سنة ١٩٥٨ حيث كانتا اولى الدول الافريقية المدارية استقلالا . وكذلك كان هناك من قبل دولتان افريقيتان مستقلتان منذ القدم هما اثيوبيا وليبيريا ـ اثيوبيا لظروفها الطبيعية كقلعة جبلية منيعة لم تسقط للاستعمار الا فى الفترة الايطالية ، وليبيريا لظروف انشائها لتحرير الرقيق الامريكى العائد . فكلاهما « استقلال سلبى » ان صح التعبير

وانما ننتقل الى قلب او قمة الموجة التحريرية الافريقية فى سنة ١٩٦٠ ، فهى علامة كبرى فى تاريخ

(١) حمدان ، افريقيا الجديدة.

القارة وسنة القدر والقدر بالنسبة لها . فالى ما قبل هــذا التــاريخ كان بالقــارة كلها عشر دول مســتقلة فقط لا تزيد مســاحتها عن ٣٫٤٧٠٫٠٠٠ ميــل مربع او ٣٠ ٪ من مساحة القارة ، ولا يزيد ســكانها عن ١٠٢٫٣٤٠٫٠٠٠ نسمة او ٤١٫٧ ٪ من سكان القارة . فاذا بسنة ١٩٦٠ ـ سنة افريقيا كما وصفت ـ تضيف الى قائمة التحرير ١٧ دولة جديدة بمجموع مســاحة قدره ٤٫٥٧٠٫٠٠٠ ميل مربع او ٤١ ٪ من القــارة ، وبمجموع سكان قدره ٨١٫٩٤٥٫٠٠٠ نسمة أو ٢٣٫٥ ٪ من القارة

ومعنى هــذا المعدل المذهل استقلال اكثر من دولة كل شهر من ذلك العام . وتشمل هــذه المجموعة كل وحدات افريقيا الاستوائية الفرنسية وافريقيا الغربية الفرنسية السابقتين ، مضافا اليها نيجيريا والـكونغو (كينشاسا) وملاجاش . وبهــذه الموجة تم تحــرير غرب افريقيا كله تقريبا ، كما عبر التحرير خط الاستواء لأول مرة

ومنــذ سنة ١٩٦٠ حتى الوقت الحالى لم يتوقف زحف الحرية . ففى السنوات الخمس الاولى استكملت الثغرات المتخلفة فى غرب افريقيا اســتقلالها وذلك فى سيراليونى ثم فى جامبيا ، ولـكن مركز ثقل التحرير انتقل اساسا الى شرق القارة ، فهنا نالت ٨ وحدات استقلالها ابتــداء من اوغنــدا وكينــيا حتى ملاوى وزامبيا بلا انقطاع . وبذلك تم تحرير كل حوض النيل من ناحية ، ووصلت طلائع الحرية الى حوالى خط عرض ١٨ درجة جنوبا من ناحية اخرى حيث أرسلت سهما فى صميم كتلة الاستعمار المتخلفة فى افريقيا الجنوبية . وعدا هذا فمنذ سنة ١٩٦٥ حتى نهاية سنة ١٩٦٧ تم

استقلال بتشوانالند (بوتسوانا) باسوتولند (ليسوتو) كما استقلت جزيرة موريشس فى العام الحالي . وبهذا وصلت طلائع التحرير الى خط عرض ٢٨ او ٣٠ ه جنوبا ، اى ان التحرير قفز ٣٠ درجة عرضية فى ٧ سنين فى النصف الجنوبى من القارة وحده .

والمحصلة العامة الان - ١٩٦٨ - ان عدد الوحدات المستقلة فى القارة الافريقية قد وصل الى ٣٩ وحدة ، مجموع مساحتها نحو ٣ر١٠ ملايين ميل مربع او نحو ١ر٨٨ ٪ من مساحة القارة ، ومحتواها السكانى لا يقل عن ٢٣٤ مليون نسمة او حوالى ٥ر٩٣ ٪ من ابناء القارة . وبهذا تكون اكبر حركة تحريرية فى العصر الحديث قد تحققت فى افريقيا ، وذلك من حيث المساحة وان لم يكن من حيث السكان

واذا نظرنا الى افريقيا ككل فسنرى ان التحرير بوجه عام بدا اولا بساحلى البحر المتوسط والاحمر . ثم يلى زمنيا غرب افريقيا بعامة ، يتبعه مباشرة تقريبا نطاق الصحراء الكبرى وحوض الكنغو . بعد ذلك عبرت قافلة الحرية خط الاستواء ، وزحفت من شرق افريقيا الى وسطها على طول العمود الفقرى لخط المرتفعات والهضاب الشرقية ، تماما على عكس مسار الاستعمار الابيض هنا فى القرن الماضي . فسهم التحرير فى القارة بعامة يرسم اذن اتجاها محددا واضحا من الشمال الى الجنوب

وفى التحرير الافريقي لا يمكن ان نغفل اثر نوع الاستعمار ودور الطبيعة . ففيما عدا جزرا جغرافية معينة من الاستعمار السكنى ، كان الاستعمار الاستغلالى هو الذى يسود القارة المدارية . ففى ظل هذا الاخير

لم يجد التحرير عقبات مستحيلة . فالجاليات الاوربية رشاش او رذاذ بالغ الضآلة عددا وقوة بفضل المناخ الطارد ، ولا تملك المقاومة الجدية ، ويسهل على المد التحريرى اقتلاعها . ولقد قيل على سبيل المثال فى غرب افريقيا « ان بعوضة الملاريا هى المنقذ الحقيقى»

اما فى جزر الاستعمار السكنى حيث يتضخم عدد وقوة الدخيل ، فكان لا بد من التحام دموى ، ومن حسن الحظ ان الطبيعة الجبلية العالية التى كانت فى البدء مغنطيس الاستعمار السكنى ، كانت بعينها فى النهاية عامل طرده ، وان الطبوغرافيا التى كانت عونا له اصبحت عوانا عليه ، وذلك بحسبانها ميدانا مواتيا لحرب العصابات الوطنية . تلك تجربة متواترة عرفتها اثيوبيا ضد الايطاليين ، وخاضتها الكيكويو فى كينيا ، وتعرفها اليوم مرتفعات انجولا . بل قبل هذا جميعا عرفتها قبائل الزولو والماتابيلى فى مرتفعات جنوب افريقيا حيث استمر الكفاح قرنا باكمله على فترات متقطعة فى « حرب الكافير » حتى سميت بجدارة حرب المائة عام الافريقية (١)

واذا نحن نظرنا نظرة مقارنة الى حركة التحرير فى كل من آسيا الموسمية والعالم العربى وافريقيا المدارية ، فقد يمكن ان نقول ان الصراع فى الاولى كان اقرب الى الشكل العسكرى وانتظم حروبا حقيقية عنيفة ومريرة منظمة او بالعصابات ، اما فى العالم العربى فان الحروب المسلحة تتقاسم الصراع مع الكفاح الشعبى بنسب متقاربة . غير ان حركة النضال به كانت اطول مدى وزمنا منها فى آسيا . واما التحرير فى افريقيا المدارية

(١) Macmillan, Africa Emergent, Pelican, 1949.

فهو وان لم يخل من العنصر الحربى فقد كان اقرب الى الكفاح السياسى الشعبى بعامه ، وتحقق بسرعة وسهولة نسبية لا تقارن بأى من المنطقتين الاخريين ، ولا شك ان هذا يرجع جزئيا الى انها قد افادت من ثمار نضالهما العنيف او الطويل

هذه اذن هى موجات التحرير الثلاث فى العالم القديم . ولكن قبل ان نتقدم بعدها ينبغى ان نتذكر ان حركة التحرير لم تقتصر على العالم القديم . بل لقد شهدت الستينات استقلال بعض الجزر فى العالم الجديد ، اهمها ــ اذا استثنينا ايسلند التى انفصلت عن الدانمرك فى سنة ١٩٤٤ ــ هى جميكا وتوباجو فى الانتيل الصغرى بالكاريبى فى سنة ١٩٦٢ . كذلك فقد تم اخيرا استقلال جيانا البريطانية (جويانا) على ساحل امريكا الجنوبية المقابل ابتداء من سنة ١٩٦٦

غير انه يقابل هذا التيار العام العالمى اتجاه محلى عكسى يمثل انتكاسة الى الوراء . ففى الوقت الذى كان الاستعمار الكبير والصغير ينحسر ويتصدع عالميا ، كان استعمار جديد ــ ودنىء ــ قد بدأ فى فلسطين هو الاستعمار الصهيونى حيث كرر قرصنة القرن التاسع عشر ، وجمع بين اسوأ واسود ما فى دموية النازية وعنصرية جنوب افريقيا . غير انه اذا كان هذا الاتجاه التعس يدل على شىء فانما يدل على ان الاستعمار الصهيونى القمىء يأتى ضد كل تيار التاريخ ــ حتى التاريخ الرجعى ، حتى تاريخ الاستعمار نفسه ــ وانه من ثم محكوم عليه قبلا وبحتمية التاريخ بانه قد ولد ليموت

مغزى التحرير

السؤال الان : هذا الزحف التحررى بنمطه التاريخى الواضح ، ماذا يقول للجغرافى ؟ حقيقتين بارزتين : اولاهما ان هناك فارقا زمنيا طفيفا ولكنه دال بما فيه الكفاية بين قطاعات العالم القديم فى توقيت التحرير. فمسار الحركة يرسم قوسا عكس عقارب الساعة يدور مع سواحل المحيط الهندى او موازيا له ، بادئا فى آسيا الموسمية ومارا بالعالم العربى ثم منتهيا بافريقيا المدارية . ومعنى هذا بوجه عام ان التحرير العربى بدأ زمنيا حيث انتهى التحرير الاسيوى ، بينما حيث انتهى هو بدأ التحرير الافريقى .

الحقيقة الثانية : هى ان هذه الفروق الزمنية لا تنفى ان زحف التحرير جميعا موجة واحدة متعاصرة ملتحمة اساسا وان تعددت شعبا وتتابعت خطوات . ولا ينبغى ان يخدعنا التفاوت الزمنى الدقيق عن ذلك . فالحركة كلها مركزة فى نحو عشرين عاما لا تزيد ، وهى — اذا وسعنا البؤرة قليلا — مجرد لحظة فى مقياس التاريخ السياسى وحياة الامم . فأى معنى اذن لهاتين الظاهرتين ، وهل لهما مغزى نضالى خاص ؟

كثيرا ما تفسر المتابعة الاولى على ان التحرير العربى رد فعل تابع وظيفيا تال تاريخيا للمد الاسيوى . ولكن هذا الترتيب انما هو ترتيب تواريخ الاستقلال الرسمى . والتحرير العربى يمكن ان نقول انه بدأ منذ بدأ الاستعمار . فكل الثورات والانتفاضات فى الجزائر والمغرب الكبير وفى مصر والشام والعراق والتى ترصع كل عقود القرن الماضى والحاضر دليل واضح . هل نريد دليلا اوضح

من المحقق تاريخيا ان ثورة سنة ١٩١٩ فى مصر كان لها صدى هائل فى الهند خاصة وآسيا عامة ، وكانت وحيا لحركات تحريرية متلاحقة هناك . ومن ناحية اخرى فانه اذا اخذنا الناحية الشكلية فان مصر تعد دولة مستقلة ذات سيادة منذ سنة ١٩٢٢ والا فمنذ سنة ١٩٣٦ . والعراق منذ سنة ١٩٣٤ . هذا عدا ان سوريا ولبنان قد تحررتا فعلا قبل اى وحدة فى آسيا الموسمية . ومعنى هذا ان التحرير وان تاخر ظاهريا فى مجموعه فى العالم العربى عنه فى آسيا الموسمية ، فهو اسبق واقعيا

وهذا هو الترتيب المنطقي للاشياء ، لان العالم العربى ليس اقرب الى اوربا فى الموقع الجغرافى فقط ولكن فى الموقع الحضارى كذلك . وكما انالقوة الحضارية النسبية للعالم العربى هى التى اخرت دخول الاستعمار الغربى اليه طويلا عنه فى آسيا الموسمية ، فهى نفسها التى تفسر سبق التحرير الفعلى العربى عن الاسيوى . اما لماذا تأخر النجاح القانونى للتحرير العربى رغم هذا السبق الحضارى والنضالى فيرجع اساسا الى الموقع الاستراتيجى للعالم العربى كشريان المواصلات الاستعمارية مما جعل الاستعمار اكثر ما يكون تشبثا به وضراوة فيه . لاسيما ان قرب هذا الموقع الشديد من اوربا قد شدد من قبضتها عليه وكبتها له . فموقفه التحريرى اذن ادق واصعب . قارن مثلا نضال الهند الصينية بنضال الجزائر ازاء فرنسا ، ونضال الهند بنضال مصر ازاء بريطانيا

اما بالنسبة الى افريقيا المدارية فلا شك ان الحقيقة المقررة ، والمعترف بها من الجميع ، هى ان المثل العربى كان مباشرا وحاسما فى تفجير وتحريك الثورة التحررية

على تخومه الجنوبية ، بل تعدى التأثير الى النطاق العملى بالمساعدة الايجابية حتى كان العالم العربى فى مجموعه بحق « واحة افريقيا » سياسيا . ومن المحقق على وجه التحديد ان حرب السويس الفاصلة فى سنة ١٩٥٦ كانت علامة تاريخية واشارة بدء لافريقيا المدارية بالانطلاق نحو التحرير

والحقيقة اننا يمكن ان نؤرخ لبدء حركة التحرير الفعالة جنوب الصحراء بهذه المعركة ــ ارماجدون افريقيا الجديدة . وليس من الصدفة ان اول نجاح تحققه فى غانا وغينيا كان فى سنة ١٩٥٨ اى بعد عامين من تلك المعركة . والواقع ان اثر معركة السويس فى تحرير افريقيا يشبه ــ الى حد ما ومع الفارق ــ اثر اليابان غير المقصود فى تحرير آسيا . ففيهما شهدت افريقيا مع العالم هزيمة الرجل الابيض والجيوش الاوربية ، ومعها تحطمت اسطورة التفوق التقليدية ، وبها اقتنعت افريقيا بانها قادرة على أن تتحدى الاستعمار وتطارده

وعلى هذا فالخلاصة انه سواء بالنسبة للجناح الاسيوى او الافريقى من العالم المدارى ، يقف العالم العربى موقفا رياديا كنواة للتحرير ، وكان دائما كأقرب اجزاء العالم الثالث الى اوربا موقعا وقامة يمتاز بدينامية جيوبولتيكية فياضة بالاشعاع السياسى فيما حولها . ولعل هذا هو التفسير الصحيح لتتابع مراحل التحرير الحقيقى داخل قطاعات العالم القديم زمنيا

ويبقى الان التعاصر الاسى والقاعدى بينها رغم ذلك . وهذا التعاصر هو الذى يفسر تفاوت عمر الاستعمار بشدة بين تلك القطاعات .. فهناك بدايات مختلفة جدا تاريخيا ، ولكن تاريخ النهاية واحد عموما . فى آسيا الموسمية وصل الاستعمار الى ارذل العمر بالتاكيد ،

حيث عمر الاستعمار الهولندى وحده فى اندونيسيا ٣٥٠ سنة ، وحيث خضرم الاستعمار فى الهند قرنين ، وفى الهند الصينية نحو قرن . على النقيض من هذا افريقيا المدارية حيث ـ باستثناء السواحل ـ لا يزيد عمر الاستعمار عن ٧٠ سنة فى المتوسط . اما فى العالم العربى فالحد الاقصى يزيد قليلا عن المتوسط الافريقى ، ولا يزيد كثيرا عن الحد الادنى الاسيوى ، اما الحد الادنى فيقل كثيرا جدا عن اى منهما

ثم يعود السؤال : لماذا تعاصرت ظاهرة التحرير فى العالم عموما ؟ والرد يكمن ـ فى كلمة واحدة ـ فى روح العصر Zeitgeist . لقد اصبح التحرير هو ايديولوجية الشعوب التى طال كبتها وروح العصر السارية السائدة . وانه هو المناخ السياسى الذى جعل الثورة على الاستعمار ظاهرة كوكبية فى العالم كله لا علاقة لتوقيتها بعمر الاستعمار هنا او هناك ـ دون ان يقلل هذا البتة من دور الكفاح الوطنى نفسه ، وانما هو كان فرصة مواتية استفاد منها هذا الكفاح افادة ذكية شجاعة

ولكن لاشك ان وراء روح العصر هذه عوامل مادية وسياسية صلبة علينا ان نبحث عنها . وفى هذا يمكن ان نتعرف على عاملين رئيسيين . فهناك اولا ميكانيكية نمو المستعمرات . فالاستعمار سلاح ذو حدين . فحتى يستغل مستعمرته لمصلحته يضطر راغما الى ادخال الوسائل الحضارية والتكنولوجية التى تساعده على ذلك . اى انه يعجل بعملية الاحتكاك الحضارى والتحضير التى تنعكس على الوطنيين نموا فى القوة البشرية وفى الكفاءة الفنية ، فيشتد ساعدهم وقدرتهم المادية على النضال السياسى

وليس اقل اهميـــة من الناحيـــة المـادية النواحى النفسية . فالاحتكاك الحضـــارى مع بداية الاستعمار يصيب الوطنيين بانبهار حضارى وانهيار نفسى يسهل الانتصار للاستعمار . ولـكن مع تشربهم وتمرســـهم بالحضارة الجديدة ـ والالف يورث الاحتقار ـ يدركون اسرارها بل ويدركون فضلهم التاريخى فيها ، مما يرفع روحهم المعنوية ازاء المستعمر ويحـــل مركب النقص الحضـــارى . وبمعنى آخر فان كلا من ميـــكانيـــزم وسيكولوجية الاحتكاك الحضارى لا تلبث ان تقوى ساعد التحرير ماديا ومعنويا حتى ينجح فى طرد الاستعمار

والخلاصة ان الاحتكاك الحضارى الذى يصـــاحب الاستعمار لا يلبث ان يضيق الهوة الحضارية ـ التى هى اســـاس التفوق العسكرى للاستعمار ـ بين القوة الدخيلة والداخلية . وهكذا يؤدى منطق الاستعمار من صميم نفسه وبطريقة ديالـكتيكية الى نقيضـــه تماما . تلك متناقضة ساخرة فى فلسفة الاستعمار ، وهى وحـدها تجعل نهايته محتومة بطبيعتـــه ، فهو يهزم اغراضـــه ويستهلك نفسه بنفسه ويحمل فى كيانه جرثومة فنائه . هذا أول

اما العامل الثانى فى تصفية الاستعمار واذابتـــه فهو انتهاء احتكار القوة العالمية فى يد قوىاوربا الاستعمارية. فرغم ان الاستعمار كان يمثل نظاما واحدا فى النهـــاية فقد كان يطفح بالصراعات الداخلية والتوترات الـكامنة التى لم تزل تصدعه وتمزقه . وبين هذا وذاك استطاعت بعض المستعمرات ان تنتزع استقلالها . وعلى التتابع التاريخى يمكن ان نقول ان كلا من فرنسا وبريطانيـــا كانت تطارد كلا من ايطاليا والمـــانيا وراء البحار ، وكانت بريطانيا تطارد الجميع ، الى ان جاءت الولايات المتحدة

محاولة ان ترث الكل فى صورة جديدة . وتمثل هذه المناورات والمطاردات ، كعامل فعال او مساعد فى تحرير المستعمرات* ، ابتداء من سوريا ولبنان ، الى ليبيا والجزائر وفيتنام .. الخ

ولكن لا يقل خطرا عن ذلك ان تضعضع الاستعمار بالصراع الداخلى والحروب المتواترة قد ساعد على اعطاء الفرصة لظهور قوى جديدة ضخمة معادية للاستعمار من حيث المبدأ ، والاشارة هنا الى الدول الاشتراكية الماركسية عامة والاتحاد السوفييتى خاصة. ومن هنا لم تعد المستعمرات تعيش فى سوق سياسية احتكارية تماما تحت رحمة الاستعمار المطلقة ، وانما فى سوق حرة نوعا مما اعطاها على الاقل حرية الحركة والمناورة والمضاربة بينها ، حتى تمكنت من انتزاع حريتها

ولا يتم تحليلنا لثورة التحرير الا باشارة الى ظاهرتين هامتين صاحبتاها ولكل منهما مغزاها وخطرها . هاتان هما الخروج الابيض والتفتيت السياسى . فالخروج الابيض ظاهرة عالمية واكبت التحرير واخذت صورة عنيفة فى بعض الحالات ، اذ اخذت الجاليات والمستعمرات الاوربية تغادر المستعمرات بعد اقامة طالت وازمنت بدرجة او باخرى . وفى الغالب كانت بوادر الخروج تسبق تمام التحرير ، وفى الاعم الاغلب كانت موجة الخروج تتحول الى عملية هروب عاجل ، تصفى به الجالية او المستعمرة نفسها بنفسها فى غضون شهور من استكمال التحرير . فمثلا انتظم تيار الخروج من الجزائر وحدها نصف مليون فى شهر واحد

ولقد كانت المشكلة الخطيرة حقا هى مصير الاستعمار

السكلى السكيشف ، لان الخروج يأخذ هنا ابعادا مختلفة جدا كما فى الجزائر والى حد ما كينيا . وعادة ما كان الموقف الوطني معتدلا واقعيا بلا تطرف . فكثيرا ما اعلن التحرير انه لا يبغى طرد الجاليات والمستعمرات الاجنبية اذا ما قبلت مواطنة عادية مخلصة بلا امتيازات ، او ان شاءت فلها أن تبقى كأجانب عاديين . ورغم هذا الموقف السمح ، فقد كان المرجح ان تصفى المستعمرات والجاليات نفسها بنفسها بعد فرض المساواة ومنع الاستغلال ، وهكذا بالفعل كان

وهذا لاشك ابلغ دليل على ان الوجود الاقتصادى للاستعمار كان رهنا بوجوده السياسي ، وبغيره كان لا نجاح له ولا محل . وفى هذه الحالة كثيرا ما كانت العملية تأخذ طابعا انتقاميا تخريبيا بقصد شل جهاز الدولة الجديدة وتعجيزها تشويها للاستقلال والتحرير. وفى الوقت الحالي اصبحت الجاليات الاوربية فى الدول الاسيوية والافريقية الجديدة لا وزن لها عدديا او اقتصاديا بعد ان كانت عنصرا اساسيا فى مركب الاستعمار

ومعنى هذا كله ان مصير الجزر الاوربية فى المحيط الاستعمارى القديم هو كمصير اى جسم غريب يدخل الكائن العضوى : لا يستطيع ان يمتصه ويتمثله فيلفظه فى النهاية . وهكذا يسجل التاريخ النهاية العجيبة لمغامرة من اكبر المغامرات الملتهبة المحمومة ولرحلة من اطول الرحلات العاتية بين القارات ، مما يوحى بأن الاستعمار بكل انماطه هو مجرد جملة اعتراضية فى تاريخ البشرية وظاهرة فى الجغرافيا السياسية عابرة مهما طالت ، وهى عابرة لانها غير طبيعية فى النهاية

هل يترك الخروج الابيض « فراغا » حضاريا او

اقتصاديا خطيرا فى المستعمرات المتحررة ؟ ايترك كذلك فراغا سياسيا يهدد التوازن الدولى؟ قضيتان متشابهتان اثارهما الاستعمار دائما وحاول ان يلقى بهما فى طريق تيار التحرير لعله يتقاعس . بل لقد تنبأ البعض بان الاقتصاد الزراعى ، خاصة المشروعات الكبرى ، والاقتصاد التعدينى والتصنيع النامى ، قد تضطرب لسنوات بعد الخروج . وصحيح ان بعض الدول الجديدة لم ترحب كثيرا بهذه الهجرة الفجائية التي قد ترج الاقتصاد القومي بما تسحبه معها من راس المال والخبرة الفنية . على ان هذه المشكلة مؤقتة جدا بطبيعتها ، بل لم تكد تتحقق فى اغلب الحالات ـ على الأقل بالاستعانة بخبراء اجانب غير استعماريين . اما ان يخشى البعض على المستوى الحضارى والاقتصادى للدول الجديدة ان ينتكس بعد الخروج فأمر تكذبه الثورة الاقتصادية والطفرة الحضارية التى واكبت التحرير في كل مكان لاسيما فى القواعد الطليعية كمصر والعالم العربى والهند .. الخ

هذا عن ظاهرة الخروج الابيض . اما الظاهرة الثانية التى صاحبت التحرير فهى ظاهرة عكسية ومؤسفة . فقد لجأ الاستعمار عامدا متعمدا قبل خروجه الى تفتيت مناطقه السابقة تفتيتا ميكروسكوبيا ، وفى افريقيا بالذات تفتيتا ذريا ، حتى يضمن وراءه نسيجا سياسيا متهالكا اقرب الى الامثولة والاعجوبة منه الى الكيان الجيوبولتيكى الصحى السليم . وكم من مسخ سياسى برز فى هذه التقسيمات الجديدة ، وكم من قنبلة موقوتة تكمن فى حدوده العشوائية الشاذة

والشيء الغريب والمخجل معا ان الاستعمار الذى كان مهندس هذه السياسة الميكافيلية هو نفسه الذى

كان يتحايل ابان وجوده بكل الطرق ليفرض اتحادات مصطنعة وتجمعات اقليمية مفتعلة ضد ارادة الوطنيين. ويكفى ان نذكر او نتذكر اتحاد وسط افريقيا الدموي الفاشل ومشروع الهلال الخصيب الآثم ومشـــــاريع اتحادات شرق افريقيا وغرب افريقيا .. الخ . ويرى البعض فى هـذه البلقنة المخططة ـ وهم فى ذلك على حق ـ أول مظهر من مظاهر « الاستعمار الجديد » . ويلاحظ انه لم ينج من هذه البلقنة السافرة لا آسيـا ولا العرب ولا افريقيا ، لا الوحدات الضخمة ولا الوحدات الصغيرة

الهند الصينية الفرنسية ـ مثـــلا ـ خلفت وراءها ثلاث دول جديدة ، وكل جنوب شرق آسيا اصبح الان « بلقـان الشرق الاقصى » (١) ، بينما ان الهنـد التى ظلت تحت الاستعمار وحدة واحدة تركت اربع دول . والعالم العربى ، هذا الذى كان كلا واحدا حتى فى ظل الاستعمار التركى ، اصبح متحفا سياسيا مرصعا بعديد من الدول التى لا يزيد بعضها عن دول جيب أو اسافين

لكن افريقيا بلا شك هى المثل بل الامثولة الساخر . فيها الان نحو ٥٠ وحدة سياسية اى ضعف عدد وحدات اوربا اكثر قارات العالم تجزئة فيمـــا مضى ، او اقل قليلا من نصف دول العالم اجمع ! ولعل المثال الصـارخ فى التفتيت هو الاستعمار الفرنسى فى افريقيا الاستوائية والغربية حيث اعطت وحدتان اثنتان نسلا سياسيا بلغ ١٦ وحدة

والسـواد الاعظم من هذه الدويلات المستحدثة وحدات هزيلة معتلة ومفتعلة قد لا تزيد عن المليون او المليونين

(1) C.A. Fisher. «Southeast Asia : The Balkans of the Orient», Geog., Nov. 1962, p. 374.

سكانا . واذا كان لهذه الكثرة العددية قيمة شكلية ما فى المحافل والمنظمات الدولية ، فهى تترك اصحابها بلا وزن حقيقى فى مجال القوة السياسية . ومن اسف ان اغلب الدول الجديدة قبلت الحدود - الاقفاص الحديدية بالاحرى - التى فرضها الاستعمار ، وتمسكت بها كما لو كانت ارثا مقدسا ، الامر الذى اعطى الاعداء الفرصة لاتهام الوطنية فيها بانها ليست اكثر من مجرد رد فعل للاستعمار لا انبثاقا طبيعيا حميما (١)

بقايا الاستعمار

يبقى لنا اخيرا ، حتى نستكمل مسح التحرير ، ان نحصر مخلفات الاستعمار وبقاياه وان نقيم وزنها ونرصد مصيرها . وهنا نجد ان فلول الاستعمار تنزوى اليوم على استحياء - ام بلا خجل ؟ - فى اقصى اطراف الارض واركانه المتطوحة ، اما على هوامش القارات كجيوب واسافين قزمية متناثرة او كارخبيلات وجزر سديمية فى البحار القارية ، وفى الاقل ككتل متخلفة relict فى سبيلها الى التمزق والزوال ، والكل لايزيد عن ٤ ٪ من مساحة العالم . ومعنى هذا ايضا ان السواحل التى كانت اول مواطىء اقدام الاستعمار البحرى هى اليوم آخر معاقله ، وهى من ثم اطول ما عانى من الاستعمار وخضع له زمنيا

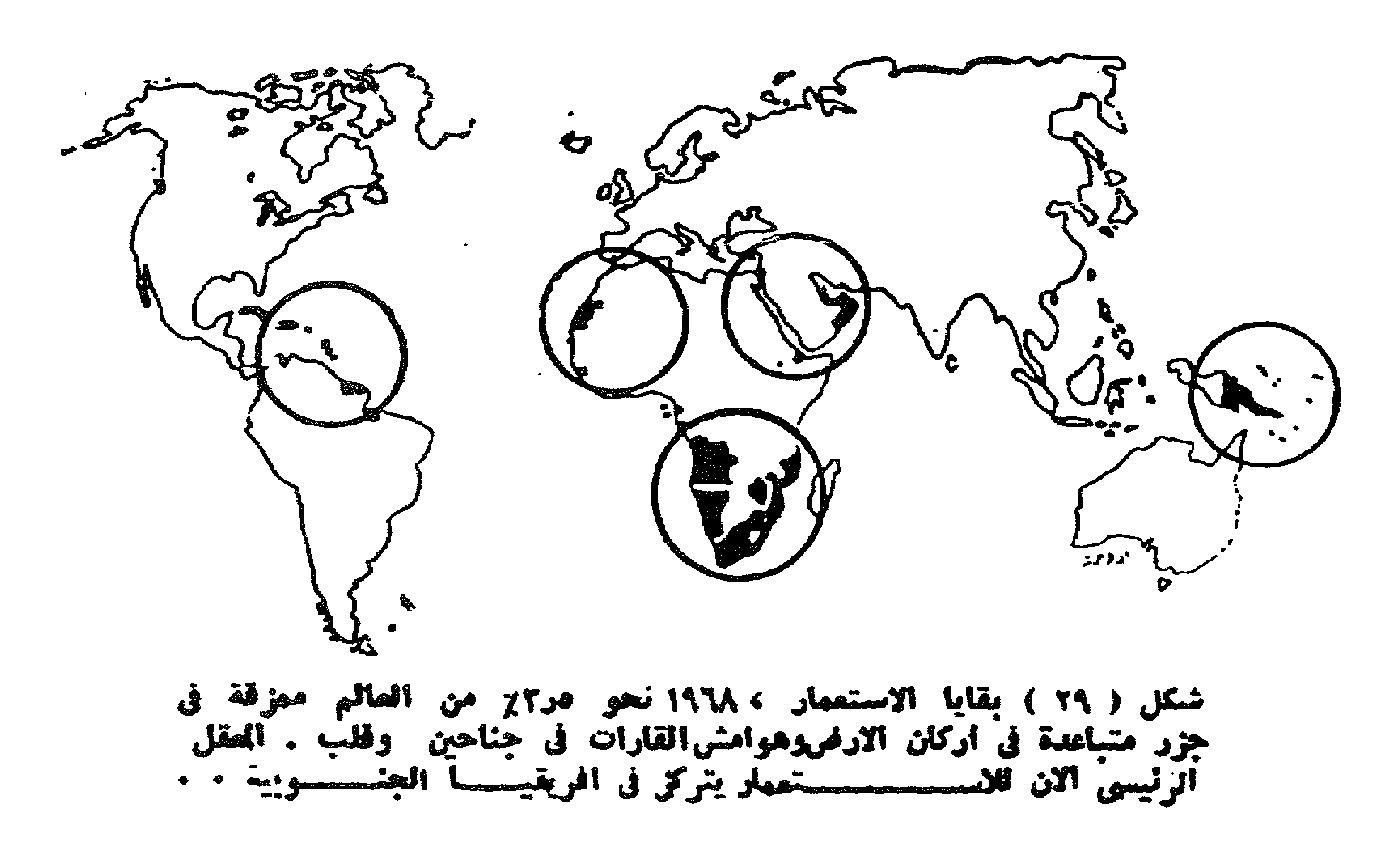
ويرسم النمط الجغرافى العام لفلول الاستعمار اليوم صورة قلب وجناحين : جناح ايمن فى الشرق الاقصى ، وايسر فى الكاريبى ، اما القلب ففى افريقيا والعالم العربى . فمن الشرق نجد هونج كونج البريطانية ومكاو

(١) R. Calder, p. 3.

البرتغالية وكل منهما جزرى او شبه جزرى يبدو كالبثور على اطراف القارة ، وهى تحت رحمة القوة القارية ــ الصين ــ تماما ، وبقاؤها للآن ليس الا جزءا من سياسة اقتصادية خاصة لتلك القوة ، ولو شاءت لاستردتها فى ساعات . ثم هناك ارخبيل الاوقيانوسية بما فى ذلك نيوجينى او ايريان الشرقيــة الى الشرق والشمال الشرقى من استراليا حيث لا زال الاستعمار البريطانى والفرنسى يتقاسم هــذه الجزر الشتيتة القزمية

وفى اقصى الغرب فى الكاريبى تتناظر صورة مماثلة . فلا زالت كثير من جزر الانتيل الصــفرى موزعة بين الاستعمارين البريطانى والفرنسى ، بينما على ساحل القارة المقابل اثنتان من الجيانات الثلاث ، الفرنسية والهولندية . وبين الطرفين يتقوقع الاستعمار فى عدة جزر محيطية غائرة سحيقة العمق فى المحيطات كبعض جزر المحيط الهندى (سيشل) وكومورو وموريشس ورونيون . وبعض جزر المحيط الاطلسى (اسنشن ، سانت هيلانة) . وقد تقرر اخيرا استقلال موريشس . ولكن يلاحظ فى نفس الوقت ان الاســتعمار بدأ يتحصن فى هذه الجزر النائية ويسحب اليها قواعده من اواسط القارات واطرافها كما حــدث فى بعض جزر ملديف وكومورو

ولكن دائرة العالم العربى وافريقيا هى بلا شك أكبر معاقل الاستعمار المتخلفة . فهناك مجموعتان من الاشكال الاستعمارية : أساقين وجيوب محلية ، وكتل جذعيــة ضخمة . فمن الاولى الاستعمار الصهيونى الآثم فى فلسطين المحتلة ، وجيوب سبتة ومليلة وافنى وريو دى أورو حيث يعشش الاستعمار الاسبانى ، ثم هناك فى افريقيا المدارية



شكل (٢٩) بقايا الاستعمار ، ١٩٦٨ نحو ٠ر٣٪ من العالم ممزقة فى جزر متباعدة فى أركان الارض وهوامش القارات فى جناحين وقلب . المعقل الرئيسى الآن للاستعمار يتركز فى افريقيا الجنوبية .

غينيا البرتغالية وريوموني وساوتومى الاسبانيه وكابندا وكلها فى دائرة غرب أفريقيا ، وأخيرا الصومال الفرنسى على الساحل الشرقى • أما الكتل الرئيسية المتخلفة فهى أولا الجنوب العربى ابتداء من البحرين حتى ظفار حيث ظل يتشبث الاستعمار البريطانى فى استماتة يائسة يفسرها البترول بكل سهولة ، الى أن أرغمه تقلصه وتدهوره الاقتصادى على اعلان عزمه على الانسحاب منه قبل ١٩٧١

ثمة ثانيا كتلة افريقيا الجنوبية التى تجمع بين انجولا وموزمبيق البرتغالية وبين روديسيا وسوازيلاند ، بالاضافة الى جنوب افريقا البيضاء ومعها جنوب غرب افريقيا التى اغتصبتها . والكتلة فى مجموعها ترسم رقم ٧ ، حيث يرسل التحرير فى قلبها سهمه مفتتا وممزقا • وواضح أن هذه ليست أكبر معقل متخلف متبق للاستعمار ، وانما هى ايضا اضخم كتلة متصلة تبقى له فى أى جزء من العالم

وما من شك فى أن مصير الجزر وأشباه الجزر والاسافين الساحلية مقدور ، فهى ــ بحكم الجغرافيا على الاقل ــ الى زوال وأيامها معدودة ، ولن تستطيع أى مقاومه ازاء المد التحريرى ، فان بحر الاستقلال يطوقها تماما ولا يمكن أن تنجو من قوة تعريته • وانما المشكلة فى الكتل الجذعية بخاصة ، فهنا يتراص الاستعمار ويتماسك ويبدى « وحدة » جديدة فى وجه التحرير • ومع ذلك فمصيرها أيضا محتوم ، وان طال الامد نوعا . وعلى التحرير أن يضغط بمزيد من القوة والعنف ، وقد لا ينقضى عقد أو بعض عقد حتى يقتلعها ويكتسحها تماما • ولعل السبعينات على أكثر تقدير تشهد عملية دفن اخر فلول للاستعمار فى الارض أو فى البحر

واذا نحن أردنا أن نضع قوى الاستعمار اليوم فى

حساب الخسائر والارباح ، فسنجد نتائج بل نقائض مثيرة بل غير منطقية ، لعل أغربها أن « أكبر » قوة استعمارية فى عالم اليوم هى البرتغال القزمية الحفرية ! أجل البرتغال ، فان مستعمراتها اليوم في افريقيا أكبر مساحة وسكانا من مستعمرات أى قوة اخرى فى العالم • ويليها فى الوزن الاستعمار البريطانى ، بينما قد يزيد الاستعمار الاسبانى بدوره ـ وهو امبراطورية جيوب واسافين بحت ـ عن الاستعمار الفرنسى • فالامبراطورية الفرنسية هى بلا شك التى من بين الاستعمار الكبير قد بادت تماما في عصر التحرير ، وبقاياها الان رمزية تذكارية صرفة لا تزيد على الصومال فى افريقيا وجيانا فى أمريكا الجنوبية وبعض جزر قليلة من الاوقيانوسية ويشبهها فى هذا هولنده ، بينما فقدت بلجيكا مستعمرتها الوحيدة

وتقودنا هذه التطورات الانقلابية فى مصائر الاستعمار الى ظاهرة طريفة فى ترتيب عملية تصفية القوى الاستعمارية • فبوجه عام يمكن أن نقول ان أقدم الامبراطوريات (القوى العتيقة) هى اخرها زوالا اليوم ، واخر من دخل ميدان الاستعمار (القوى الوليدة) هو أول من خرج منه • أى ان العلاقة ـ للغرابة ـ عكسيه • فلقد كانت ألمانيا اخر من خرج الى الاستعمار فى سبعينات وحدتها ، وكانت كذلك أولَ من خرج منه فى الحرب الكبرى الاولى • وفى السبعينات أيضا دخلت ايطاليا دائرة الاستعمار ومع الحرب الكبرى الثانية كان خروجها • وعلى الطرف النقيض كانت البرتغال واسبانيا أول من افتتح العمل الاستعمارى وهما حتى اليوم اقل من خسر نسبيا • وبين الطرفين تاتى فرنسا وهولنده وبريطانيا بدرجات متفاوتة او مطردة

ماذا تعنى ثورة التحرير بالنسبة للعالم ؟ الشىء الكثير بالتاكيد ، ولكنه باختصار اعادة توزيع الاثقال والقوى السياسية فوق هذا الكوكب • فبالنسبه للدول المتحررة تعنى ظهور قوة جديدة على مسرح السياسة العالميـــة هى العالم الثالث ومجموعة عدم الانحياز • ولكن لهذه حديثها فيما بعد • وانما يعنينا هنا خسائر الجانب الاستعمارى • وهذه تنقسم الى قسمين : تغيير الوزن والقوة النسبية لغرب أوربا ، ثم تغيير الاوزان والقوى النسبية بين الدول داخل غرب أوربا

فمن الاولى ، لا شك أن عصر أوربا الغربية قد انتهى تماما ، وقد خرجت زعامة العالم منها الى الابد ، وتضاءل وزنها النسبى فى العالم ككل ، وبدأت تاخذ حجمهـــا الطبيعى بلا مبالغة أو تورم مصطنع فى العالم • ولعلها - برمتها - لا ترقى الى مستوى الصف الاول من القـــوى العالمية ، وبالتأكيد لا تطاول أيا من القوتين الماموث ، ولا تزيد بوضعها الراهن ، وقد جردت من مستعمراتها ، عن أن تكون منطقة حاجزية تصادمية بينهما ، بل هى الان بالفعل ذيل للولايات المتحدة أو بمثابة برتغال كبرى جديدة بالنسبة الى بريطانيا عظمى جديدة هى الولايات المتحدة ، بينما أصبحت بريطانيا القديمة نفسها رجل أوربا المريض الجديد ! (١)

كذلك فان تقلصها الى قوقعتها الاصلية سلخ عنها موارد ومكاسب عبر البحار والقى بها على مواردها المحلية الضيقة وحدها • من هنا أزماتها المادية والاقتصادية الخانقة التى تتردى فيها تباعا كل دولة من دولها بلا استثناء منذ ما بعد التحرير ، وبقدر ما كانت نسبة المكاسب الاستعمارية فى

(١) Hans. G. Morgenthau, Politics Among Nations, The Struggle for Power & Peace, 1954.

الدخل القومي بقدر ما كانت النكسة . ولا شك أن مكاسب الاستعمار التراكمية لا زالت تخفى أو تخفف من حدة الازمة ، كما أن التجارة العالمية لا تزال شبه استعمارية فى هيكلها ، هذا عدا علاقات كومنولث واتحاد فرنسى .. الخ . ولكن ان آجلا او عاجلا ستواجه هذه الدول المزيد من الصعوبات ؟ وقد يتجمد مستوى المعيشة فيها أو ينحدر ، أو تصدر الفائض من سكانها الى المهاجر الاوربية والمشاهد أن بعض هذه الدول لم تفق بعد من اثار خمرة الاستعمار ولم تدرك تماما مواقعها المتواضعة الجديدة ، ومن ثم تبدو فى ميدان السياسة العالمية أدنى الى أقزام تتصرف كعمالقة ، مما أصبح بلا مواربة اما موضع سخرية او ضيق حتى أصدقائها من القوى الماموث !

هذا التضاؤل النسبى فى الوزن السياسى والموارد الاقتصادية هو وحده وأساسا الذى يفسر الحملات المحمومة لوحدة أوربا حتى تستعيد بعض المكانة فى عالم متغير . والواقع أنه دفاع عن النفس بقدر ما هو رد على حركة التحرير وتكتل ضدها بالذات ، أكثر مما هو رد على القوتين الماموث . واذا كان الاوربيون المتحمسون للوحدة يرونها ضرورة بقائية ، فلا ينبغى من جانبنا أن ننسى أن وراءها مسحة لونية عنصرية ، فما هى فى النهاية الا وحدة الجنس الابيض . ولمشروع الوحدة كما يتصوره دعاته مراحل ثلاث : جمركية ، فاقتصادية ، ثم سياسية. ولكن التطبيق يتعثر حاليا بين كتل وتجمعات متضاربة داخل النطاق

بيد أن المهم فى المدى البعيد أن أوربا اليوم أبعد عن الوحدة مما كانت منذ قرون ، وبالتحديد منذ ما قبل عصر الكشوف والاستعمار البحرى (١) . ذلك أن الاهتمامات

(١) East, An Historical Geog. of Europe, pp. 444-5.

الاستعمارية عبر البحار لم تترك اوروبا فى حركة طاردة لا جاذبة مركزية فحسب ، بل فى صراعات عميقة وسعارات شرسة باعدت بينها أكثر من اى وقت مضى · وليس من الصدفة بالتأكيد انها لم تبدأ تتقارب فيما بينها الا بعد أن فقدت تلك الاسلاب أسباب الصراع · وعلى كل ، فاذا كانت وحدة منطقة كالولايات المتحدة مثلا قد نجحت لانها عمدا تناست كل التاريخ واهملت كل الجغرافيا ، فان وحدة اوربا تتعثر لانها ـ كما قيل ـ تتذكر التاريخ أكثر مما ينبغى وتتذكر الجغرافيا أقل مما ينبغى

اما عن تغيير الاوزان والقوى النسبية للدول داخل أوربا الغربية ، فلا شك أنها لا تتضح اليوم تماما بفعل القصور الذاتى والاندفاع التاريخى ، ولكنها جديرة بأن تطفو على السطح ان آجلا أو عاجلا ، ولو أن بعض ارهاصاتها قد بدأت بالفعل · فمع عودة كل دولة الى قاعدتها الارضية الوطنية وتصفية واستهلاك الاثار التراكمية لمكاسب الاستعمار القديمة بالتدريج قد تقترب نوعا أوزانها ومواردها وقواها النسبية من نمط ما قبل الانقلاب الصناعى ، بمعنى أن يصبح لحجم الموضع المحلى وثرائه دور أكبر فى تحديد القوة العامة

واذا صح هذا فألمانيا هى وريثة الصدارة الحتمية فى اوربا الغربية بدلا من بريطانيا ، كما أنه ليس من المستبعد أن تقترب فرنسا من بريطانيا جدا · ولعل الدور الذى تمارسه فرنسا ، ديجول حاليا ، فى تخضيد شوكة بريطانيا فى القارة هو نذير أو دليل على هذا التطور التدريجى المحتمل · وسيكون على بريطانيا فى النهاية أن تقف صاغرة فى الصف الاوربى كلما تقلص الكومنولث · فدول الكومنولث غير البيضاء ستغادره على الأرجح بالتدريج

الفصل الثانى عشر

الانقلاب النووى

هو ثانى انقلابين تعاصرا منذ نهاية الحرب الثانية ، وربما كان اولهما فى خطورته ورهبته • وقد أعلنت عن ميلاده مأساة هيروشيما ونجازاكى ، وكانت هذه البداية كافية لتكون نهاية تلك الحرب • ولكن قنبلة هيروشيما على بشاعتها لم تكن الا طفولة العصر الذرى ، قنبلة « بدائية قزمية » ، تطور بعدها السلاح النووى تطورا رهيبا ، فانتقل من القنبلة الذرية الى الهيدروجينية وربما بعد ذلك الى الكوبالتية • وفى نفس الوقت تحولت وسيلة نقله من الطائرة الى الصواريخ الموجهة والصواريخ عابرة القارات ثم أخيرا الى الغواصات الذرية ، أى تحولت قاعدة انطلاقه من الجو الى الارض الى البحر على الترتيب • اضف الى هذا الصواريخ المدارية التى ظهرت أخيرا جدا

أما من حيث الانتشار ، فقد كانت الولايات المتحدة هى الاسبق الى تدشين العصر النووى وذلك فى نهاية الحرب الثانية ، بينما تخلف الاتحاد السوفييتى قليلا حتى لحق بها ـ بعد فترة حرجة ودقيقة ـ فى أول الخمسينات ، وبعد ذلك دخلت بريطانيا المجال ثم فرنسا ولكن ظلتا من مرتبة متواضعة نسبيا ، وأخيرا جدا اقتحمت الصين « النادى الذرى » لتكون خامسة الدول الذرية وأولى الدول غير الاوربية ، وكان قد قدر أنها سوف تظل طويلا

فى المرحلة البدائية التى كانت عليها الولايات المتحدة منذ عشرين عاما ولكنها طفرت بسرعة خارقة حتى سبقت فرنسا هيدروجينيا • والمقدر أن هناك أكثر من عشر دول أخرى ستلحق بالنادى فى غضون السنوات القليلة القادمة

ومعنى هذا أن السلاح النووى ـ مالم يتفق على منعه ـ قد ينتشر فى يوم ما انتشار الحضارة الصناعية والتكنولوجيا الحديثة • بيد أن هذا لا ينفى من الوجهة العملية أن هناك حتى الان احتكارا ثنائيا فعليا وحقيقيا للقوة النووية تتقاسمه الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى ، ويجعل ـ أكثر من أى شىء اخر ـ مصير العالم رهنا بهاتين القوتين المتصارعتين اللتين وصل الامر الى حد تشبيه كل منهما باله بشرى : قادر على أن يبقى للعالم على حياته أو أن يحرمه كله اياها فى لحظات أى أن ابسط وأوضح نتيجة للعصر النووى أنهزاد من عنف تركيز القوة واحتكارها فى حدود الاستقطاب الثنائى الراهن ، وزاد بذلك من اختلال ميزان القوة فى العالم ككل ، وضاعف من رهبة التصادم بين القطبين العملاقين

ومن الواضح على التو أن العصر النووى يمثل طفرة فى تاريخ الاستراتيجية بل البشرية لم تخطر على قلب بشر ، تضع كل مراحل الاستراتيجية الماضية وكل أنواع الاسلحة « التقليدية » فى متحف التاريخ ، ويمكن ببساطة أن تضع البشرية نفسها والنوع الانسانى برمته فى ذمة التاريخ كذلك ! فعلى سبيل المثال قدر أن عشر قنابل ذرية من أكبر ما كان معروفا فى ١٩٥٤ تعادل فى قوتها التدميرية كل ما القى جميع المتحاربين فى الحرب العالمية الثانية من قنابل والغام ومتفجرات (١) • بينما أعلن

---

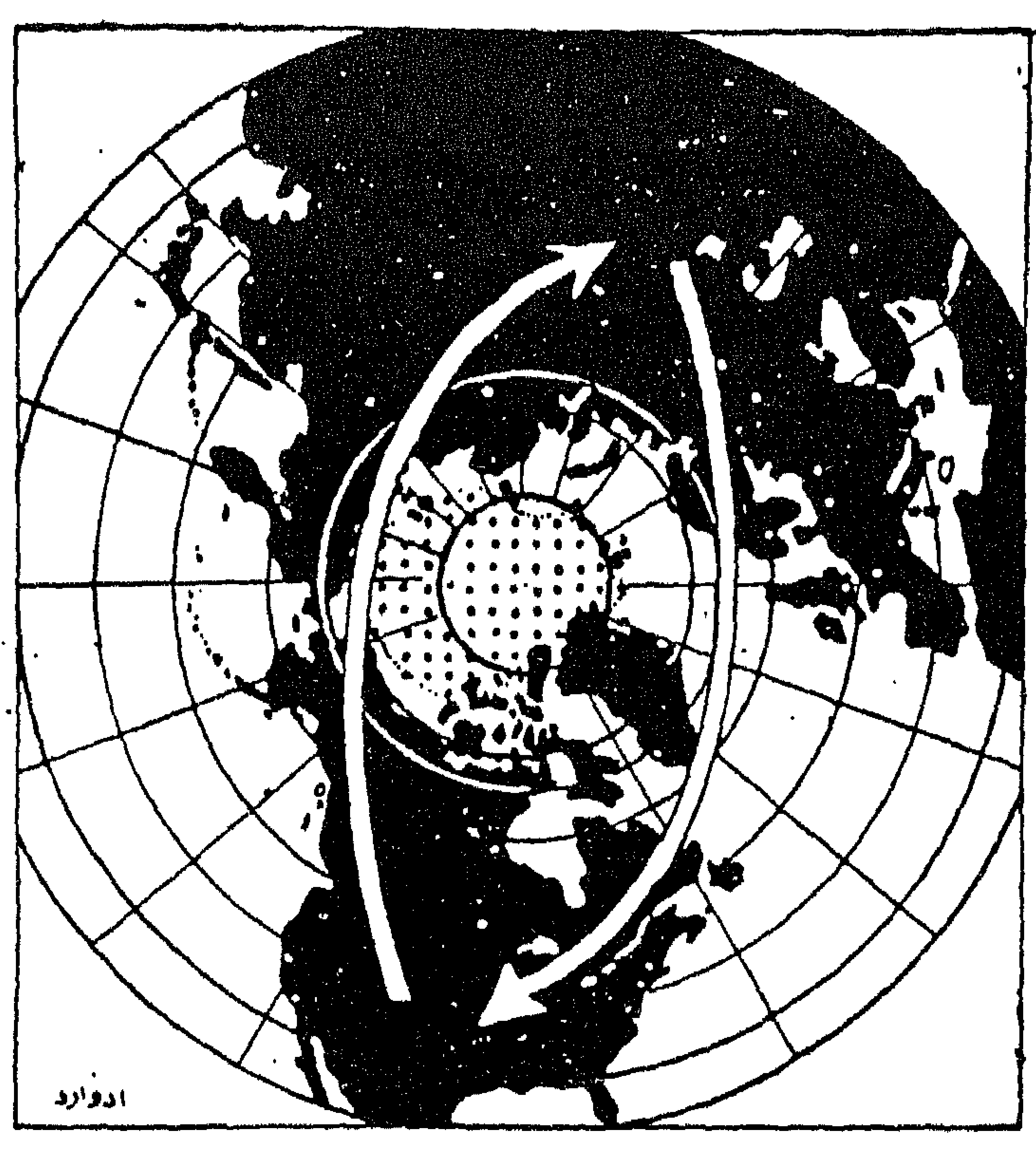
(١) مورجينثاو • المرجع المذكور

الاتحاد السوفييتى من نحو عامين ان راسا ذرية واحدة مما يستطيع أن يقذف تعادل نفس القوة برمتها بل قوة كل ما استخدم من متفجرات فى جميع حروب البشرية ! أما بعده فالمقول أن الولايات المتحدة تملك من الرصيد النووى ما يكفى لتدمير العالم باسره ثلاث مرات(!)، بينما الاتحاد السوفييتى ـ أكثر تفاؤلا ! ـ يكتفى باحتياطى يكفى لتدميره مرة واحدة . وآخر ما يقال فى هذا المجال أن بالعالم مخزونا من الاسلحة النووية يكفى لتدمير الارض جميعا عشرات المرات فالعصر النووى لاول مرة فى تاريخ الصراع البشرى يضع العالم وجها لوجه مع الانتحار أو انقراض الجنس . . اختيار رهيب ، واختبار أشد رهبة

ومن الصعب ، حتى على الاستراتيجيين ، تصور شكل الحرب الذرية الشاملة ، وان كان من المؤكد أنها ان وقعت الواقعة ستكون قصيرة الامد الى ابعد حد واشبه بومضة فجائية أو بصعقة كهربية يعقبها احتراق بشع ثم رماد الموت • ومن المؤكد كذلك أن الصراع النووى قد قلب كل قوانين الاستراتيجية التقليدية وهـزها حتى الصميم ، ولكن السؤال هو الى أى حد ؟ هل هو الغاها تماما ونهائيا أم نحاها جانبا ودفع بها من المقدمة الى الخلفية ؟ لنعرض لضوابط ومقومات الاستراتيجية التقليدية لنرى انعكاسات الصراع النووى عليها ، وأى مغزى جديد يمكن أن تأخذ . ولنبدأ ذلك بالموقع

من المحقق أن الموقع الجغرافى هو أشد ما اهتز وارتج بالاستراتيجية النووية • وطالما كانت قاذفات القنابل هى وسيلة توصيل القنبلة الذرية ، فربما صح أن الموقع لم يفقد كل قيمته ، فقد كان للمواقع المتقدمة والقريبة من العدو أو المحاصرة له ميزة واضحة . ولعل هذا يفسر قيمة القواعد العسكرية التى بثها الغرب حول الاتحـــاد

السوفييتى على طول نطاق جبهة الارتطام ابتــــداء من اليابان حتى النرويج . كما أن هـــذا يفسر القيمــة الاستراتيجية الضخمة التى كانت تعطيها الولايات المتحدة لألاسكا خاصة وكندا عامة باعتبارها - كجبهة قطبية - اقرب واقصر طريق جوى الى الاتحاد السوفييتى عبــر المحيط المتجمد الشمالى الذى اصبح بجـــدارة البحر المتوسط القطبى . بل لقد ذهب أحد القـادة الامريكيين



شكل (٣٠) الطـــريق القطبى لا الاطلسى هو طريق الحرب الصاروخية ، فهو اقصر طريق بين العملاقين، حتى اصبح البحـــر المتوسـط القطبى بحق . لاحظ خطورة موقع كندا كخط دفاع امـــامى للولايات

ـ الجنرال بيلى ميتشل ـ الى حد القول بأن الاسكا هى أهم منطقة اســـــتراتيجية فى عالم اليوم (١) . كما أن ذلك جميعا يفسر شبكات الرادار الكثيفة المتتـــالية كقرون استشعار ذرية ، وخطوط محطات الصواريخ المتتابعة خطا بعد خط على امتداد تلك الجبهات من الجانبين . والمغزى العام هو أن مركز الثقل الاستراتيجى انتقل الى حد أو آخر من المحيط الاطلسى الى المحيط المتجمد الشمالى

ولكن الموقف لاشك قد تغير بدرجة أو باخرى منـــــذ الصواريخ الذرية وتطورها المتصل .. فبالتدريج اتسع مدى الصواريخ التى اخترقت سرعتها حاجز الصوت حتى بات من المفهوم اليوم ان ليس على سطح الكرة الارضـــية مكان لا تصله الصواريخ عابرة القارات من أى من الاتحاد السوفييتى أو الولايات المتحدة . وبعد أن عدت بعض هوامش العالم النائية مثل افريقيا الجنوبية او افريقيـا جنوب الصحراء واستراليا من المعاقل الأخيرة ذات المناعة ضد الصواريخ (٢) ، زالت هـــذه الميزة وأصبح القرب والبعد الجغرافى سيان . وفى نفس الوقت فقدت القواعد العسكرية الغربية المطوقة للاتحاد السوفييتى أغلب قيمتها ان لم يكن كلها ، ونسخ الاتحاد بصواريخه الحلقة النارية المضروبة حوله ، وانكمشت اهميتها لتصبح مجرد قواعد لقمع وكبت الحركات الوطنية فى بلادها

والمعنى واضح للغاية : فاذا كان عصر الطيران التقليدى قد اختزل المسافة وضمر العالم وجعله نظاما مغلقا واحدا الى درجة ان اصبحت الكرة الارضية كلها أصغر « مساحة

(١) الجيوبولتيكا . جـ ١ ص ٢٠٧

(٢) Liddell Hart, «Africa or Middle East», World Review, July 1946, Church, op. cit., pp. 143-5.

زمنية » من ولايات امريكا الثـــلاث عشرة (١) ، فان الصواريخ قد الغت المسافة تماما وتضـــاغطت الـــكرة الارضية من الوجهة العملية الى مجرد « نقطة » تقاس كل ابعادها بالدقائق ليس الا • أبعد من هذا ، وبعــــد أن أصبحت الغواصات الذرية قواعد صاروخية برمائيــــة أو تحت مائية رحالة أو بمثابة يابس متحرك أنى شاء أو « قارات » ميكروسكوبية طافية تجوب المحيط العالمى ، نكاد نقول ان الفارق بين الماء واليــــابس ـ من الوجهة الاستراتيجية بطبيعة الحال ـ قد عتم وتحايد حتى درجة التلاشى تقريبا • ومعنى ذلك جميعا أنه لم يكد يصـــبح هناك موقع متوسط وموقع متطرف ، ونوشك مجازيا أن نضيف : ولم يعد هناك يابس وماء

ومحصلة هذا وذاك أننا اليوم بازاء استراتيجية ثورية جديدة تنقل الصراع من البر والبحـــر الى الجـــو ، من الاستراتيجية الارضية geostrategy الى الاستراتيجية الغازية atmostrategy بل الى الاستراتيجية الفضائية space strategy وبالتـــالى تنقله من المرحـــلة الكوكبية global الى المرحــــلة الكواكبية Planetary لقد وصلنا الى استراتيجية « لامكانية » معلقة فى فراغ ، وحروب بلا « تراب » تمور عليه وتفور ، تماما مثلما وصلت الزراعة العلمية الحديثة ، أو أوشكت ، الى زراعة هوائيـة بلاتربة

وبديهى ان هذا كله يتخطى المواقع الجغرافية التقليدية ويتجاهل خطوط التضاريس واللاندسكيب ويسقط عامل المسافة من الحساب • باختصار ، ان الاستراتيجية الذرية تبتعد كثيرا عن الجغرافيا وتقترب من الفلك ، وبـــذلك تتحرك فى متصـــــل فضاء ـ زمنى بعد أن كان الوسط التقليدى هو المنقطع البرمائى . انها كالنسبية فى الفيزياء

(١) مورجنتاو

تنقل الاهمية الاستراتيجية من المكان الى الزمان او على اقل تقدير تجعل من الزمان البعد الـــرابع للمـــكان الاستراتيجى

ماذا يبقى اذن من فكرة الموقع الجغرافى ؟ القليل قطعا وفى حدود معلومة . فالدول غير الذرية ـ وقد تضـاءل وزنها كثيرا فى عالم القوة ـ هى وحدها التى سيكون عليها أن تفكر فى صيغة الاستراتيجية التقليدية القديمة . كما أن الحروب المحلية والصغيرة التى قد تمارسها الـدول الاستعمارية ستظل تدور فى فلكها

ولعل هذا وحده هو الذى يفسر تمسك الغرب بسياسة الاحلاف الدفاعية وسلسلة القواعد العسكرية التطويقية ، كما يفسر ، حتى قريب ، استماتة استعمار كالبريطانى ببقايا قواعده البحرية «شرق السويس» رغم انها أصبحت بالية تماما فى عصر الذرة . ولكن هذا وذاك من الاعتبارات سيكون عنصرا متنحيا مرحليا باطراد حتى قد يصل يوما ما الى نقطة الانقراض

غير أنه يبقى للموقع الاستراتيجى بعد هذا قيمته على المستوى السلمى خارج الحروب ، أى فى المواصـــلات العادية اليومية والتجارة العالمية ، ولهذا فنحن حين نتحدث عن نسخ العصر النووى للموقع الجغرافى فينبغى أن يكون مفهوما أننا نقصر هذا بوضوح على جانب الحرب والمعركة العسكرية ـ وهو الشذوذ ، بينما تظل فكرة الموقع سليمة لا تهتز فى مجال السلم والتجارة والمواصلات العادية ـ وهو القاعدة

اذا كان هذا نصيب الموقع ، فماذا فعلت الثـــورة النووية بالموضع بما يعنى من حجم ومساحة وقوة بشرية؟ لقد رأينا عبر التـاريخ الحـديث ان الاهمية انتقلت مع الصناعة من الموقع البارز الممتاز الى الموضع الغنى الضخم،

ولكن السلاح النووى يجيء اليوم بدوره لينسخ الكثير من قيمة الموضع وليجعل « العلم » هو وريثه الجديد . كيف؟

بديهى أن محو مساحة محدودة كبريطانيا بالحروب النووية أيسر من مسح كتلة ضخمة كالصين مثلا (١) . ولا يعني هذا أن الدول المترامية الرقعة ستظل تتمتع بالدفاع بالعمق ، فقد ضاعت ميزة العمق الاستراتيجى ربما الى الابد ، ولكنه يعنى الحاجة الى رصيد أكبر من القوة الذرية لتدميرها

ومثل هذا يقال عن القوة البشرية . فالحرب النووية حرب ابادية رهيبة تحصد الملايين بنفس السهولة التى تحصد بها الحرب التقليدية الالاف . والمقدر رسميا ان حربا ذرية شاملة بين العملاقين النوويين قد يمكن أن تلتهم نحو امن مائة مليون (كذا !) من كلا الجانبين فى الضربات الأولى وحدها . وفى النتيجة ، فانه لم يعد للجيوش البرية أو الميكانيكية الضخمة قيمة فعالة أو كبير خطر فى الاستراتيجية الجديدة ، اذ يمكن أن تسحق فى مكانها قبل ان تتحرك ، وان تحركت قبل أن تسحق فهى ليست بمستطيعة ان تدخل ميدانا تلوث بالاشعاع الذرى القاتل ، ولو انه لابد فى النهاية بعد أن يتبدد الاشعاع من أن تتقدم القوات الأرضية لتضع يدها على الارض الخراب كما فعلت امريكا فى اليابان بعد قنبلة هيروشيما

وترتيبا على ذلك ، فان البعض يتكهن بان الدول الماموث سكانيا كالصين هي وحدها التى قد يمكن أن تامل فى أن يتبقى لها بعد الحرب النووية بقية معقولة من السكان . . ومع ذلك فلا ننسى ان بالعالم رصيدا من السلاح النووى يكفى كما يقال لمحو العالم جميعا عدة مرات ! اى ان مساحة الدولة وحجم السكان مهما كانت فلن تجدى فى النهاية

(١) المرجع السابق

ومعنى ذلك ان آلة الحرب الجديدة وعدتها لم تعد الجيوش المجيشة بجحافلها الجرارة الضخمة وترساناتها الثقيلة الهائلة ، وانما هى جهاز صغير مكثف اشبه بالأزرار السحرية القتالة ، يحرك العالم دون أن يتحرك من موضعه وينقل الجيوش دون ان ينتقل مكانيا . وانها لمفارقة من التكنولوجيا مذهلة أن تصبح العمليات الحربية موضعيه الى أدنى حد حين اصبحت الاستراتيجية كوكبية الى اقصى حد .. وانها لمفارقة اكبر أن قد وصلت تكنولوجيا الحرب الى مرحلة يمكن الا تتلاقى فيها الجيوش وجها لوجه ومع ذلك تبيد المدنيين بالجملة بعد أن كان من الممكن للجيوش قديما أن تتلاقى وتتقاتل دون أن يتاثر بها المدنيون تقريبا !

أما من حيث الموارد والطاقات ، فقد أصابها العصر النووى هى الأخرى . فان دولة صغيرة تملك القوة الذرية تعد اليوم اقوى من دولة ضخمة غنية لاتملكها . ومعذلك فينبغى أن نستدرك فنقول ان الموارد الغنية شرط لازم لدخول العصر الذرى وتحقيق القدرة النووية ، ومن الملاحظ ان اغنى دولتين فى العالم هما أقدر دولتين ذريا ، كما أن اعضاء النادى الذرى حاليا هم أغنى دول العالم بوجه عام . وهذا ما ينقلنا الى الدرس الهام الذى تعلمه هذه التطورات الثورية

فمناط القوة الحديثة اليوم لم يعد يكمن فى الامتداد المساحى أو القوة العددية أو الموارد الاقتصادية الخام ، ولكن فى تحويل هذه العوامل جميعا الى قمة العلم الحديث واعنى بها تكنولوجيا الذرة . ان اركان الاستراتيجية الحديثة ومقوماتها لم تعد بعد الجغرافيا وحدها او الاقتصاد من بعدها ، وانما هى التكنولوجيا فى أعلى مراحلها . وبعبارة أخرى ، لقد انتقلنا من الاستراتيجية

الجغرافية المألوفة او الجيوستراتيجي الى ما يمكن ان نسميه بالاستراتيجية التكنولوجية او التكنوستراتيجي technostrategy . فالعلم – والعلم القمى المطلق – هو الشكل الجديد للقوة . ومن يملك العلم النووى – أكثر من الارض والسكان والموارد – يملك القوة الاستراتيجية، وان كانت الارض والسكان والموارد هى من مقومات أو خامات ذلك العلم النووى الفيصل . فاذا ماملكت دولتان قوة العلم النووية المتكافئة ، فقد يمكن حينئذ للفروق الطبيعية في المساحة والسكان والموارد أن ترجح الميزان فى هذه الكفة او تلك

مراحل التوازن

تلك اذن هى أبعاد الانقلاب النووى ومفزاه . وعلينا الآن أن نحدد فى ضوئها نمط التوازن الاستراتيجى الكتلى الجديد . وفى هذا الصدد يمكن أن نتعرف على ثلاث مراحل او توازنات . والمراحل الثلاث تمثل اتجاها تدريجيا من الاحتكار المطلق للقوة الذرية لأحد الطرفين الى تكافؤ مطلق بينهما . ومن ثم فلكل منها مغزاه واستراتيجيته – ورعبه

فالمرحلة الاولى هى التى أعقبت الحرب الثانية حتى الخمسينات الباكرة ، حين كانت الولايات المتحدة تنفرد وحدها بالسلاح الذرى ولا يملك الاتحاد السوفييتى الا جهازا ضخما من الاسلحة التقليدية . تفوق نووى وتخلف فى الاسلحة التقليدية فى الغرب ؛ وتخلف نووى وتفوق فى الاسلحة التقليدية فى الشرق . ولا جدال انها كانت مرحلة حرجة للغاية بالنسبة للكتلة الشيوعية ، فى وقت كانت الحرب الباردة والصراع المذهبى على اشدهما . وهى بالتالى المرحلة التى كان اغراء الهجوم على اشده

كذلك بالنسبة للغـــرب ، حيث لم يكن ثمـــة رادع نووى مضاد . ولعله فى ظل هذا التوازن الكتلى المختـــل كانت جرثومة سياسة « حافة الحرب » التى مارستها امريكا دلاس بكثير من التهور وقليل من الخوف

كما نستطيع ان نكون فكرة عن المناخ الاستـــراتيجى والسياسى فى تلك المرحلة من دعوة مفكر مثل برتراند رسل الى شن الحرب الصليبية على الشيوعية على اساس انها هى اما « الآن أو مطلقا » (١) . وهناك حتى الآن من ياسى فى الغرب على ان هذه فرصة ذهبية ضاعت الى الأبد ولن تتكرر

أما المرحلة الثانية فهى الخمسينات بالتقريب . فيهـــا توصل الاتحاد السوفييتى الى السلاح النووى ، واصبح هناك توازن ذرى رهيب بين القطبين ، والردع متبادل عن طريق الصواريخ الموجهة . ولكن هذا لم يكن يعنى شل احتمالات الحرب او تجميدها . فقد كان المفهوم أن الهجوم المفاجىء هو الاستراتيجية الوحيدة التى تبقت لأى من الطرفين . فلو عجل احدهما بمباغتة الآخر ــ غيلة فى الظهر يعنى ــ فقد دمره الى الابد فى ساعات أو ربمـــا دقائق ، وتحدد بذلك مصير العالم نهائيا . وبتعبير آخر فقد كان شـــعار هذه المرحلة هى ان اتغدى بك قبـــل أن تتعشى بى (٢) . انها ببساطة استراتيجية الغـــــدر واسلوب « بيرل هاربر » ولكن نوويا . والهجوم ، لا الدفاع ، هو بالتالى مفتاح المرحلة . ومن هنا ندرك التوتر والترقب الرهيب الذى كان يرين على المعسكرين . وفى ظل هـــذا التوازن كان طبيعيا انتسود استراتيجية«الردع الشامل» فى هذه المرحلة ، بمعنى ان اى استفزاز من الجانب الآخر

---

(١) كول ، ص ٢٥٢ (٢) مورجنتاو

يقابل بحرب نووية شاملة

أما المرحلة الثالثة والاخيرة فهى هذه التى نعيشها الآن منذ حوالى الستينات حين دخلت الغواصة الذرية مسرح الصراع . فلأول مرة فى العصر الذرى يصبح التوازن والتكافؤ اكثر حدة ودقة من حد السيف والفارق أو هى من خيط العنكبوت . ولم يعد ثمة مجال لاستراتيجية المفاجأة أو الغدر . فكما رأينا ، فقد أصبح لكل من الجانبين ــ مجازا ــ « يابس أو قارات » عائمة فى المحيطات لها مثل قوة التدمير والردع النووية التى للقاعدة الارضية الضخمة على اليابس الحقيقى تماما

فاذا ما باغت احد الجانبين الجانب الآخر بهجوم نووى كاسح على أرضه، فهو قد محاه حقا من الوجود ، ولكنه لن يفلت من العقاب فورا بهجوم ماحق مماثل من أسطول غواصاته النووية المنبث المتربص فى أغوار المحيطات . وما يقال عن الغواصات النووية يقال تماما عن الصواريخ المدارية ــ التى ينفرد بها الاتحاد السوفييتى حتى الآن ــ فهى خطر محلق ابدا فى الفضاء كالأولى المتربصة ابدا فى الاعماق ، وكل ينقض حينما وحيثما يراد له . فالتشابه الأساسى بينهما انهما قد استقلا عن الغلاف الارضى ، اذ بينما توطنت الغواصات الذرية الى الابد فى الغلاف المائى، توطنت الصواريخ المدارية الىمالانهاية فى الغلاف الجوى. وبتعبير آخر فان كلا منهما سلاح يقع خارج حدود المكان والزمان الارضى سياسيا وعسكريا : خارج حدود الرقعة الاقليمية للدولة ، وخارج حدود المباغتة الصاروخية ونتائج المعركة الفجائية ذاتها

وبهذا وذاك اصبح الموقف كله كمبارزات الغدارات فى الماضى حين كانت تتزامن الطلقتان بالصدفة فتردى الطرفين معا ، الا أنه لا صدفة هنا اليوم وانما هو حساب مكتوب وقدر

محتوم . في كلمة واحدة : ان التوازن النووي الراهن هو حكم اعدام مع ايقاف التنفيذ، اما اذا نفذ فهو انتحار متبادل للكتلتين! وللخروج من اسر هذا التوازن ظهرت في امريكا فلسفة « الرد المرن » كاستراتيجية هذه المرحلة ، ومعناها التقدم الى خوض حروب صغيرة محدودة او اقليمية بالسلاح التقليدي دون ما اثارة للترسانة النووية ودون خوف من الردع النووي الشامل

متى وكيف ويمكن لهذا التوازن المروع أن يختل بحيث يعطي أحد الطرفين ميزة الانقضاض بلا خوف من الردع ؟ في حالة واحدة ، ليست هي زيادة فاعلية أو رصيد السلاح النووي ، فان هذا قد وصل من قبل الى درجة ما فوق التشبع من حيث قوة التدمير . وانما حين يصل احد الطرفين الى سلاح دفاعي محقق ضد خطر الهجوم النووي ، هي تلك الحالة . وبمثلها نرتد الى موقف أشبه بالمرحلة الثانية او الأولى ، ومعها ينفتح الباب مرة اخرى لنذر الواقعة . فهل قد فتح ؟

الى وقت قريب كنا نظن ـ خوفا او املا ـ ان احدا لم يهتد بعد الى هذا الدفاع الكئيب ، وحسبناه من حسن حظ العالم . غير ان السنة او السنتين الأخيرتين تكشفت عن توصل الاتحاد السوفييتي الى الصواريخ المضادة للصواريخ anti-missile missiles ، والى اقامة شبكة كثيفة أو فعالة من هذا الدفاع الصاروخي حول المدن الكبرى خاصة موسكو ولننجراد ، يفترض أنها ستعمم وتعمق في كل الاتحاد بالتدريج . وأخيرا جدا توصلت الولايات المتحدة كذلك الى مثل هذه الصواريخ المضادة للصواريخ ولا زالت تبحث في انشاء شبكة منها ، ولو ان هذا على مستوى أولي لا يقارن بما وصل اليه الاتحاد السوفييتي

غير ان علينا أن نذكر رأيا لأهميته ، يبدو ان فيه على

الاقل قدرا ما من الصحة ، ويذهب الى انه لا دفاع حقيقى مطلق او رادع تماما ضد الصواريخ النووية مهما تطورت مضاداتها على الجانبين ، وان الخطر النووى سيظل هو هو الخطر النووى ، وان الردع الذرى سيبقى اقرب دائما الى التوازن النسبى منه الى الانقلاب الجذرى لمصلحة احد الطرفين

وايا ما كان الراى ، فان معنى ذلك التطور ثلاث : أولا ، ان احد الطرفين قد تفوق على الآخر فى الدفاعات النووية، مما هز التوازن الذرى الدقيق ، وخلق اغراءات الهجوم او امكانيات الصدام . وبهذا عدنا الى حد ما الى موقف يذكر بالمرحلة الأولى او الثانية . غير أن الاتحاد السوفييتى ، ثانيا ، هو الذى تفوق هذه المرة ، وبذلك عوض ـ تاريخيا ـ عن فترة تخلفه الذرى بعد الحرب مباشرة . ولعل هذا من حسن حظ العالم ، لأن المهم هنا ان الاتحاد ليس له اليوم الميول العدوانية او التهور الاندفاعى الذى كان للولايات فى هاتين المرحلتين ، وليس من المستبعد فى راى البعض انه لو كان هذا التفوق الجديد من قدر الولايات فربما اندفعت فى طريق التحرش والصدام . ثالثا ، من المرجح مع ذلك ان الولايات لن تعجز فى النهاية عن التوصل الى مستوى مماثل لمستوى الاتحاد ، وان التوازن النووى خليق بذلك بأن يعود الى ما كان عليه من تكافؤ ، والموقف الاستراتيجى الى ما كان عليه من تجميد عميق

هكذا هى اذن ، فيما يبدو ، الدورة الاستراتيجية فى العصر النووى : سبق مؤقت هنا ينسخ التوازن ، لا يلبث أن يعقبه سبق هناك ينسخه ويعيد التوازن ، ثم تبدأ الدورة من جديد . وفى وسط هذا السباق التكنولوجى العرم ، أصبح السلام النووى يتألف كالبركان النائم من

فترات متقطعة ومتعاقبة من الخطر الخامد المكبوت ثم من الخطر المنذر الماثل . والتفوق اليوم ليس لمن يملك الهجوم وحده ، وانما هو لمن يملك الهجوم والدفاع معا ، والاغراء بالهجوم لن يتحدد بمن يضمن هجوما اقوى بل بمن يضمن دفاعا اكمل

وفيما عدا هذا ، فنحن نتقدم خطوة اخرى فى سبيل تحديد نتائج الصدام النووى اذا عرفنا على من ستنصب تلك النتائج اساسا . وليس من الممكن بطبيعة الحال التكهن بمدى حدود الصدام جغرافيا وسياسيا وما اذا كان قد يبتلع العالم كله أو جله فى اتونه ، ولكن من المحقق انه اذا اقتصر على المعسكرين المتصارعين فان الانتحار المتبادل الذى أشرنا اليه سيكون على وجه التحديد انتحارا للجنس الأبيض بالذات : السلاف فى الشرق والتيوتون واللاتين فى الوسط والانجلو ساكسون فى الغرب. والمقدر بعامة أنه اذا اتخذت الحرب النووية أبعادا عالمية ، فلن تترك على ظهر الارض من بقايا البشرية الا « قليلا من الافريقيين وكثيرا من الصينيين » كما عبر مرة خروشوف

وحتى ان لم ينقرض الجنس الاوربى وأفلتت من الواقعة بذور له أو « خميرة » ، فلن يكون بعدها الا اقلية مسحوقة عدديا وماديا فى عالم ما بعد الحرب النووية ، وستضيع سيطرته العالمية الى الأبد ، ويرث الارض من بعده من كانوا « عباده المستضعفين » من « ملونين » ومستعمرات سابقة . الخ . وبهذا تبدأ للعالم جغرافية جنسية وسياسية جديدة تماما ومختلفة جذريا عما الف الأوربى: عالم تتبع فيه المعتدلات المداريات وتخضع فيه العروض العليا للعروض السفلى ، وقد يصبح فيه سادة الأمس توابع الغد وعبيد الامس سادة الغد ، ويكون الجنس الأبيض هو الجنس المغلوب على امره فى العائلة البشرية !

ومعنى هذا على الفور أن التصــــادم النووى لا يأخذ مظهرا استراتيجيا فحسب ولكنه يكتسب قبله مغــزى جنسيا مباشرا ويبدو لأطرافه انتحار الرجل الابيض أكثر منه ، وقبل أن يكون ، انتحار الجنس البشرى ، بحيث يجعلها تعيد النظر فى الجانب الاستراتيجى كلية

هذه اذن هى احتمالات المستقبل : صـــــورة رهيبة للبشرية عامة وحلم مفزع للأوربى خاصة ، ومن هنا جاء رد الفعل العنيف . فلقد جعلت الاستراتيجية النووية ، بحكم « ميزان الرعب الذرى » ، جعلت الحرب مستحيلة، ومن « التعايش السلمى » ضرورة بقائيـــــة . وأصبحت الترسانة النووية العالميـــة طاقة مشلولة أو رادعا ذاتيـــا كالبوميرانج الذى يرتد الى صدر صاحبه . وهذا الموقف يحمل فى طواياه ــ كما يقول مورجنتاو ــ أما الشر المستطير الذى لم يسبق له مثيل ، واما الخير الذى لا يكاد يصدق . وفى نفس الوقت تظل الخلافات الايديولوجية والأسية قابعة فى اخاديد عميقة تنفى السلم العالمى مثلما نفيت الحرب العالمية من قبل ، وفى ظل هذا المناخ السياسى ، الذى يشبه الرهو الثقيل الممض ، لم يكن غريبا أن أخذت تتجرثم عدة خطوط جديدة فى السياســـة العالميـــة أو تتجوهر

نتائج واحتمالات

فأولا ، تراجعت الحرب الذرية الشاملة لتترك الباب مفتوحا على مصراعيه للحروب الصغيرة المحلية وسياسة القوة التى نشطت الكتلة الغربية معربدة الى ممارستها هنا وهناك ، وهى على يقين من استحالة تحولها الى الحرب الشاملة . وقد جاء هذا التطور على حساب الدول الناشئة وحديثة الاستقلال أساسا ، والتى أصبح عليها أن تدرك

ان عليها من الآن فصاعدا أن تعتمد على انفسها في الدفاع وحماية مكاسب التحرير . ومعنى هذا ان هدنة الرعب الذرى لم تساعد قوى التحرير والدول النامية كما قد يظن البعض بل اتت على حسابها وتركتها وحدها تواجه قوى الاستعمار من جديد في لقاء يعيد الى الاذهان شيئا من مناخ القرن التاسع عشر

ثانيا ، بدأ العملاقان المتضادان يتقاربان قليلا وبالتدريج . وينعكس هذا في تزايد التبادل التجارى بين الكتلتين ، وفي محاولات الاتفاق على نزع السلاح ــ والسلاح الذرى بعينه ــ او ايقاف سباق التسليح وتحويل التنافس الى النواحي السلمية البناءة . كذلك خفتت الى حد ما دعوة الثورة العالمية الشيوعية، ودعوة الحرب الصليبية المقدسة على الشيوعية . على أن الحصاد حتى الآن ضئيل وغير مشجع . ومع ذلك فهناك من يرى ــ ان خطأ أو صوابا ــ في بعض التطورات الاقتصادية والاجتماعية التى تزحف على كلا الجانبين كالاخذ بلون من التخطيط والتدخل في الغرب الراسمالي واعادة الاعتبار لعوامل الربح والحافز المادى في الشرق الشيوعى مؤشرات اولية نحو تغييرات هيكلية في النظم والايديولوجيات المتناقضة ذاتها

بل ان البعض ليتفاءل حقا الى حد تصور أنه تحت ضغط الرعب الذرى وتحت تهديد انزلاق العنصر الأوربى في مجال القوة العالمية ، سيرغم كل من القطبين المتنافرين على ان يخفف بالتدريج من تطرفه نحو اليمين أو اليسار حتى تلتقى الراسمالية المطلقة والشيوعية الكاملة على ارض اشتراكية مشتركة . . ومن هذا الالتقاء ينتهى هذا البعض الى تصور محور اوربى ابيض يستقطب العملاقين وينهى انقسام العالم الى شرق وغرب ليبرز مكانه انقسامه الى

شمال وجنوب .. ويعزز هذا التصور ـ الحالم ـ ما يحدث الآن داخل معسكري الشرق والغـــرب ، وهو ما ننتقل اليه مباشرة

ثالثا ، بينما يحدث هذا التقارب الذى قد يخفف نوعا من حدة الاستقطاب الثنائى ، بدات أحجار كل من الكتلتين تتفكك وتتباعد قليلا ، أما ثورة على تبعية الكتل واما مغالاة في رسالة الكتل ، اى اما بالمناقصة واما بالمزايدة . وتمثل فرنسا ديجول الاتجاه الاول فى المعسكر الغربى حيث تتزعم حركة عظمى لتاكيد وجود أوربا بين العملاقين ، ولتحررها من الوصاية الامريكية ، وتدعو لذلك الى وحدة أوربا من « الأطلسى حتى الاورال » ، وبذلك تقطع عبر الاستقطاب الثنائي وتغلفه بالضباب . كذلك ومن ناحية أخرى تعمل السوق المشتركة فى اتجاه تدعيم قوة أوروبا الذاتية

أما الاتجاه الثانى فيتجسم فى الصين الشعبيـــة التى تدعو الى صيغة منتهى الشيوعية وترفض التعايش السلمى وتطالب بفرض الثورة العالمية فورا وبسحق الراسمالية . ومن ناحية أخـرى فان دول شرق أوربا تبدى مزيدا من الاستقلال الاقتصادي وغير الاقتصادى عن المعسكر الأب . وفى نفس الوقت اخذ الثائران الغربى والشرقى ، فرنسا والصين ، يتقاربان نوعا بشكل أو بآخر لحسابهما الخاص

والمحصلة النهائية هى تفكك لا جدال فيه فى أحجـــار المعسكرين ، هو ما يعبر عنه الآن بظاهرة تفكك التوابع الكتلية Desatellisation والسؤال حتى الان هو الى أى حد يمكن ان تذهب حركة التفكك فى المعسكرين هـذه ، وهل يمكن حقا أن تصل الى حد الذوبان فى المدى البعيد أو الى حد تحول الاستقطاب الثنائى الراهن الى استقطاب متعدد الأطراف ؟ ففى فرنسا لا يبدو الهدف انتزاع زعامة المعسكر بقدر ما هو تأكيد لاعتبار القومية فى الحلف .

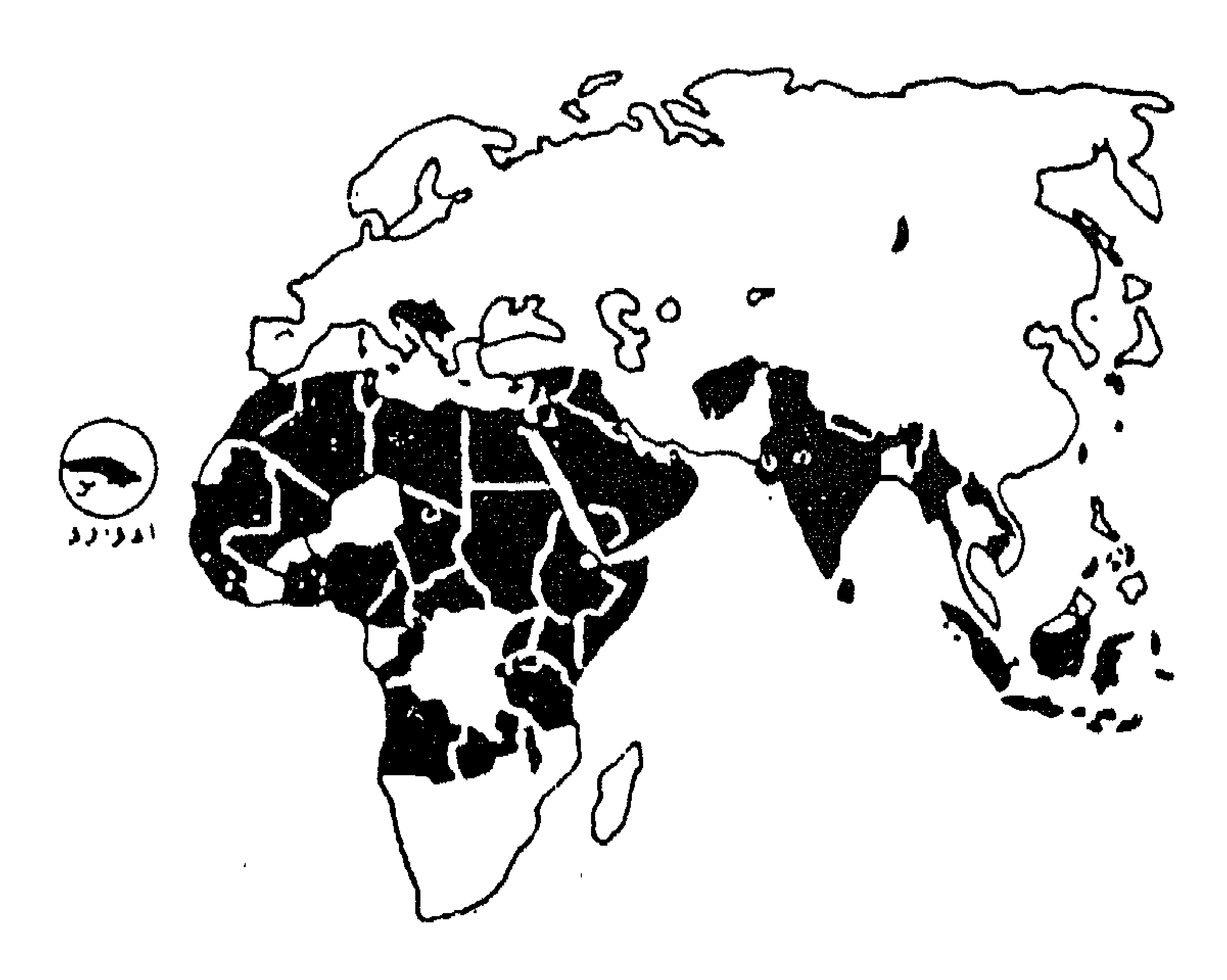
وعلى العكس من ذلك فى حالة الصين : لا يبدو الهدف محاولة معلنة لتاكيد القومية (وان كانت مضمرة ضمنا) داخل المعسكر الذى لا يعترف بالقومية ، بقدر ما يبدو محاولة غير معلنة لانتزاع الزعامة .. وعمق الأخدود الذى انشق بين الاتحاد والصين يؤكد هذا الفرض ، بينما أن خطة الصين المعلنة لا تنفيه تماما

وهنا يبدو فارق جغرافى هام بين تكوين المعسكرين . فالغرب يتألف من حجر واحد ضخم طاغ يتجاذب حوله عديد من الأحجام الصغيرة والمتوسطة ، فلا مجال حقيقى للتنافس على الزعامة . أما الشرق فقوامه الاساسى حجران ضخمان ندان صنوان او شبه صنوان حولهما بضعة من الاحجام الضئيلة ، ومن ثم فالتطلعات التنافسية ممكنة . وليس من شك ان الحجر الأكبر مساحة وموارد طبيعية وانتاجا اقتصاديا وثروة مادية وتقدما تكنولوجيا وقوة عسكرية هو الآن الاتحاد ، ومن الارجح فى تقدير الجغرافيا أن يظل كذلك فى المستقبل على الدوام . ولكن الصين تتطور ــ تطفر فى الواقع ــ بسرعة فائقة واهم من ذلك أنها ، عدا حضارة أعرق وربما أمتن ، ترى فى عامل سكانها ــ وهى التى تعادل الاتحاد سكانا أكثر من ثلاثة الامثال ــ مبررا غلابا لكى تكون فيما يبدو مركز العالم اجمع لا المعسكر الشيوعى فحسب ! (١)

وليس من شك فى انه اذا كان للعملاقين الحاليين من ثالث يلحق بهما فى المستقبل فهذا الثالث هو الصين وحدها ، فهى وحدها التى تملك من الموارد والمقومات والحجم والضخامة ما يؤهلها لان تكون قوة دينوصورية عظمى على مستوى العملاقين . ولعلها كانت نبوءة عراف

---

(١) كول . ص ٢٥١ ، ٣٠٩



شكل (٣١) مجموعة دول عـــدم الانحياز ، ١٩٦٥
٤٦ دولة اشـــتركت فى مؤتمر القـــاهرة ١٩٦٤ ،
عدا ١١ دولة مراقبـــة . كل المشتركين العـــاملين
دول نامية أفرو اسـيوية عدا يوغوســـلافيا وكوبا

حين تكهن فوست فى وقت مبكر مثل ١٩٥١ بامكان حدوث صدع بين الاتحاد والصين واستقطاب العالم الشيوعى بدوره ثنائيا (١).

ومهما يكن من أمر فيبدو أن المعسكر الغربى يحاول بحذر أن يفيد من التفكك الراهن فيعمق الهوة بين الحجرين ويجذب اليه الحجر الاكبر بالتـدريج مستغـلا فى ذلك الانتخاب الجنسى المعين للحرب النووية والذى يربط بينهما نهائيا فى المصير الذرى . وهم يشيرون الى أن مركز العداء والصراع السياسى فى أوربا تحرك دائما نحو الشرق تاركا

(١) Geog. & Empire, loc. cit., p. 431.

عدو الامس حليف اليوم : ففرنسا كانت عدوة بريطانيا ثم اصبحت حليفتها ، ثم صارت المانيا عدوة الاثنين فاصبحت حليفتهما ، وقد اصبح الاتحاد السوفييتي عدو الجميع اليوم ، فما الذى يمنع بهذا المنطق ـ هكذا يتساءلون ـ من ان يتحول الى حليفهم ؟ وبهذا تعود نظرية المحور الشمالى الابيض ضد المحور الجنوبى الملون فتطفو على السطح فى نهايه المطاف .. وبهذا ايضا يتحول الصراع المذهبى بين الكتل البيضاء الى نوع من الصراع العنصرى بين الاجناس البيضاء وغير البيضاء . اى ان يحل صراع اضداد جديد محل القديم

وقد يكون هذا التصور كله رجما بالغيب او من قبيل احلام التعويض والامانى الطيبة . فلا شك ان التنبؤ السياسى بالمستقبل ليس امرا بالغ الصعوبة فحسب ولكنه قبل ذلك امر خطر محفوف بالمزالق العملية والشكوك . وصحيح ان الدرس الذى يعلمه لنا تاريخ الصراعات البشرية والسياسية هو ان اعداء الامس هم اصدقاء الغد ، وان اصدقاء اليوم قد يصبحون اعداء الغد ، وان التشكيلات السياسية فى العالم نمط متغير بالتدريج او بالطفرة . ولكن من الصحيح ايضا ان الدرس الاكبر والذى لا ينبغى قط ان ننساه هو انه ليس هناك ما يمنع فى نهاية المطاف من ان يكون كل اعداء الامس اصدقاء الغد جميعا ، وان يصبح التشكيل السياسى الوحيد فى العالم كله هو استراتيجية السلام لا الصراع وحلف البشرية لا حلف الفضول

ماكيندر والعصر النووى

وعند هذا الحد من المناقشة ، لا بد ان يثور او قد ثار فى الذهن سؤال : اين ماكيندر ونظرية الهارتلاند من

كل هذا الانقلاب النووي الرهيب ؟ أمن الممكن أن نركب الاستراتيجية الجديدة فى معادلته الثلاثية الخالدة قوة البر وقوة البحر ومنطقة الارتطام ؟ هل يجوز بعد اليوم ان نتنبأ مع ميهان وسبيكمان بأن النصر فى الصراع سيكون للقوى البحرية والسواحل ، او مع راتزل وماكيندر بانه سيكون للقوى البرية والقارية ؟ لا ، بل هل هناك اليوم قوى بر وبحر على الاطلاق تتباين تباين الابيض والاسود ؟

من الصعب حقا ان نتفادى الانتهاء الى ان الاستراتيجية النووية قد نسخت جوهر النظرية وقوضت اركانها . فقد « استقلت » الحرب اخيرا وفى النهاية عن سطح الارض الى حد بعيد ، « وارتقت » المعركة من مستوى الارض لتحلق فى الفضاء ، ولم يعد الصراع بين الحوت والفيل بينهما تمساح ، وانما ـ لنقابل التشبيه بتشبيه مماثل ـ اصبح هو صراعا بين « النسر والصقر » ، بين جوارح مجنحة ليس بينها وسيط او ضحية الا أن يكون « حمامة » سلام

فما دام لم يعد هناك يابس أو ماء نوويا ، فانه لم يعد هناك قوة بر ولا بحر او ارتطام . ثمة فقط قوة نووية او تقليدية . لا ولم يعد الهارتلاند بالضرورة « أقوى قلعة دفاعية طبيعية » على الارض ، فهو اذا كان لا يزال غير مفتوح من خلف أو قدام فقد أصبح مفتوحا من فوق . ومثله صارت الولايات المتحدة : لا عزلة ولا ابتعاد بعد أن استدار الخطر فترك طريقه عبر البحر ليأتي من السماء (1) . كذلك فلم يعد هناك محل للتكهن : لمن ستكون الغلبة والفوز فى الصراع ، قوى البر ام قوى البحر ؟ ـ اولا لأن هذه التفرقة لم تعد سؤالا

---

(1) بوين . ص ٥

واردا بعد ان اصبح الجميع قوى فضاء ، ثانيا لأنه لن تكون هناك غلبة وتفوق بل اندحار متبادل ان لم يكن انتحارا للطرفين . وهكذا وهكذا

وربما كان من الممكن لنظرية ماكيندر ان تتعايش ــ جزئيا فحسب ــ مع استراتيجية الطيران وقوة الجو ، ولكن مقدم الاستراتيجية الصاروخية وقوة الفضاء space power لم يترك لها شيئا . ان الصواريخ بكل اشكالها وانواعها ومهما اختلفت قواعد اطلاقها ، حرب جوية أساسا ، وهى بهذا امتداد بشكل آخر ؛ امتداد قمى الى ابعد حد للطائرات . فاذا كانت الطائرة قد سلبت النظرية الجزء الاكبر من محتواها ومغزاها ، فان الصواريخ تنسخها كلية بلا جدال

وهى بذلك تتحول من الجغرافيا السياسية الحية لتستقر ــ مكرمة ــ فى متحف الجغرافيا التاريخية . ونقول مكرمة لان هذا التحول لا يقلل من قيمتها الاكاديمية ، فحسبها انها تفسر بدقة مثيرة اغلب كليات وجزئيات التاريخ ، ابتداء من القرن العشرين قبل الميلاد حتى القرن العشرين بعد الميلاد . وفوق هذا فان العالم اذا اتفق على نزع السلاح النووى ومنع الحرب النووية ، فانه يعود ببساطة وآليا الى استراتيجية ماكيندر ما فى ذلك شك، ويعود للموقع الجغرافى وزنه الاثير ودوره المأثور

ولكن الاقتراح الذى نود ان نطرحه هنا هو ان هناك من الأدلة ما يشير ، فى هذه المرحلة الراهنة التى تتعايش وتتعاصر فيها الاستراتيجية التقليدية جنبا الى جنب مع الاستراتيجية النووية ، الى ان ابعاد نظرية ماكيندر لم تنسخ بعد كلية، ولكنها بدأت تأخذ شكلا ومغزى جديدا

ان جغرافيا مثل بوين بحث اخيرا عن نمط سياسى

واضح للعالم ككل يحل محل نمط ماكيندر بعد أن تحررت المستعمرات ، ولكنه يعلن انه عبثا لم يجد اى نمط ، فليس ثمة الا حزمة من الدول المستقلة تغطى وجه القارات ولا تعطى نمطا الا مجرد نمط وجودها هى كرقع الشطرنج ، ومن العبث ان ندخل عليها نظرية شاملة فى توزيع القوة السياسية حاليا كتلك التى قدمها ماكيندر منذ نحو نصف قرن

ولكن أحقا ليس هناك نمط عالمى للجغرافيا السياسية المعاصرة ؟ فى تقديرنا انه ثمة نمط ، ونمط مستمد من تصور ماكيندر ، الا انه يتحول حثيثا من مفهوم جغرافى الى مفهوم حضارى ، من فكرة عسكرية الى فكرة مذهبية . كذلك فاذا كان بوين ينتهى الى أن عصر الجو والفضاء قد « جعل من نمط ماكيندر العالمى هراء ، ولكن قط هراء من ادراكه أن القوة فى المستقبل تكمن مع الامبراطوريات القارية بفضل تفوق مواردها » (١) ؛ فاننا نحسب أن كل الحقائق تجعل الصحيح هو العكس تماما : تفوق الامبراطوريات القارية لم يعد قائما بالضرورة أما النمط العالمى فهو الذى ما زال قائما ! أما كيف ، فهذا ما نتقدم الان الى دراسته فى مناقشتنا لاستراتيجية عدم الانحياز

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٣ ، ٥

الفصل الثالث عشر

استراتيجية عدم الانحياز

من بين ثورة التحرير والانقلاب النووى ، وكرد فعل ومواجهة لهما ، انبثقت احدث ظاهرة سياسية معاصرة وهى الحياد الايجابى وعدم الانحياز . فلقد اعطت ثورة التحرير نسلا ضخما من الدول الجديدة الصغيرة النامية التى تتفتح على خضم السياسة العالمية ودوامته كوحدات مستقلة لأول مرة منذ عقود واحيانا منذ قرون . بل ان كثيرا منها لم يعرف شكل الدولة الوطنية الحديثة قبل الاستعمار اطلاقا واكثرها لم يكن يعرف العالم الخارجى الا عن طريق طاقة ضيقة احتكارية محكمة هى دولة المتروبول الاستعمارية . ولما كانت الدول الاستعمارية ترسم لهذه المستعمرات ـ كتوابع صماء ـ توجيهها الخارجى وتقننه فى تيارات بعينها ، فلقد كان هذا التوجيه السياسى يرسم فى النهاية نمطا طاردا مركزيا centrifugal تتباعد به المستعمرات ، وتعطى ظهرها لبعضها البعض فى الوقت الذى تقرب قسرا من المتروبول

ولهذا فان مرحلة ما بعد التحرير كانت بالضرورة مرحلة صناعة السياسة الخارجية الجديدة ، تحاول فيها أن تتلمس طريقها بحذر وأن تتحرك بأمان فى غاب السياسة العالمية وأدغالها ، معسكراتها وكتلها . ومنذ

البداية وجدت الدول المتحررة نفسها تخضع لضغوط عنيفة فجة احيانا أو انسيابية ولكنها خطيرة احيانا أخرى تحاول أن تتجاذبها او أن تأسرها فى فلكها . ولم تكن هذه الضغوط لتخرج فى جملتها وفى التحليل الاخير عن مناورات الحرب البـــاردة ومغناطيسية الاســـتقطاب الثنائى

ومنذ البداية ايضا وجدت هذه الدول الصاعدة الرد فى « الحياد الايجابى وعدم الانحياز » ، واخذت تتجاذب وتستقطب فى طريقه حتى اصبح هذا نمطا جاذبا مركزيا centripetal يجمع بينها بعد أن كانت فى ظل الاستعمار شتيتا شعاعا ونمطا طاردا مركزيا ، وحتى اصبحت جبهة عدم الانحياز تمثل عالما قائما بذاته هو العالم الثالث

وبديهى أن تأتى الضغوط الخطيرة حقا على الدول الوليدة النامية من جانب القوى الاستعمارية السابقة : اولا بحكم القصور الذاتى للاستعمار، والتقليد الامبريالى، وثانيا لضمها أو ابتلاعها فى صـــفها فى الحرب البـــاردة وحرب الكتل المذهبية . فأما عن العامل الاول ، فان القوى الاستعمارية القـــديمة اذا كانت قد أرغمت على الخروج فهى لم تغير بعد من عقليتها الاستغلالية وعقدة السيطرة والتحكم

والواقع انها لم تخرج اصلا الا لتعود ، وانما عـــودة المحتال الذكى لا اللص الغبى هذه المرة ، ولم تنحن لموجة التحرير الا لتركبها ، وبذلك تدور حول روح العصر دون أن تصطدم به . والشـــعارات التكتيكية التى رفعهـــا الاستعمار هى وحدها دليل يكشف كل استراتيجيتها : ارحل لتبقى Quit to stay ، الاستقلال داخل الترابط Independence within interdependence ، حلب البقرة دون ملكيتها . . الخ

وجماع هذا ومحصلته هو ما أصبح يعرف بجدارة « بالاستعمار الجديد » . ومحور ارتكازه أن يغير الشكل دون الموضوع ، والاطار لا الصورة . فهو أولا استعمار خبيء غير سافر ولا مباشر ، اقتصادي لا سياسي ، يعتمد على تفتيت الدول المتحررة لا تبعيتها ، وامتصاصها لا امتلاكها ، وأدواته الشركات والاحتكارات لا الجيوش والغزوات . واذا كان الاستعمار القديم « يعطى الانجيل ويأخذ الارض » ، فان هذا الجديد يعطى الاستقلال ويأخذ المحصول .. وهو بذلك يستبدل بالاستعمار السياسي الاستعمار الاقتصادى ، ويتبنى النمط اليانكى فى أمريكا اللاتينية بدلا من النمط الانجليزى فى افريقيا . انه باختصار أذكى ـ بعد اعلى ـ مراحل الامبريالية

أما عن مناورات الدول الاستعمارية لاستدراج الدول المتحررة الى جانبها فى الحرب الباردة والصراع الكتلى ، فقد أخذت شكلا عنيفا مكشوفا . فلم يكن كسب العالم الثالث أو ثلث العالم فى هذا الجانب أو ذاك بالأمر الذى يمكن التقليل من خطورته فى تحديد نتيجة الصراع العالمى (١) . ولهذا استماتت الكتلة الاستعمارية الغربية فى محاولة ضم العالم الثالث ، عالم الدول النامية الفقيرة حديثة الاستقلال ، الى صفها وابتلاعه فى فلكها السياسى والمذهبى ، حتى وان وصل الضغط والاكراه الى حد العنف والقهر . وفى هـذا السبيل استهدف الغرب هدفين : الاستراتيجية والايديولوجية ، واتخذ اداتين الاحلاف العسكرية والنموذج الراسمالى

فاما الاستراتيجية والاحلاف فقد مرت منذ نهاية الحرب الثانية وفى الخمسينات بفترة محمومة ـ اكاد اقول مسعورة ـ حشد المعسكر الغربى فيها كل ضغوطه

(١) مورجنتاو

اولا على العالم العربى ، وثانيا على آسيا الموسمية ، ثم فى النهاية على افريقيا المدارية ، لكى يربطها بسلسلة من الاحلاف التى يصفها « بالدفاعية » موجهة ضد المعسكر الشرقى وما نعته « بالخطر الشيوعى »

وكان منطق الغرب فى هذه الحملة هو انه مع التحرير قد اصبحت هذه المناطق بلا قوة حربية تواجه ذلك الخطر ، اصبحت يعنى « فراغا » من وجهة نظره ، وادعى ان ملأه من واجبه . تلك كانت ـ فى الشرق الاوسط مثلا ـ « نظرية ايزنهاور » نظرية الفراغ ، أما تطبيقها فكان مشروع حلف الميدو Medo ثم حلف بغداد ، وهكذا بقية السلسلة حتى الشرق الاقصى . ولقد وصلت الضغوط من اجل هذه السياسة الى اقصاها فى منطقة العالم العربى بالذات بحكم خطورة موقعها الاستراتيجى ومواردها البترولية بينما كانت أقلها نسبيا فى افريقيا المدارية لتطرفها

ومن نقطة الضغط الأقصى هذه ، وبالذات من نواتها النووية مصر ، تفجر رد الفعل البكر اصيلا وبتارا . فقد عدت المنطقة احلاف الغرب « استعمارا جماعيا » لجأ اليه كبديل للاستعمار الفردى القديم فى آخر مرحلة من مراحل شيخوخته وعجزه وانهياره ، واعلنت رفضها للتبعية الجديدة التى تضعها فى مناطق النفوذ وتربطها بعجلة الاستعمار وبكتلة رجعية عدوانية . ورفضت المنطقة مبدأ الفراغ فان قوتها الذاتية هى جديرة بان تملأه . كما نبذت التلويح بالخطر الشيوعى البعيد الموهوم ، فى حين يجثم خطر الاستعمار على انفاسها أو تطاردها أشباحه

وفى وجه هذه المقاومة النضالية الثورية ، سقطت سياسة الاحلاف الغربية فى المنطقة واصبح العالم العربى

يمثل الحلقة المفقودة فى استراتيجية التطويق والاحتواء .
لقد رسمت مؤشرات المستقبل وتحددت بوصلة الحياد الايجابى وعدم الانحياز . . وان هى الا سلسلة من الافعال وردود الافعال حتى كان هذا النموذج الحيادى ينتشر فى ارجاء العالم الثالث ويصبح دستور التوجيه السياسى للدول المتحررة حديثة الاستقلال . ومن هنا اتى الحياد الايجابى وعدم الانحياز الابن الشرعى لثورة التحرير والعدو الطبيعى للاستعمار والامبريالية

ومثل هذا عن الايديولوجية والنظم الاجتماعية يقال . فقد انطلق المعسكر الغربى الراسمالى ليعرض نموذجه المذهبى على العالم الثالث المتحرر الذى عاش عمره الاستعمارى فى ظل اقتصاد راسمالى او اقطاعى . وحاول ان يستغل وجوده السابق ، وعلاقاته الاقتصادية الاحتكارية مع دوله الجديدة ، فى هذا السبيل . وكان منطقيا ان تفشل خطته ودعايته ، لأن هذه الدول وجدت ان نكبتها الاستعمارية المزمنة بدات اصلا كجزء من النظام الراسمالى ، وان الراسمالية الاستعمارية هى وحدها التى نزحت مواردها واستنزفت انتاجها وثروتها

ومن ناحية اخرى فقد وجدت هذه الدول فى تخلفها الرهيب ان عليها أن تقطع شوطا شاقا لتعوض به الماضى ، وان عشوائية والتهازية الاقتصاد الحر وأناركية المذهب الفردى لا يمكن الا ان تكون معوقا خطيرا فى هذا السبيل ، وبغير الاقتصاد الموجه والتخطيط الرشيد ستزداد تخلفا على تخلف . وفى نفس الوقت كان امامها نموذج دول الكتلة الشرقية وخاصة الاتحاد والصين التى ثورت اقتصادها وكيانها بمعدل العاصفة والى مدى يكاد يتعدى حدود الخيال اذا قيس بمدة التجربة

وهى تتلفت حولها فتجد ، على سبيل المثال ، معدل نمو الاقتصاد فى الاتحاد السوفييتى ضعف معدل الولايات المتحدة ، وان معدل نمو الانتاج الصناعى فى الكتلة الشيوعية ثلاثة اضعافه فى الكتلة الراسمالية . وهى تنظر الى الخلف قليلا فترى أن ظروفها تشبه بدرجة او باخرى ظروف روسيا ١٩١٧ او الصين ١٩٤٩ او كوبا ١٩٥٩ (١) ومن هنا كانت حتمية الحل الاشتراكى بالنسبة للدول المتحررة النامية . واذا كان بعض الاقتصاديين مثل هايلبرونر يرى ان اخطر حقيقة فى عصرنا هى اتجاه العالم المتزايد نحو جماعية الاقتصاد collectivization أو تشريكه socialisation ، فان الدول المتحررة تؤكد هذا الاتجاه بكل قوة (٢)

بيد انها اذا كانت قد نبذت الطريق الراسمالى اساسا ، فهى فى الاعم الاغلب لم تكن على استعداد لأن تحتذى النموذج الشرقى فى صورته الشيوعية ، بل آثرت طريقا اشتراكيا وسطا معتدلا لا يجنح الى اقصى اليسار . وفى رأى البعض ان هذا الطريق الوسط يتمثل فى الجمع بين قطاع عام قائد وسائد وقطاع خاص ثانوى ، وان هذه الوصفة الاقتصادية هى بمعنى ما التعبير الاجتماعى عن عدم الانحياز كمبدأ وكفكرة . وايا كانت صحة هذا التأويل ، فليس من الصدفة بالتأكيد ان السواد الاعظم من دول العالم الثالث تبنت الفلسفة الاشتراكية المتزنة ، ولا تكاد دولة جديدة تتحرر حتى تعلن الأخذ بهذه الأيديولوجية . وهكذا ازدوجت الثورة الوطنية بثورة اجتماعية ، وارتبط تحرير الوطن بتحرير المواطن ،

---

(١) R. Heilbroner, The Future as History, N.Y., 1960, p. 88.

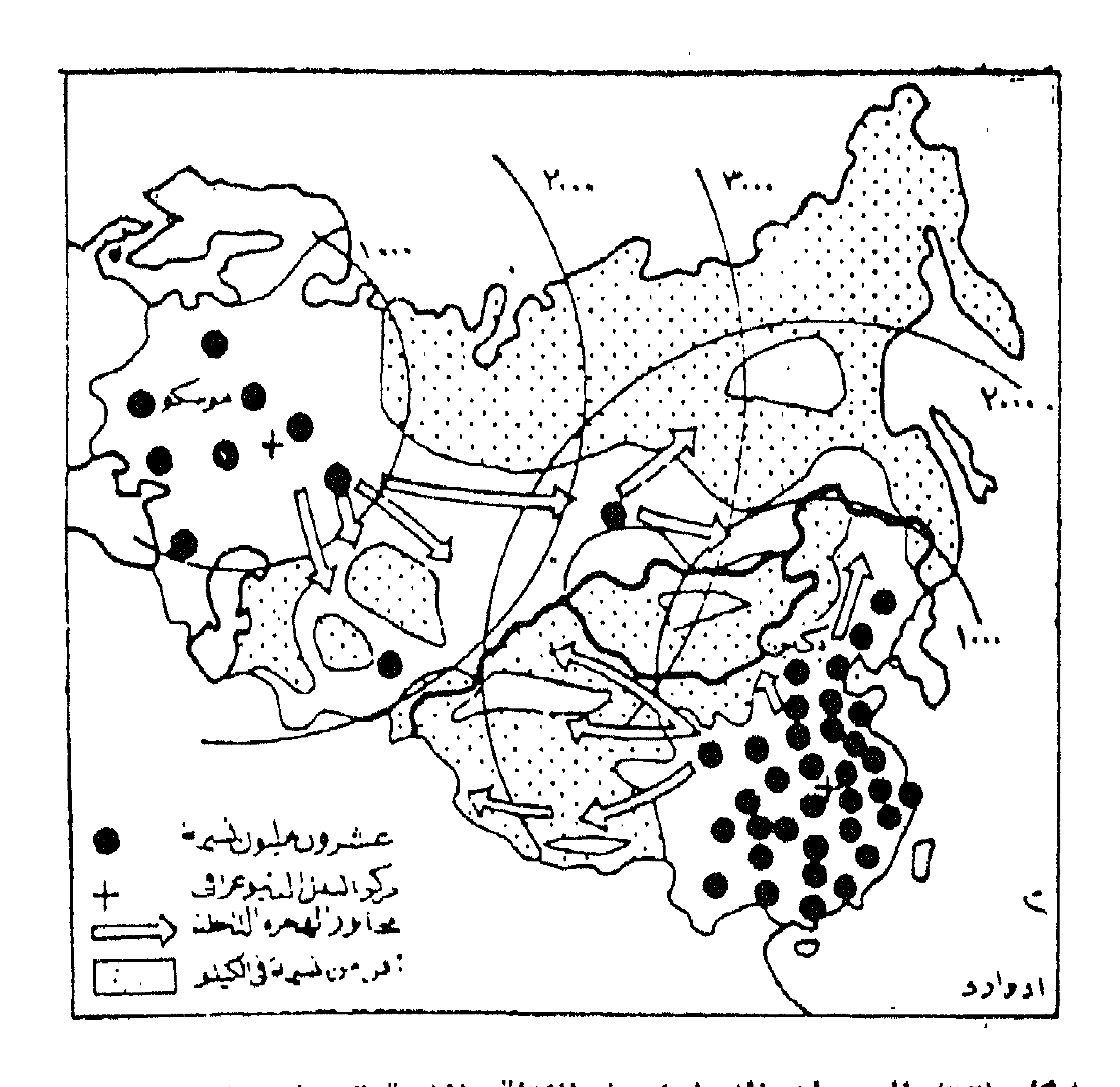
(٢) المرجع السابق ، ص ٩٣

واصبحت الثوره الثنائيه مابون البلاد المتحرره تقريبا

هذا فى الاستراتيجية السياسية وفى الايديولوجية الاقتصاديه ، تبلورت للدول المتحرره خطوط جديدة اصيله ترفض اخلاف الغرب ونظمه مثلما ترفض حذافير نموذج الشرق ، وترسم لنفسها طريقا جديدة ـ الطريق الثالثه ـ لا غربيه ولا شرقية ، وانما تنبع من طبيعة ظروفها ومرحله تطورها وتتواءم مع مفهومها ومثلها فى التحرر وعدم التبعيه . وهكذا تحددت معالم الحياد الايجابى وعدم الانحياز كخط يضمن للدول النامية استقلالها وسلامتها فى عالم الكتل ويؤمن تنميتها وتطورها خارج عالم التخلف. هذا وقد ضم اخر مؤتمر لدول عدم الانحياز ٥٧ دولة لا يقل مجموع سكانها عن الألف مليون الا قليلا او قل ان العالم الثالث هو ثلث العالم

ولسنا بحاجة ان نقرر ان مثل هذا الاختيار لم يكن بالأمر اليسير لا داخليا ولا خارجيا . فقد حاربه المعسكر الراسمالى بكل عنف وعداوة ، فلسفيا واقتصاديا وعسكريا . فلسفيا حين اعلن ان الحياد ـ ايجابى او لا ايجابى ـ « لا اخلاقى » انتهازى فى عالم الكتل و « ان من ليس معنا فهو ضدنا » ، وان عدم الانحياز هو « حلف الضعفاء » ان لم يكن حقا « حلف الرقيق المحرر » (كذا !!) . اما اقتصاديا فقد استعمل كل اسلحته ، الحصار والخنق والضغط والتجويع ، حتى اذا ما استنفدت هذه اغراضها وصل بالفعل الى مرحلة العدوان المسلح كما حدث فى مصر حيث بدا التحدى الجديد ورفع النموذج الثورى ، فحاول الاستعمار الغربى ان يجهض الأم ويئد الوليد ويجعل من المثل امثولة تردع بقية الدول الجديدة

ولهذا فان هذه المعركة نقطة تحول خطيرة جدا فى



شكل (٣٢) الهجران الضخمان فى الكتلة الشرقية رغم الحدود المشتركة يفصل بينهما خط الاستواء الصحراوى فى العالم القديم . الاتحاد اكثر من ضعف الصين مساحة ، والغنى فى الموارد الطبيعية وابعد تقدما . ولكن الصين اكثر من ثلاثة امثاله سكانا

تاريخ العالم الثالث ، وهى فى تقديرنا تحدد ميلاد عدم الانحياز نهائيا وبنجاح ، وبعدها فتح الباب على مصراعيه ليصبح عدم الانحياز والعالم الثالث مرادفين أو شبه مرادفين . وفى المدى التدريجى ، فرض الخط الجديد نفسه فرضا على الغرب الذى لم يملك فى النهاية الا أن يعترف به ويتعامل معه كحقيقة صلبة وأمر واقع ليس له من دافع

اما من جانب المعسكر الشرقى فهو لا شـك قد بدأ علاقته مع العالم الثالث برصيد لا بأس به من الحيـاد المبدئى او على الاقل من انعدام الروح العدائية . فرغم كل ما فعلته دعاية الغرب ليجعل منه خطرا مخيفـا فى اذهان الدول النامية والمتخلفة فمن الواضـح انه كان يرجح عندها الغرب فى نقطتين : انه لا تاريخ اسـتعمارى له معها ، وانه بلا تجربة عنصرية ولا عقدة لونية بينها . ويحاول الاستعمار الغربى فى هذا الصدد ان يدس اسفينا بين الشرق والعالم الثالث ، فيرد على النقطة الأولى بأن الاتحاد السوفييتى مارس الاستعمار الارضى المتصل وان منعتـه جغرافيته من ممارسة الاستعمـار المدارى عبر البحار ، ويرد على النقطة الثانية بأنه يدعى مثل المساواة العنصرية ولا يمارس التفـرقة العنصرية لان تجربتـه اقتصرت على الاحتكاك بالعناصر الصفراء وخلت من الاحتكاك بالجنس الاسود الذى هو المحك الحقيقى للتفرقه (١) . ولكن العالم الثالث لم يكن ليخدع ، وعرف كيف يختار مواقعه الطبيعية من حيث المبدأ من الأعداء وغير الأعداء

وفى هذه العلاقة ينبغى ان نقرر موضوعيا ان موقف المعسكر الشرقى من طريق العالم الثالث تأرجح مرحليـا بين اتجاهين تغلب احدهما فى النهاية ليصبح هو السياسة الرسمية له . فمن الناحية النظرية كانت الشيوعيـة تفترض وتتوقع ان الثورة العـالمية سـتتم على أيدى بروليتارية الدول الاستعمارية فى غرب أوربا ، ولم تكـن تنتظر للمستعمرات دورا مرموقا او غير مرموق فيها . ولكن العكس ما حدث بالفعل ، فلقد اصبح الغرب زقاقا شبه مسدود للاشتراكية ، بينما لم تسجل الاشتراكية اعظم واخطر توسع كاسح لها فى النصف الثانى من القرن

(١) فتزجرالد ، ص ١٨٥ .

المشرين الا فى المستعمرات السابقة ، المتحررة الآن

وتلك لا شك كانت وثبة طافره مطاوبه وطفرة ترحب بها الكتلة الشيوعية باعتبارها على اقل تقدير ابتعادة عن الطريق الراسمالى الغربى وحرمانا حقيقيا للمعسكر المضاد من ارض سابقة . ومن هذه الزاوية تقدم سريعا لمساندة قوى التحرر الجديدة فى وجه التربصات الاستعمارية الغربية ، وكانت قمة التعاون هى استجابته لكسر احتكار السلاح بصفقة الاسلحة المصرية التى لا جدال كانت المحك الفيصل فى اختبار القوة بين التحرر والحياد من جهة وبين الاستعمار والتبعيه من جهة اخرى

الا ان هذا الانفجار الاشتراكى فى نفس الوقت لم يكن فى نظر الماركسية اللينينية هو كل الطريق ولا نهاية المطاف . بل لعله الى حد بعيد يقطع الطريق على الشكل الراديكالى للشيوعية ويسلبه امكانياته ويقطع عليه خط الثورة اليسارية المطلقة . غير أن الكتلة عادت ـ ليس قبل مساجلات حادة واختبارات قوة مع قيادة الخط الجديد ـ فاتخذت موقفا واقعيا واعترفت به بغير مزايدات أو مساومات . بل ان الكتلة الشرقية حتى الآن لا تقبل تسمية نظم دول العالم الثالث الجديدة بالاشتراكية ، بل تسميها أحيانا بالطريق غير الراسمالى ، او تعتبره على الاكثر مرحلة انتقال من الراسمالية الى الاشتراكية ، وتفضل دائما ان تشير الى اصحابها كثورة التحرير الوطنى

والخلاصة ان رحلة الحياد الايجابى وعدم الانحياز لم تكن نزهة سياسية ، بل جاءت على جسر من الصراع ، وبقدر ما لقيت من معوقات داخلية ، بقدر ما تعرضت للشد والجذب والوعد والوعيد خارجيا ، وكما عبرت ثورات داخلية متعددة خاضت معارك خارجية ضارية من

اليمين واليسار على السواء ، ولم تشق طريقها الا بعد ان فرضت نفسها فرضا على العالم عالم الكتل . ولكنها فى هذا افادت الى اقصى حد من مساعدة ومساندة المعسكر الشرقى أدبيا وماديا لتقف فى وجه اخطار المعسكر الغربى وتهديداته، وذلك دون ان تقدم اى تنازلات اومساومات للاول

وبمعنى آخر فقد أفادت استراتيجية عدم الانحياز بالقطع من الحرب الباردة ، ولكنها نجحت فى الا تصبح جزءا من تلك الحرب . بل لقد بدا للبعض فى حين ما أن مجموعة عدم الانحياز ، بقدرتها على الحركة الحرة الايجابية وسط الشلل الذى فرضه التوازن الذرى على الكتلتين ، كانت هى ، بمفارقة عجيبة ولكنها مفهومة ، تكاد توجه سياسة العالم وتحركها او تتحكم فيها الى حد بعيد ، وذلك — كما يشبهون — على غرار ما يفعل حزب صغير كالاحرار فى بريطانيا حين تتعادل كفتا الحزبين الكبيرين العمال والمحافظين

النمط الجديد

آن لنا الآن ان نتساءل : ما مغزى ظهور عدم الانحياز فى عالمنا المعاصر ، وكيف يعدل من نمط القوى السياسية الكبرى ؟ وما هى خريطة الاستراتيجيه العالمية اليوم فى نظرة كلية كوكبية ؟ لعل اعمق واخطر معنى يبرزه عدم الانحياز هو انه قد اضاف بعدا ثالثا الى الكتلتين الكبيرتين المعروفتين ، وبذلك حول ويحول ابعاد العالم من ثنائية الى ثلاثية واضحة المعالم ، وهذه حقيقة كبرى من حقائق العصر تتضح بجلاء اذا نحن حللنا اصول كل من هذه الابعاد الثلاثة على الترتيب

فحتى نهاية القرن التاسع عشر كان الاستعمار الاوربى

يسيطر ، كما راينا ، على اغلب اجزاء العالم ويفرض عليه بالقهر نظاما سياسيا واحدا مغلقا من صنعه ، وكان ذلك الى أبعد مدى عصر « احتكار القوة » . ورغم الصراعات الدموية بين قوى الاستعمار من أجل هذه السيطرة والاحتكار ، كان الغرب المستعمر يستشعر فى النهاية نوعا من الوحدة فى مواجهة بقية العالم المستعمر ، وفى ظل هذه الدائرة المغلقة كان الاستعمار طليقا يعربد فى العالم دون ردع او قوة مكافئة تعمل على توازن القوى فيه

والى حد كبير ، كانت الثورة الفرنسية ترمز الى ، وتحدد بداية ، هذا النظام الاستعمارى العالمى فهى كثورة قومية ، لم تكن تستهدف « الحرية والاخاء والمساواة » الا للوطن القومي اولا والوطن الاوربى ثانيا ، وذلك رغم ان اوربا الرجعية تكالبت عليها فى البداية لتئدها ، بيد أن المهم انها لم تكن تقصد ان تصدر هذه المبادىء الى خارج الدائرة الاوربية وانما العكس هو الصحيح : ثورة بورجوازية تشرع الاستعمار فى الخارج وتسعى اليه . وعلى هذا فان الغرب الاوربى الراسمالى البورجوازى يستعمر فى الخارج باسم الثورة القومية فى الداخل ، وهو استعمار سياسى اقتصادى سافر ، وهو استعمار القراصنة بلا مواربة ، وهو مهندس الامبراطوريات الامبريالية ، والهدف فى النهاية ان يصل الى احتكار القوة فى العالم ويجعل منه نظاما سياسيا كوكبيا واحدا

ومع الثورة الشيوعية فى الروسيا تبدأ المرحلة الثانية لتكسر احتكار القوة العالمى وتنصفه الى احتكار ثنائى . وقد جاءت هذه ثورة على البورجوازية الراسمالية أى ثورة على الثورة الفرنسية ان صح التعبير ، فهى ليست ثورة قومية ولكنها اساسا تنشد أن تكون عالمية وتعمل

ما وسعها ، بعكس الثورة الفرنسية ، على تصديرها الى الخارج . وهى بعكس الثورة الفرنسية لا ترى القومية ولكن الطبقة ، فتنكر القومية وتستنكر القوميات ولا تعترف بوحدة الا وحدة الطبقة ، والطبقة العاملة البروليتارية.

وكما تعرضت الثورة الفرنسية مؤقتا لتالب اوربا الاقطاعية ، فقد تعرضت هذه الثورة لعداء الغرب الراسمالى ولكن الى اعتى حد والى آخر المدى لأنها تنقض وجوده وكيانه من صميمه . وسواء صح الاتهام أو لم يصح ، فان الغرب يتهم الشرق بأنه باسم الثورة اللاقومية يستعمر : ليس كاستعماره السياسى السافر ولكن ــ هكذا يقول ــ استعمارا ايديولوجيا مقنعا ، ليس كاستعماره استعمار القراصنة ولكن « استعمار الرفاق » ولا يبنى الامبراطوريات الامبريالية ولكن «الامبراطوريات الطبقية » او « الامبراطوريات البروليتارية »

وايا ما كان ، فليس يعنينا هنا هذا الاتهام ، ولكن الذى يهمنا هو ان هذه الثورة النقيضة قد خلقت لنفسها مجالا ضخما وكتلة عظمى . وهى قد استطاعت ان تظهر وتثبت ــ بجانب قوتها الذاتية المتعاظمة ــ بفضل الاستفادة المنظمة من المتناقضات العميقة بين دول الغرب ، سواء فى ذلك تناقضاتها الداخلية الطبقية فى كل دولة ، او تناقضاتها الخارجية الاستعمارية فيما بينها اى توازن القوى داخل دائرة الغرب . وابسط مظهر ودليل فى هذا الصدد ان الاتحاد السوفييتى تحالف مع الغرب ضد المانيا النازية حتى هزمت ، وحتى خرج الغرب مضعضعا وبرزت قوة الاتحاد الى الصدارة

وفى النتيجة خرجت الثورة الشيوعية من الحرب وقد اصبحت كتلة عظمى تناظر وتناطح كتلة الغرب

الاستعمارى . وبهذا انكسر احتكار القوة فى العالم ككل لاول مرة وورثه الاحتكار الثنائى ، واصبح العالم يتنازعه سياسيا قطبان متنافران ، اصبح العالم كما قد نقول « نصفى كره » سياسيا بعد ان كان الكوكب كله كرة واحدة مضغوطة مكبوتة

ثم نصل الى المرحلة الثالثة والاخيرة مع عدم الانحياز لنشهد الاستقطاب الثنائى يتحول بدوره الى ثلاثية عريضة ، وليحل محل نصفى الكرة السياسيين مثلث لا نقول متساوى الاضلاع ولكنه على اية حال ذو اضلاع ثلاثة ورؤوس . وكما بدات كل من القوتين السابقتين بثورة تاريخية ، فكذلك بدات القوة الثالثة بثورة عارمة هى ثورة التحرير التى تفتتحها وترمز لها وتلخصها ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وكما كان للثورة الروسية نسل كبير من الثورات الاقل قدرا ، فكذلك كان للثورة المصرية سلسلة من ردود الافعال والثورات فى العالم الثالث وعالم المستعمرات كأنها الموجات الحلقية المتدرجة حول حجر القيت به فى بركة آسنة

وتماما كما تعرضت الثورتان الأوليان للمحاصرة والضرب من الخارج ، فقد تعرضت الثورة المصرية للانقضاض المسلح عليها من الغرب الاستعمارى الذى كانت هى انتفاضة مباشرة عليه وتحديا لوجوده وكيانه عبر البحار . ولذلك فان حرب السويس كانت بمثابة حرب التدخل بالنسبة لروسيا السوفييتية ، ومعركة بورسعيد كموقعة فالمى بالنسبة لفرنسا الثورة . وكما خرجت الثورتان الأوليان مظفرتين ، خرجت الثورة المصرية بدورها مظفرة لترسم سابقة التحرير فى كل المستعمرات ولتضع علامة بدء عدم الانحياز ولتصك شهادة ميلاد العالم الثالث كقوة جديدة تضاف الى

القوتين القطبيتين القائمتين وتثبت ان ابعاد العالم الجديد ثلاثة لا اثنين

وتماما كما استفادت الثورة السوفييتية فى البداية والكتلة الشيوعية فى النهاية من التناقضات الداخلية والصراعات المزمنة داخل الكتلة الغربية الراسمالية ، فكذلك ــ عدا تفجرها وقواها الذاتية ــ افادت الثورة المصرية فى البداية وثورة التحرير فى العالم الثالث فى النهاية من التناقضات الجذرية بين قوتى الغرب والشرق سواء فى ذلك من مجرد توازن القوى الحرج وانهيار احتكار القوة العالمى القديم ، أو من المناخ المعادى للاستعمار الذى خلقه وجود الكتلة الشرقية ، أو بالمساعدة المباشرة عسكريا بالسلاح وسياسيا بالتأييد أو اقتصاديا بالمعونات والقروض

غير انه يبقى فى النهاية أن الثورة المصرية وثورة العالم الثالث تختلف عن اى من الثورة السوفييتية وثورة العالم الشيوعى ، والثورة الفرنسية وثورة العالم الراسمالى . فالاخيرة ــ ثورة الغرب ــ ثورة قومية طبقية ، وثورة الشرق ثورة لا قومية لا طبقية ، وثورة العالم الثالث ثورة قومية لا طبقية . ولهذا فاذا كانت ثورة الغرب باسم القومية والطبقية تستعمر ، وكانت ثورة الشرق باسم اللاقومية واللاطبقية تتكتل ، فان ثورة العالم الثالث بحكم القومية واللاطبقية لا تستعمر ولا تتكتل ولكن تتحرر . ومن هنا حرص العالم الثالث وعالم عدم الانحياز على ان يكون قوة ــ قوة ثالثة ــ دون أن يتحول الى كتلة ثالثة . فعدم الانحياز تجمع لا معسكر ، وتجمع من اجل السلام لا معسكر من اجل الصراع ، لانه بالتعريف لا ينحاز وتكتله فى معسكر ينقض جوهر عدم الانحياز

والناظر فى هذه المتتابعة التطورية لا شك يروعه تماثل

ميكانيكيتها المتواترة . فثمة ثورات عالمية كبرى ثلاث هي معا نقط الارتفاع والانقطاع في التاريخ السياسي الحديث كله ، وثمة كتل او قوى ثلاث خلقتها في النهاية تلك الثورات على التوالي . وكل ثورة وكل قوة منهما لا تستقر ولا تتدعم الا بعد تجربة نضالية مريرة مع القوى الخارجية . ولكن كلا من القوتين الاخيرتين الشرق والعالم الثالث لم تظهر الا على حساب الاولى الغرب واقتطعت منها بالتدريج جزءا من مجالها ونفوذها ووزنها حتى انكمشت هذه كثيرا وكادت ان تكون اليوم مجرد اسفين في جسم العالم (١)

ومن ثم فان القوتين الاخيرتين اقرب الي بعضهما موقفا وذلك من حيث انهما تقفان بالضرورة على حذر من اخطار الكتلة الاولى ، ومن حيث أن مصالحها هي مبادئها بينما ان مبادىء الغرب هي مصالحه . وغير انه بعد هذا تختلف مبادىء كل من الشرق والعالم الثالث ، ومن هذا الاختلاف يستمد الاخير اصالته . واخيرا فيمكننا ان نرى أن الثورات الثلاث تمثل تاريخيا وايديولوجيا متتالية هيجلية ديالكتيكيةشديدة الوضوح: فاذا كانت الثورة الفرنسية هي « التقرير » اليميني المتطرف فان الثورة السوفييتية هي « النقيض » اليساري المطلق ، بينما تاتي الثورة المصرية «كالتركيب» المعتدل الاوسط : thesis, antithesis, synthesis

هذا عن الناحية التطورية ، اما من حيث الصورة النهائية الناتجة فلن يكون من الصعب على الناظر الى نمط مورفولوجية القوة الراهنة في العالم أن يرى فيها امتدادا — وان يكن معدلا تعديلا جوهريا — لثلاثية ماكندر الكلاسيكية . أما الذين لا يرون نمطا على الاطلاق

(١) Keith Buchanan, op. cit. p. 335.

فى عالم اليوم فانما هم الذين لايريدون أن يروا او يعترفوا بعدم الانحياز وبالعالم الثالث . فهنـــاك ــ لا يزال ــ الكتلتان النوويتان الغربية والشرقية اللتان ورثتا قوة البحر والبر القديمة ، بينما منطقة الارتطام والالتحام البينية قد ورثتها اليوم قوة عدم الانحياز او العــالم الثالث . ويمكننا ان نقول ان هـــذا تطور من مفهوم جغرافى بحت للاستراتيجية العالمية الى مفهوم فنى او حضارى ، وهو تطور منطقى وطبيعى اذا ما تذكرنا ان التكنوستراتيجية قد حلت محل الجيوستراتيجية

ولا شك ان قوة عدم الانحياز تمد بين الكتلتين قوة « بينية » بكل وضوح وذلك موقعا ودورا ووظيفة مثلما كان سلفها منطقـــة الارتطام . فأولا ليس من محض الصدفة بالتأكيد ان جرثومة الحياد الايجابى ودعوة عدم الانحياز انما تنشأ فى صميم منطقة الارتطام ومنها تنتشر . بل ليس من الصدفة مطلقا أن أقطاب عدم الانحياز هى ثلاثة من اكثر أجزاء منطقة الارتطام التاريخية حساسية وخطرا : يوغوسلافيا : مصر : الهند ! وكان من الطبيعى جدا أن تنبثق مثل هذه السياسة الاصيلة الجديدة من صميم منطق استراتيجيتها الكامنة بحسبانها قد عاشت مهصورة محصورة بين شقى رحى البر والبحر . لقــد تحول الموقع الجغرافى الى موقف سياسى

ثم ان هذه القوة الثـالثة الجــديدة « بينية » فى فلسفتها ومثلها ومنظورها الايديولوجى ، حيث لاتتطرف يمينا او يسارا ، وتعترف بالقومية وتحارب الاستعمار . كذلك هى الى حد ما وفى معنى جديد « بينية » بموقعها الجغرافى بين الكتلتين . فرغم أن دول الحياد الايجابى وعدم الانحياز تمتد على جبهة عريضة مترامية فى القارات الجنوبية منساحة فى نصف الكرة الجنوبى ، وتعــددت

بذلك كثيرا جدا الحدود الجغرافية لجبهة الارتطـــام الامفيبية القديمة ، فانها فى ظل استراتيجية الفضـــاء النووية تظل مفتوحة لكل من الكتلتين وفى متناول مداها، واذا كان توزيعها الجغرافى اليوم قد انساح ولم يعد أمفيبيا ارتطاميا تماما بالمعنى الجيوستراتيجى فهى تظـــل بينية بالمعنى التكنوستراتيجى

الى هذا الحد ، لاشك أن قوة الحياد الايجابى وعـــدم الانحياز هى الترجمة الحديثة والتطوير المعدل فى عصر التحرير والفضاء لقوة الارتطام القديمة .. ولكن هـــذا الاطار الجديد بعينه هو الذى يكسبها دورا جـــديدا فى العالم ويمنحها وظيفتها ورسالتها الاصيلة التى تختلف جوهريا عما الفت منطقة الارتطام • فكقطب موجب للقوة فى العالم متحرر ونام ، لم يعد هم هذه المنطقة مجرد أن تحافظ على كيانها واستقلالها من أخطار القوى الاخرى كما كان شأن منطقة الارتطام فى الماضى ولم يعد من شأنها أن تضاربها ببعضها البعض من موضع الضعف وفى قوقعة العزلة لتضمن بقاءها او تحصل على مكاسب منها

لقد كانت منطقة الارتطام خط خمود سياسى ومنطقة رهو ، ولكن قوة عدم الانحياز اليوم خط استواء سياسى ينشد ويمكن أن يكون غلابا يحل السلام القائم على العدل محل سلام الرعب الذرى • وبهذا فان مجموعة عـــدم الانحياز أصبح دورها الايجابى أن تكون « جيروسكوب » سياسيا يحفظ توازن سفينة العالم وتوازن القـــوى الكوكبية ويمنع مصير الكرة الارضية من أن تتقـــاذفه وتعصف به الكتلتان الدينوصوريتان

وينبغى أن يكون واضحا أن هذا الدور يختلف عن دور « المرجح » الذى كانت تلعبه بعض القوى الاستعمارية فى توازنات القوى العالمية قديما ، بمعنى أن تنحاز الى أحد

الجانبين المتصارعين (١) . فهذا بالتحديد ما يقوم عدم الانحياز ضده

انها كما عبر اقطابها « ضمير العالم » وصمام أمنه : طلق حر من قيود التحيز غير مفرض وغير ملتـــزم الا بالاخلاقيات السياسية ومبادىء التعايش الســلمى • فوظيفة عدم الانحياز اليوم أن يكون همزة وصل لا حاجز فصل بين الكتلتين ، وأن يمد جسرا عبر الاخدود الغائر بينهما • ودوره اذن دور الممر لا دور الخندق ، أو بتشبيه جغرافى دور البرزخ لا دور المضيق • باختصــــار ان استراتيجيه عدم الانحياز الجديدة لا تتلخص فى منطقة « ارتطام والتحام » وانما فى « منطقة التئام » بين الكتلتين تحول الستار الحديدى الى ستار حريرى

على انه اذا كان لنا أن نفيـــد من الانتقـــادات والاتهامات التى يقذف بها الاستعماريون عدم الانحياز ، فهذا الدرس هو بوضوح حاجة المجموعة الى القوة ، القوة بمعناها الشامل . فمن البديهى أن العالم الثالث هو أضعف أركان المثلث الاستراتيجى المعاصر وهو مهد التخلف والفقر فى العالم . يكفى أن نذكر أن توزيع الثروة فى العالم اليوم يعطى لنحو ٢٥ ٪ من سكان الارض نحو ٧٥ ٪ من ثروتها ودخلها ، ويترك الربع الباقى لثلاثة أرباعهم ، ومنهم كل أبناء العالم الثالث . ولا مفر له من تثوير نفسه حتى يرقى الى متطلبات دوره الحاسم . فى عصر أصبح للقوة فيه أضلاع ثلاثة : السياسة والاقتصاد والعلم

فأما من جهة القوة السياسية فأولى وسائلها استكمال تصفية الجيوب الاستعمارية المتخلفة فى العالم ، بما فى ذلك فصم علاقات الارتباط بالكومونولث والاتحـــاد

(١) مورجنتاو

الفرنسي وهي الارتبــاطات التي شبهت بمجرد فترة « تعشيش » مريحة تقطعها الدول المتحــررة على طريق الاستقلال التام (١) . وثانية هــذه الوسائل ضرورة ترابط دول عدم الانحياز ترابطا وثيقا فى نسيج ضام غير منفذ لتسربات الاستعمار . والوحدة الافريقية والتضامن الآسيوى الافريقى وتفاعل القارات الثلاث ، مراحل على هذا الطريق . ولكن الخلافات الثنائية على الحــدود والأقليات ــ ومعظمها من ارث الاستعمار ــ يجب ان تصفى بعد ان اصبحت خطرا حقيقيا على جبهة عــدم الانحياز سواء فى آسيا او فى افريقيا . والا فهل يجوز مثاليا أن تخضع قوة عدم الانحياز لنفس ظاهرة التفكك والتفسخ التى أصابت الكتلتين المعسكرين ؟ كذلك فان هناك عددا من دول الجبهة اسما ولكنها فعلا ترتبط وثيقا بالقوى الاستعمارية القديمة

وعدا هذا فان الوحدة الدستورية بين المجمـوعات الاقليمية المتجانســة ــ وفى أبعاد واقعية معقولة ــ كالعالم العربى أو شرق افريقيا أو غربها .. الخ ، ضرورة ملحة لتصحيح الكيان السياسى للمجموعة . فالعالم الثــالث اليوم هو بلقان العالم ، ويضم وحده السواد الأعظم من دوله ، بينما لا تزيد الكتلتان عن عدد محدود من مجموع الوحدات السياسية فيه . ومن هنا يتنافر نصفا الكرة الشمالى والجنوبى فى درجة التمزق أو التماسك السياسى كما يتنافران فى سائر مظاهر الحياة والنمو . هذا فى الوقت الذى لم يعد فيه مكان للدول الضئيلة والصغيرة ، وفى عصر يتجه الى الدول ــ الكتل والاتحادات والتكتلات الاقليمية . ومن المحقق ان منطقة كالعالم العربى مثلا ــ ولها كل مقومات الوحدة ــ لن تقتحم حضارة العصر ولن

(١) بوين . ص ٩

تدخل القرن العشرين حقا ولن تعيش عصر العلم والتكنولوجيا الا كوحدة واحدة أو كدولة موحدة

اما عن القوة الاقتصادية ، فسلاحها الاول التنمية ، والتنمية الكثيفة السريعة . فلا بد من حشد وتجنيد كل الموارد الطبيعية والطاقات البشرية للتحرر من التخلف وللانطلاق فى مدارج التقدم والرفاهية . وراس الحربة فى هذا كله هو التصنيع ، وهنا نلاحظ ان العالم اليوم يكاد ينقسم الى ثلاثة انماط عريضة من الاقتصاد القومي : دول منتجة للمصنوعات ، ودول منتجة للخامات ، ودول منتجة للغذاء . وقد تجمع دولة بين اكثر من واحد من هذه الانماط ، لكن المهم ان الدول المتحررة النامية يقع معظمها فى النمط الثاني وذلك بعد ان حرمها الاستعمار السابق من الصناعات فى الوقت الذى حرمها ايضا من الكفاية الغذائية بتوجيهها غير المتزن الى الخامات . ومن ثم فهى تكاد ان تكون محاصرة اقتصاديا بين دول النمطين الآخرين

فالتجارة العالمية ـ ولا زالت بهيكلها الاستعمارى ـ تتحيز تحيزا صارخا ومتزايدا للمصنوعات ازاء الخامات ، وتعمل الدول النامية الآن على تصحيح هذا الميزان المختل ولكن دون جدوى فيما يبدو ، اذ تشير تقديرات الامم المتحدة الى ان نصيب الدول النامية من صادرات العالم فى تناقص مستمر نسبيا ، حيث هبطت النسبة من ٣٠ ٪ فى ١٩٥٠ الى ٢٥ر٣ ٪ فى ١٩٦٠ الى ١٩ر١ ٪ فى ١٩٦٦

ومن ناحية اخرى اصبح من الجلى تماما ان الغذاء قد صار سلاحا سياسيا تعسا للضغط وحرب التجويع . وبين هذا وذاك ، فقد تحتم على هذه الدول النامية ان تعيد تركيب انتاجها بما يكفل استقلالها الاقتصادى ،

كما أن عليها ان تتجه الى مزيد من التفاعل والتبادل التجارى فيما بينهما للحد من سيطرة الكتلة الاستعمارية على تجاراتها الخارجية

اما قوة العلم فهى اليوم بلا جدال المحور الأسى للقوة المادية والمعنوية ، وتخلف العالم الثالث تاريخيا لم يكن فى جوهره الا تخلفا علميا ، والاستعمار نفسه لم يكن الا تفوقا حضاريا .واذا كان القرن التاسع عشر هو قرن الذين يملكون والذين لا يملكون ، فان القرن العشرين ــ أكثر من اى وقت مضى ــ هو قرن الذين يعلمون والذين لا يعلمون

فالعلم اذن هو حضارة المستقبل ، ومستقبل العالم الثالث رهن بتطوره العلمى . وفى هذا الاطار يمكن أن ندرك بعمق قيمة الدعوة الحارة التى يطلقها « الميثاق » للحاق بعصر الذرة والفضاء بعد أن فاتنا عصر الفحم والكهرباء ، وليس ثمة ما يمنع من أن يصبح العالم الثالث من اقطاب الحضارة والقوة اذا خاض الثورة العلمية ، بل ربما اصبح القرن الحادى والعشرون قرن العالم الثالث كما يامل البعض . ومع ذلك فلا ينبغى الاسراف فى التفاؤل بغير عمل شاق ورهيب ، لان العقود الاخيرة شهدت اتساعا مخيفا فى الهوة التكنولوجية التى تفصل بين الدول المتقدمة والنامية

ولقد راينا فيما مضى كيف أن الحضارة والقوة قد هاجرت بانتظام واطراد من عروض دون مدارية الى العروض الشمالية ، من الدفء الى البرد ، ومن مدار السرطان صوب القطب ، وذلك مع قهر حضارة الانسان المتزايد للمناخ البارد . وهناك يعتقدون أن هذه الحضارة قد وصلت الان الى حد القدرة على قهر المناخ الحار ، وأن ليس هناك بالتالى ما يمنع من أن يعود البندول فيتارجح فى اتجاه عكسى من المناطق الباردة الى

المناطق الحارة ، ومن العروض الشمالية الى العروض المدارية وصوب خط الاستواء . بل ان هناك من يعتقد أن التطورات السياسية والاقتصادية والثقافيـــة التى لحقت بالمداريات انما هى من ارهاصات هذه الحـركة الجديدة ، كما انه ثبت أن تكييف المناخ الحار أسهل وارخص من تدفئة المناخ البارد (١)

ومعنى كل هذا أن المستقبل للمـداريات ـ للعــالم الثالث ـ لقوى عدم الانحياز . والحقيقة ان العــالم الثالث اذا كان اليوم فقيرا ضعيفا متخلفا ، فانما هو كذلك بالواقع لا بالامكانيات، بالفعل لا بالقوة . فامكانياته الطبيعية ضخمة ورصيده المادى شبه بكر ، وبينما اقترب العالم الشمالى من نقطة التشبع فى ميدان الاســتغلال والتنمية ، لا يزال أمام العالم الثالث مجال فسيح . ويكفى أن نأخذ من امكانيات التحميل بالسكان مؤشرا على ذلك

يقدر ماكيندر مثلا ان افريقيا المدارية وحدها يمكن ان تستوعب فى يوم ما الف مليون نسمة ، ومثل هذا الرقم يعطيه لامريكا الجنوبية (٢) . فاذا اضفنـا الى ذلك آسيا الموسمية بكتلتها البشرية العارمة ، فقد يمكن ان تحمل المداريات او العالم الثالث يوما ما مقـدار ما يحمل هذا الكوكب اليوم من سكان (+ ٣٣٠٠ مليون) . ومهما يكن من امر ، فلا شك أن الثقل النسبى للعالم الثالث ديموغرافيا سيرتفع بشدة فى المستقبل ، وسيكون هذا جزءا من ، وعلامة على ، عملية اعادة توزيع الاثقال والاوزان بين القوى العالمية التى بدأت من قبل

(١) Stamp, Applied Geog., p. 149.

(٢) «The Round World & the Winning of Peace», p. 605.

الفصل الرابع عشر

ما بعد عدم الانحياز

انتهينا فى الفصل السابق الى الصورة العامة النظرية أو الاكاديمية لفلسفة عدم الانحياز فى استراتيجية السياسة العالمية ، وذلك كما تبدو مثاليا وكما كانت قبل أن تصطدم بواقع التجربة الصراعية . غير أن أحداثا خطيرة وحرجة اجتاحت العالم فى السنوات الاخيرة ، تعرض فيها عدم الانحياز خاصة لأول واقسى اختباراته ، بحيث يمكن أن نميز فى تجربته بين عهدين : عصر ذهبى تبلور فى مؤتمره بالقاهرة ١٩٦٤ ، ثم مرحلة حرجة ودقيقة بلغت اقصاها فى١٩٦٧ مع حرب الشرق الاوسط . ففى المرحلة الاولى طغت قوته المعنوية وحدها على الصورة النظرية ، مما فتح الباب لكثير من الحماس المسرف والعاطفية غير الموضوعية . أما فى المرحلة الثانية فقد انقلبت الصورة كثيرا ، وطغت عليها جوانب ضعفه من الناحية التطبيقية ، بل والى حد فتح الباب للمبالغة فى الانهزامية اليائسة

من هنا فنحن بحاجة الى النظرة العلمية السوية التى تميز بين النظرية والتطبيق ، بين التحليل الاكاديمى المتفائل والتجربة الواقعية بعنفوانها . لذا فان علينا الان أن ندرس مورفولوجية السياسة العالمية فى عصر ما بعد الاستعمار او ما بعد التحرير او ما بعد الانحياز ــ سمه

ما شئت ـ وذلك بما فيه من مواقف وتوازنات جديدة ، أى أن علينا أن ننظر الى عدم الانحياز فى التطبيق وبغير معزل عن الصراعات العالمية الكبرى وعن اطارها العـريض • ونقطة البدء المنطقية فى هذا المسح لا يمكن الا أن تكون تحديد وتحليل عامل الاضطراب الجذرى فى عالم اليوم وهو السياسة الامريكية بلا ريب ، وعلاقتها بالقوى المضادة وبالعالم الثالث ، وبعـدها نستطيع ان نرى الابعـاد الحقيقية للتعايش السلمى ولعدم الانحياز

الخطر الامريكى

ليس من العسير على طالب الجغرافيا السياسية ان يرى مفتاح التطورات العالمية الاخيرة يكمن ـ موضوعيا ـ فى تحركات ونشاطات وديناميـة الولايات المتحدة بصـفة أساسية ، وهى نشاطات وتحركات وديناميـة عدوانية بصفة قاطعة • وليس من العسير عليه أيضا أن يرى مفتاح الدينامية العدوانية الامريكية هذه يكمن فى مرحلة تطورها الجيوبولتيكى ، أى فى موقعها على منحنى تطور الـدولة عبر التاريخ . فكما يصنف الجغرافى السياسي فان فالكنبرج تقع الدولة فى مراحل تطور أربع : الطفولة أو النشأة ، الشباب أو التوسع ، النضج أو الاستقرار ، وأخـيرا الشيخوخة أو الانكماش (١)

والذى يحلل تاريخ الولايات المتحدة سيجد القـرن التاسع عشر فى اغلبه يمثل طفولتها كدولة ، فقد كانت تبدى كل ملامح وأعراض دور النشأة حيث ظلت منهمكة ـ بعد حروب الاستقلال ـ فى صراعاتها الداخلية البحتة وحروبها الاهلية وعمليات الضم الاقليمية او تعميق الاتحاد

(١) S. Van Valkenburg, Principles of Political Geography.

محليا ، باختصار كانت مستغرقة تماما في عملية ترتيب البيت من الداخل . من هنا كانت « العزلة » بوصلتها وقبلتها السياسية التي يمكنها وحدها أن تتيح لها الحماية من أخطار الخارج ريثما تتكون لها درقة أو صدفة صلبة تغلف قوقعتها الهلامية الناشئة . وقد كان مبدأ مونرو هو أول صيغة للعزلة في الواقع ، بل من الثابت أنه لم يبدأ الا برعاية وموافقة بريطـــانيا ولم يتحقق الا في ظل أسطولها وسيادتها البحرية العالمية .

غير أن ظروف الولايات المتحدة الخاصة جدا ، من عزلة طبيعية جغرافية وضخامة فجائية غير مألوفة ، ساعدتها حتى منذ دور النشأة على الاتجاه نحو السيطرة الخارجية . وهذه وجدت مجالها شبه البكر في أمريكا اللاتينية ، وذلك بطبيعة عزلة العالم الجديد جغرافيا وبذريعة مبدأ مونرو سياسيا . ومن المفارقات اللافتة الساخرة والتي سترسم سابقة دالة للمستقبل ، أن سيطرة الولايات المتحدة في أمريكا اللاتينية انما تمت على حساب النفوذ البريطـــاني بالذات ، وذلك بعد عملية صراع وازاغة حلت بهـــا الامبريالية الامريكية محل البريطانية .

والخلاصة من هذا كله أن الولايات في عزلة مرحلـــة نشأتها لم تكن تمارس الصوفية أو المثالية السياسية ، وانما كانت منغمسة منذ وقت مبكر في تجربة جديدة في فن الاستعمار اتخذت من امريكا اللاتينية حقلا لها ومشتلا ومعملا . وهذا ما ستخرج به الى العالم حين تدخل دور الشباب ليكون « هدية » العالم الجديد الى العالم القديم . .

ومنذ أواخر القرن التاسع عشر كانت الولايات قـــد عبرت مرحلة الانتقال من دور النشأة الى دور الشـــباب واقتحمت دور الشباب والفتوة الذى تكون الدولة قـــد استكملت فيه بناء كيانها الداخلي وقوتها الذاتية ماديا ،

وامنت حدودها نهائيا ، وبدأت طاقتها تفيض عبر حدودها فتتطلع الى الخارج فى حذر أولا ثم فى اندفاعة مقضة لا تلوى على شىء فى النهاية • انه دور التوسع ، أى الاستعمار بالضرورة ، الدور الذى تمثل فيه الدولة مشكلة خطيرة للسلام العالمى وتحديا للقوى الاقدم والاحدث على السواء

ويتمثل هذا فى حالة الولايات فى توسعاتها الاستعمارية بالمعنى المباشر — معنى الاستعمار القديم — فى الكاريبى والهادى ، ثم فى انغماساتها فى حروب العالم القديم الامبريالية التى كانت تتأرجح فيها بين تقليد عزلة دور النشأة وبين اغراءات توسع دور الشباب • فبعد أن شاركت اثر تردد طويل فى الحرب العظمى الاولى ، تذبذبت نحو العزلة نوعا فيما بين الحربين ، الى أن تجاذبتها من جديد الحرب العظمى الثانية التى وضعتها تماما فى قلب دوامة السياسه العالمية بل وعلى رأس صراع القوى الكوكبة جميعا

واذا كانت الحرب الثانية قد قامت أصلا كصراع استعمارى بين دولة فتية فى دور الشباب (المانيا) تبغى التوسع على حساب دولة أقدم فى دور النضج (بريطانيا) لم تعد تنشد الا الاستقرار وكل همها المحافظة على الوضع الراهن بما لها فيه من مكاسب استعمارية عظمى حققتها من قبل فى دور شبابها ، فان الجائزة الكبرى قد سقطت فى النهاية فى يد الولايات المتحدة • فقد خرجت بريطانيا ، وأكثر منها فرنسا ، مضعضعتين من الصراع ، مما مكن لثورة التحرير ان تنطلق فى المستعمرات ، وللولايات المتحدة أن تشارك فى مطاردتهما منها حتى تستطيع أن تحل محلهما ، الى أن انتهت فترة ما بعد الحرب بانتقال بريطانيا وفرنسا كدول من دور النضج الى دور الشيخوخة والانكماش

وفى النتيجة ، فان الامبريالية الامريكية الجديدة لم ترث الامبريالية البريطانية والفرنسية القديمة فحسب كما هو شائع ، وانما ورثت فى الحقيقة كل الراسماليات المتنحية بريطانية وفرنسية والمانية وايطالية ويابانية .. الخ ، اى كل الراسماليات الديمقراطية والدكتاتورية ، الليبرالية والفاشية ، وقوى دور النضج ودور الشباب على حد سواء

اما بالنسبة الى دول التحرير الوطنى التى قامت فى المستعمرات القديمة ، والتى تقف على درجات متفاوتة من دور النشاة والطفولة بكل معالمه ومشاكله التطورية العادية فضلا عن التخلف الحضارى والضعف الجذرى الخطير ، فقد ظهرت الولايات المتحدة امامها فى ازدواجية خبيثة لم تلبث ان صارت سافرة . فقد خدعت بعض هذه الدول فى دورها السياسى تحت أوهام عزلتها القديمة ومثل مرحلة نشاتها المدعاة ، وكذلك تحت تأثير مطاردتها الظاهرية للاستعمار القديم ، حتى توهمت الاولى فيها أملا حقيقيا للتحرير والتعمير . فاذا الحقيقة تتكشف عن قوة جديدة تاتى من وراء البحار لتصدر تجربتها الخاصة والاصيلة فى الاستغلال بدل الاحتلال ، والسيطرة والنفوذ بدل الامتلاك والوجود ، أو بالتعبير الدقيق لتمارس الامبريالية بدل الاستعمار . وهذا هو « الاستعمار الجديد » فى مقابل « الاستعمار القديم » ، وتلك كانت بداية خيبة أمل العالم الثالث فى الولايات ، ولكن الاسوأ منه كانت النهاية ، اذ اصبحت الولايات لعنة العالم الثالث بالتحديد كما سنرى

وعند هذا الحد يمكن تشخيص خطر الولايات فى انها اول دولة فى التاريخ اجتمعت فيها ولها كل عناصر القوة ومقوماتها ، ولكن أيضا كل اعراضها وأمراضها ، وذلك

على أنبر مقياس فى التاريخ كذلك ، فهى فى كل ذلك «أول أكبر » او « أكبر اول » كما قيل . فهى كقارة او شبه قارة تعد اول دولة تقف على قمة دور الشباب فى مثل هذا الحجم والضخامة والثراء . ويكفى فى هذا الصدد تفوقها العلمي والتكنولوجى المجنح الذى خلق بينها وبين أوربا الغربية نفسها هوة كالهوة التى بين أوربا الغربية والعالم الثالث ! واذا كان أهم ما يميز الدولة فى دور الشباب ان نضج قوتها المادية يسبق نضج خبرتها وحنكتها السياسية الى درجة مقلقة ، فان هذا يصدق على الولايات كما لا يصدق على دولة اخرى ، بل الى الحد الذى يضع العضل فوق العقل تماما فى السياسة العالمية

وهى بعد ذلك أول دولة راسمالية تتعدى حدود الراسمالية التقليدية وآفاق الراسماليات القديمة الى مرحلة يمكن ان توصف حقا بمرحلة مافوق الراسمالية super-capitalism فهى اليوم اكبر قلعة للاحتكارات والاستثمارات العالمية . وهى كذلك ولذلك اول دولة تتبنى الديموقراطية وتمارسها شكلا وتعلن نفسها حامية « العالم الحر » والمدافعة عنه ، ولكنها مع ذلك التى اخذت تنمى لنفسها ملامح فاشية بقدر أو آخر ، أكثر من جنينى على أية حال وذلك بتضخم آلة الحرب تضخما رهيبا جعل الحكم فيها ادنى الى شركة مساهمة بين الاحتكارية والعسكرية او بين تجار الاسلحة وتجار الحروب . وهى بهذا ـ موضوعيا ـ أول دولة تعرف لونا جديدا من الفاشية هى الفاشية المقنعة ، تمييزا لها عن الفاشيات السافرة السابقة . ويكفينا شاهدا فى هذا المجال تصريحات بعض الساسة الامريكيين انفسهم ، من أولها ما قاله الرئيس الاسبق ايزنهاور عن التلاحم الوثيق

بين رجال الصناعة والعسكرية وتحذيره من « حصول هذا المركب الصناعى ـ العسكرى على نفوذ لا مبرر له » ومن آخرها ما اعلنه مرشح للرياسة الامريكية من ان الولايات « لم تعد قلعة للديموقراطية ، وانما اصبحت معقلا للديكتاتوريات » ، وان « ما يحدث فى امريكا الان .. يشبه الى حد كبير المانيا الهتلرية عام ١٩٣٩ »

والولايات بعد كل هذا وقبله وفوقه اول واكبر قوة نووية فى التاريخ ، وهذا عنصر لا يقبل المزيد من التعليق ، الا أن نلاحظ فقط مغزاه فى ضوء اجتماع الخصائص السابقة وهو ان ها هنا أول حالة لدولة عظمى فى دور الشباب ، فوق راسمالية ، شبه فاشية ، وفى نفس الوقت ذات قدرات ـ أو أنياب ـ نووية

وانه لمنطقى جدا بعد هذا ـ فيما يبدو للولايات ـ ان تتطلع الى السيطرة العالمية المطلقة والا تقنع بأقل من دور الوصاية الكاملة على هذا الكوكب . وهناك من يخشى ان تكون الولايات ساعية فى معنى حقيقى جدا الى انشاء اول امبراطورية كوكبية فى التاريخ الامبريالى وان يكن فى شكل غير مباشر هو الاستعمار الجديد . لقد كانت أعظم امبراطوريات الاستعمار القديم مهما تعاظمت تغطى جزءا فقط من هذا الكوكب ، ولكن يبدو الان ان الاستعمار الامريكى الجديد يود ان يعوض عن الكثافة بالمساحة . وهناك من يرى ـ مثل توينبى ـ أن الولايات المتحدة هى روما العصر ، بينما يسجل احد قادة الولايات نفسها « أننا أصبحنا نقوم بالدور الذى كانت تقوم بهالامبراطورية البريطانية القديمة »

والولايات تكاد تتصور هذا رسالة قدرها ان لم تتوهمه حقا الهيا مقدسا . غير انه بغض النظر عما قد تتخيله هى أو تدعيه عن مثالياته وفروسيات قوتها ، وبغض النظر

كذلك عما اذا كانت تعتقد ان « الله امريكى » أو انها ظل الله على الارض كما يسخر منها البعض مثلما سخروا من بريطانيا القرن الماضى ، فان الواقع الموضوعى هو أن عناصر القوة قد تحولت فى يد الولايات الى أعلى مراحل غرور القوة ، ان لم يكن حقا الى نوع من جنون القوة

ففى راى الكثيرين انها اذ جعلت من نفسها رجل اطفاء العالم ، تحولت بالفعل الى مفجر حرب العالم ،وان تصورها لدورها كرجل بوليس عالمى انتهى بها الى ان تصبح فى الواقع دولة بوليسية ارهابية عظمى وقرصانا او قاطع طريق دولى خطير . كما انها ، وقد جعلت من نفسها وريثه كل الاستعمار ، قد صارت تلقائيا قلعة الرجعية العالمية وزعيمة الثورة المضادة فى العالم اجمع . وهذا ما دعا البعض الى أن ينتهى الى ان الولايات اصبحت نقمةوكارثة حقيقية على العالم ومأساة العصر الكبرى . بل هناك من شبهها « بسرطان العالم » من حيث ان السرطان ليس أكثر ولا أقل من نمو شاذ غير متوازن يظل يتضخم فى جسم عضوى حتى يدمر خلاياه . واذا كان العالم قد تحدث فى مراحل متعاقبة عن الخطر الاصفر والخطر السلافى والخطر الشيوعى .. الخ ، فان البعض يرى اننا اليوم نعيش فى عصر « الخطر الامريكى »

وأيا كانت النظرة العلمية الى هذه الاراء ، التى قد تكون عاطفية أكثر مما هى خاطئة ، فلا جدال على الاقل أن هناك كثيرا من الموضوعية فى نظرة ديجول فرنسا مثلا الذى اعلن كرجل دولة مسئول ان الأخطر مايواجهه العالم فى القرن العشرين هو تضخم قوة أمريكا خارج كل حدود .. ومن الناحية العلمية البحتة يمكن ان نلخص جوهر مشكلة الولايات فى العالم فى انها بحكم ظروف خاصة جدا جغرافية وتاريخية وصلت الى الصدارة

العالمية قبل الاوان ، وقبل أن تكون مؤهلة لها بالتـــاريخ والتجربة والنضج . ولعل هذا هو السبب الذى يحدو بمؤرخ مثل توينبى الى أن يتوقع أمد حياة قصـــيرا للصدارة الامريكية فى العالم ، فلا يتنبأ لها بأكثر من ٥٠ سنة على الاكثر من البداية الى النهاية ، وهو مـــدى قصير للغاية اذا قورن بالصدارة البريطانية او الفرنسية فى الماضى .. الخ

اما من الناحية العملية ، فان عناصر القوة الامريكية لم تعد مفتاحا اساسيا من مفاتيح السياسة العالميـــة فقط ، بل واخطر عناصر الصراع والصـــدام الدولى المحتمل . فهدف السيادة العالمية كان حريا منذ البداية بأن يصطدم مع الاتحاد السوفييتى ومن خلفه الكتـلة الشرقية ، كما يستدعى ابتلاع العالم الثالث . وعلينـــا الان أن نتوقف بشىء من تفصيل عند كل من هـــذين الاحتمالين على حده

فأما مع الاتحاد السوفييتى ، فان الموقف الآن اقرب من حيث صراع القوة الى الجمود الخطـــر منه الى التوازن الدقيق . فرغم أن الاتحاد لا يزال متخلفا عن الولايات فى كثير من خطوط الانتاج القومى والاقتصادى والصناعى وفى مستوى المعيشة - يبلغ حجم الانتـــاج القومى فى الاتحاد الان ٣٥٠ بليون دولار مقـــابل ٧٤٣ بليونا للولايات - ورغم أن هدف الاتحاد المعلن لا يعـــدو حتى الان أن يلحق بمستويات الولايات فى القـــريب ، فان معدلات نموه اسرع كثيرا من الولايات ، والفجوة الكلية بينهما تضيق باستمرار . ولهذا فان العـــامل الفيصل فى المقارنة حاليا هو القوة العسكرية المباشرة ، ولكن هذه بدورها شلها توازن الرعب النووى الى حد أن حل التعايش السلمى محل الحرب الباردة

فهل وضع التعايش السلمى حـــدا لخطط القوة واهداف السيادة الامريكية فى العالم ؟ لقد وضعت صيفة التعايش السلمى لتكون بديلا للحرب الباردة بين الغرب والشرق ، على أساس أن يكون التقدم الصناعى والتكنولوجى والتنافس فى الحضارة وفى مستوى المعيشة هو التعبير البليغ والسلمى عن الايديولوجية والصراع المذهبى ، وذلك بعد ان أصبحت طفرة التكنولوجيا الصناعية هى ابرز واوقع انجازات عصر الاتوميشن والالكترونيات .. الخ ، أو بايجاز على أساس أن تحل الحرب الصناعية محل الحرب النووية

ومن الواضح ان الاتحاد السوفييتى ملتزم التزاما وثيقا بمبدأ التعايش السلمى ، فهو يتبع سياسة سلامية اساسا ، ويعمل على اثبات تفوق نظامه عن طريق المنافسة فى الحياة لا فى الموت ، ويضع لنفسه هدفا محددا فى المستقبل القريب هو الوصول الى مستوى معيشة وانتاج الولايات ثم تخطيها . ومن الناحية الاخرى فهو لم يعد يتهم من أعدائه بتصدير الثورة الى الخارج ، وهو يكتفى فيما يبدو بالمحيط الجغرافى الهائل الذى وصل اليه العالم الاشتراكى وبالمثل والنموذج القائم الفاعل فى صمت . وحتى فى اوربا الغربية يسود الاعتقاد بأن خطر الغزو الشيوعى العسكرى لم يعد مسلطا او كما قال أخيرا سياسى بريطانى « اننا مستسلمون اوهم الخطر الروسى الى حد العجز عن ملاحظة الاتجاهات الاشد خطرا فى السياسة الامريكية ... »

وهناك أسباب عدة لهذا الموقف الجوهرى من جانب الاتحاد السوفييتى ، منها مبادئه الاساسية نفسها فالسلام مطلب اشتراكى اساسا ، ومنها بلا شك

الانقسام الخطير الذى اصاب الكتلة الشرقية بالنزاع السوفييتي الصينى فاصابها بضعف دولى ملموس ، ومنها كذلك انه بعد ٥٠ سنة من الثورة والنضال الداخلى والخارجى المرير قد وصل الى بناء مادى عمرانى ضخم يسعى للمحافظة عليه من خطر التدمير ٠ وهنا نصل الى نقطة قد تكون هامة فى تشخيص مرحلة النمو السياسى التى بلغها الاتحاد

فمع التفرقة الواجبة بين طبيعة الدولة الرأسمالية والدولة الاشتراكية وبين أهدافها ، فان مراحل النمو السياسي والتطور الجيوبوليتيكى العام للدولة ككائن عضوى ليس ثمة ما يدعو الى التفرقة فيها ٠ ومن هذه الزاوية فان الاتحاد السوفييتي كدولة يمكن أن يقال انه تعدى مرحلة الشباب منذ حين ودخل مرحله النضج ٠ فرغم ان مرحلة الشباب فى الدولة الاشتراكية لا يمكن اصلا ان تستهدف او تتميز بالتوسع الاستعمارى ــ وقد انفقها الاتحاد بالفعل فى البناء الداخلى وصدالعدوان الخارجى كما حدث حوالى الحرب الثانية ــ ورغم أن هذه الملامح لا زالت اهم معالم العمل السوفييتى ، فان الارجح أن الاتحاد قد بلغ الان مرحلة النضج

ولعل ما أعلنه أخيرا بمناسبة مرور نصف قرن على الثورة من انه الان بدأت مرحلة الانتقال من الدولة الاشتراكية الى الدولة الشيوعية بالمعنى الدقيق ، أن يشير الى مرحلة النضج هذه ، وهى المرحلة التى يحرص صاحبها ــ رأسمالى أو غير ذلك لا يهم ــ على المحافظة على مكاسبه وانجازاته ، ولذا يحرص على السلام بنفس الدرجة ٠ بل لعل موقف الاتحاد من الصدع الذى وقع فى الكتلة الشيوعية بينه وبين الصين الشعبية ، والذى يتسم بالحرص على عدم توسيعه مهما كانت الاستفزازات ، ان

يؤكد هذا التشخيص التطورى . وعلى اية حال ، فان دولة الاتحاد السوفييتى اقرب بالتـــأكيد من دولة الولايات المتحدة الى مرحلة النضج ، سواء ذلك باعتبار تاريخه منذ الثورة أو قبلها

وهنا يبدو على الفور فارق آخر ، فارق مرحـــلى يضاف الى الفارق الاسى ، بين موقف الاتحاد والولايات من التعايش السلمى . ففضلا عن طبيعة النزعة المسلحة والامبريالية الكامنة فى النظام الرأسمالى ، فان الولايات المتحدة كما رأينا دولة فى مرحلة الشباب بكل ما يعنى هذا من غرائز توسعيه ونوازع عدوانية .. الخ . ومن الواضح من كل ما تفعله وتقوله (وما لا تقوله) الولايات، انها تنظر الى التعايش السلمى كهدنة مسلحة مؤقتــة تكسب بها وقتا اولا وارضا ثانيا ، دون ان تتخلى عن خطتها العليا للسيطرة والسيادة الكوكبية ، بما فى ذلك أساسا واخيرا السيطرة على الكتلة الاشتراكيــــة المضادة

ومن الصعب عند هذا الحد الا تقفز الى المقــــارنة صراعات وتوازنات ما قبل الحرب الثانية . فمما يفرض نفسه على الباحث الجيوبولتيكى ، ذلك التشابه الكبير بين مواجهات ١٩٣٩ ومواجهات يومنا هذا ، رغم عناصر الاختلاف التى لا شبهة فيها كذلك . فمواجهــة الحرب الثانية بدأت بصدام دولة فى مرحلة الشباب ، متحرشة مستفزة تريد التوسع وتمجد القوة (المانيا) ، ودولــة فى مرحلة النضج حريصة اشد الحرص على مزاياهــا المكتسبة ولم تدخل الحرب الا مترددة مرغمة فى النهاية وبعد وصمة استسلام ميونيخ الشــهيرة (بريطانيا)

فبغض النظر عن الفروق الجذرية فى النظم الاجتماعية ما بين فاشية المانيا ورأسمالية بريطانيا وكل استعمار ،

وما بين راسمالية الولايات المتحدة الامبريالية واشتراكية الاتحاد السوفييتى ضد الاستعمارية ، فـان تحرش الولايات واستفزازها الراهن وعدوانيتها المسلحة من ناحية ، وحرص الاتحاد بأقصى درجات ضبط النفس على عدم التورط فى الصدام من ناحية اخرى ، يكرر اساسيات الموقف القديم . ومن ابرز استفزازات الولايات فى صميم المعسكر الشرقى حرب فيتنام ، وحلم الحرب الخاطفة ـ على نحو ما فعلت اسرائيل فى الشرق الاوسط ـ على المانيا الشرقية كجزء من حلم « تحرير ما وراء الستار الحديدى »

أبعد من هذا ، فان محاولة المانيا النازية المساومة مع بريطانيا (او العكس ربما) على حساب الاتحاد السوفييتى بمشروع هتلر بالانقضاض على الشيوعية ، هذه المحاولة تكرر فى معنى ما محاولة الولايات المتحدة فى أكثر من مناسبة فى السنوات الاخيرة التلويح للاتحاد السوفييتى بالمساومة على اقتسام العالم وتفادى الصدام بين العملاقين، وذلك على حساب العالم الثالث ، كبش الفداء الاساسى فى حالة مثل هذه الصفقة . واذا كان الاتحاد قد فضح العرض الامريكى ورفضه كقطعة مبتذلة من عصر الصفقات الاستعمارية المشبوهة ، فان هذا لا يغير من عناصر المقارنة ، كما أن فشل العرض النازى لم يمنع من وقوع الصدام

واذا كانت النازية بعد ذلك قد عادت فعقدت ميثاق عدم اعتداء مع الاتحاد السوفييتى ، فلم يكن هذا الا مناورة لكسب الوقت ريثما تنتهى من بريطانيا ، وبذا تتغدى ببريطانيا وبعدها تتعشى بالاتحاد . وهذا او شىء من هذا يكاد على الارجح أن يكون خط الولايات المتحدة اليوم . فمع استحالة الصدام مع الاتحاد بكل ما يحمل

من اخطار نووية ، ومع استحالة التواطؤ معه على مصير العالم واقتسامه مناطق نفوذ ، تجمدت المواجهة بينهما في اطار تكتيكي مؤقت هو التعايش السلمي الذى أصبح في خطتها وسيلة لا غاية ، وانعطفت هى لتتفدى أولا بالعالم الثالث ، وبعده يمكن للتوازن العالمي الكتلي أن ينقلب تمهيدا للعشاء الاخير والاكبر . وهذا ما ينقلنا الى المواجهة الحالية بين الولايات المتحدة والعالم الثالث

امريكا والعالم الثالث

شهدت السنوات الاخيرة مدا استعماريا متصلاوكاسحا على طول الجبهة الافريقية والاسيوية وعرضها ابتداء من غانا وغينيا حتى فيتنام واندونيسيا ،ومن مصر حتى الهند ، ترتب عليه جزر حقيقى فى حركة التحرير الوطنى لا مفر من الاعتراف به . ومن المسلم به ان انفجار العدوانية الامريكية بهذا العنف والشراسة انما يرجع أساسا الى ما أحست به من تعاظم المد التحريرى والثورة العالمية فى العالم الثالث وانحسار نفوذها فيه انحسارا هدد بان يكون كاملا . غير ان النتيجة تظل واحدة :فتحت مظلة التعايش السلمى المقول ، واستغلالا لتوازن الرعب النووى ، انطلقت الولايات المتحدة معربدة كالعاصفة ، هنا فى أضعف حلقات العالم ، لتصفى سياسة عدم الانحياز بسلاح الاستعمار الجديد

وكما تراوحت امبريالية اليانكى فى امريكا اللاتينية بين سياسة العصا الغليظة وحسن الجوار ، تراوحت فى العالم الاسيوى الافريقى بين سياسة ذهب اليانكى وسيفه ، أعنى بين سياسة المساعدات والقروض والمنح وبين مؤامرات المخابرات والانقلابات والغزو من الداخل . وقد نجحت

سياسة الاغراء والمعونات بالفعل فى اقتطاع بعض دول القارتين المتخلفتين الهشتين من فلك عدم الانحياز ،ولكن هذه الدول لم تكن منتمية حقيقة وباخلاص الى الخط التحررى الاستقلالى الا كشعار انتهازى ميسور

لكن الضربة الحقيقية التى نالت عدم الانحياز جاءت عن طريق العمل التخريبي والسرى تحت الارض ، حتى اصبحت الانقلابات الرجعية ، وبالتحديد العسكرية ، ابرز ملامح الفترة الاخيرة ، وكانت افريقيا خاصة هى موطنها الاساسى حيث شهدت سنة ١٩٦٦ وحدها ١٢ انقلابا معظمها يتركز فى غرب القارة ثم يقل فى وسطها ثم يزداد قلة فى شرقها ، حتى ليصح فى معنى ان يقال ان ١٩٦٦ هى سنة نكسة افريقيا حيث كانت ١٩٦٠ هى « سنة افريقيا » . الاولى ـ بلغة الفلك ـ كانت فصل الانقلاب حيث كانت الثانية فصل الاعتدال . وبذلك نجحت الولايات المتحدة فى ان تصدر الثورة المضادة بالجملة وان تجعل من افريقيا فى هذا الصدد امريكا اللاتينية الاخرى

اما حيث لم تجد سياسة المعونات أو الانقلابات ، فقد التجات الولايات الى اسلحة الضغط الاقتصادي والتجويع او الحرب النفسية والحملات الدعائية دائما ،والى العدوان المسلح المقنع احيانا . وكان تحديد استخدام هذه الاسلحة يتناسب تناسبا طرديا مع ضراوة الكراهية الامريكية والمقاومة الوطنية ، فوقفت عند حد الضغط الاقتصادى فى حالة الهند مثلا بينما وصلت الى حد العدوان العسكرى فى الشرق العربى حيث تخفت النجمة الخماسية(الولايات) وراء النجمة السداسية (اسرائيل) كما قيل

وهنا نلاحظ ان من يتتبع خطط الولايات المتحدة للسيطرة على العالم الاسيوى الافريقى أخيرا يكاد لا يملك الا أن يرى مبدأ مونرو يتوسع ويزحف ليشمل العالم

غير الشيوعي جميعا . فلقد بدأت الولايات مبدأ مونرو محليا ثم أخذت توسعه تدريجيا حتى طوق العالم الجديد ، وحين بدأت تتغلغل في العالم القديم وتطوق الشيوعية لم تكن خطواتها اكثر من توسيع مستتر لنفس المبدأ . فلم يكن حلف الاطلنطي او مشروع منظمة الدفاع عن الشرق الاوسط او سلسلة احلاف آسيا ، ولم يكن مبدأ ترومان ومن بعده مبدأ ايزنهاور واخيرا خطة جونسون الاسيوية ، لم تكن هذه جميعا ــ نكاد نقول ــ الا حلقات مكشوفة في سلسلة خفية هي عالمية مبدأ مونرو في الواقع . او على الاقل فانه يكاد يلوح ان الولايات تعتبر كل العالم خارج المعسكر الشرقي « فراغا » ضخما بالفعل والقوة ، وان « عبء الرجل الامريكي » هو ملء هذا الفراغ . ومهما يكن الراي ، فالامر المؤكد ان الولايات اصبحت نقمة العالم الثالث ، وان المواجهة بينهما اصبحت مبارزة مباشرة بين الاستعمار الجديد وعدم الانحياز على وجه التحديد، وهي مواجهة أبعد ما تكون عن التكافؤ أو العدالة

وحين وصل المد الاستعماري الى ذروته بضرب طليعة عدم الانحياز في مصر والوطن العربي ، بلغت صدمة العالم المتحرر اقصى مداها ، مما وضع على الفور كل فلسفة عدم الانحياز في ازمة مصير بل وطرح للمناقشة والتساؤل كل أساسيات ومسلمات التوازن العالمي الراهنة . فمغزى ما حدث أكبر بكثير من مجرد سلسلة من الانتكاسات اصابت حركة التحرير الوطني . فجوهر الموقف ان الولايات المتحدة قد استغلت التوازن النووي لصالحها الى ابعد حد ، اذ بينما كف الاتحاد السوفييتي يده تعقلا وانضباطا ، أطلقت الولايات المتحدة يدها بلا رادع أو خوف لكي تبتز الجنس البشري نوويا ولكي تحول السلام الذري الى السلام الامريكي

واذا كان من الصعب ان نقول ان الاتحاد السوفييتى ياخذ الان موقف الدفاع ، فالذى لاشك فيه ان الولايات على جانب الهجوم دائما . وبينما لا يملك الاتحاد ان يغامر بالرد النووى بالردع الشامل ، وجدت الولايات فرصتها الذهبية وسلاحها الفعال فى استراتيجية الرد المرن والحروب المحدودة الصغيرة المحلية او الاقليمية . ويساعد الولايات على ذلك وجودها العسكرى المنتشر فى عشرات القواعد حول العالم واساطيلها حاملة الطائرات في كل المحيطات، ولقد وصفت هذه الجزر الامريكية العائمة او الثابتة حول العالم بانها بحق الارمادا الامريكية او انكشارية العصر الحديث

والحقيقة ان الولايات المتحدة بوجودها العسكرى من قواعد واساطيل اصبحت جغرافيا وسياسيا « جارا » - غير مرغوب فيه - تشترك حدوده مع حدود كل دول العالم تقريبا ، ان لم تكن حقا قد صارت « شريكا » - طفيليا - لها فى وجودها ، وذلك بمخابراتها السرية وعملائها وتكنولوجيات التجسس .. الخ ، حتى قال البعض - يأسا او سخرية - أينما تكونوا تدرككم الولايات المتحدة !

والمهم ان لهذا كله عدة معان ومدلولات مباشرة وبالغة الخطورة ، أولها ان العالم الثالث أصبح يواجه عدوانية الامبريالية الامريكية المسلحة وحيدا شبه اعزل ، وذلك رغم مساعدة ومساندة الدول الاشتراكية القيمة سياسيا واقتصاديا . وبهذا عدنا أو كدنا بدرجة أو اخرى الى منطق وواقع القرن التاسع عشر واستراتيجية عصر الاستعمار التقليدى القديم . وفى هذه المواجهة بدات علامات تحول هام ، ولكنها غير ملحوظة بما فيه الكفاية وهى ان الاستعمار الجديد بدأ ياخذ بعض ملامح

الاستعمار القديم رغم انه ما قام اصلا الا ليدور حولها ، ونعنى بذلك استخدام القوة والاحتلال والجيوش والحروب السافرة كما فى فيتنام والشرق الاوسط .

وهذا يؤدى بنا الى نتيجة اخرى مثيرة وخطيرة ، وهى أن أكبر المنتفعين بالاستعمار الجديد اليوم هى بقايا الاستعمار القديم المتخلفة والتى يقع اغلبها فى حلقة الاستعمار العنصرى ابتداء من جنوب إفريقيا الى المستعمرات البرتغالية الى اسرائيل ، بل أن اسرائيل بخاصة وبالذات هى أكبر منتفع فى العالم بهذه المواجهة بين الاستعمار الجديد والعالم الثالث . لقد اصبحت هذه البقايا المتخلفة من الاستعمار القديم بمثابة النويات الصلبة أو العقد فى النسيج الغامر الخفيف للاستعمار الجديد

ثالثا ، اننا مع اسلوب الحروب المحدودة والاقليمية قد عدنا ـ فى صميم العصر النووى ـ الى منطق ماكيندر وعصر قوة البر والبحر . وهذا ان دل على شىء فانما يدل على ان الاستراتيجية المتنحية القديمة لم تزل تتعايش وتتعاصر مع الاستراتيجية الجديدة السائدة . نحن نعيش حاليا ورغم كل شىء فى ظل استراتيجية مختلطة بين رواجع الماضى وطلائع المستقبل بدرجة أو باخرى ، بين قطاع تقليدى وقطاع نووى ، اى بين ماكيندر وما بعد ماكيندر

وحين أعلن أحد زعماء الاتحاد السوفييتى من بضع سنين انه لم يعد للطائرات والاساطيل البحرية « فى عصر الصواريخ الذرية ، من مكان الا المتاحف الحربية ، فيمكننا الان أن نرى انه كان يتكلم من منطق الردع الشامل ، دون أن يتنبا بامكانية الرد المرن . لقد ظننا ان الاستراتيجية النووية قد نسخت الى الابد

الاستراتيجية التقليدية ، فاذا بتوازن الرعب النووي يضع الاولى في التجميد العميق كما قيل ، واذا بالثانية تعود ولو مؤقتا لتحتل الصدارة فى العمل العسكرى الحالى

والمعنى الرابع للموقف الحالى هو ان المد الاستعمارى يمكن ان ينطلق الى ما لانهاية حتى يبتلع العالم الثالث كله دون أن يصطدم بما يوقفه عند حد . وبهذا فان العالم الثالث هو أول ضحايا العصر النووى ، وهذا ابعد ما يكون عن الفكرة المبسطة التى تتوهم ـ هكذا على الاطلاق ودون تحفظ ـ انه كسب من عصر الصراع الكتلى استقلاله وكيانه . وعلى اية حال ، فليس ثمة شك فى أن من سوء حظ العالم الثالث أن العصر النووى لم يتأخر بضعة عقود عما حدث بالفعل ريثما يكون قد استكمل قواه الذاتية قبل ان يحاصر بين شقى رحى الشلل النووى من ناحية والابتزاز النووى من الناحية الاخرى . فمن المؤسف بالتأكيد ان عصر التحرير الوطنى لم يكد يبدأ بعد انتهاء عصر احتكار القوة فى العالم حتى كان العصر النووى ـ بمصادفة تاريخية بحتة ـ قد بدأ ، فما لبث أن القى بظلاله وأخطاره على حركة التحرير الوطنى فأصابها بالجمود والاضطراب ولا نقول الشلل

المعنى الخامس والاخير هو اننا قد وصلنا الى مفارقة صارخة للغاية ، وهى انه فى العصر الذى ظننا فيه استراتيجية السياسة العالمية ثلاثية الابعاد والاركان لاول مرة فى التاريخ بحيث زال احتكار القوة المطلق الذى عرفته كل المراحل السابقة على القرن الحالى ، فى هذا الوقت أصبح أحد هذه الاركان ، وبالتحديد قطبه الامريكى ، يتمتع بسيادة عالمية أحادية شبه مطلقة ترجح كثيرا كل ما عرفته بريطانيا مثلا فى أوج عصر احتكار القوة ، فاذا به بالفعل أو بالقوة يحكم من العالم

أقله ويتحكم تقريبا فى أغلبه

ولابد للباحث الموضوعي ان يعترف ، مؤقتا او ظاهريا على الاقل ، اننا بمنطق غريب بل معكوس نعيش او نكاد نعيش منذ الحرب الثانية قرن الولايات المتحدة ، واننا نكاد نشهد الان عصر « أمركة » العالم ـ سياسيا كما هو حضاريا ـ بعد أن عشنا عصر « الاوربة » فى القرن الماضى . واذا كان ٤ ٪ من مساحة العالم فى غرب أوربا قد نجحت حتى القرن الماضى فى السيطرة على ٩٦ ٪ من مساحة العالم فان ٦ ٪ من سكان العالم هم سكان الولايات المتحدة يهدفون فى هذا القرن كما يبدو الى السيطرة على ٩٤ ٪ من سكان هذا الكوكب . والخطر الكامن فى هذاانه اذا استمرت الاتجاهات الانزلاقية والنكوصية القائمة بلا توقف ـ هذا مجرد فرض بحت ، سنرى حالا أنه مستحيل عمليا مع ذلك ـ فان عصر السيادة العالمية للامبريالية الامريكية ـ ستكون كما ينذر البعض على مرمى البصر

عدم الانحياز فى التطبيق

من كل هذه الحقائق الخطرة والنتائج المقلقة ، جاء رد الفعل فى صورة تفكير راديكالى وحاسم فى حقيقة ودور العمودين الفقريين فى بناء استراتيجية السياسة العالمية الراهنة وهما التعايش السلمى وعدم الانحياز . وهناك تداخل بينهما وثيق ، لكنه انساح الى حالة من الخلط الفضفاض . فالتعايش السلمى نشأ كصيغة حياة modus vivendi بين نظامين ايديولوجيين متناقضين فى معسكرين سياسيين جبارين ، وذلك منعا للتصادم القاتل بينهما . أما عدم الانحياز فنشأ كصيغة عمل m. operandi لتنسيق التعامل معهما من جانب طرف ثالث صغير يعتبر نفسه محايدا بينهما حيادا ايجابيا

ومن حيث التوزيع الجغرافى قد يمكن ان نميز بينهما ـ تبسيطا ـ فنقول ان التعايش السلمى يتوطن العروض المعتدلة ويكاد يتقاسمها مناصفة ، اما عدم الانحياز فظاهرة مدارية أساسا ويكاد يغطى المداريات عموما . اما تاريخيا فقد نشأ عدم الانحياز فى ـ وبفضل ـ مناخ اشتدت فيه الحرب الباردة ، وفى هذا المناخ وبفضله ايضا استطاع ان يلعب دورا هاما فى مخاض التعايش السلمى ودفعه وتنميته . هذا هو الاصل فى كل من التعايش السلمى ودفعه وتنميته . هذا هو الاصل فى كل من التعايش وعدم الانحياز ، تاريخيا ومبدئيا

ولكن الذى حدث الان أننا فيما يرى البعض ـ ونحن هنا نعرض لكل الاراء موضوعيا ـ وصلنا الى صورة معكوسة كثيرا أو قليلا ، ظاهريا أو مؤقتا . فبدلا من التناقض بين طرفى التعايش السلمى ، بدا التناقض كما لو كان بين التعايش السلمى وعدم الانحياز ، حتى ليظن أن التعايش السلمى انما يعيش اليوم على حساب عدم الانحياز أو ان التضحية بعدم الانحياز هى الثمن الوحيد لبقاء التعايش السلمى . وبدلا من العكس ، عوقب عدم الانحياز من جانب التعايش السلمى على دفعه له ، واصبح وسيط السلام هو جبهة الصدام وضحية العدوان ، وبدل ان يوجه نطاق الاحلاف العسكرية الغربية المضروب حول المعسكر الشرقى اصبح باستثناء وحيد فى جنوب شرق آسيا (فيتنام) يوجه الى ضرب دول عدم الانحياز (الشرق الاوسط خاصة)

اكثر من هذا ، وبعد ان كان العالم الثالث ياخذ موقف عدم الانحياز بين طرفى التعايش السلمى ، بدا كما لو كان احد هذين الطرفين ياخذ ـ من وجهة النتائج العملية على الاقل ـ موقف عدم الانحياز بينه وبين الطرف الآخر

بمثل ما ان الطرف الاخر قد نقل بالفعل حربه الباردة بل الساخنة من نظيره المقابل الى العالم الثالث وعدم الانحياز . وبهذا وذاك بدا كما لو ان تعايش الكبار انما يتم على حساب الصغار . بل ذهب البعض الى حد القول بانه لولا عدم التكافؤ المطلق فى الحجم والوزن ،ولولا ان العالم الثالث جسم غير متجانس متفكك ومبعثر ،لجاز اعتبار الاستقطاب الثنائى الراهن استقطابا بين الامبريالية او بالدقة الامبريالية الامريكية وبين عدم الانحياز ، بين « العالم الحر » وبين العالم الثالث

واذا نحن تمعنا هذهالنظرة ــ التى دفعهاواشاعها بقوة وحدة عدوان يونيو الصهيونى الامبريالى على العرب ــ لوجدناها سلاحا ذا حدين فى الحقيقة ، فجانب منهما بالتاكيد صحيح الى حد بعيد ، ولكن جانبا آخر ادخل فى بابالسياسة الدعائية منه فىعلم السياسة . فالامبريالية الامريكية وعملاؤها تريد ان تثبت بعدوانها عجز عدم الانحياز الذاتى وخواءه وتهافته الشديد ، وفى نفس الوقت تريد ببعض هذا التفسير ان تثبت اما عجز واما تخلى الاتحاد السوفييتى عن حمايته ، وبهذا تدق اسفينا فى العلاقات بينهما حتى يعزل الاول عن الثانى فيعود العالم الثالث الى حظيرة السيطرة الغربية كالثمرة الناضجة . وعقدة السياسة الامريكية الحاكمة اليوم ــ وهذا قمة غرور القوة ــ هى انها تريد ان تثبت للعالم كله ، وتريد للعالم الثالث خاصة ان يدرك ، انها وحدها هى التىتمنح او تمنع ، وهى وحدها لا شريك لها التى تمسك بزمام ومصير كل ازمة وموقف

هذا تفسير ممكن ولكنه مرفوض للمناقشة الحادة السابقة عن التعايش وعدم الانحياز . وبالمثل فان بعض هذه المناقشة يمكن ان يؤول على انه لا امل للعالم الثالث

فى مساندة الكتلة الشرقية له مساندة كاملة فى وجه الاخطار التصادمية الا بالقاء نفسه فى احضانها ، وبذلك يتخلى عن عدم انحيازه اصلا واساسا. وهذا المنطق كله وان اعترف ابتداء بعدوانية الغرب وصداقة الشرق ، يصور الموقف فى الحقيقة على ان الخيار امام عالم عدم الانحياز هو اما بين عدو قادر وصديق عاجز فى الحالة الاولى ، واما بين عدو قادر وصديق طامع فى الحالة الثانية . فهل هذا صحيح علميا وموضوعيا ؟

ثمة ـ ابتداء ـ عدة مسلمات . لا احد يود لاى سبب ان يرى « القيامة النووية » ـ كما يسمونها ـ وهى لن تقوم على اية حال حتى لو سقط العالم الثالث كله فى قبضة الاستعمار الجديد . ولهذا لا يجوز ان يعد الانضباط ازاء اخطارها تخليا أو عجزا ، وليس لهذا الاتهام اذن اساس علمى او واقعى . ومن هذه الزاوية ، فليس هناك من يدعو الى انهاء التعايش السلمى . ولكن التعايش السلمى لايمكن ان يكون من طرف واحد ، كما انه اذا كان مفهوما بين الاشتراكية والراسمالية فانه لا يمكن ان يكون بين الاشتراكية والاستعمار . وأهم من ذلك أن التعايش السلمى لا يمكن ولا يجب أن يتحول الى تعايش استسلامى

ثانيا ، لاشك فى عدوانية الامبريالية الراسمالية ، وبخاصة الامبريالية الامريكية الباطشة الطامعة . ولا شك ـ بالمقابل ـ فى صداقة الدول الشرقية ، وعلى راسها الاتحاد السوفييتى ، صداقة مخلصة بلا اطماع . وقد اثبتت ذلك التجربة بما لايدع مجالا لشك او خوف . ومن هنا ، فان سياسة عدم الانحياز لم تستنفد اغراضها ولم تتجاوزها المرحلة ولابد ان تبقى ، غير انه يتعين عليها اساسا ان تفرق بحسم قاطع بين الاعداء والاصدقاء

ثالثا ، وفى النتيجة ، فان هناك وحدة كفاح اساسية

ومصيرية بين دول الثورة الاشتراكية ودول التحرير الوطنية والصراع النهائى اذن هو بين الثورية العالمية فى جانب والامبريالية العالمية فى الجانب الاخر . ومن ثم فلا تعارض حقيقى بين عدم الانحياز وبين التعايش السلمى، الا ان من الضرورى ايجاد صيغة عملية فاعلة للترابط والتنسيق بينهما فى وجه الخطر المشترك الذى يهددهما معا . ومن هنا ينبغى ان نبدأ ، وسنبدأ

ان من الواضح ان الامبريالية الامريكية تزحف بالتدريج على العالم الثالث ، وهناك من يرى انها بحروبها الاقليمية المحدودة هنا وهناك تمارس في الحقيقة حربا عالميه « بالقطاعي » ، بل هناك من يخشى ان تكون الحرب الثالثة قد بدات دون ان نشعر (أ) وان الصراعات والغزوات الاستعمارية الراهنة ليست الا مدخلها ، مثلما كانت الحرب الاسبانية مدخلا الى الحرب الثانية

ومن الواضح كذلك ان « العالم الثالث » اذا كان هدفا مباشرا لضربات « العالم الاول » الان ، فانما هو جسر ومرحلة على الطريق الى الهدف الاكبر والاخير وهو « العالم الثانى » . وهنا نجد من يعود الى التشبيه بمقدمات الحرب الثانية فيخشى ان الامبريالية الامريكية انما تستغل التعايش السلمى مع الاتحاد السوفيتي كهدنة مسلحة وكخدعة سياسية ، مثلما نظرت المانيا النازية الى ميثاق عدم الاعتداء معه هو نفسه من قبل . بل هناك من يتمنى ــ ابعد من ذلك ــ الا تكون قصة المواجهة ابتداء من كوبا الى فيتنام الى الشرق الاوسط تذكرة بمأساة ميونيخ من قريب أو بعيد . ولذا فهم يلحون على انه لا يجوز ان تتكرر التجربة المريرة

وسواء كان التشبيه سطحيا خداعا ــ وما اكثر ماتخدع المقارنات التاريخية ــ او كان ممعنا فى التشاؤم ، فالذى

لاشك فيه انه لابد من وحدة العالمين الثانى والثالث فى وجه الاطماع الكوكبية للعالم الاول . وهى وحدة حرب اساسا وحرب دفاعية بصورة مباشرة ، وقائية فى حقيقتها فى النهاية . واذا كان العالم الثانى سيدافع فيها عن العالم الثالث ، فهو انما يدافع عن نفسه فى الحقيقة ، وانما اليوم بدل الغد . ان سقوط العالم الثالث ــ فرضا ــ فى قبضة الاستعمار الجديد اليوم هو بمثابة عودة الى نمط وتوازن ١٩٤٥ حين كان المعسكر الشرقى وحيدا معزولا يسهل تطويقه وضربه

ولكن ، هل يمكن ان تعد مثل هذه الوحدة الاستراتيجية بين العالم الثالث والعالم الثانى ــ كما يرجف البعض أعداء وعملاء ــ انحيازا من جانب عدم الانحياز ، اى نفيا لجوهر عدم الانحياز ذاته ؟ الرد العلمى بالنفى ، فان هى الا وحدة عمل استراتيجية ، وليست وحدة أيديولوجية ، ليست وحدة ايديولوجية اكثر مما كانت وحدة الصراع بين الشيوعية والراسمالية ضد النازية فى الحرب الثانية . . واذن ، فليس هناك اعتراض ايديولوجى على العمل الموحد ضد الاستعمار

اما صيغة العمل الموحد هذا بين العالمين الثانى والثالث ، فلا تخرج عن احدى وصفتين : اما الحروب الاقليمية المحدودة ، واما حروب التحرير الوطنى . فأما الحروب الاقليمية فان هناك ما يدل ــ هذا أعلن بالفعل ــ على أن الاتحاد السوفييتى بدأ أخيرا يبلور لنفسه استراتيجية جديدة تقابل الحروب المحدودة بمثلها ، وذلك فى ظل استحالة الردع الشامل . ولقد كانت الولايات المتحدة اسبق من الاتحاد الى اكتشاف حل المعادلة الصعبة هذه والى «اختراق الحاجز النووى» يدفعها الى ذلك طبيعة الاستعمار الجديد العدوانية ، ويشجعها عليه استهتارها

باخطار التصعيد فى الصراع ، ويمكن لها امتيـــــازاتها العسكرية الجاهزة من قبل والتى تتمثل فى قواعدها حول العالم

فمنذ أوائل الستينات ادركت الولايات تماما ان توازن الرعب النووى قد جمد استراتيجية الردع الشـــامل ، فسارعت وتبنت استراتيجية الرد المرن والحرب المحددة، باعتبارها استراتيجية الاستعمارالجديدبالضرورةوالامتياز فى العصر النووى . ولهذه الاستراتيجية نمت كل اسلحتها الطبيعية التى تعتمد اساسا على اقصى تكنولوجيات الكفاءة ولوجستيات السرعه ، والتى تتمثل فى القوات الامفيبيـــة (مشاة الاسطول) وقوات المظليين (فرسان الجو) الى جانب القواعد الثابتة (حاملات الطائرات التى لا تغرق) والقوائد العائمة (حاملات الطائرات والغواصات)

ولقد سجلت السنوات الاخيرة زيادة هائلة فى قــوات الولايات من هذه الطرز المتخصصة ، فى الوقت الذى كان الاتحاد السوفييتى لا يزال يعتمد أساســـا ــ الى جانب الترسانة النووية بالطبع ــ على اسلحة الحـــرب البرية التقليدية التى تلائم أستراتيجيته الكلاسيكية الدفاعيـة الخاضعة كما نعرف لجغرافيته القارية الاوراســـــية المتصلة والحبيسة . وبهذا كانت تنقصه أساسا الاسلحة التقليدية غير النووية لاستراتيجية حروب ما وراء البحار . وهذا وان اتفق تماما مع طبيعته غير الاستعمارية ، فانه لم يعد يتفق الان مع صراعاته ضد الاستعمارية . وتلك بالدقة هى الفجوة التى استغلتها الولايات المتحدة لتضرب بحرية فى العالم الثالث ولتحقق مد الاستعمار الجديد الذى بلغ أوجه فى معركة الشرق الاوسط

غير أن الاتحاد اكتشف اخيرا وبدوره المصل المضـــاد لاستراتيجية الرد المرن : فلا يفل الحرب المحدودة الا

الحرب المحدودة . ومن هنا اتجه بوضوح تام ومرونة وسرعة نادرتين الى الإستعداد للحروب الصغيرة عبر البحار ، باعداد قوة بحرية للتدخل السريع في العمليات الخارجية ، تشكل قواعد عائمة عبر البحار كبديل عن القواعد الثابتة التي تميز الاستعمار

وقد بدات أولى ارهاصات الخروج البحرى في الحقيقة منذ نهاية الحرب الثانية حين اخذ الاتحاد السوفييتى ينمى لنفسه قوة بحرية قياسية لم يعرفها من قبل ، حتى وصل اليوم الى المرتبة الاولى في الاسطول التجارى والثانية في الأسطول الحربى ، وفى هذا الاخير وصل باسطول الغواصات بالذات ـ ولهذا مغزاه الجغرافي الكبير ـ الى ضعف قوة الولايات المتحدة أو مايربو على كل قوة حلف الاطلنطى مجتمعة . اما اولى علامات التحول الاستراتيجي الدال الجديد ، فقد ظهرت اخيرا منذ بعض الوقت في بناء حاملات الطائرات لاول مرة ، ثم في تشكيل مشاة البحرية لاول مرة كذلك ، ثم في تنمية فرسان الجو على أوسع نطاق ، مع كل ما يعنى هذا من تكنولوجية ولوجستية . وقد انعكس هذا كله في خروج الاسطول السوفييتى الى البحر المتوسط حيث اصبحت له نواه متنامية في حوضه الشرقى متعامد على ، وتقطع في صميم ، نطاق احلاف الغرب . وبوازن الاسطول الامريكى السادس وتلغى احتكاره وتنفى عنه صفة « البحيرة الامريكية »

والشيء الجدير بالملاحظة في هذا كله ان هذه الاستراتيجية الجديدة تتجه بالاتحاد ـ كما تنبأ ماكيندر من قبل ـ الى أن يكون قوة برمائية أكثر من اى وقت مضي . كذلك فان هذا الاتجاه يتفق تماما مع ما وجدناه من أن العودة الى الحرب المحلية المحدودة في ظل الشلل

النووى ، يعود بالاستراتيجية العالمية بصورة ما الى نمط ومنطق ماكيندر القديم المتنحى اساسا . واخيرا فالمرجح ان عصر الدينامية العدوانية الامريكية بلا رادع قد حانت نهايته . وربما يصنف مؤرخ المستقبل الاستراتيجي تاريخ الصراع العالمى فى العقود الاخيرة الى ثلاث مراحل : مرحلة حروب عالمية تقليدية انتهت بالحرب الثانية ، مرحلة شلل نووى عام ، ثم مرحلة حروب تقليدية ولكنها غير عالمية بل محدودة ومع ذلك لا حد لها وذلك حين يضع الاتحاد السوفييتى استراتيجيته الجديدة موضع التنفيذ

هذا جميعا عن الحروب الاقليمية المحدودة كخط فى صيغة العمل ضد المد الاستعمارى . اما عن حروب التحرير الوطنى ، فهذه مسئولية دول العالم الثالث نفسها اساسا بالاشتراك مع حلفائها الطبيعيين . وعليها هنا أن تعمل اساسا لكى لا تفلت قضاياها التحريرية من قبضتها وسيطرتها هى لتصبح موضع تسويات القوى الكبرى او كجزء من كشف حساب الحرب الباردة عامة . وتقسيم العمل فى هذا النضال واضح بما فيه الكفاية : الحد الاقصى من السلاح الشرقى ، فى يد الحد الاقصى من القوات الوطنية . فمن الواضح ان اخطر مناطق العدوانية الامبريالية فى العالم الثالث هى فى الحقيقة اخطر مناطق التسليح الغربى كما أثبتت حرب الشرق الاوسط حيث ظهرت اسرائيل كترسانة امريكية مسلحة حتى الاسنان . ويمكن بغير مبالغة فى هذا الصدد أن نضع معادلة عالمية تتالف من عدة متتاليات اقليمية تختزل اساسيات الصراع المستقبل :

- مصير الامبريالية العالمية يتوقف على مصير العالم الثالث
- مصير العالم الثالث يتوقف على مصير العالم العربى
- مصير العالم العربى يتوقف على مصير فلسطين/اسرائيل

وتفصيل هذا او تفسيره ان العالم الثالث يمثل اليوم نقطة الارتكاز fulcrum بين ذراعى القوة والمقاومة فى الصراع العالمى بين الغرب والشرق ، فاذا امكن صد المد الامبريالى فى العالم الثالث وانحسر عنه الى جزر نهائى ، فان الميزان سيتارجح وينقلب نهائيا ضده او فى غير صالحه . ولكن العالم العربى هو الجبهة الامامية والطليعة الحرجة فى العالم الثالث ، ونتائج الصراع فيه تنعكس عليه مباشرة ان سلبا أو ايجابا . واخيرا فان محور الصراع وبؤرة الحرب ومعقل الامبريالية فى العالم العربى بدوره انما هى القاعدة الاستعمارية الصهيونية . وقد كانت نكسة يونيو ١٩٦٧ هى بلا شك قمة الزحف الاستعمارى فى العالم الثالث كله ، سعى اليها بالتدريج من اطرافه حتى وصل الى قلبه ، وانكسار هذه القاعدة الاستعمارية يمكن بالمقابل أن يكون نقطة الانكسار فى كل مسار الزحف الامبريالى فى العالم الثالث . ونفس انكسار تلك القاعدة هو وحده الذى سيفتح الطريق الى الوحدة العربية التى ــ وحدها أيضا ــ ستثبت قيادة العالم العربى فى العالم الثالث

ولذلك كله فنحن نعتقد أن مصير اسرائيل الصهيونية سيحدد فى نهاية المطاف مصير الامبريالية العالمية ، فما دامت اسرائيل باقية فانالامبريالية ستظل مقيمة لا تريم فى العالم الثالث ، ولكن يوم تزول اسرائيل فسوف تكون تلك بداية النهاية المطلقة للامبريالية . وما نظن ذلك من المبالغة فى شىء ، بل لعله أن يفسر وحدة المصالح والمصير المطلقة بين اسرائيل والولايات المتحدة ، بل لعل شيئا لا يؤكده كما تؤكده تصريحات زعماء الولايات المتحدةنفسها من أن ضمان بقاء اسرائيل يمثل مصلحة بقائية للولايات نفسها ، وهو ما يؤكد كذلك ما قلناه من قبل من ان

الصـــهيونية أعلى مراحل الامبريالية والاستعمار ، وهو ما يتفق اخيرا مع الحقيقة المسلم بها وهى أن مشكلة فلسطين هى اعقد واخطر مشكلات عصرنا جميعا

ومن المنطقى بعد هذا كله ان نقول انه لما كان مصـير الصراع العربى ـ الاسرائيلى سيتوقف أساسا على قوة مصر خاصة من بين العرب ، بمثل ما أن مصير الامبريالية العالمية سيتوقف على مصير اسرائيل ، فان مصير عـدم الانحياز والعالم الثالث سيتوقف فى التحليل الاخير على مصير مصر بالدقة . وليس فى هذا غرابة ولا جديد ، اذ من المسلم به ان مصر كانت منذ البداية القوة الركن فى هذا العالم والقطب الرائد فى ذلك الخط ـ دون أن يقلل هذا، مع ذلك ، من الدور النضالى الذى يمكن ويجب أن تلعبه كل وحداته ومناطقه . ويوم تنجح مصر والعرب فى ازالة الاستعمار الاسرائيلى ، فسيكون ذلك شهادة ضمان نهائية للعالم الثالث وعدم الانحيـاز ، وفى نفس الوقت صـك زعامتهم فيهما

ويترتب على هذا ايضا أن القطبين النهائيين فى الصراع بين الامبريالية والعالم الثالث هما على الترتيب الولايات المتحدة ومصر . ولا جديد ايضا ولا غرابة فى هذا ، فكل منهما يلخص زعامة مجموعته ، الى جانب انه يفسر تركيز العدوانية الامريكيـة على مصر بالذات . وهـذا العداء الضارى ، اذ يقوم بين اقدم دولة هامة فى التاريخ وبين احدث دولة هامة فى التاريخ ، كان من الممكن أن يعد مؤسفا وغير مفهوم مثلما هو غير متكافىء ، لولا أن قـد فرضته الاخيرة فرضا غير مفهوم وغير عادل . ولكن هذا التحدى ومثله يؤكد لنا ويعود بنا الى ماسبق أن اشرنا اليه عن مسئولية العالم الثالث كله نحـو نفسـه ، وان الضمـان الحقيقى والاخير لاستقلاله وبقاء عدم الانحياز ، فى وجه

اى خطر حقيقى او مزعوم غربا كان او شرقا ، هو القوة الذاتية القادرة بمستويات العصر ومقاييسه

ثم سؤال هام يثور هنا : هل يؤدى هذا الصدام والعداء ، كما روج وتخوف الكثيرون منذ حرب الشرق الاوسط خاصة ، الى قطيعة نهائية وعداء ابدى بين العالم الثالث والغرب او بين العالم العربى والولايات المتحدة ، والى تكريس للحقد والانتقام الامريكى بخاصة ، بما يعنى ذلك من احتمال فقدانهم مستقبلا كمصادر للمعونة فى عصر يحكمه العلم والتكنولوجيا كما لم يحدث من قبل ، ويحكمون هم ناصيته كما لم يحدث أيضا من قبل ؟ التساؤل فى ذاته وجيه بعيد النظر ، وجدير بكل اهتمام ، ولكن الاستغراق فى مثل هذا المنطق وتغليبه فى مرحلة مصيرية تحدد وتهدد الوجود ذاته يمكن أن يكون مدمرا ، كما أن مثل هذه المخاوف تجهل او تتجاهل طبيعة العلاقات الدولية الحاكمة

ولتوضيح هذا نقول ان الاستسلام للعدوان لا يزيد المعتدى الا طغيانا وانتقاما ، بينما ان المواجهة الصلبة الى أن تتكسر موجته ترغمه فى النهاية على التعقل واعادة العلاقات على أساس الاحترام المتبادل والأخذ والعطاء ، لا سيما مع وجود منافسين — من الغرب نفسه — على استعداد دائما لملء الفراغ . وتطور علاقة الاستعمار البريطانى والفرنسى فى العالم العربى مثلا بعد خروجهما منه ورغم تاريخهما المفعم فيه ، دليل قاطع

ان القلق من طغيان الولايات المتحدة ومن سياسة القوة التى تفرضها على العالم ، قد بدأ يمتد الى حلفائها فى غرب أوربا أنفسهم ، وبدأت تستشعر باطراد نوعا ما من العزلة الباردة فى سياستها العالمية ، ولا يستبعد بعض المفكرين أن يكون رد فعل الولايات اذا تفاقمت موجة

الكراهية والرفض ضدها أن تنسحب الى قدر ما من العزلة ، ليست كعزلتها التاريخية بالتأكيد ، ولكن بما يتسق مع العصر النووى . والواقع أن العالم القديم لم يكن أحوج منه اليوم الى مبدأ مونرو عكسى يبعد العالم الجديد عن التدخل فى شئونه !

والخلاصة باختصار ان احتمالات المستقبل فى العلاقات بين الولايات المتحدة والعالم الثالث ، وبينها وبين العالم العربى خاصة ، لا يمكن التنبؤ بها بدقة وقطع فى المدى البعيد ، ولكنها فى جميع الحالات لا يمكن أن تؤرق الثورة على الامبريالية اليوم ، ولا ينبغى لها أن تدفع بها الى أن تبيع واقع الثورة التحريرية من اجل وهم الثورة التكنولوجية . فمثل هذه المساومة او الصفقة لن تعنى فى الظروف الراهنة سوى الاستسلام وبالتالى فقدان التحرر والتكنولوجيا معا والى الابد ، بينما ان الصمود والمقاومة الآن جديرة بكسبهما معا والى الابد

فهـــرس

صفحة

رقم الإيداع

٩٧٨٥ / ٩٩

I . S . B . N 977-01-6269 -8

طبعة خاصة بدار الهلال

لمكتبة الأسرة

بالاشتراك مع الهيئة المصرية العامة للكتاب

المعرفة حق لكل مواطن وليس للمعرفة سقف ولا حدود ولا موعد تبدأ عنده أو تنتهى إليه.. هكذا تواصل مكتبة الأسرة عامها السادس وتستمر فى تقديم أزهار المعرفة للجميع. للطفل - للشاب. للأسرة كلها. تجربة مصرية خالصة يعم فيضها ويشع نورها عبر الدنيا ويشهد لها العالم بالخصوصية ومازال الحلم يخطو ويكبر ويتعاظم ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة... وأنى لأرى ثمار هذه التجربة يانعة مزدهرة تشهد بأن مصر كانت ومازالت وستظل وطن الفكر المتحرر والفن المبدع والحضارة المتجددة.

سوزان مبارك



مكتبة الأسرة
مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٩

٣٠٠ قرش